
بيرل باك
تعريب
منير البعلبكي
الأرض الطيبة

بيرل باك
الحائزة على جائزة نوبل للآداب

الأرض الطيّبة

تعريب
منير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

The Good Earth

by

Pearl Buck

الطبعة الأولى ، تشرين الأول ١٩٦٠

الطبعة الثالثة ، نيسان ١٩٧٣

مقدّمة

على الرغم من أن بيرل باك ولدت كاتبة وانه كان لا بد لها من أن تعكف، عاجلا او اجلا ، على الكتابة ، مهما ألم بها ، فقد استثيرت للافـــادة مـــن مواهبها ، افادة كاملة ، من طريق أحداث خارجة عن ذات نفسها · فما ان أطلت سنة ١٩٢٧ ، وبيرل باك انذاك مدرسة للانكليزية في جامعة نانكينغ ، حتى كانت قد عاشت سنواتها الخمس والثلاثين كلها الا قليلا منهـــا في الصين ، وحتى كانت تتكلم وتكتب بل وتحلم ايضا باللغة الصينية ، وتعتبر الصيـــن وطنا لها · ولكن القلاقل التي عقبت موجة كراهية الاجانب ، عام ١٩٢٧ ، جعلتها تدرك انها اجنبية عن أبناء الصين على نحو لا برء منه · واذ وجدت انه لن يجاز لها منذ اليوم ان تشارك مشاركة طليقة في الحياة التي تحيط بها فقد اشتدت رغبتها ، كما لم تشتد من قبل ، في ان تحيا تلك الحياة برواية القصص عنهـــا · فلعلهـــا ، وقد أقصيت عن عالمها ، ان تفزغ هذا العالـــم في كلمات ·

وهكذا كتبت ونشرت ، في مدى أربع سنوات ، كتبا أربعة كانت رواية « الارض الطيبة » هي ثانيها · وما ان نشرت هذه الرواية ، في اذار (مارس) ١٩٣١ ، حتى حظيت بنجاح سريع ضخم · ومنذ ذلك الحين وهي تطبع ويعاد طبعها على نحو موصول في أرجاء الارض كلها، وتترجم ويعاد طبعها مترجمة في مختلف اللغات حتى أمست جزءا من التراث الكلاسيكي العالمي ، بل حتى أمست اشهر رواية اطلعها العصر الحديث ، وكتاب الشعب الحقيقي عنـــد الشعوب كافة ·

وفي البدء ذهب النقاد مذاهب خاطئة غريبة في فهم الكتاب الذي لا يعدو

أن يكون في الواقع نموذجا لابسط أنواع القصة القويمة التي تقول ما تعني ، وتعني ما تقول · وأذكر اني كنت جالسا الى جانب السيدة « باك » في مأدبة أقامتها على شرفها ، في مدينةنيويورك ، احدى الجمعيات التي تحب أن ترى في آسية لغزا من الالغاز · فتحدث أحد الخطباء عن الصوفية الصينية في « الارض الطيبة » · فمالت السيدة « باك » على أذني واعترضت قائلة ان الصينيين ليسوا صوفيين وانهم تركوا التصوف لشعوب آسيوية أخرى · وأطرى خطيب آخر أسلوبها التوراتي · فهمست في أذني قائلة انه ليس في اسلوبها شيء من التوراتية ، وان كلما فعلته هو انها نسجت روايتها على منوال القصة الصينية · واعتبر خطيب ثالث ان من المفروغ منه ان السيدة «باك» قد اختارت الصين مسرحا لروايتها والصينيين أبطالا لها ، عامدة متعمدة ، بسبب من الفرصة التي يتيحها لها هذا الاختيار لتعريف البلاد الصينية والشعب الصيني الى أبناء الجانب الآخر من الكرة الارضية · حتى اذا نهضت آخر الامر للرد على هذه المدائح الخاطئة أعلنت انها لم ترو في كتابها هذا قصة اسرة صينية الا لانها عرفت الحياة الصينية أحسن مما عرفت أي شيء آخر ، ولانها لم تكن تجيد غير ذلك ·

واذا كان بعض قراء « الارض الطيبة » الاوائل قد وجدوا فيها شيئا من غرابة فمرد ذلك الى ان القراء كانوا غرباء عن أبطال الرواية وعن مسرح أحداثها ، لا لان الابطال كانوا غريبين · والحق ان «الارض الطيبة » سرعان ما جعلت رجالها ونساءها « مألوفين » عند جمهور الناس في الولايات المتحدة وكأنهم جيران · ان مارك توين قد علم الاميركيين على اختلاف طبقاتهم ، بكتابه « هاكيليبري فين » Huckleberry Finn أن يانسوا الى الحياة على ضفاف المسيسيبي · وهيرمان ميلفيل قد علم الاميركيين المقيمين على ظهر اليابسة ، بكتابه « موبي ديك » ، Moby Dick أن يأنسوا الى الحياة على متون السفن في مجاهل المحيط الهادىء · وكذلك وسعت بيرل باك الخيال الاميركي أيضا فجعلت من القصة التي تجري حوادثها في الصين شعبة محببة من شعب الرواية الاميركية ·

وفوق هذا ، فقد وصلت « الارض الطيبة » الى اميركة والقارات الاخرى في فترة من فترات الازمة الاقتصادية العالمية · وكانت هذه الازمة قد مست حيوات الناس في كل مكان · وحتى في البلدان التي لم يعش أهلها مهددين بخطر مجاعة مباشرة ، كتلك التي تحدثت عنها بعض فصول هذه الرواية ، رأى الناس ان انظمة حيواتهم المعقدة قد انهارت ، وربما الى الابد

في ما خيل اليهم • ولم يكن ثابتا أن الارض وحدها ، من دون الاشياء جميعا ، هي التي سوف تبقى • والواقع ان تعطش وانغ لانغ الى الارض ، وتشبثه الحماسي بها حال احرازه اياها ، استقبلا بتفهم عاطف في بلاد العالم كلها • ان هذه القصة الصينية ، المفعمة بالصبر والاستسلام الاسيويين، قد تلقي ضوءا على المستقبل • لقد تطلع أبطالها الى حظ سعيد ، ولكنهم لم يتوقعوا الفوز به الا بشق النفس • لقد نشئوا على العيش كما عاش اباؤهم من قبلهم ، وكما سيعيش أبناؤهم من بعدهم • وفي أوروبة ، ومن باب أولى في أميركة ، كان ثمة اعتقاد عميق الجذور بأن المستقبل يجب دائما أن يكون أفضل • ولعله أن لا يكون كذلك أبد الدهر • ولعل الانسانية قد بلغت نهاية حقبة من حقب تاريخها ومن أجل ذلك يتعين عليها ان تفيء الى ايقاع قديم كأيقاع الصين القديمة •••

وواضح ان « الارض الطيبة » يجب أن تذكر دائما وتكرم بوصفها الرواية العظيمة لتلك الازمة الاقتصادية العالمية الكبرى • انها جزء خالد من تاريخ العصر • ولكن الرواية لم تتأثر الا قليلا بالتغيرات التي أحدثتها الانتفاضة العالمية التي تلت • فهناك ملايين من بني الانسان الذين لا بد ان تبدو قصة وانغ لانغ وأسرته لاعينهم وكأنها تصور عهدا أحفل بالسعادة • فقد عاشت هذه الاسرة في غمرة البؤس • ولكنها عمرت وذاقت طعم الثراء •••

ان بعض النقاد الصينيين لرواية « الارض الطيبة » يصرون على أن انتقال وانغ لانغ من صعيد الفقر الى صعيد الغنى بعيد عن أن يكون نموذجيا في الصين الى درجة تجعله مضللا ان لم نقل متعذرا بالمرة • إن ذلك يستهل طبعا بمصادفة : العثور على الجواهر التي تستبدل بها مساحة من ارض • ولكن المصادفات قد تحدث ، وهذه المصادفة انما تقع في مطلع الرواية لكي تدفعها الى الحركة لا عند بلوغ الرواية « أوجها» ابتغاء الفوز بحل للعقدة القصصية على نحو رفيق اكثر مما ينبغي • انها قصة رجل وامرأة قدر لهما أن ينعما بشيء من حظ سعيد ، ثم قصة ما أفاداه من ذلك الحظ • ان ذلك القدر من الحظ السعيد الذي حررهما من عبودية الفقر قد حرر القصة أيضا من خطر الاقتصار على تدوين رتيب خلو من أي تنويع أو أمل • لولا المصادفة لما كان ثمة أيما ملحمة •

ان لفظة « ملحمة» لفظة فضفاضة على « الارض الطيبة » التي لا تعدو أن تكون قصة حياة أسرة ، مردفة باهتمام محب لتفاصيل تجربتها اليومية ،

وعناية عرضية بالعادات والاعراف التي تسم مجتمعا كاملا . انهـا ليست « بانوراما » أو مشهدا شاملا للصين كلها ، التي تعجز أيما رواية عـن استيعابها . ولكن هـهنا شيئا عن كل اسرة في كل مجتمع . انها قصة كونية مروية بموسيقى اسلوب ملائم ، وذلك ما يجعل منها قطعة من الفن الكونـي أيضا .

كارل فان دورين

١

كان ذلك اليوم يوم زفاف وانغ لانغ · وفي البدء ، عندما فتح عينيه على سواد السجف المحيطة بسريره ، لم يستطع أن يفكر لماذا بدا الفجر غيره في أيما يوم آخر · كان البيت ساكنا لولا السعال الخافت اللاهث الذي أطلقه والده العجوز ، الذي كانت حجرته قائمة تجاه حجرته هو عبر الغرفة الوسطى · وكل صباح كان سعال الرجل العجوز أول شيء يطرق الآذان في ذلك البيت · وكان من دأب وانغ لانغ أن يلزم فراشه مصغيا اليه ولا يتحرك الا عندما يسمعه يزداد قربا على قرب ، وعندما يسمع باب حجرة أبيه يصر على مفصلاته الخشبية ·

أما في هذا الصباح فانه لم يلزم فراشه منتظرا · لقد وثب من ذلك الفراش ورد سجف سريره الى جانب · كان فجرا قاتما متوهجا · ومن خلال ثقب مربع صغير في النافذة ، حيث صفقت قطعة الورق البالية ، التمعت ومضة من سماء برونزية · ومضى الى الثقب ونزع الورقة عنه !

وغمغم :

ـ « انه الربيع ، ولست في حاجة الى هذه منذ اليوم · »

لقد استحيا أن يقول ، في صوت جهير ، انه يريد أن يبدو البيت نظيفا ذلك اليوم · وكان الثقب لا يكاد يتسع لذراعه ، فأمرها خلاله ليستشعر الهواء · وهبت ريح خفيفة رقيقة من ناحية المشرق ، ريح لطيفة مدمدمة حافلة بالمطر · كانت بشيرا بخير · فقد احتاجت الحقول ، لكي تؤتي أكلها ، الى مطر · ان السماء لن تمطر اليوم ، ولكن الغيث سوف ينهمر ، في خلال أيام معدودات ، اذا ما استمر هبوب هذه الريح · وكان ذلك خيرا · كان قد قال ، أمس ، لابيه انه اذا دامت أشعة الشمس هذه النحاسية المتألقة

بضعة أيام أخرى فأن القمح الذي ستنتجه الحقول لن يملأ فجوة الاذن · اما الان فقد بدا وكأن العناية الالهية قد اختارت هذا اليوم لتتمنى له حظا سعيدا · ان الارض سوف تطلع ثمارها ·

واسرع الى الحجرة الوسطى ، لابسا سرواله الخارجي الازرق فيما كان يمضي الى هناك ، عاقدا زناره المصنوع من قماش قطني أزرق حول خصره بأقصى ما استطاع من احكام · لقد ترك الجزء الاعلى من جسده عاريا ريثما يكون قد غلى الماء ليغتسل به · ومضى الى السقيفة التي كانت هي المطبخ مستندا الى أحد جدران المنزل ، ومن غسق تلك السقيفة لوى ثور رأسه من وراء الزاوية التي تلي الباب ، وخار في وجهه خوارا عاليا · كان المطبخ مبنيا من آجر طيني شأن المنزل نفسه : مربعات ضخمة من الطين منتزعة من حقولهم ذاتها ، وممزوجة بالقش من قمحهم ذاته · ومن أرضهم نفسها كان جده ،في شبابه ، قد جبل الفرن أيضا ، هذا الفرن الذي شوته وسودته سنوات كثيرة من اعداد وجبات الطعام · وفوق هذا الفرن الطيني ارتفع مرجل حديدي مستدير عميق ·

لقد ملأ هذا المرجل ، على نحو جزئي ، بالماء رافعا اياه بنصف قلة من جرة فخارية قائمة غير بعيد ، ولكنه كان يفعل ذلك في احتراس ، فقد كان الماء نادرا عزيزا · وفجأة ، رفع الجرة ، بعد تردد ، وأفرغ الماء كله في المرجل · انه سوف يغسل اليوم بدنه كله · فمنذ أن كان طفلا تجلسه أمه على ركبتها لم ينظر أيما امرىء الى بدنه · أما اليوم فأن شخصا واحدا سوف ينظر اليه ، وهو يريد أن يكون ذلك البدن نظيفا ·

واستدار حول الفرن الى الجزء الخلفي من المطبخ ، واختار حفنة من الاعشاب والجذوع اليابسة المنتصبة في الزواية ، وأقحمها في ترتيب دقيق في فم الفرن مفيدا أقصى الافادة من كل ورقة · ثم انه استخرج من حجر صواني عتيق وقطعة حديد شرارة من نار ، وقربها الى الهشيم فاشتعل وأمسى ذا ضرام ·

كان هذا آخر صباح يتعين عليه فيه أن يضرم النار بنفسه · فقد دأب على اضرامها كل صباح منذ وفاة أمه قبل ست سنوات · كان يوقد النار ، ويغلي الماء ، ويصبه في طاس ، ويحمله الى الحجرة حيث يجلس أبوه على سريره ساعلا باحثا عن حذائه فوق أرض الغرفة · وطوال هذه السنوات الست كان الرجل العجوز ينتظر ابنه ، صباح كل يوم ، ليحمل اليه شيئا من الماء الحار يخفف به من وطأة السعال الصباحي على نفسه · أما الآن فقد أمسى في ميسور الاب والابن ان يستريحا · فقد كان المنزل على وشك أن

يستقبل امرأة ما · وهكذا لن ينهض وانغ لانغ ، منذ اليوم ، مع الضحى ، في أشهر الصيف وأشهر الشتاء على السواء ، ليضرم النار · سوف يصبح في استطاعته أن يضطجع في سريره وينتظر ، ولسوف يجد من يحمل اليه طاسا مليئا بالماء أيضا · واذا أثمرت الارض فعندئذ لا بد أن يقع في ذلك الماء على بعض اوراق الشاي · لقد تم له ذلك مرة في احدى السنين الخوالي ·

واذا ما ألم الضنى بالمرأة فعندئذ يضرم النار أولادها ، اولئك الاولاد الكثر الذين ستنجبهم لوانغ لانغ ·· ووقف وانغ لانغ ، وقد أذهله تصور الاولاد وهم يندفعون الى غرفهم الثلاث ويغادرونها راكضين · لقد كانت هذه الغرف الثلاث تبدو في عينيه ، دائما ، أكثر مما ينبغي ، وخاصة بعد أن أمسى البيت ، منذ وفاة أمه ، نصف فارغ · ولقد تعين عليه دائما أن يقاوم مطامع انسبائه الذين تضيق بهم بيوتهم وملاطفات عمه الذي أنجب ذرية من الاولاد لا نهاية لها :

ـ « ما حاجة رجلين متوحدين الى هذا البيت الكبير كله ؟ ألا يستطيع الوالد وولده أن يناما معا ؟ إن دفء جسد الشاب خليق به أن يهدىء سعال العجوز · »

ولكن الوالد كان يجيب كل مرة بقوله :

ـ « اني أدخر فراشي لحفيدي · انه سوف يدفىء عظامي في شيخوختي · »

والان ان الاحفاد لفي طريقهم الى أن يملأوا المنزل ! أحفاد فوق أحفاد! ولسوف يتعين عليهم أن يصفوا الفرش على طول الجدران وفي الحجرة الوسطى · ان البيت سوف يغص بالفرش · وخمد اللهب في الفرن فيما كان وانغ لانغ يفكر في الفرش الكثيرة التي ستملأ البيت نصف الفارغ ، وبدأ الماء يبرد في المرجل · وبدت طلعة العجوز القائمة في المجاز وقد طرح على جسده ملابسه غير المزررة · كان يسعل ، ويبصق لاهثا مبهور النفس · وقال :

ـ « كيف جاز أن لا أنعم حتى هذه اللحظة بشيء من الماء أدفىء به رئتي ؟ »

وحدق وانغ لانغ ، ووعى الواقع ،فشاع الدم في وجهه ، وغمغم من وراء المستوقد

ـ « هذه الجذوع رطبة ··· ان الجو الندي ··· »

وواصل العجوز سعاله على نحو ملح ، فليس في الامكان اراحته منه الا اذا غلى الماء على النار · وصب وانغ لانغ قليلا منه في الطاس ، ثم

فتح بعد لحظة جرة مطلية كانت قائمة على حافة المستوقد وأخرج منها نحو دزينة من الورقات الجافة المتغضنة ونثرها على سطح الماء · وفتح العجوز عينين نهمتين ، وشرع يشكو لتوه :

ـ « علام هذا التبذير ؟ ان شرب الشاي أشبه شيء بالتهام المال · »

فأجابه وانغ لانغ في ضحكة قصيرة !

ـ « لقد جعل الشاي لمثل هذا اليوم · كل واستشعر الرفه والراحة · »

وأمسك العجوز بالطاس ، بأصابعه المتغضنة ذات العقد ، مغمغما ، مطلقا نخرات صغيرة · وراقب الورقات وهي تتفتح وتنتشر على سطح الماء ، غير قادر على احتساء الشراب الثمين ·

وقال وانغ لانغ :

ـ « انه سوف يبرد عما قليل · »

فقال العجوز في اضطراب :

ـ « صحيح ··· صحيح ··· »

وانشأ يحتسي جرعات كبيرة من الشاي الساخن · لقد استغرق في لذة حيوانية مثل طفل استهواه طعامه استهواء بالغا · ولكن الاستغراق لم يعمه عن رؤية وانغ لانغ يخرج الماء ـ في طيش ـ من المرجل ويسكبه في حوض خشبي عميق · فرفع رأسه وحدق الى ولده ·

وقال فجأة :

ـ « ان الماء الذي وضعته في هذا الحوض كاف لاخصاب موسم كامل· »

وواصل وانغ لانغ افراغ الماء في الحوض حتى القطرة الاخيرة · ولم يجب بشيء · وصرخ أبوه في قوة :

ـ « مالك صامتا ؟ تكلم ! »

فقال وانغ لانغ في صوت خفيض :

ـ « أنا لم أغسل جسدي كله منذ رأس السنة · »

لقد استحيا أن يقول لابيه انه يريد أن يكون جسده نظيفا لان امرأة ما سوف تنظر اليه · وغادر المطبخ مسرعا ، حاملا الحوض الى حجرته · وكان الباب يتدلى مسترخيا ضمن اطار خشبي ملتو ، فلم ينغلق في احكام ، فمشى الرجل العجوز على رؤوس أصابعه الى الحجرة الوسطى ، ووضع فمه على خصاص الباب وصاح :

ـ « ليس من الخير أن تعود المرأة ذلك منذ البدء : شاي في ماء الصباح، وهذا الاغتسال كله ! »

فهتف وانغ لانغ :

ـ « لن يحدث هذا الا اليوم ٠ »

ثم اضاف :

ـ « سوف أسفح المياه على الارض ، عندما أنتهي ، وبذلك لا تذهب كلها هدرا ٠ »

وسكت العجوز لدن سماعه هذا الجواب ، وحل وانغ لانغ زناره ، ونزع ملابسه ٠ وعلى ضوء أشعة الشمس التي تدفقت من خلال الثقب المربع ، أخرج من الماء الغالي المتصاعد بخاره نحو سقف الحجرة منشفة صغيرة ، وفرك جسده الداكن المهزول فركا عنيفا ٠ لقد بدا له أن الهواء دافىء ، ولكن ما ان تندى جسده حتى استشعر البرد ، ففزع الى السرعة غامسا المنشفة في الماء مخرجا أياها منه حتى لقد انبعث من جسده كله سحابة رقيقة من بخار ٠ ثم انه مضى الى صندوق كان من قبل لامه ، وأخرج منه ثوبا نظيفا مصنوعا من قماش قطني أزرق ٠ لقد كان خليقا به أن يصاب اليوم بشيء من البرد اذا لم يرتد ثيابه الشتوية المحشوة بالقطن المندوف ، ولكنه استنكف فجأة عن وضعها على بدنه النظيف٠ كان نسيجها الخارجي ممزقا قذرا ، وكانت حشوتها القطنية تطل من الثقوب ، رمادية بلهاء ٠ انه لم يرد ان تراه هذه المرأة ، أول ما تراه ، وقد أطلعت الحشوة القطنية رأسها من ملابسه ٠سوف يتعين عليها في ما بعد أن تغسل وترفو ، ولكن ذلك ليس ينبغي لها في هذا اليوم الاول ٠ وارتدى فوق السترة القطنية الزرقاء والبنطلون رداء طويلا مصنوعا من المادة نفسها ـ رداءه الاوحد الطويل الذي كان يلبسه في الاعياد ليس غير ، عشرة أيام أو نحوها في السنة كلها ٠ ثم انه حل ، بأصابعه الرشيقة ، جديلة الشعر الطويلة المتدلية على ظهره ، وتناول من درج المنضدة الصغيرة القلقة مشطا خشبيا ، وأنشأ يرجل شعره ٠

ودنا والده ، كرة أخرى ، ووضع فمه على خصاص الباب ٠

وتشكى قائلا :

ـ « أقدر علي أن لا يكون لدي ما آكله اليوم ؟ في مثل سني ، تكون العظام ، عند الصباح ، واهنة رخوة ، فهي لا تتماسك الا اذا أصابت شيئا من طعام٠»

فقال وانغ لانغ جادلا شعره في رشاقة ، عاقدا بين خصله خيطا حريريا أسود ذا شرابة : « أنا آت ٠»

وبعد لحظة ، نزع رداءه الطويل ، ولف جديلته حول رأسه وخرج حاملا حوض الماء ٠ كان قد أنسي طعام الصباح بالكلية ٠ وان عليه أن يحرك دقيق الذرة في قليل من الماء ويقدمه الى أبيه ٠ أما هو فلم يكن في

طوقه ان يأكل · لقد ترنح بالحوض حتى العتبة ، ثم سفح الماء على الارض في محاذاة الباب ، وفيما هو يفعل ذلك تذكر أنه انفق ماء المرجل كله في الاستحمام ، وان عليه أن يضرم النار من جديد · وجرفته موجة من نقمة على والـــده ·

ـ « ان ذلك الرأس العجوز لا يفكر في شيء غير طعامه وشرابه · »

كذلك غمغم وكأنه يهمس في أذن الفرن · بيد أنه لم يقل شيئا بصوت جهير · كان هذا هو آخر صباح يتعين عليه فيه أن يعد الطعام للرجل العجوز· وسكب مقدارا قليلا جدا من الماء في المرجل ، ماتحا اياه بدلو من البئـــر المجاورة للباب · وسرعان ما غلى الماء ، فالقى فيه شيئا من الدقيق وراح يحركه · ثم إنه حمله الى الرجل العجوز وقال :

ـ « سوف نطعم شيئا من الارز ، هذه الليلة ، يا أبتاه · وفي انتظار ذلك دونك شيئا من دقيق الذرة » ·

فأجلس الرجل العجوز نفسه الى المائدة ، في الحجرة الوسطى ، وحرك العصيدة الغليظة الصفراء بعودي الاكل المألوفين عند الصينيين ، وقال :

ـ « لم يبق غير قليل من الارز في السلة » ·

فرد وانغ لانغ قائلا :

ـ « سوف نأكل قدرا أقل بقليل من ذلك الذي نأكله في مهرجان الربيع· »

ولكن الرجل العجوز لم يسمع · كان يتجرع محتويات الطاس ، فـي شره ، محدثا صوتا عاليا ·

ثم ان وانغلانغ مضى الى حجرته الخاصة وعاود طرح الرداء الازرق الطويل على جسده ، وأرخى جديلته على ظهره · وأمر يده فوق جبينـــه الحليق ، وفوق وجنتيه · لعل من الخير له أن يحلق رأسه من جديـــد ؟ فالصباح لا يزال طفلا وان في استطاعته أن يمضي الى سوق الحلاقين ويحلق قبل ذهابهالى المنزل الذي تنتظره فيه عروسه · ولو قد كان لديه شيء من مال اذن لما أحجم عن ذلك ·

وأخرج من زناره كيسا صغيرا وسخا مصنوعا من قماش رمادي وعد ما فيه من دراهم · كان ثمة ست قطع فضية وحفنة مزدوجة من قطع النقد النحاسية · ولم يكن قد أخبر أباه ، بعد ، أنه دعا بعض الاصدقاء لتنـــاول العشاء معه تلك الليلة · كان قد دعا ابن عمه الشاب ، وعمه اكراما لابيه وثلاثة فلاحين مجاورين كانوا يعيشون في القرية معه · وكان قد إعتزم أن يحمل من المدينة ، ذلك الصباح ، شيئا من لحم الخنزير ، وسمكة صغيرة من سمك الاحواض، وحفنة من الكستناء · بل ان في ميسوره أيضا أن يشتري

بعض فروع الخيزران من الجنوب وقطعة من لحم البقر يطبخها مع الملفوف الذي زرعه في جنينته ٠ ولكن هذا لن يتيسر له الا اذا بقي معه شيء من مال بعد ان اشترى قليلا منزيتالفول وصلصة البازيلا الصينية ٠ ولعله اذا ما حلق رأسه أن لا يكون في ميسوره أن يشتري لحم البقر ٠ لا بأس ، انهسوف يحلق رأسه ــ كذلك قرر على نحو مفاجيء ٠

وفارق الرجل العجوز من غير أن ينبس بكلمة ، واتخذ سبيله مستقبلا الصباح الباكر ٠ وعلى الرغم من الفجر الاحمر القاتم كانت الشمس تصعد في سحب الافق وتتلألأ على الندى المتناثر فوق سنابل القمح والشعير ٠ واذ كان وانغ لانغ فلاحا قبل كل شيء ، فقد وقف لحظة وانحنى لكي يفحص السنابل المبرعمة ٠ كانت لا تزال جوفاء تنتظر المطر ٠ واستروح الهواء ، وتطلع في قلق الى السماء ٠ كان المطر كامنا هناك ، مثقلا هذه الغيوم الداكنة التي تحدوها الريح ٠ وعقد العزم على شراء عود من البخور واشعاله في الهيكل الصغير قربانا لآلهة الارض ٠ ان يوما كهذا ليجيز الاقدام على مثل هذا الصنيع ٠

وسلك طريقا ضيقة تتعرج وسط الحقول ٠ كانت أسوار المدينة الرمادية تنتصب على مقربة منه ٠ ووراء ذلك الباب الذي سيجتازه عما قليل ،متخطيا السور ، كان البيت الكبير الذي ضم عروسه ، منذ طفولتها ، في جملة من ضم من الجواري ، بيت هوانغ ٠ لقد قال بعضهم : « خير للمرء أن يحيا وحيدا من أن يتزوج امرأةكانت جارية رقيقة في بيت كبير ٠ » ولكن حين قال لابيه: « ألن يقدر لي أن امتلك امرأة أبد الدهر ؟ » أجابه أبوه : « عندما تكلف الاعراس ما تكلفه في هذه الايام العصيبة ، وعندما تطالب كل امرأة بالخواتم الذهبية والثياب الحريرية قبل أن ترتضي الرجل بعلا لها لا يبقى أمام الفقراء الا الزواج من الجواري الرقيقات ٠ »

وكان أبوه قد تحامل على نفسه آنذاك ، ومضى الى بيت هوانغ ، وسأل هل يوجد ثمة جارية يستطيع أهل البيت الاستغناء عنها ٠

وكان قد أوضح في سؤاله أنه لا يريدها جارية صغيرة السن اكثر مما ينبغي ، مؤكدا على الخصوص انه لا يطمع لابنه بجارية جميلة ٠

وكان قد حز في نفس وانغ لانغ أن يفرض عليه والده الزواج من امرأة غير جميلة ٠ فقد كان مما يوقع البهجة في فؤاده أن تكون له زوجة وسيمة يهنئه الرجال الآخرون عليها ٠ وكان أبوه قد صرخ في وجهه بعد أن رأى الى اساريره المغضبة :

ــ « وما حاجتنا الى امرأة جميلة ؟ اننا نريد امرأة تدبر شؤون المنزل

وتنجب الاولاد فيما هي تعمل في الحقول ، ومتى كانت المرأة الجميلة أهلا للنهوض بهذه المهمة ، ان الجميلات من النساء لا هم لهن الا التفكير في الملابس التي تلائم وجوههن وتنسجم معها · لا ! لن تدخل هذا البيت امرأة جميلة ! نحن فلاحون · والى هذا ، فأن أحدا لم يسمع بفتاة جميلة استطاعت أن تبقى عذراء في بيت من البيوت الثرية · ان جميع الاسياد الصغار ليقضون وطرهم منها حتى التخمة ! وخير لك أن تكون الرجل الاول مع امرأة بشعة من أن تكون الرجل المئة مع آية من آيات الجمال · وهل تعتقد ان المرأة الوسيمة سوف تجد يديك الريفيتين معجبتين مثل اليدين الناعمتين اللتين يزهو بهما نجل من انجال الاثرياء ، وانها سوف تجد وجهك الذي سفعته الشمس جميلا كالبشرة الذهبية التي يتمتع بها غيرك ممن اتخذوا منها اداة لاشباع شهواتهم ؟ »

وأدرك وانغ لانغ أن أباه كان يقول الحقيقة · ومع ذلك ، فقد كان عليه أن يصارع غريزته قبل أن يقوى على الاجابة · ثم انه في عنف :

ـ « أرجو على الاقل أن لا أتزوج امرأة مجدورة الوجه ، أو امرأة مشقوقة الشفة العليا · »

فأجابه أبوه :

ـ « سوف نرى ما الذي يتعين علينا ان نختاره · »

حسنا ، ان المرأة لم تكن مجدورة الوجه ، ولم تكن مشقوقة الشفة العليا · كان يعرف هذا القدر على الاقل ، ولكنه ما كان يعرف شيئا أكثر من ذلك · وكان قد اشترى هو وأبوه خاتمين فضيين مطليين بالذهب ، واقراطا فضية ، وكان أبوه قد حمل هذا كله الى مولى المرأة علامة للخطبة · وفي ما عدا ذلك لم يعرف وانغ لانغ شيئا عن المرأة التي ستكون زوجته ، اللهم الا انه سوف يمضي اليوم الى البيت الكبير ويجيء بها ·

وتقدم في ظلمة سور البلد الرطبة · كان حملة الماء ، وقد غادروا بيوتهم منذ لحظات ، يروحون ويجيئون في غير انقطاع ، وقد أثقلت عرباتهم بأحواض ماء كبيرة ، وكان الماء يندفق من الاحواض فهو مسفوح على حصباء الطريق · كان نفق الباب ، تحت الجدار الغليظ المشيد من لبن وآجر ، رطبا باردا على نحو موصول ، ـ باردا حتى في يوم صائف ، مما كان يجعل باعة البطيخ الاصفر ينثرون فاكهتهم على حصباء الطريق ، وقد قسمت كل بطيخة نصفين لكي تتشرب البرودة الرطبة · لم يكن ثمة أحد منهم الآن ، لان الموسم ما يزال بعيدا ، ولكن سلالا من الدراق الاخضر الصغير الفج كانت منتصبة على طول الجدران ، وكان الباعة ينادون :

ـ « طلائع دراق الربيع ـ طلائع الدراق ! اشتروا ، كلوا ، طهروا أمعاءكم من سموم الشتاء ! »

وقال وانغ لانغ في ذات نفسه :

ـ « اذا كانت تحب الدراق فسوف أشتري لها في طريق عودتنا حفنة منه ٠ »

لقد كاد أن لا يصدق أن امرأة سوف تمشي خلفه عندما يعاود اجتياز الباب راجعا الى المنزل ٠

وانعطف نحو اليمين ، بعد أن تخطى الباب ، فاذا به يجد نفسه بعد لحظة في سوق الحلاقين ٠ وكان طبيعيا ، والساعة مبكرة جدا ، أن يكون واحدا من قلائل وفدوا على السوق ، فلم يكن ثمة غير بعض الفلاحين الذين حملوا نتاج أرضهم الى المدينة ، الليلة البارحة ، لكي يكون في ميسورهم أن يبيعوا خضرهم في أسواق الفجر ويعودوا الى حقولهم للقيام بعمل النهار٠ كانوا قد استسلموا للرقاد مرتعدين رابضين فوق سلالهم ، تلك السلال التي أمست الان فارغة عند أقدامهم ٠ واجتنبهم وانغ لانغ خشية أن يعرفه أحد منهم ، ذلك بأنه كله راغبا عن مزاحهم في يومه ذاك ٠ وفي صف طويل يستغرق الشارع كله راح الحلاقون ينتظرون الزبائن خلف مناضدهم ، ومضى وانغ لانغ الى اقصاهم ، وجلس على كرسي لا ظهر له وأومأ الى الحلاق الذي كان واقفا يثرثر مع جاره ٠ وأقبل الحلاق في الحال ، وشرع يصب الماء الحار برشاقة ، من ابريق معدني قائم فوق مستوقده الفحمي ، في حوض نحاسي صغير ٠

وسأله في صوت محترف :

ـ « تحلق كل شيء ؟ »

فأجابه وانغ لانغ :

ـ « رأسي ووجهي ٠ »

وسأله الحلاق :

ـ « وتريد أن تنظف اذنيك ومنخريك ؟ »

فسأله وانغ لانغ في احتراس :

ـ « وكم يكلفني ذاك علاوة على اجرة الحلاقة ؟ »

فقال الحلاق ، وقد شرع يغمس قطعة قماش سوداء في الماء الحار ويخرجها منه :

ـ « أربعة بنسات ٠ »

فقال وانغ لانغ :

ـ « سوف أعطيك بنسين • »

فأجابه الحلاق على الفور :

ـ « اذن أنظف لك أذنا واحدة ومنخرا واحدا • في أي جانب من وجهك تريد مني أن أعمل ؟ »

وغمز الحلاق المجاور فيما كان يتحدث ، فانفجر الاخر في ضحك مقهقه • وأدرك وانغ لانغ أنه وقع في يدي مجان عابث • اذ شعر بالنقص على نحو لاسبيل الى تعليله ، شأنه دائما ، تجاه أبناء المدن هؤلاء ـ ولو لم يكونوا غير حلاقين وغير أناس من أوضع طبقة ـ فقد سارع الى القول :

ـ « كما تريد ••• كما تريد ••• »

ثم انه استسلم ليد الحلاق التي راحت ترغي الصابون على وجهه ورأسه وتفركهما وتحلقهما • واذ كان الحلاق على أية حال فتى سخيا فقد منحه ، من غير ما أجر اضافي ، سلسلة من التدليكات البارعة لكتفيه وظهره لكي يطري عضلاته • وفيما هو يحلق جبين وانغ لانغ الاعلى راح يعلق عليه تعليقات شتى :

ـ « لن يكون هذا الفلاح بشعا اذا ما حلق شعره حتى منبته • ان الزي الجديد يقضي باستئصال الضفيرة • »

وحامت موساه حول دائرة الشعر في قمة رأس وانغ لانغ حوما دانيا جدا حتى لقد صاح وانغ لانغ :

ـ « أنا لا أستطيع أن أحلقه من غير أن أستأذن أبي ! »

وضحك الحلاق ، واحترم رقعة الشعر المستديرة •

حتى اذا تم ذلك ، وعدت الدراهم في يد الحلاق المتغضنة المنقوعة بالماء عرف وانغ لانغ لحظة ذعر • ما أكثر هذه الدراهم التي دفعها ! ولكنه ما ان تابع سيره في السوق مستقبلا الريح الندية ببشرته الحليقة حتى قال لنفسه :

ـ « هذا شيء لا يحدث غير مرة واحدة • »

ومضى الى السوق ، واشترى رطلين انكليزيين من لحم الخنزير ، وراقب الجزار فيما هو يلف قطعة اللحم بورقة مجففة من ورق اللوتس • ثم اشترى ، في شيء من التردد ، ست أونسات من لحم البقر أيضا •حتى اذا تم شراء ذلك كله ، وفي جملته اللوبياء الغضة ، مضى الى دكان شماع حيث اشترى عودين من البخور • ثم انه عطف خطاه في استحياء بالغ ، نحو بيت هوانغ •

حتى اذا بلغ باب المنزل استبد به ذعر عظيم • لماذا أقبل وحده الى

هنا ؟ كان يتعين عليه أن يسأل أباه ٠٠٠ أن يسأل عمه ٠٠٠ بل أن يسأل تشينغ ، جاره الادنى ، أو ايما امرىء ما ، أن يجيء معه ٠ انه لم يدخل بيتا كبيرا قط قبل اليوم ٠ كيف يستطيع أن يدخل الى هناك ، وعلى ذراعه مأدبة عرسه ، ويقول :

ـ « لقد أقبلت التماسا لامرأة » ؟

ولبث لدى الباب فترة طويلة ، وراح يتأمله ٠ كان موصدا على نحو محكم : وكان مؤلفا من مصراعين خشبيين ضخمين ، ينطبق احدهما على الاخر ٠ وكان هذان المصراعان مدهونين باللون الاسود ، ومطوقين ومرصعين بالحديد ٠ وكان يقف على أهبة الاستعداد ، عند كل منهما أسدان منحوتان من حجارة ٠ ولم يكن ثمة أحد غيرهما ٠ ونأى واعرض بجانبه ٠ لقد اسقط في يده ووجد ان من المستحيل عليه ان يدخل ٠

واستشعر الدوار يعصف برأسه ، فجأة ٠ ان عليه أن يذهب اولا ويشتري شيئا من طعام ٠ فهو لم يذق أيما شيء هذا الصباح ـ كان قد نسي أن يأكل ٠ ودخل مطعما صغيرا ، ووضع بنسين على المائدة ، وجلس ٠ وتقدم نحوه نادل قذر يرتدي مئزرا ملتمعا من شدة الوسخ ٠ فناداه قائلا : « زبديتان من حساء الشعيرية ! » حتى اذا جيء بهما ، التهمهما في شره ، دافعا الشعيرية في حلقه بعوديه الخيزرانيين ، بينما وقف النادل وراح يدير البنسين بين ابهامه الاسود وسبابته ٠

وسأله النادل في لامبالاة :

ـ « هل تريد مقدارا اضافيا ؟ »

وهز وانغ لانغ رأسه بالنفي ٠ ثم انه نهض واقفا وأجال بصره في ما حوله ٠ لم يكن ثمة أحد من معارفه في الحجرة الصغيرة القاتمة الغاصة بالطاولات ٠ كان ثمة نفر قليل من الرجال يأكلون او يحتسون الشاي ٠ كان مطعما من مطاعم الفقراء ، ولقد بدا بين رواده رجلا حسن البزة ، بل رجلا يكاد يكون موسرا ، حتى اذا مر به أحد الشحاذين عوى في وجهه :

ـ « كن رقيق القلب ، يا سيدي الاستاذ ، وهبني بضعة دريهمات ٠ اني أموت جوعا ٠ »

ان أيا من الشحاذين لم يطلب حسنة من وانغ لانغ قبل اليوم قط ، وان أيا من الناس لم يخاطبه قائلا « يا سيدي الاستاذ» في يوم من الايام ٠ وسر وانغ لانغ ، وألقى في صحيفة الشحاذ قطعتين نقديتين صغيرتين قيمة كل منهما خمس بنس ٠ وفي سرعة بالغة ، مد الشحاذ يده السوداء الشبيهة ببرثن من البراثن ، وأمسك بالقطعتين النقديتين ، ودفنهما في أسماله ٠

وجلس وانغ لانغ من جديد ، وارتفعت الشمس في معارج السماء ٠ وتلكأ النادل في فروغ صبر ٠ واخيرا قال في كثير من الوقاحة :

ـ « اذا لم تطلب شيئا اضافيا فسوف يتعين عليك أن تدفع اجرةالكرسي الذي لا ظهر له ٠ »

وأثارت وقاحة النادل وانغ لانغ ، وكان خليقا به أن ينهض ولكـــن مجرد التفكير في الذهاب الى بيت هوانغ الكبير ليسأل هناك عن زوجته جعل العرق يتفصد من جسده كله وكأنه يكدح في حقل ٠

وقال للنادل في صوت ضعيف :

ـ « ايتني بكوب من الشاي ٠ »

ولم يكد يلتفت حتى كان النادل الصغير قد جاءه بالشاي ، وسأله في جفاء :

ـ « أين البنس ؟ »

ولم يجد وانغ لانغ ما يصنعه ، في غمرة من ذعره ، غير أن يمد يده الى زناره ويخرج منه بنسا آخر ٠

وغمغم من غير أن يريد ذلك :

ـ « هذه لصوصية ! »

ثم رأى جاره ، الذي كان قد دعاه الى العرس ، يدخل الدكان ، فسارع الى وضع البنس على المائدة واحتسى الشاي في جرعة واحدة ، وغادر المكان على جناح السرعة من الباب الجانبي فاذا به في الشارع كرة أخرى ٠

وقال مخاطبا نفسه في يأس :

ـ « لا بد من القيام بذلك ٠ »

وانعطف في بطء متخذا سبيله الى الباب الكبير ٠

هذه المرة كان الباب ـ بعد أن مالت الشمس عن سمت الرأس ـ مشرعا على مصراعيه ، وكان البواب يقتل الوقت عند العتبة ، ناكشا أسنانه بعـد أن تناول طعام الظهر بشظية رقيقة من خيزران : كان فتى فارع الطول على خده الايسر خال ضخم تتدلى منه ثلاث شعرات طويلة سوداء لم تقص فـي يوم من الايام قط ٠ وما ان برز وانغ لانغ حتى صرخ في خشونة ، متوهما من السلة التي كان يحملها أنه وفد ليبيع شيئا ما :

ـ « هاي ، أي شيء تريد ؟ »

وفي عسر بالغ ، أجابه وانغ لانغ :

ـ « أنا وانغ لانغ ، الفلاح ٠ »

ـ « حسنا ، ولكن ما الذي يترتب على كونك وانـــغ لانغ الفلاح ؟ »

كذلك قال البواب الذي كان لا يصطنع الكياسة الا مع أصدقاء سيده وسيدته الاثرياء ·

فتلجلج وانغ لانغ :

ـ « لقد أقبلت ··· لقد أقبلت ··· »

فقال البواب في أناة متكلفة فاتلا شعرات خاله الطويلة :

ـ « هذا ما أراه بعيني رأسي · »

ـ « ان هناك امرأة ··· » كذلك قال وانغ لانغ وقد غار صوته على نحو عاجز حتى استحال همسا · كان وجهه راشحا تحت أشعة الشمس ، بالعرق ·

وأرسل البواب ضحكة مدوية · ثم هدر :

ـ « واذن فأنت ذاك الرجل ! لقد قيل لي أن أتوقع اليوم مجيء عريس من العرسان · ولكني لم أعرفك وأنت تحمل سلة في يدك · »

فقال وانغ لانغ في لهجة اعتذارية :

ـ « انها بضع قطع من اللحم ليس غير · »

وانتظر أن يقوده البواب الى داخل المنزل · ولكن البواب لم يبرح مكانه · وأخيرا قال وانغ لانغ في قلق :

ـ « هل أمضي وحدي ؟ »

فتكلف البواب اجفالة ذعر ، وقال :

ـ « ان السيد العجوز يقتلك ان فعلت ! »

واذ رأى أن وانغ لانغ ساذج أكثر مما ينبغي قال :

ـ « ان قليلا من الفضة خليق به أن يكون مفتاحا صالحا · »

وأدرك وانغ لانغ آخر الامر أن الرجل يطمع في ابتزاز بعض المال منه· فقال متضرعا :

ـ « أنا رجل فقير · »

فقال البواب :

ـ « دعني أرى ما ينطوي عليه زنارك · »

وكشر مبتسما عندما عمد وانغ لانغ ، ببساطته البالغة ، الى وضع سلته على الارض ورفع ثوبه مخرجا الكيس الصغير من زناره وأفرغ في يده اليسرى ما بقي فيه من مال بعد مشترياته المختلفة · كان ثمة قطعةفضية واحدة ، واربع عشرة قطعة نحاسية كل منها بنس واحد ·

وقال البواب في برود :

ـ « سوف آخذ القطعة النقدية · »

وقبل أن يوفق وانغ لانغ الى الاحتجاج كان الرجل قد ألقى القطعة الفضية في ردنه واجتاز الباب ، موسعا الخطى ، معلنا في صوت صارخ :

ــ « العريس ٠٠ العريس ! »

وعلى الرغم من الغضب الذي استبد بوانغ لانغ بسبب مما حدث ، والذعر الذي ألم به لاعلان مجيئه على هذا النحو الجهير ، فانه لم يجد ما يفعله غير السير في اثر البواب ، فلحق به ، رافعا سلته ، غير ناظر لا يمنة ولا يسرة ٠

وفي ما بعد ــ ومع أن هذه كانت هي أول مرة قدر له فيها أن يدخل بيت اسرة كبيرة ــ لم يستطع أن يتذكر شيئا ٠ لقد اجتاز الاروقة رواقا بعد آخر ، ناكس الرأس ملتهب الوجه بالخجل ، سامعا ذلك الصوت يهدر قدامه ، ورنات ضحك تنبعث من كل جانب ٠ حتى اذا بدا له انه قد اجتاز مئة رواق كاملة صمت البواب فجأة ودفعه الى حجرة انتظار صغيرة ٠وهناك وقف وحيدا ، بينا مضى البواب الى حجرة ما ، ثم عاد منها بعد لحظة ليقول :

ــ « تقول السيدة الكبيرة ان عليك أن تمثل بين يديها ٠ »

واندفع وانغ لانغ الى أمام ، ولكن البواب أوقفه صائحا في اشمئزاز :

ــ « ليس في امكانك أن تمثل بين يدي سيدة كبيرة وفي ذراعك سلة لحم خنزير ولوبياء ! كيف تقوى ، في هذه الحال ، على الانحناء احتراما ؟ »

فقال وانغ لانغ في اهتياج :

ــ « صحيح ٠٠٠ صحيح ٠٠٠ »

ولكنه لم يجرؤ على وضع السلة على الارض لانه كان يخشى أن يسرق منها شيء ٠ لقد توهم من غير ريب أن العالم كله خليق به أن يطمع بهذه الطرف النادرة التي لا تعدو أن تكون رطلين من لحم الخنزير وستة أونسات من لحم البقر وقليلا من سمك الاحواض ٠ ولاحظ البواب خوفه فصاح في ازدراء بالغ :

ــ « اننا في بيت مثل هذا نطرح قطع اللحم هذه الى الكلاب ! »

وانتزع السلة وطرحها خلف الباب، ودفع وانغ لانغ أمامه ٠

واجتازا شرفة طويلة ضيقة ترتفع سقوفها على أعمدة مزدانة بنقش دقيق ، حتى انتهيا الى قاعة لم تقع عينا وانغ لانغ على ضريب لها قط من قبل ٠ كان في ميسور المرء أن يضع عشرين منزلا من مثل منزله كله في تلك الصالة فتضيع فيها ٠٠٠ الى هذا الحد كانت أبعادها مترامية ، والى هذا

الحد كانت سقوفها عالية · حتى اذا رفع رأسه ، في دهش ، ليرى فوقه الى الدعائم الضخمة المنقوشة المصبغة تعثر بعتبة الباب العالية ، وكاد يقع مكبا على وجهه لولا أن تداركه البواب فأمسك بيده صائحا :

ـ « انتبه ، أتريد أن تكون من الكياسة بحيث تخر على وجهك ، هكذا ، بين يدي السيدة الكبيرة ؟ »

ولملم وانغ لانغ نفسه في خجل شديد ونظر الى أمام · وعلى منصة في منتصف الحجرة رأى سيدة طاعنة في السن مكسوا جمسها المهزول الضئيل بثوب من الاطلس البراق ، ذي لون رمادي لؤلؤي ، وعلى دكة خفيضة على مقربة منها بدا غليون من الافيون يكان يتقلص فوق مصباحه الصغير · ونظرت الى وانغ لانغ بعينين سودواين صغيرتين ثاقبتين ، عينين غائرتين حادتين مثل عيني قرد في وجهها المتغضن المهزول · كانت بشرة يدها المسكة بطرف الغليون مشدودة على عظامها الدقيقة ، وكأنها في نعومتها وصفرتها طبقة من ذهب كسي بها صنم · وخر وانغ لانغ ساجدا وخفق بجبينه الارض المبلطة ·

وفي وقار قالت السيدة العجوز للبواب :

ـ « أنهضه ! لا داعي الى هذا السجود كله · هل أقبل التماسا للمرأة؟»

فأجاب البواب :

ـ « نعم ، أيتها السيدة الجليلة · »

فتساءلت السيدة العجوز :

ـ « لماذا لا يتكلم هو بنفسه ؟ »

فأجابها البواب فاتلا شعرات خاله :

ـ « لانه أبله ، أيتها السيدة الجليلة · »

وغلى الدم في عروق وانغ لانغ ، ونظر الىالبواب نظرة ترشح بالسخط، وقال :

ـ « لست الا فتى يعوزه الصقل ، أيتها السيدة الكبيرة الجليلة : أنا لا أدري أية الفاظ يتعين علي أن اصطنعها في موقف كهذا الموقف وحضرة كهذه الحضرة · »

وحدقت اليه السيدة العجوز في اهتمام وفي وقار بالغ · ولا ريب في أنها كانت تعتزم أن تقول شيئا ، ولكن يدها أطبقت على الغليون الذي كانت احدى الجواري تتعهده بعنايتها ، وبدت وكأنها نسيت وانغ لانغ على التو · وانحنت ، وأخذت من الغليون مجة شرهة ، ففقدت عيناها حدتهما ورانت عليهما غشاوة من نسيان · وظل وانغ لانغ واقفا تجاهها ، حتى وقعت عيناها

مصادفة على محياه ٠

وسألت في غضب مفاجيء :

ـ « ماذا يفعل هذا الرجل هنا ؟ »

لقد بدا وكأنها نسيت كل شيء ٠ كان وجه البواب متحجرا ، ولم ينطق بكلمة ٠

وقال وانغ لانغ في ذهول شديد :

ـ « اني انتظر المرأة ، أيتها السيدة العظيمة ٠ »

فشرعت السيدة العجوز تقول :

ـ « المرأة ؟ أية امرأة ؟٠٠٠ »

ولكن الجارية التي كانت على مقربة منها انحنت وهمست في أذنها فاستعادت صوابها وأضافت :

ـ « آه ، أجل ، لقد نسيت ذلك لحظة ـ انها مسألة صغيرة جدا ـ لقد أقبلت طلبا للجارية التي تدعى « أو-لان O-Lan ٠ اذكر أنا وعدنا احد الفلاحين بتزويجه اياها ٠ هل أنت ذلك الفلاح ؟ »

فأجاب وانغ لانغ :

ـ « أنا هو ٠ »

فقالت السيدة العجوز للجارية :

ـ « اطلبي الى أو-لان أن تحضر بسرعة ٠»

لقد بدا وكأن صبرها نفد فجأة فهي تريد أن تنفض يدها من هذه المسألة وان تترك وحدها مع غليونها الافيوني في سكون الحجرة الكبيرة ٠ وما هي الا لحظة حتى رجعت الجارية تقود بيدها مخلوقة مترجلة عريضة المنكبين أميل الى الطول منها الى القصر ترتدي سترة وسروالا نظيفين مصنوعين من قماش قطني أزرق ٠ وألقى وانغ لانغ نظرة عليها ثم أشاح عنها ببصره ، وقد أخذ قلبه في الخفقان ٠ كانت هذه هي امرأته :

فقالت السيدة العجوز في لامبالاة :

ـ « تعالي ، أيتها الجارية ٠ لقد جاء هذا الرجل التماسا لك ٠ »

فتقدمت المرأة نحو السيدة ، ووقفت ناكسة الرأس مكتوفة اليدين ٠

وسألتها السيدة :

ـ « هل أنت مستعدة ؟ »

فأجابتها المرأة في أناة وكأن كلامها رجع صدى :

ـ « مستعدة ٠ »

وحين سمع وانغ لانغ صوتها للمرة الاولى نظر الى ظهرها اذ كانت

تقف قدامه · كان صوتا عذبا على نحو كاف ، ليس عاليا أكثر ممّا ينبغي وليس واهنا أكثر مما ينبغي ، جليا خلوا من النكد · وكان شعر المرأة نظيفا صقيلا ، وكانت سترتها نظيفة · ولاحظ ، في خيبة عابرة ، أن قدميها لم تكونا صغيرتين من اثر الحصر في حذاء حديدي · ولكنه لم يستطع أن يطيل التفكير في ذلك لان السيدة العجوز كانت تقول للبواب :

ـ « احمل صندوقها الى الباب الخارجي ودعهما يمضيان لسبيلهما » ·

ثم انها نادت وانغ لانغ وقالت :

ـ « قف الى جانبها فيما أنا أتكلم · »

حتى اذا تقدم وانغ لانغ الى أمام قالت له :

ـ « هذه المرأة وفدت على بيتنا وهي بعد طفلة في العاشرة ، ولقد عاشت هنا حتى هذه اللحظة وقد أمست الآن في العشرين · لقد اشتريتها في سنة من سنوات المجاعة عندما وفد أبواها على الجنوب لانه لم يكن لديهما شيء يأكلانه · كانا من سكان شانتونغ ، في الشمال ، والى هناك رجعا ، ذلك كل ما أعرفه عنهما · أنت ترى ان لها بنية قوية وخدين ممتلئين شأن أبناء عرقها كلهم · ولسوف تخدمك بنشاط سواء أكان ذلك حراثة الحقل أو متح الماء أو أيما شيء آخر ترغب فيه · انها ليست جميلة ، ولكنك لست في حاجة الى المرأة الجميلة · فالرجال المتعطلون المنغمسون في الملذات هم وحدهم الذين يحتاجون الى نسوة جميلات لكي يصرفنهم عما هم فيه · وليست بارعة كذلك ·ولكنها تحسن صنع ما يطلب اليها صنعه ، وان لها لخلقا رضيا · وهي ـ على قدر ما أعلم ـ لا تزال عذراء · انها لا تتمتع بمقدار من الجمال يغري أبنائي وأحفادي حتى ولو لم تكن في المطبخ · ولو فرضنا أنه كان لها عاشق فذلك العاشق لا يعدو أن يكون مجرد خادم من الخدم · ولكني اشك في أنه كان لها عاشق ما ، لان أروقة البيت تغص بعدد غير محدود من الجواري الجميلات السارحات فيه بحرية · خذها وأحسن معاملتها · انها جارية صالحة ، على الرغم من أنها بليدة وبلهاء بعض الشيء · ولو لم اكن راغبة في اكتساب رضا الالهة للفوز بالسعادة في حياتي المقبلة ، من طريق اكثار النسل في هذه الدنيا ، لاحتفظت بها لانها تصلح للمطبخ صلاحا كافيا · ولكني احب تزويج جواري اذا ما طلبهن أحد ، ولم تكن لاي من امراء هذا البيت رغبة فيهن · »

ووجهت الخطاب الى المرأة فقالت :

ـ « أطيعيه وأنجبي له بنين ومزيدا من البنين · وحين تضعين غلامك الاول احمليه الي لاراه · »

فقالت المرأة في خضوع :

ـ « أمرك مطاع ، أيتها السيدة الجليلة · »

وبقيا مكانهما في تردد ، وكان وانغ لانغ مرتبكا اعظم ارتباك غير عارف أيتعين عليه أن يتكلم أم ان ينسحب ·

فقالت السيدة العجوز في اهتياج :

ـ « هيا ، اذهبا ، ماذا تنتظران ؟ »

فانحنى وانغ لانغ على الفور ، واستدار ، وغادر المكان تتبعه المرأة ومن ورائهما البواب ، حاملا الصندوق على ظهره · حتى اذا بلغوا الغرفة التي رجع اليها وانغ لانغ التماسا لسلته وضع البواب ذلك الصندوق على الارض وأبى أن يحمله الى أبعد ، ثم اختفى عن البصر من غير أن ينطق بأيما كلمة اضافية ·

عندئذ التفت وانغ لانغ الى المرأة ونظر اليها للمرة الاولى · كانت ذات وجه لحيم بريء ، وأنف قصير عريض ذي منخرين ضخمين أسودين ، وفم واسع أشبه شيء بجرح بليغ في وجهها · كانت عيناها الصغيرتان ذواتي لون أسود كامد ، وكانتا مفعمتين بشيء من الكآبة الغامضة · لقد بدا وجهها صامتا غير معبر في العادة ، ـ لكأنه كان عاجزا عن الكلام حتى ولو رغب في ذلك · واحتملت نظرة وانغ لانغ في اصطبار ، من غير ما ارتباك أو محاكاة، مكتفية بالانتظار ريثما يملي عينه منها · لقد رأى أن وجهها خلو من أيما ضرب من ضروب الجمال ـ انه وجه أسمر ، عادي ، مستسلم · ولكن لم يكن ثمة في بشرتها الداكنة شيء من آثار الجدري · لا ، ولم تكن شفتها العليا مشقوقة · ولمح الاقراط التي كان قد اشتراها لها تتدلى من أذنيها ، ورأى الخواتم التي كان قد قدمها اليها يلمع ذهبها المموه في أصابع يديها · وأشاح بصره عنها في ابتهاج مكبوت · حسنا ، لقد فاز بزوجته ! وقال في صوت أجش :

ـ دونك هذا الصندوق وهذه السلة · »

ومن غير أن تنطق بكلمة ، انحنت فرفعت احد طرفي الصندوق ووضعته على كتفها ، ثم حاولت أن تنهض مترنحة تحت ثقله · ولاحظها على هذه الحال ثم قال فجأة :

ـ « سوف أحمل أنا الصندوق · دونك السلة · »

وحول الصندوق الى ظهره هو ، غير عابىء بثوبه ، الذي كان أحسن أثوابه على الاطلاق ، وأمسكت هي بيد السلة معتصمة بالصمت ما تزال · وفكر في الاروقة المئة التي اجتازها في ذلك البيت الكبير وبمنظره المضحك تحت ثقله

هذا · وغمغم :

ـ « أليس ثمة باب خلفي ··· »

فأومأت برأسها ـ بعد شيء من التفكير ـ أن نعم ، وكأنها لم تفهم في سرعة ما الذي قاله · فقادته عبر فناء صغير مكسو بالاعشاب البرية الى حد كاد يغطي بركته نفسها · وهناك ، تحت شجرة صنوبر مائلة ، كان باب مستدير عتيق ، دفعته المرأة فانفتح · حتى اذا اجتازاه وجدا نفسيهما في الشارع ·

ومرة أو مرتين التفت ليراها · كان وجهها العريض خاليا من كل تعبير، وكانت هي تمشي الهوينا على قدميها الضخمين وكأنها قد مشت طوال عمرها هناك · حتى اذا بلغ باب السور وقف مترددا ، ومد احدى يديه الى زناره التماسا للبنسات التي بقيت معه ، مثبتا الصندوق على كتفه باليد الاخرى · وأخرج بنسين واشترى بهما ست دراقات صغيرة خضراء ·

وقال في صوت أجش :

ـ « خذي هذه وكليها ، انها لك · »

فانتزعتها منه في مثل شره الاطفال · وضغطت أصابع يدها عليها من غير أن تنبس بكلمة· حتى اذا نظر اليها كرة ثانية فيما كانا يمشيان عند حافة حقل الذرة كانت تعض احدى الدراقات في احتراس ، ولكن ما ان لمحته ينظر اليها حتى غطتها بيدها كرة أخرى ، وكفت عن تحريك فكيها ·

وهكذا واصلا سيرهما حتى بلغا الحقل الغربي حيث نهض هيكل الاهة الارض · وكان هذا الهيكل بناء صغيرا لا يزيد ارتفاعه في الجملة على ارتفاع منكبي رجل ، مشيدا من آجر رمادي ، مسقوفا بالقرميد · كان جد وانغ لانغ ، الذي سبق ان حرث هذه الحقول نفسها التي يسلخ وانغ لانغ حياته اليوم عليها ، قد بنى ذلك الهيكل ناقلا الآجر من المدينة على متن عربة من عربات اليد ذات عجلة واحدة · لقد طليت الجدران ، من خارج، بالجص ، ولقد كلف فنان قروي في احدى سنوات الخصب والاقبال ، بأن يرسم فوق الجص الابيض مشهدا يمثل هضابا وخيزرانا · ولكن الغيث جاد هذا الرسم طوال سنوات وسنوات حتى لم يبق من صورة الخيزران غير ظل واهن وهمي وحتى لم يبق من صورة الهضاب أيما شيء تقريبا ·

وفي داخل الهيكل ، تربع تحت السقف ، على نحو مستكن ، صنمان صغيران طينيان ، اذ كانا مصنوعين من ثرى الحقول المحيطة بالهيكل · كان هذان الصنمان هما الاله نفسه وزوجته · وكانا يرتديان ثوبين من ورق أحمر ومذهب ، وكان للاله شاربان من شعر حقيقي خفيفان متهدلان · وكل عام ، في

عيد رأس السنة ، كان والد وانغ لانغ يشتري بضع طلحيات من الــورق الاحمر ويفصلها في عناية ويلبس كلا من الزوجين المقدسين ثوبا جديدا يلصقه على جسده ٠ وكل عام ، كان المطر والثلج يتسربان الى داخل الهيكل وكانت شمس الصيف ترسل أشعتها قوية نافذة فتتعاون هذه كلها على اتلاف ثوبيهما ٠

أما في تلك اللحظة بالذات ، فكان الثوبان ما يزالان جديدين ، لان السنة كانت طفلة تحبو ، ولقد كان وانغ لانغ فخورا بمنظرهما الانيق ٠ وتناول السلة من ذراع المرأة ، وراح يبحث في عناية ، تحت لحم الخنزير ، عن عــودي البخور اللذين كان قد اشتراهما ٠ لقد خشي أن يكونا قد انكسرا ، وخليق بذلك لو حدث أن يكون نذيرا بشؤم ، ولكنهما كانا سليمين لم يصابا بأي أذى٠ حتى اذا عثر عليهما غرس أحدهما الى جانب الآخر في رماد أعواد البخور الاخرى المكدسة أمام الالهين ، ذلك بأن أبناء المحلة كلهم كانوا يعبدون هذين الصنمين الصغيرين ٠ ثم انه بحث عن قدأحته العتيقة واستخرج ، بواسطة ورقة نبات يابسة قامت عنده مقام الصوفان ، شرارة يشعل بها عودي البخور٠

ومثل الرجـل والمرأة جنبـا الى جنـب بين يدي الاهي حقولهمـا ٠ وراقبت المـرأة طرفي العودين يحمران ثم يحـولان رماديين ٠ حتـى اذا تكاثف الرماد انحنت الى أمام واسقطت بسبابتها الجزء الاعلى منه٠ ثم سارعت ـ وكأنها خشيت أن يكون ما أقدمت عليه تصرفا أحمق ـ الـى النظر الـى وانغ لانغ بعينين خرساوين ٠ ولكن كان ثمة شيء أحبه في حركتها ٠ لكأنما شعرت أن البخور ملك لهما كليهما ٠ كانت تلك لحظة اتحادهمـا بالزواج ٠ ولقد وقفا هناك ، جنبا الى جنب ، وكأن على رأسيهما الطير ، فيمـا كـان البخور يحور رمادا ٠ وبعد ذلك وضع وانغ لانغ الصندوق على كتفه ، فقد كانت الشمس تجنح للغروب ، واتخذا سبيلهما الى المنزل ٠

وعند باب المنزل كان الرجل العجوز واقفا استمتاعا بالبقية الباقية من أشعة الشمس ٠ ولم يبد حراكا عندمـا اقترب وانغ لانغ تصحبه زوجتـه ٠ لقد كان لا يتفقّ وكبرياءه ان يلقي اليها بالا ٠ وهكذا تظاهر بالاستغراق في تأمل الغيوم ، وصاح :

ـ « هذه السحـابة المعلقة عند القرن الايسر مـن القمر الجديد تؤذن بهطول المطر ٠ انه لا بد ان ينهمر قبل مساء الغد ٠ »٠

حتى اذا رأى وانغ لانغ يأخذ السلة من المرأة صاح كرة أخرى :

ـ « وهل أنفقت شيئا من المال ؟ »

ووضع وانغ لانغ السلة على الطاولة ٠ وقال موجزا :

ـ « سوف يكون عندنا زوار الليلة ٠ »

وحمل الصندوق الى الحجرة التي يرقد فيها ، ووضعه الى جانب الصندوق الذي كان يحتوي ملابسه · وألقى عليه نظرة غريبة · ولكن الرجل العجوز تقدم نحو الباب ، وقال في ذرابة :

ـ « يبدو أنه لن يكون لانفاق المال نهاية في هذا المنزل ! »

أما في اعماق نفسه فكان سعيدا بدعوة ابنه بعض الضيوف ، ولكنه استشعر ان من الخير ان لا يطلق شيئا غير الشكاوى على مسمع كنته الجديدة خشية ان تنزلق قدمها منذ البدء في سبل التبذير والاسراف · ولم ينبس وانغ لانغ ببنت شفة ، ولكنه غادر الحجرة ، وحمل السلة الى المطبخ فتبعته المرأة الى هناك · وأخرج من السلة ما اشتراه من صنوف الطعام صنفا بعد صنف ، ووضعه على افريز المستوقد البارد وقال لها :

ـ « هو ذا لحم خنزير وهو ذا لحم بقر وسمك · إن مائدتنا سوف تضم سبعة أشخاص · هل تعرفين كيف تعدين الطعام ؟ »

ولم ينظر الى المرأة فيما كان يتكلم · فخليق بذلك ان لا يكون لائقا · وأجابت المرأة في صوتها الجلي :

ـ « لقد كنت جارية من جواري المطبخ منذ دخولي بيت هوانغ · لقد كان ثمة لحم في كل وجبة من وجبات الطعام · »

وهز وانغ لانغ رأسه علامة الاستحسان ، وفارقها ولم يرها كرة ثانية الا بعد ان أقبل الضيوف متدافعين : عمه ، وقد غلب عليه الجذل والرياء والجوع وابن عمه وكان فتى وقحا في الخامسة عشرة ، والفلاحون وكانوا خرقا يبتسمون في استحياء · كان اثنان منهم من أبناء القرية التي كان وانغ لانغ يتبادل معها البذار واليد العاملة في موسم الحصاد ، وكان أحدهم جاره الادنى ، تشينغ ، وهو رجل ضئيل الجسم ، هادىء ، غير راغب في الكلام البتة فهو لا يتحدث الا اذا أكره على ذلك · وبعد أن استقر بهم المقام في الحجرة الوسطى ، متظاهرين بالترصن غير راغبين ـ من باب التأدب والكياسة ـ في ان يجلسوا على الكراسي مضى وانغ لانغ الى المطبخ ليعرض على المرأة مساعدته · ولقد سره ان تقول له :

ـ « سوف أناولك الصحاف اذا ما رغبت في وضعها على المائدة · انا لا أريد ان أبرز للرجال · »

واستشعر وانغ لانغ اعتزازا عظيما بأن تكون هذه المرأة زوجة له وان لا تخشى البتة ان تظهر أمامه ، على حين تخشى الظهور أمام الآخرين · وتناول الصحاف من يدها عند باب المطبخ ، ووضعها على المائدة في الحجرة الوسطى وصاح :

ـ « كلوا ، يا عمي ويا اخوتي ، هنيئا مريئا • »

وعندما قال له عمه ، الذي كان يحب المزاح :

ـ « ألن نرى العروس الرشيقة مثل العثة ؟ »

أجاب وانغ لانغ في جزم :

ـ « نحن لم نصبح بعد شخصا واحدا • وليس من اللائق أن يراها الرجال الآخرون قبل ان يتم الزواج • »

وحثهم على الاكل ، فأكلوا في شهية من ذلك الطعام الجيد ـ أكلوا في شهية وفي صمت • لقد أطرى أحدهم الصلصة السمراء المعدة مع السمك ، وأطرى آخر لحم الخنزير المطهو طهوا حسنا ، فكان وانغ لانغ يجيب في كل مرة :

ـ « انها من نوع رديء • لقد أعدت اعدادا سيئا • »

اما في اعماق ذاته فقد كان فخورا بتلك الاطباق ، لان المرأة كانت قد مزجت بما وضع في متناولها من لحم مقادير من سكر وخل وقليلا من خمر ومن صلصة الصويا ، وكانت قد اعتصرت ـ في براعة ـ كامل قوة اللحم نفسه ، حتى ان وانغ لانغ ذاته لم يذق قط مثل هذه الاطباق على موائد اصدقائه •

وتلك الليلة ، بعد أن سلخ ضيوفه وقتا طويلا في احتساء الشاي وبعد ان فرغوا من تبادل النكات ، أقامت المرأة على غدوها ورواحها خلف المستوقد • حتى اذا ودع وانغ لانغ آخر ضيف من ضيوفه وانقلب الى المنزل وجدها جاثمة هناك فوق أكوام القش وقد استسلمت للنوم الى جانب الثور • وكان القش يشوب شعرها عندما أيقظها وحين ناداها رفعت ذراعها فجأة وهي بعد نائمة وكأنما أرادت ان تقي نفسها من ضربة صوبت اليها • حتى اذا فتحت عينيها آخر الامر رمقته بنظرتها الغريبة الخالية من كل تعبير ، فاستشعر وكأنه يواجه طفلا من الاطفال • وأمسك بيدها وقادها الى الحجرة التي اغتسل فيها ، ذلك الصباح ، من أجلها ، وأضاء شمعة حمراء قائمة على المائدة • وفي ذلك الضياء استبد به الحياء ، فجاة ، عندما وجد نفسه مع تلك المرأة في غرفة واحدة ليس فيها ثالث ، واضطر الى ان يذكر نفسه قائلا :

ـ « هذه المرأة هي زوجتي ، وليس من القيام بهذا الامر مناص • »

وشرع يخلع ثيابه في حزم • أما المرأة فانسلت حول زاوية الستارة وأنشأت تأخذ زينتها الليلية من غير ما ضجة • وقال وانغ لانغ في صوت أجش :

ـ « عندما تضطجعين أطفئي النور أولا ٠ »
ثم انه استلقى على السرير وسحب اللحاف الغليظ مغطيا كتفيه ، وتظاهر بأنه ينام ٠ ولكنه لم ينم ٠ لقد استلقى مرتعد الاوصال ، وكل عصب من أعصابه يقظ متوفز ٠ حتى اذا انسلخت فترة طويلة ، وخيم الظلام على الحجرة ، وأحس بالمرأة تنسل الى جانبه في حركة بطيئة صامته ، استبد به تهلل عارم كان خليقا به ان يسحق جسده ٠ وأطلق في الظلام ضحكة مبحوحة ، وضم المرأة بكلتا ذراعيه الى صدره ٠

٢

لقد اكتشف الآن ترف العيش ٠ ففي صباح اليوم التالي لزم سريره وراح يراقب المرأة التي أمست منذ اليوم ملكه بكل ما في الكلمة من معنى ٠ لقد نهضت ، وارتدت ملابسها الفضفاضة وأحكمت شدها حول حنجرتها وخصرها ، مسوية اياها على جسدها بانتفاضة وانعطافة رفيقتين ٠ ثم انها ادخلت قدميها في حذائها القماشي وأحكمت انتعاله بواسطة الطوقين المتدليين في الجزء الخلفي منه ٠ وصوب الضياء أشعته عليها من خلال الثقب الصغير ، فرأى وجهها على نحو غامض ٠ لقد بدا وكأنه لم يتغير البتة ٠ ولقد كان هذا مثار دهش عند وانغ لانغ ٠ أما هو فقد استشعر وكأن الليل قد غيره من غير ريب ٠ ومع ذلك فها هي ذي هذه المرأة تنهض من فراشها وكأنها تفعل ذلك منذ ان أبصرت النور ٠ وارتفع سعال العجوز ، متشكيا متذمرا ، مع الضحى الاغبش ، فقال لها :
ـ « احملي الى أبي ، اولا ، طاسة ماء حار يطري به رئتيه ٠ »
فسألته بمثل نبرة صوتها حين تحدثت أمس :
ـ « وهل أسقط له فيها بعض وريقات الشاي ؟ »
هذا السؤال أزعج وانغ لانغ ٠ كان يود لو يجيبها بقوله : « طبعا يجب ان تسقطي فيه بعض الوريقات ٠ هل تحسبيننا شحاذين ؟ » وكان يود لو فكرت أنهم في هذا المنزل لا يقيمون وزنا لوريقات الشاي ٠ ففي بيت هوانغ ، طبعا ، كانت كل طاسة من طاسات الماء خضراء بوريقات الشاي ٠ ولعل الجواري أنفسهن كن ، هناك ، لا يشربن الماء صرفا ٠ ولكنه كان يعلم ان أباه سوف يغضب اذا ما قدمت المرأة اليه الشاي ، بدلا من الماء ، في اول يوم من ايامها في بيته ٠ وفوق هذا ، فأنهم لم يكونوا ، في الواقع ،

أثرياء • ومن أجل ذلك أجابها في لا مبالاة :

ـ « شاي ؟ لا ••• لا ••• انه يزيد سعاله سوءا على سوء » •

ولم يبرح سريره ، مستمتعا بالدفء ، فيما كانت المرأة في المطبخ تذكي النار وتغلي الماء • كان يتمنى لو ينام الآن ، وقد أمسى قادرا على ذلك • ولكن جسده الاحمق ـ الذي كلفه طوال هذه السنوات السالفة ان ينهض من الفراش في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ـ أبى ان ينام ، على الرغم من الفرصة المتاحة له ، وهكذا ظل مستلقيا هناك متذوقا في عقله وفي بدنه لذة الكسل ، متمطقا بها •

كان لا يزال نصف مستحي من التفكير بامرأته هذه • لقد فكر بضع لحظات في حقوله وفي حبات القمح ومقدار الغلة التي ستجود الارض بها عليه اذا ما هطل الغيث ، وببذار اللفت الابيض الذي كان يرغب في شرائه من جاره ، تشينغ ، اذا ما استطاعا الاتفاق على سعر • ولكن فكرة جديدة تداخلت الآن وسط جميع هذه الفكرات التي كان من دأبها ان تشغل ذهنه كل يوم • لقد فكر في حياته الحاضرة ، وخطر له فجأة ـ وهو يستعيد في مخيلته صورة الليلة البارحة ـ ان يتساءل هل أحبته • ولقد كان هذا تساؤلا جديدا حقا • فهو لم يتساءل من قبل الا عن شيء واحد : هل ستقع من قلبه موقعا حسنا وهل ستملأ الفراغ في فراشه وفي بيته ؟ فعلى الرغم من وجهها العادي وبشرة يديها الخشنة كان لحم جسدها الضخم بضا لم يمس ، ولقد ضحك حين فكر في ذلك نفس ضحكته العالية التي أطلقها في الظلام ، الليلة البارحة • ان السادة الصغار لم يروا ، اذن ، من جارية المطبخ غير ذلك الوجه الذي يعوزه الجمال • لقد كان جسدها جميلا ، هزيلا، ولكنه مع ذلك ممتلىء ناعم • وود ، فجأة ، لو يحظى بحبها بوصفه زوجها ، وعندئذ غلب عليه الحياء •

وفتح الباب ، ودخلت زوجته ، على طريقتها الصامتة ، حاملة اليه بيديها الاثنتين طاسة يتصاعد منها البخار • واستقام قاعدا في سريره وتناول الطاسة منها • كان ثمة وريقات شاي تطفو على سطح الماء • ورفع بصره نحوها في عجل • فاستبد بها الخوف فجأة ، وقالت :

ـ « انا لم احمل شيئا الى الرجل العجوز ••• لقد فعلت كما امرتني ••• اما اليك فقد •••• »

ولاحظ وانغ لانغ انها خائفة منه ، فسره ذلك وأجابها قبل ان تتم كلامها :

ـ « انا أحبه ••• انا أحبه ••• »

وترشف الشاي في جرعات صارخة بالمتعة ·

وفي حنايا نفسه كان هذا التهلل الجديد الذي استحيا من ان يوضحه حتى لفؤاده : « أن زوجتي هذه تحبني حبا جما ! »

لقد بدا له أنه ، خلال الاشهر التالية ، لم يفعل شيئا غير مراقبة زوجته هذه · اما في الواقع فقد اشتغل كدأبه كل يوم · لقد القى معزقته على منكبه ، ومضى الى أرضه ، فحرث الحبوب ، وشد الثور بالنير ، الى المحراث ،، وفلح الحقل الغربي ابتغاء زرعه ثوما وبصلا · ولكن العمل كان ترفا ، فما ان تبلغ الشمس سمت الرأس حتى كان وانغ لانغ ينقلب الى منزله فيجد طعامه معدا محضرا ، والغبار منفوضا عن المائدة ، والاطباق وعيدان الاكل موضوعة فوقها في ترتيب حسن · وكان حتى ذلك الحين يتعين عليه ان يعد الطعام لدن رجوعه الى البيت ، مهما كان مجتهدا ، الا اذا استشعر ابوه العجوز الجوع قبل الاوان فمزج قليلا من الدقيق بالماء ، او خبز من غير خميرة رقاقة صغيرة لكي يلفها على ساق ثوم ·

اما الآن فكان اذا رجع الى بيته الفى طعامه ، مهما تكن الظروف ، جاهزا ، فكان يجلس الى المائدة ويباشر الاكل في الحال · كانت أرض البيت الطينية مكنوسة وكان الوقود قد جدد ركامه · ذلك ان المرأة كانت تأخذ قشاشة الخيزران ، بعيد مغادرته المنزل صباحا ، وحبلا فتطوف بهما في الريف جانية ههنا قليلا من عشب وجامعة ههناك غصنا بعد غصن او حفنة من ورق الشجر · حتى اذا كان الظهر انقلبت الى البيت مزودة بوقود يكفيها مؤونة اعداد الغداء · لقد سر الرجل ان يصبحوا ، منذ اليوم ، في غنى عن شراء الوقود ·

وبعد الظهر كانت تأخذ معزقة وسلة وتلقيهما على كتفها لتمضي الى الطريق الرئيسية المؤدية الى المدينة حيث كانت البغال والحمير والخيل تروح وتجيء موقرة بالاثقال ، وهناك كانت تلتقط روث الحيوانات وتحمله الى البيت فتركمه عند مدخله ابتغاء اصطناعه سمادا للحقول · وانما كانت تفعل ذلك كله من غير ان تنبس بكلمة ومن غير ان تؤمر به · حتى اذا هبط الليل لم تفزع الى الراحة الا بعد اطعام الثور في المطبخ ، والا بعد ملء الدلو بالماء ووضعه تحت خطمه ليشرب منه ما شاء ·

وكانت تعمد الى ملابسهما البالية ، وبخيط غزلته هي بنفسها على وشيعة خيزرانية من لبدة قطن كانت ترفو ثيابهما الشتوية وتحاول ترقيعها · وكانت تنشر الفرش على العتبة ، تحت أشعة الشمس ، وتجرد اللحف من

أغطيتها لتغسل هذه الاغطية وتنشرها على عود من الخيزران لتجف · اما القطن الذي حشيت به اللحف والذي غدا بتطاول السنين رماديا قاسيا فكانت تندفه قاتلة الهوام المعشعشة في الثنايا المخبوءة ثم تشمسه · وكل يوم كانت تنهض بعمل جديد حتى لقد بدت الغرف الثلاث نظيفة بل مترفة او تكاد · وخفت وطأة السعال على الرجل العجوز ، فكان يقعد في الشمس عند الجدار الجنوبي من المنزل ، راضيا دافئا نصف وسنان دائما ·

ولكن هذه المرأة ما كانت لتتكلم ، الا اذا قضت بذلك ضرورات الحياة الموجزة · وكان وانغ لانغ يراقبها وهي تنتقل على قدميها الضخمتين في بطء وفي اطراد ، من غرفة الى غرفة ويراقب خلسة وجهها البليد الممتلئ ، ونظرات عينيها نصف الخائفة ، فلا يفهمها البتة · لقد عرف ، في الليل ، جسدها الناعم المكتنز · اما في وضح النهار فكانت ملابسها ، سترتها وسروالها القطنيان الازرقان البسيطان ، يحجبان كل ما عرفه منها ، ولقد كانت أشبه ما تكون بخادم مخلصة بكماء ، خادم ليس أكثر ولا أقل · ولم يكن من اللائق ان يقول لها : « لماذا لا تتكلمين ؟ » كان حسبه انها تؤدي واجبها كاملا ·

وبعض الاحيان ، فيما هو يعمل في الحقول ، كان يستغرق في التفكير فيها · ما الذي رأته في تلك الاروقة المئة ؟ اي شيء كانت حياتها ، هذه الحياة التي لم تشاطره اياها قط ؟ انه لم يفهم من ذلك شيئا · والى هذا ، فقد كان خجلا من فضوله ومن اهتمامه البالغ بها · انها لم تكن ، على أية حال ، غير امرأة ·

* * *

ولكن ثلاث غرف ووجبتي طعام في اليوم لا تكفي لالهاء امرأة كانت جارية في بيت كبير ، جارية تعمل من ارتفاع الضحى حتى انتصاف الليل · وذات مرة فيما كان وانغ لانغ في شغل شاغل بالقمح النامي ، يعزق الارض من حوله بمعوله يوما بعد يوم حتى لقد اختلج ظهره من الكلال ، وقع على الثلم الذي كان ينحني فوقه ، وهناك وقفت ، وعلى منكبيها معزقة ·

وقالت له موجزة :

ـ « ليس لدي اي عمل في البيت حتى يهبط الليل » ·

ومن غير أن تنطق بكلمة اضافية انصرفت الى الثلم الذي الى يساره ، وراحت تعزقه عزقا موصولا ·

ورشقتهما الشمس بأشعتها ، اذ كان الصيف قد أطل ، فاذا بالعرق يقطر من وجهها · ونزع وانغ لانغ سترته فهو عاري الظهر ، أما هي فقد

اشتغلت وثوبها يغطي كتفيها ، وسرعان ما أمسى ذلك الثوب نديا دبقا يكاد يلتصق ببشرتها · ومن غير أن ينطقا بكلمة ، عملا كلاهما في تناغم كامل ، ساعة بعد ساعة ، وانتهى الى ضرب من الاتحاد بها جعل كدحه خلوا من الالم · ان أيما فكرة جلية لم تراود ذهنه ، فلم يكن غير هذا التساوق في الحركة التي قلبا بها أرضهما ظهرا لبطن ابتغاء تعريضها للشمس ، هذه الارض التي كانت لهما وطنا ، والتي أطعمت جسديهما ، وصنعت الهتهما · كانت خصبة سوداء ، وكانت تنهار في يسر تحت رأسي معوليهما · لقد أخرجا من الارض ، في بعض الاحيان ، كسرة من آجر أو شظية من خشب · ولم يكن ذلك شيئا · فمنذ أجيال وأجيال ، دفنت هناك جثث رجال ونساء ، ونهضت بيوت ثم انهارت وارتدت الى الارض · وهذا عينه هو المصير الذي سيؤول اليه بيتاهما ، في يوم من الايام ، وجسداهما أيضا · ان لكل دوره في هذه الارض · وتابعا عملهما ، متحركين معا ، منتجين ثمر هذه الارض معا ، في صمت وفي اتحاد ·

حتى اذا غربت الشمس ، تصدر بطيئا ونظر الى زوجته · كان وجهها مبللا مخططا بالطين · كانت سمراء كالارض نفسها · وكانت ملابسها الندية القاتمة تلتصق بجسدها الممتلىء · وملست ، في بطء ، ثلما أخيرا · ثم انبرت تقول في سكون الليل ، بلا مبالاتها المألوفة ، وبصوت رتيب اكثر من المعتاد خلو من التعبير اكثر من المعتاد ايضا :

ـ « اني حامل » ·

ولم يحر وانغ لانغ جوابا · وهل من سبيل الى الكلام في مثل هذا الموقف ! وانحنت لتلتقط كسرة آجر وقذفتها بعيدا عن الثلم · لكأنها كانت قد قالت : « لقد جئتك بفنجان شاي » أو لكأنها قد قالت : « الطعام جاهز » · لقد بدت المسألة عادية ، عندها ، الى هذا الحد ! أما بالنسبة اليه ··· لقد عجز عن أن يقول اي شيء كان ذلك بالنسبة اليه · لقد تضخم فؤاده وتوقف عن الحركة فكأنه لن يخفق بعد أبدا · حسنا ، لقد حان دورهما للافادة من هذه الارض !

وفجأة أخذ المعول من يدها وقال وصوته يكاد يموت في حنجرته :

ـ « حسبك ما بذلت من جهد · لقد انسلخ النهار · سوف نخبر الرجل العجوز » ·

وانطلقا نحو البيت ، وقد تخلفت وراءه بضع خطوات ، كما ينبغي للمرأة أن تفعل · كا ن الرجل العجوز واقفا بالباب ، ينتظر طعام العشاء ، فقد أقلع منذ ان وفدت المرأة على المنزل عن اعداد طعامه بنفسه · وصاح بفروغ صبر :

ـ « انا أعلى سنا من أن أنتظر طعامي على هذه الشاكلة » ٠
ولكن وانغ لانغ تقدمه الى الغرفة ، وقال :
ـ « انها حامل » ٠
لقد حاول أن يقولها بمثل السهولة التي يقول بها المرء : « لقد نثـرت البذار ، اليوم ، في الحقل الغربي » ٠ ولكنه لم يستطع ٠ وعلى الرغم مـن انه تكلم في صوت خفيض فقد بدا له وكأنه قد هتف بتلك الكلمات بنبرة أعلى مما اعتزم أن يفعل ٠
وطرفت عين الرجل العجوز لحظة ، ثم فهم ، ونقنق ضاحكا ٠
ونادى كنته وهي مقبلة :
ـ « هه ، هه ، هه ٠٠٠ الحصاد منتظر اذن ! »
ولم يكن في ميسوره أن يرى محياها في الغسق ، ولكنها قالت في بساطة :
ـ « سوف أعد الطعام الان » ٠
فقال الرجل العجوز في لهفة لاحقا بها الى المطبخ مثل طفل :
ـ « اجل ٠٠٠ اجل ٠٠٠ »
وكما سبق للتفكير في الحفيد أن انساه طعامه كذلك جعله تصور الطعام أمامه ، الان ، ينسى ذلك الطفل ٠
ولكن وانغ لانغ جلس الى المائدة ، على مقعد خشبي ، تحت جنح الظلام وأراح رأسه على ذراعيه المتصالبتين ٠ فمن جسده هذا ، من صلبه نفسه ، سوف تنبثق حياة !

٣

وعندما دنت ساعة الولادة قال لزوجته :
ـ « يجب ان نستدعي من يساعدك عندما تحين الساعة ٠٠٠ قابلة مـن القوابل ٠٠٠ »
ولكنها هزت رأسها علامة الرفض ٠ كانت تنظف الاطبـاق بعد طعام العشاء ٠ وكان الرجل العجوز قد آوى الى مضجعه ، وقد بقيا هما وحدهما في الظلام وليس ينير ما حولهما غير الضياء الذي كانت تسفحه عليهما شعلة أرسلها مصباح صفيحي صغير مفعم بزيت اللوبياء طاف على سطحه ، بـدلا من الفتيلة ، خيط قطني مفتول ٠

وسألها في ذعـــر :

كان قد بدأ يألف ، الان ، هذه المحادثات التي كانت تدور بينه وبينها ، والتي كان دورها فيها لا يزيد ، الا قليلا ، على حركة من حركات الرأس أو اليد ، أو على كلمة عرضية تند ــ في احسن الاحوال ــ على نحو غير ارادي من فمها العريض · بل لقد انتهى الى ان لا يجد ايما نقص او فراغ في هــذا الضرب من المحادثة ·

وتابع كلامه قائلا :

ــ « ولكن سوف يكون من المستهجن ان لا يشتمل البيت الا على رجلين ! لقد كانت لامي قابلة من القرية · أنا لا اعرف أيما شيء من هذه الاشياء · أليس ثمة شخص ما في البيت الكبير ··· جارية عجوز كانت صديقة لك مثلا وتستطيع أن تأتي ؟ »

كانت هذه هي أول مرة اشار فيهـــا الى البيت الذي أقبلت منـــه · فاستدارت نحوه في سيما لم يرها على وجهها قط من قبل ، وقد اتسعت عيناها الضيقتان ، واهتاج وجهها بغضب كليل ·

ــ « لا ، لا يوجد أيما شخص في ذلك البيت ! »

واطرح غليونه ، وكان قد شرع يحشوه ، وحدق اليها · ولكن وجههـــا ما لبث أن استعاد سيماه المألوفـــة ، وكانت تجمع عيدان الطعام وكأنمـــا لم تنطق بكلمة ·

وقال في دهش :

ــ « حسنا ، هي ذي مشكلة ! »

ولكنها لم تقل شيئا · فواصل محاولة اقناعها :

ــ « نحن الرجلين ··· نحن لا كفاءة لنا في ميدان التوليد · وفي مـــا يتعلق بوالدي ، ليس من اللائق ان يدخل غرفتك · أما أنا فلم يقدر لي ان أرى ولو بقرة تضع حملها · ان يدي الخرقاوين قد تشوهان الوليد · فلنستعن بشخص ما من البيت الكبير حيث تلد الجواري على نحو موصول ··· »

كانت قد ركمت عيدان الطعام ، في عناية وحسن تنسيق ، على المائدة ، ورنت اليه لحظة ، ثم قالت :

ــ « لن أرجع الى ذلك البيت الا وولدي بين ذراعي · سوف ألبسه سترة حمراء وبنطلونا صورت عليه زهرات حمر ، وسوف أضع على رأسه قبعـــة خيط في مقدمتها رسم لبوذا مذهب ، وأنعله حذاء على وجهه صورة نمـــر · ولسوف أرتدي أنا حذاء جديدا وسترة جديـــدة من الاطلس الاســـود ولسوف أمضي الى المطبخ الذي قضيت فيه أيامي السالفة وأدخل القاعة الكبرى حيث

تجلس السيدة العجوز تدخن افيونها لكي يروني جميعا ويروا ولدي » ·

انه لم يسمعها تنطق بمثل هذا العدد الكبير من الكلمات قبل اليوم قط · لقد انبجست من فمها في ثبات وفي غير ما انقطاع ، على الرغم من انها انبجست في تؤدة ، وأدرك انها بيتت ذلك كله في ما بينها وبين نفسها منذ فترة غير يسيرة · لقد وضعت هذه الخطة كلها وهي تعمل الى جانبه في الحقول ! يا لها من امرأة مدهشة ! ذلك بأنه كان يظن ، اذ يراها عاكفة على عملها اليومي الشاق ، انها لا تفكر في الوليد الا نادرا · فاذا به يكتشف ، على العكس ، انها تخيلت هذا الوليد ، وقد ابصر النور وكسي كسوة كاملة وتخيلت نفسها ، بوصفها أمه ، في ملابس جيدة ! وألفى نفسه ، هو ، هذه المرة ، عاجزا عن الكلام · فكور تبغه ، في شيء من الكد ، بين أبهامه وسبابته ، وتناول غليونه فوضع التبغ في جرنه ·

وأخيرا قال في فظاظة واضحة :

ـ « أحسب انك سوف تحتاجين الى بعض المال ··· »

فقالت في وجل :

ـ « ارجو أن تعطيني ثلاث قطع فضية · انه مبلغ ضخم ، ولكني حسبت في كثير من الدقة ولن أفرط بفلس واحد منه · ولسوف أحمل بائع الاقمشة على ان يعطيني حقي وزيادة » ·

والتمس وانغ لانغ المال في زناره · كان أمس قد باع في سوق المدينة حملا ونصف حمل من قصب البركة في الحقل الغربي ، وكان في زناره مقدار من المال يزيد قليلا على ما رغبت زوجته في الحصول عليه · فوضع القطع الفضية الثلاث على المائدة ، ثم أضاف اليها ـ بعد تردد يسير ـ قطعة رابعة كان قد احتفظ بها منذ عهد طويل لعل نفسه نازعته ذات صباح الى المقامرة بعض الشيء في صالة الشاي · ولكنه لم يذهب قط الى أبعد من الطواف حول الموائد والقاء نظرة على النرد يلقيه مطقطقا على المائدة ، خشية أن يخسر اذا ما لعب · وكانت قدماه تتنهيان به عادة الى قضاء أوقات فراغه في البلدة في كشك الحكاء حيث كان في ميسور المرء أن يصغي الى حكاية قديمة ولا يدفع غير بنس واحد حين يدار الطاس لجمع الاجر من المستمعين ·

وقال ، مشعلا غليونه فيما هو يتكلم نافخا ، في سرعة ، على الثقاب الورقي لاضرام النار فيه :

ـ « من الخير لك ان تأخذي القطعة النقدية الاخرى أيضا · فلن يكون ثمة بأس في ان تخيطي سترته من بقية باقية من نسيج حريري · انه بكرنا ، على أية حال » ·

ولم تأخذ القطع النقدية ، على التو ، ولكنها وقفت تنظر اليهـــا ، جامدة الوجه · ثم قالت في صوت يجاور الهمس :

ـ « لاول مرة تنضم أصابع يدي على نقد فضي » ·

وفجأة اخذت القطع واطبقت اصابعها عليها وهرعت الى حجرة النوم·

وقعد وانغ لانغ يدخن ، مفكرا في القطع الفضية التـــي طرحها على المائدة · لقد تفجرت هذه القطع الفضية من الارض ، من أرضه التي حرثهـا وقلبها ظهرا لبطن ووقف جهده كله على خدمتها · لقد استمد حياته من هذه الارض · وبقطرة أثر قطرة من عرق جبينه جنى منها الغلال ، ومن هذه الغلال جنى الفضة · كان كلما قدر عليه قبل اليوم ، ان يخرج بعض القطع النقدية الفضية من زناره ليعطيها زيدا او عمرا يستشعر وكأنه ينتزع قطعة مـــن حياته ويقدمها اليه · أما الان ، فان هذا الاعطاء لم يورثه ـ للمرة الاولى في حياته ـ أيما ألم · ذلك بأن ماله لم ينتقل هذه المرة الى يد أجنبية ، يد تاجر من تجار المدينة · لقد رأى الفضة تتحول الى شيء يفوق قيمتها نفسها ـ الى ثياب تكسو جسد ولده · وامرأته الغريبة هذه ، التي لا تفتأ تعمل من غير أن تقول شيئا والتي يبدو وكأنها لا ترى شيئا ، كانت هي أول من رأى الولـد مكسوا على هذا النحو ·

لقد رفضت ، عندما أزفت ساعة الميلاد ، ان يكون الى جانبها أحـد · وانما أزفت هذه الساعة في ساعة مبكرة من احدى الليالي بعيد غروب الشمس بلحظات يسيرة · وكان ذلك فيما هي تعمل الى جانبه في حقل الحصاد · كان القمح قد نضج ، وكانت السنابل قد حصدت ، وكان الحقل قد غمر بالماء ، وانتصب الارز الغض ، وآتى الارز أكله ونضجت سنابله وامتلأت بالحب بعد أمطار الصيف وشمس الخريف المبكر الدافئة المنضجة · لقد تعاونا طوال النهار على قطع سوق* القمح المتخلفة بعد الحصاد ، فكانا ينحنيان ويشتغلان بمنجلين قصيري المقبضين · لقد انحنت في عسر ، بسبب من الحمل الذي كان في بطنها ، ولقد كانت ابطأ حركة منه ، فاذا هما يقطعان السوق في غير تكافؤ ، واذا ثلمه ينجز قبل ثلمها · وحين انسلخت الظهيرة ودنت ساعات الاصيـل والمساء أمسى قطعها أبطأ فأبطأ ، فاستدار ليلقي بصره عليها في تبرم وفروغ صبر · وكفت عن العمل ، وتصدرت تاركة المنجل يسقط من يدها على الارض· لقد كان على وجهها عرق جديد ، عرق نضال من نوع جديد ·

وقالت :

ـ « لقد جاء المخاض · سوف أمضي الى البيت · لا تدخل الحجرة الا

* جمع ساق ·

عندما أدعوك · كل ما اطلبه منك هو أن تحمل الي قصبة قشرت منذ قريب ، وأن تشقها على نحو طولي لكي أستطيع أن أفصل حياة الوليد عن حياتي » ·

وعبرت الحقول متجهة نحو المنزل وكأن شيئا لن يحدث عما قليل ، وبعد أن أتبعها نظراته لحظة انطلق الى حافة البركة القائمة في الحقل الخارجي واصطفى قصبة خضراء نحيلة ، وقشرها في عناية وشقها بأن ضغطها على شفرة منجله · كانت ظلمة الخريف العجلى قد شرعت تهبط فتنكب منجله وانقلب الى البيت ·

حتى اذا بلغ البيت الفى عشاءه ساخنا على المائدة والفى الرجل العجوز يتناول الطعام · كانت قد قطعت مخاضها لتعد الطعام لهما ! وقال في ذات نفسه انها امرأة يعز نظيرها حقا · ثم تقدم نحو باب حجرتهما وهتف :

ـ « هي ذي القصبة ! »

وانتظر ، متوقعا ان تدعوه لحمل القصبة اليها · ولكنها لم تفعل · لقد مضت هي الى الباب ، ومدت ذراعها من خلال خصاصه ، وأخذت القصبة · ولم تنطق بكلمة ، ولكنه سمعها تلهث كما يلهث حيوان اجتاز ، عدوا ، مسافة غير قصيرة ·

ورفع الرجل العجوز بصره عن طبقه ليقول :

ـ « كل ، والا برد الطعام كله » ·

وسكت لحظة ثم أضاف :

ـ « لا ينشغل بالك عليها ··· ان ذلك سوف يستمر فترة طويلة وأنا أذكر ، يوم رزقت ولدي البكر ، ان المخاض لم ينقض الا مع الفجر · آه ، يا حسرة علي ! كم يحز في نفسي ان افكر انه من بين جميع الاولاد الذين انجبتهم والذين حملتهم أمك واحدا بعد اخر ــ وقد بلغ عددهم عشرين أو نحو ذلك ، فقد نسيت ــ لم يبق على قيد الحياة غيرك ! وهكذا ترى لماذا يتعين على المرأة أن تحمل وتحمل » ·

ثم أردف وكأن ذلك قد خطر له اللحظة :

ـ « في مثل هذا الوقت من يوم غد قد أصبح جدا لغلام ذكر ! »

وانشأ يضحك فجأة ، وكف عن الطعام ، ثم واصل ضحكه فترة طويلة في غسق الحجرة ·

ولكن وانغ لانغ ظل واقفا بالباب يصغي الى هذا اللهاث البهيمي الثقيل· ومن خصاص الباب اقبلت رائحة دم حار ، رائحة تثير الاشمئزاز اوقعت الرعب في ذات نفسه · وغدا لهاث المرأة ، في الداخل ، سريعا وعاليا ، مثل زعقات مهموسة ، ولكنها لم تطلق أيما صوت جهير · حتى اذا أمسى عاجزا

عن الاصطبار أكثر مما فعل وكاد يقتحم الحجرة اقتحاما انطلقت من وراء الباب صيحة هزيلة ضارية أنسته كل شيء ٠

وصاح في لجاجة ، ناسيا المرأة :

ـ « أهو ذكر ؟ »

وانفجرت الصيحة الهزيلة من جديد ، متموجة ملحة ٠

وصاح كرة أخرى :

ـ « أهو ذكر ؟ أجيبيني عن هذا السؤال على الاقـــل ـ أهو غلام ؟ »

فأجابه صوت المرأة واهنا مثل صدى :

ـ « ذكر ! »

عندئذ مضى وجلس الى المائدة ٠ ما أسرع ما تم ذلك كله ! كان الطعام قد برد منذ فترة طويلة ، وكان الرجل العجوز قد استسلم للرقاد فوق مقعده الخشبي ، ولكن ما أسرع ما تم ذلك كله ! وهز منكب الرجل العجــوز وهتف مظفـــرا :

ـ « انه غلام ذكر ٠ لقد اصبحت أنت جدا وأصبحت أنا أبا ! »

وأفاق الرجل العجوز فجأة ، وشرع يضحك كما قد ضحك عندما استسلم للرقاد ٠ ونقنق بقوله :

ـ « أجل ٠٠٠ أجل ٠٠٠ طبعا ٠٠٠ جد ٠٠٠ جد ٠٠٠ »

ونهض ، ومضى الى فراشه ، وهو لا يزال يضحك ٠

وتناول قصعة الارز البارد ، وأنشأ يأكل ٠ لقد استبد به ، فجأة ، جوع شديد ، ولم يكن في ميسوره أن يقحم الطعام في فمه بسرعة كافيــة ٠ وفــي الحجرة ، كان في استطاعته ان يسمع المرأة تتحامل على نفسها ، وان يسمع صراخ الوليد متواليا ثاقبا ٠

وقال في ذات نفسه باعتزاز :

ـ « أحسب أننا لن نعرف السكينة والهدوء في هذا البيت ، بعد اليوم » ٠

حتى اذا التهم كل ما طمعت نفسه في التهامه انقلب الى الباب من جديد، ونادته أن يدخل ، فدخل ٠ كانت رائحة الدم المسفوح لا تزال حارة يعبق بهــا جو الغرفة ، ولكن لم يكن ثمة أيما أثر لذلك الدم الا في الحوض الخشبي ٠ وكانت قد صبت الماء في الحوض ودفعته الى ما تحت السرير فليس في ميسور وانغ لانغ ان يراه الا بشق النفس ٠ كانت الشمعة الحمراء مضاءة ، وكانت هي مضطجعة في سريرها مغطاة الجسد باحتشام ٠ والى جانبها كان ولدها ملفوفا بواحد من سراويله القديمة جريا على العادة التي كانت مألوفة في هذه المنطقة ٠

وتقدم نحوها ، واعتقل لسانه لحظة · كان فؤاده يخفق بين اضلاعه خفقانا شديدا ، وانحنى فوق الوليد ليرى اليه · كان ذا وجه مدور متجعد بدا لعينيه قاتما جدا ، وكان الشعر على رأسه طويلا ، نديا ، أسود · وكان قد كف عن البكاء ، واضطجع مغمض العينين في احكام ·

ونظر وانغ لانغ الى زوجته فنظرت هي بدورها اليه · كان شعرها لا يزال نديا بعرق المخاض ، وكانت عيناها الضيقتان غائرتين · أما في ما عدا ذلك فكانت هي هي لم يتغير فيها شيء · ولكن مشهدها مضطجعة هناك كان مؤثرا بالنسبة اليه · لقد وثب فؤاده نحو هذين الكائنين ، وقال غير واجد شيئا اخر يقوله :

ـ « غدا سوف أذهب الى المدينة واشتري رطلا من السكر الاحمر وأذيبه لك في ماء غال لكي تشربيه هنيئا » ·

حتى اذا نظر الى الطفل من جديد ندت منه هذه الجملة ، فجأة ، وكأن الفكرة لم تخطر له الا اللحظة :

ـ « سوف يتعين علينا أن نشتري سلة كبيرة ملأى بالبيض ونصبغها كلها باللون الاحمر لنوزعها في القرية · وهكذا يعرف كل امرىء اني رزقت غلاما ! »

٤

وفي اليوم التالي لميلاد الغلام نهضت المرأة من فراشها ، كشأنها كل يوم ، وأعدت الطعام لهما ، ولكنها لم تذهب للحصاد مع وانغ لانغ ، وهكذا عمل وحده الى ما بعد انحراف الشمس عن سمت الرأس · ثم انه ارتدى ثوبه الازرق ومضى الى المدينة · لقد اتجه نحو السوق ، واشترى خمسين بيضة غير طازجة ، ولكنها حسنة على أي حال ، ثمن كل منها بنس واحد ، واشترى شيئا من الورق الاحمر لكي يغليه معها في الماء فتصبح حمراء · ثم انه وجه وجهه ، والخمسون بيضة في سلته ، الى دكان بيع الحلوى ، واشترى رطلا ونيفا من السكر الاحمر لفه له البائع ، بعناية ، في قطعة من الورق كبيرة · وتحت سلك القش الذي شد حوله أنزل البائع ، وعلى ثغره ابتسامة ، قصاصة من ورق أحمر ·

ـ « يخيل الي انها لأم وليد جديد ، أليس كذلك ؟ »

فقال وانغ لانغ في اعتزاز :

ـ « غــلام بكــر · »

فأجابه البائع في لامبالاة ، وعيناه على زبون حسن البزة دخل الدكــان في تلك اللحظة :

ـ « آه ، مبارك » ·

كان قد قال هذه الصيغة مرات كثيرة لاقوام اخرين ، بل لعله قالهــا كل يوم لامرىء ما ، ولكنها بدت في سمع وانغ لانغ شيئا خصوصيا · لقد سرته كياسة الرجل ، فانحنى له احتراما ثم انحنى من جديد فيما هو يغادر الدكان · لقد بدا له ، وهو يتخذ سبيله تحت اشعة الشمس الحادة في الشارع المغبر ان الارض لم تعرف قط رجلا أفعم قلبــه بالسعادة أكثر منه ·

وفكر في ذلك ، بادىء الامر ، في حبور ثم في رهبة · فليس من الملائم في هذه الحياة أن يكون المرء سعيدا أكثر مما ينبغي · فالهواء والارض حافلان بالارواح الخبيثة التي تضيق بسعادة البشر ، والفقراء منهم على الخصوص · وانعطف فجأة نحو دكان الشماع ، الذي كان يبيع البخور أيضا ، وهنــاك اشترى اربعة عيدان من البخور ، واحدا لكل شخص في بيته ، وحمل هــذه العيدان الاربعة ومضى الى هيكل الاهي الارض الصغير ، وغرزها في الرماد البارد الذي خلفته عيدان البخور التي وضعها هناك ، هو وزوجته ، من قبل · وانتظر ريثما اشتعلت العيدان الاربعة اشتعالا حسنا ، ثم انطلق نحو البيت وقد سري عنه · ما أعظم القوة التي كان يتمتع بها هذان الصنمان الصغيران الحاميان المتربعان في جلال تحت سقفهما الصغير !

* * *

وما هي الا برهة يسيرة ، وقبل أن يوفق او يكاد الى ادراك أيما شيء ، حتى استأنفت المرأة عملها الى جانبه في الحقول · كان موسم الحصاد قــد انقضى ، ولقد درسا القمح في البيدر الذي كان في الوقت نفسه هو الفناء الموصل الى البيت · لقد درساه معا ، هو وزوجته ، بمدقتين من مدقــات الحنطة · حتى اذا دق القمح ذرياه بوضعه على سلال خيزرانية ضخمة مسطحة وبطرحه في الهواء وبالتقاط الحب الصالح عند تساقطه ، في حين كان التبن يتطاير في الهواء فهو أشبه ما يكون بسحابة من السحب · وبعد ذلك كان عليه أن يحرث الحقول من جديد من أجل قمح الشتاء · حتى اذا شد الثور الى النير وفلــح الارض سارت المرأة على آثاره متنكبة معزقتها مهيلة المدر في الاثلام ·

لقد عملت الان طوال النهار ، والطفل المضطجع على الارض مستسلم للرقاد فوق لحاف عتيق بال · حتى اذا بكى كفت المرأة عن العمل وأخرجت

ثديها فأدنته من فم الطفل ، منبطحة على الارض وقد صوبت الشمس أشعتها عليهما كليهما ، شمس الخريف المتأخر العصية التي لا تتخلى عن حرارة الصيف حتى يكرهها برد الشتاء الوافد · كانت المرأة والطفل لا يقلان عن الارض سمرة ولقد بدوا هناك وكأنهما صنمان من لبن · وكان غبار الحقول يشوب شعر المرأة ورأس الطفل الرقيق الاسود ·

ولكن اللبن تدفق من ثدي المرأة الاسمر الضخم الى فم الغلام ، وكان لبنا أبيض ناصعا كالثلج حتى اذا رضع الطفل من احد الثديين تدفق من الاخر تدفق الماء من ينبوع ، فتركته يتدفق · كان ثمة مقدار من اللبن يزيد على حاجة الطفل بكثير ، برغم شراهته كلها ، مقدار كاف لتغذية عدد كبير من الاطفال ، ولقد تركته يتدفق في لا مبالاة مدركة مبلغ غزارته · وما كانت الايام المتعاقبة لتزيده الا غزارة · وفي بعض الاحيان كانت ترفع ثديها وتدعه يفيض على الارض صيانة لثيابها ، فيغيب اللبن في التربة محدثا في الحقل رقعة خصبة داكنة لينة · كان الطفل بدينا صحيح الجسم ، وكان يتغذى بالحياة التي لا تنضب والتي قدمتها اليه أمه ·

وأقبل الشتاء ، وكانوا قد احتاطوا لدرء غوائله · كانت الغلال أخصب منها في ايما وقت مضى ، وكان البيت الصغير ذو الغرف الثلاث يغص بها · ومن روافد السقف القشي تدلت صفوف وصفوف من بصل مجفف وثوم مجفف ، وعلى طول جدران الحجرة الوسطى وفي غرفة الرجل العجوز وفي غرفتهما هما أيضا كانت حصر مصنوعة من قصب وملوية على شكل جرار كبيرة ، وكانت هذه حافلة حتى شفاهها بالحنطة والارز · ان جزءا كبيرا من هذه الحبوب سوف يباع ، ولكن وانغ لانغ كان مقتصدا ، ولم يكن ينفق أمواله في غير حساب ، مثل كثير من القرويين ، في المقامرة او على شراء الاغذية المترفة بالنسبة اليهم أكثر مما ينبغي · ومن هنا لم يكن يتعين عليه ، كما كان يتعين عليهم ، ان يبيع غلاله في موسم الحصاد حين يكون السعر متدنيا · لا ، لقد كان يحتفظ بهذه الغلال لبيعها عندما يتراكم الثلج على الارض أو في السنة الجديدة عندما يدفع أهل المدن أيما ثمن يطلب منهم من أجل الحصول على حاجتهم من الغذاء ·

كان عمه يضطر دائما الى بيع محصوله من الحبوب حتى قبل ان تستحصد سنابله · بل لقد كان يبيعه في بعض الاحيان وهو قائم على سوقه ، في الحال ، ليريح نفسه من عناء الحصاد والدرس ، وليفوز بقدر معجل من المال · ولكن امرأة عمه كانت امرأة حمقاء أيضا ، امرأة بدينة كسولا ، وكانت تلح دائما في طلب الحلويات والتماس هذا الضرب أو ذاك من ضروب

الطعام وفي شراء الاحذية الجديدة من المدينة • أما زوجة وانغ لانغ فكانت تصنع بنفسها كامل حاجته هو وحاجة الرجل العجوز وحاجتها هي وحاجة الطفل من الاحذية • ولقد كان خليقا به ان لا يفهم من الامر شيئا لو رغبت في شراء الاحذية !

ولم يكن ثمة في يوم من الايام أيما شيء متدل من روافد السقف في منزل عمه العتيق المتداعي الى السقوط • أما في بيته هو فقد تدلى حتى فخذ خنزير كان قد اشتراها من جاره ، تشينغ ، عندما ذبح خنزيره الذي بدا وكأن المرض يوشك ان يلم به • لقد أدرك الخنزير في الوقت المناسب قبل ان يأخذ في الضمور ، ومن هنا كانت الفخذ فخذا ضخمة وكانت او ـ لان قد ملحتها تمليحا تاما وعلقتها لتجف • وكان ثمة أيضا اثنتان من دجاجاتهم هم ، ذبحتا وانتزعت أحشاؤهما ، وجففتا من غير ان ينزع عنهما الريش ، وحشي جوفاهما ملحا •

وهكذا ما ان هبت رياح الشتاء ، قارسة لاسعة ، من الصحراء القائمة الى الشمال الشرقي من أرضهم حتى لزموا البيت في غمرة من هذه الغلال الوفيرة • وسرعان ما أمسى الطفل قادرا على القعود من غير ان يسنده أحد تقريبا • وكانا قد أقاما مأدبة قوامها حساء الشعيرية ، التي تعني العمر الطويل ، في عيده الشهري الاول ، عندما بلغ من العمر شهرا قمريا كاملا ، وكان وانغ لانغ قد دعا أولئك الذين شهدوا مأدبة زفافه ، وقدم الى كل منهم عشر بيضات كاملة من ذلك البيض الاحمر الذي كان قد غلاه وصبغه ، في حين قدم الى كل من وفد من القرية لتهنئته ببيضتين اثنتين • وحسده الناس جميعا على ولده ، ذلك الولد الذي كان ضخما بدينا بدري الوجه مرتفع عظم الوجنتين مثل أمه • اما وقد أقبل الشتاء الآن فقد أخذا يقعدانه على اللحاف المنشور على ارض المنزل الطينية بدلا من اقعاده في الحقول ، وفتحا الباب الجنوبي التماسا للضياء ، ونفذت الشمس الى الداخل وشرعت ريح الشمال تنطح ، على غير طائل ، جدار المنزل الطيني الغليظ •

وسرعان ما جردت النخلة القائمة عند العتبة من أوراقها ، كما جردت من الورق شجرات الصفصاف والدراق المجاورة للحقول • ان أوراق الخيزران هي وحدها التي تشبثت بشجراتها القائمة في الدغل غير الكثيف شرقي المنزل ، وعلى الرغم من ان الريح لوت الاغصان حتى لبدا كل منها وكأنه غصنان فقد تماسكت الاوراق ولم تتساقط •

هذه الريح الجافة جعلت بذور القمح المنشورة في الارض عاجزة عن اطلاع رأسها ، ولقد انتظر وانغ لانغ هطول الامطار في لهفة وقلق • ثم ان

الامطار أقبلت فجأة من سماء غائمة رائقة بعد ان خمدت الريح وغدا الهواء ساكنا حارا ، فقعدوا كلهم في البيت يغمرهم الحبور والهناء وراقبوا المطر يهطل غزيرا مستقيما ويغور في الحقول حول فناء البيت ويقطر من أطراف السقف المتبنة فوق الباب • وذهل الطفل وبسط ذراعيه ليلتقط خيوط المطر الفضية فيما هي تنهمر ، وضحك وضحكوا معه ، وقرفص الرجل العجوز على الارض الى جانب الطفل وقال :

ــ « ليس لهذا الطفل نظير في دزينة من القرى • ان صغار أخي الاغبياء لا يلاحظون شيئا قبل ان يدرجوا • »

وفي الحقول نبتت بذور القمح وأطلعت من الارض الندية السمراء رماحا خضرا دقاقا •

وفي مثل هذه الاحوال كان القوم يتبادلون الزيارات لأن كل فلاح كان يشعر أن الآلهة كانت تنهض بعبء العمل في الحقول ، وان محاصيله كانت ــ في الوقت نفسه ــ تروى من غير ان يقصم ظهره من أجل هذا الارواء بنقل الدلاء ، جيئة وذهوبا ، وقد علقت على عمود متوازن على أحد منكبيه • وفي الصباح كانوا يجتمعون في هذا البيت أو ذاك ، فيحتسون الشاي ههنا وههناك ، منتقلين من بيت الى بيت ، حفاة ، عبر المجاز الضيق بين الحقول، تحت مظلات كبيرة مصنوعة من ورق مزيت • أما النسوة فكن يمكثن في بيوتهن ، ويصنعن الاحذية ويرفون الثياب ، اذا كن مقتصدات ، ويفكرن في الاستعدادات الخاصة بمأدبة عيد رأس السنة •

ولكن وانغ لانغ وزوجته لم يكونا يسرفان في الزيارة • ففي القرية المؤلفة من بيوت صغيرة متناثرة ــ وكان بيتهما واحدا من ستة بيوت فيها ــ لم يكن ثمة بيت أشد دفئا وأحفل بالاغذية من بيتهما ، ولقد شعر وانغ لانغ انه اذا ما رفع الكلفة مع الآخرين أكثر مما ينبغي فعندئذ يتجرأون على الاستعارة منه • لقد اقترب عيد رأس السنة ، ومن ذا الذي يملك كل المال الضروري لشراء الملابس الجديدة واعداد طعام العيد ؟ لقد مكث في بيته ، وبينما كانت زوجته ترفو وتخيط كان هو يتناول قشاشاته المصنوعة من رقاقات خيزرانية ويفحصها ، حتى اذا وجد الخيط مهترئا في موضع من المواضع فتل خيطا جديدا مصنوعا من قنب استنبته هو بنفسه في حقوله ، وحتى اذا وجد احدى الوصلات ناقصة في موضع آخر أدخل ببراعة شظية جديدة من الخيزران •

وما فعله هو لادوات المزرعة فعلته زوجته ، او ــ لان ، لادوات المنزل• فاذا ما انخرقت احدى الجرار الفخارية لم تطرحها جانبا وتتحدث عن جرة

جديدة ، كما تفعل النسوة الاخريات · لقد كانت بدلا من ذلك تمزج التراب والصلصال وتراب الصدع وتحميه على النار في أناة ، فترتد الجرة صالحة للاستعمال وكأنها جديدة ·

لقد لبثا في بيتهما اذن ، ولقد ابتهجا بالتناغم الذي يسود علاقاتهما ، على الرغم من ان حديثهما لم يكن يعدو ، في يوم من الايام ، بضع كلمات متناثرة من مثل هذه :

« هل ادخرت البذار من القرعة الكبيرة للموسم القادم ؟ » أو « سوف نبيع تبن القمح ونشعل جذور اللوبياء في المطبخ » وقد يقول وانغ لانغ في حالات نادرة : « هذا طبق شعيرية جيد · » فتجيبه أو ـ لان في تواضع : « الفضل في ذلك للدقيق الجيد الذي قدمته الينا الحقول هذه السنة · »

ومن نتاج الارض كسب وانغ لانغ في هذه السنة الخيرة حفنة من القطع النقدية الفضية بالاضافة الى مؤونتهم ، ولم يجرؤ على الاحتفاظ بهذه القطع الفضية في زناره او على اعلام احد ، ما خلا زوجته ، بأمرها · وبحثا عن مخبأ يدفنان فيه القطع الفضية ، وأخيرا أحدثت المرأة في براعة نقبا صغيرا في جدار حجرتهما الداخلي ، خلف السرير ، فأقحم وانغ لانغ القطع الفضية فيه ، وغطت زوجته النقب بقطعة من مدر فعاد الجدار وكأن حدثا ما لم يحدث فيه · ولكن ذلك أوقع في نفس كل من وانغ لانغ وأو ـ لان شعورا بالثراء والطمأنينة الخفيين · كان وانغ لانغ يعي أنه يملك من المال أكثر من حاجته ، فاذا الفى نفسه بين رفاقه رفع رأسه في ثقة بالغة ·

٥

ودنا عيد رأس السنة ، وفي كل بيت من بيوت القرية كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق ·ومضى وانغ لانغ الى دكان الشماع في المدينة ،واشترى مربعات من الورق الأحمر رسم على بعضها ، بحبر ذهبي ، حرف السعادة ورسم على الأخرى حرف الثراء ، وألصق هذه المربعات على ادوات مزرعته لكي تحمل اليه الحظ السعيد في العام الجديد · فعلى محراثه ، وعلى نير ثوره وعلى الدلوين اللذين كان يحمل فيهما سماده وماءه ـ على كل من هذه الصق مربعا · ثم انه ألصق على أبواب بيته قصاصات طويلة من ورق أحمر رسمت عليها رموز جالبة للحظ السعيد ، وعلى مدخل بيته ألصق هدبا من ورق أحمر قص في كثير من البراعة على شكل ازهار دقيقة التفصيل · واشترى ورقا احمر لكي يصنع للآلاهين ملابس جديدة ، ولقد فصل الرجل العجوز هذه الملابس

تفصيلا بارعا برغم يديه الهرمتين المرتعشتين ، فحملها وانغ لانغ الى الهيكل وجعلها على جسدي الاهي الارض ، واشعل قليلا من البخور أمامهما ابتهاجا بالعام الجديد · واشترى لبيته شمعتين حمراوين ليضيئهما على المائدة ، عشية العيد ، تحت صورة لأحد الالهة ألصقت على جدار الحجرة الوسطى فوق موضع المائدة ·

ومضى وانغ لانغ الى المدينة كرة اخرى واشترى شيئا من سمن الخنزير والسكر الابيض · وجعلت المرأة السمن ناعما أبيض وأخذت بعض دقيق الأرز كانا قد سحناه مما انبتت ارضهما من ارز بين حجري الرحى التي كان من دأبهما ان يشدا الثور اليها كلما الجأتهما الحاجة الى ذلك ،واخذت السمن والسكر وعجنتهما لتصنع كعك العام الجديد الفاخر ، المسمى « الكعك الاقمار » ، على غرار ذلك الذي يأكلونه في بيت هوانغ ·

وحين صف الكعك قطعا مستطيلة على المائدة تمهيدا لخبزه استشعروانغ لانغ وكأن فؤاده يقفز في صدره اعتزازا · فلم يكن في القرية أيما امرأة اخرى قادرة على صنع هذا الذي صنعته زوجته ـ على صنع كعك مثل ذلك الذي لا يطعمه غير الأغنياء في العيد · وفي بعض الكعكات وضعت فلذا من زعرور احمر صغير ونكتا من خوخ اخضر مجفف كونت منها ازهارا وأكاليل ·

وقال وانغ لانغ :

ـ « انه لما يحز في النفس اتلاف هذه الروائع بالقضم والمضغ ! » كان الرجل العجوز يحوم حول المائدة ، محبورا مثل طفل وقعت عيناه على بعض الألوان الفاقعة · وقال :

ـ « ادع اخي ، اعني عمك ، واولاده · يجب ان يروا هذا كله ! » ولكن النعمة كانت قد علمت وانغ لانغ الحذر · فليس في ميسور المرء ان يدعو قوما جائعين الى المجيء لمجرد تكحيل العين بمشهد الكعك ·

وسارع الى القول :

ـ ان النظر الى الكعك قبل حلول العام الجديد مجلبة للشر · »

وقالت المرأة ، ويداها مغبرتان اغبرارا شديدا بدقيق الأرز الناعم ، دبقتان بالسمن :

ـ « ان هذه لم تصنع لكي نأكلها نحن ، باستثناء واحدة عادية او اثنتين عاديتين صنعتا لكي يذوقهما الضيوف · فنحن لسنا من الغنى في مكان يساعدنا على اكل السكر الأبيض ودهن الخنزير ·اني اعدها للسيدة العجوز في البيت الكبير ·ولسوف آخذ الطفل في اليوم الثاني من السنة الجديدة واقدم هذه الكعكات هدية اليها · »

عندئذ امست الكعكات اعظم شأنا وخطرا منها في ايما وقت سلف ، ولقد سر وانغ لانغ ان تذهب زوجته ،بوصفها زائرة ، الى القاعة الكبيرة التي سبق له ان وقف تحت سقفها في كثير من الخجل والفقر ، وان تحمل الى هناك ولده مكسوا بالأحمر وكعكات صنعت على هذا الشكل باجود الدقيق والسكر ودهن الخنـــزيـــر ٠

وغدا كل مظهر آخر من مظاهر العيد تافها حقيرا تجاه هذه الزيارة ٠ ولم توح اليه سترته الجديدة التي خاطتها او ـ لان له من قماش قطني اسود ، عندما ارتداها ، باكثر من القول بينه وبين نفسه :

ـ « سوف البسها حين احمل الكعكات الى باب البيت الكبير ! »

بل لقد استقبل ، في لامبالاة ، عمه وجيرانه حين اقبلوا على منزله في أول يوم من أيـام السنة الجديدة ، زرافـات حاشدة ، ليهنئوا والده ويهنئوه هو بالعيد ، وقد اطلق الطعام والشراب العنان لصخبهم وقصفهم ٠ وكان قد تدبر هو بنفسه امر وضع الكعكات الملونة في السلة واخفائها عن الأعين خشية ان يضطر لتقديمها الى اناس عاديين ، على الرغم من انه وجـد مـــن العسير عليه جدا ان لا يهتف ، عندما اطرى ضيوفه نكهة السمن والسكر في الكعكات البسيطة البيضاء :

ـ « كان ينبغي ان تروا الكعكات الملونات ! »

ولكنه لم يفعل ، ذلك بانه كان يرغب في ان يدخل البيت الكبير باعتزاز ، اكثر من رغبته في أيما شيء اخر ٠

★ ★ ★

وفي اليوم الثاني من السنة الجديدة ـ اليوم الذي تتبادل فيـــه النســوة الزيارات بعد ان يكون الرجال قد اسرفوا في اليوم الأول في الطعام والشراب ـ نهضوا مع الفجر فألبست المرأة طفلها ثوبه الأحمر وحذاءه ذا الوجه النمري الذي صنعته له بيدها ، ووضعت على رأسه الذي حلقه له وانغ لانغ بنفسه في اليوم الأخير من السنة تلك القبعة الحمراء المستوية المخيط علـــى مقدمتهـا صورة بوذا صغيرة مذهبة ،واجلسته ، على السرير ٠ ثم ان وانغ لانغ ارتدى ثيابه في عجل ، بينا سرحت زوجته ، من جديد ، شعرها الاسود الطويـــل وعقدته بالدبوس النحاسي المموه بالذهب ، الذي كان هو قد اشتراه لهـا ، وارتدت فستانها الاسود الجديد المخيط من نفس قطعة القماش التي خيط منها ثوبه الجديد ـ اربعة وعشرون قدما من القماش الجيـد للاثنين وقدمـــان اخرين اضافهما البائع زيادة على القياس جريا على مألوف العادة في دكاكين القماشين ٠ ثم انهما انطلقا ـ وقد حمل هو الغلام وحملـت هي الكعكات في

السلة ــ متخذين سبيلهما عبر الحقول التي عراها الشتاء ·

ثم ان وانغ لانغ تلقى مكافأته عند الباب الكبير المؤدي الى بيت هوانغ ، ان ما ان اقبل البواب تلبية لنداء المرأة حتى فتح عينيه أقصى ما استطاع ان يفتحهما على هذا المشهد كله ، وفتل شعرات خاله الطوال الثلاث ، وهتف :

ــ « آه ، وانغ الفلاح · ثلاثة هذه المرة بدلا من واحد ! »

وحين رأى الى الملابس الجديدة التي يرتدونها والطفل الذي كان ولدهما ، أضاف قائلا :

ــ « ان المرء لا يحتاج الى أن يتمنى لك من السعادة في هذا العام اكثر مما نعمت به في العام المنصرم · »

فأجاب وانغ لانغ في لامبالاة ، شأن من يخاطب نظراءه او من لا يرقون الى مرتبة النظراء :

ــ « حصاد جيد ··· حصاد جيد ··· »

وتخطى العتبة في ثقة ·

والواقع ان البواب شده بكل هذا الذي رآه فقال لوانغ لانغ :

ــ « تفضل واسترح في غرفتي الحقيرة ريثما ادخل واعلن قدوم زوجتك وابنك · »

وراقب وانغ لانغ زوجته وولده وهما يجتازان الرواق حاملين الهدية الى سيدة بيت من البيوت الكبيرة · ان شرف ذلك كله ليرتجع اليه هو · حتى اذا لم يعد في ميسوره ان يراهما عندما تضاءلا خلال سلسلة الاروقة الطويلة المتداخل بعضها في الآخر وعندما انعطفا آخر الأمر فغابا عن البصر بالكلية ، ارتد الى بيت البواب ، وهناك قبل كأمر مفروغ منه دعوة زوجة البواب المجدورة الوجه الى احتلال كرسي الشرف القائم الى يسار المائدة في الحجرة الوسطى · ولقد شكرها بهزة يسيرة من رأسه عندما اخذ منها كوب الشاي الذي قدمته اليه ، ووضعه امامه من غير ان يشربه ، وكأن وريقات الشاي لم تكن جيدة النوع الى حد يرضيه ·

وكان قد استطال غيبة البواب عندما رجع هذا الاخير تصحبه المرأة وطفلها· وانعم وانغ لانغ النظر الى وجه المرأة لحظة ، محاولا ان يستطلع هل جرى كل شيء على ما يشتهي ، ذلك بأنه تعلم الآن كيف يكتشف في ذلك المحيا الممتنع على التعبير تغييرات صغيرة كانت من قبل غير واضحة لعينيه ·ولكن اساريرها كانت تنطق بالرضا البالغ ، وسرعان ما تاق بفروغ صبر الى الاستماع اليها تروي ما حدث في اروقة السيدات التي لم يجد سبيلا ، اليوم، الى دخولها اذ لم يكن لديه ايما مهمة هناك ·

وهكذا ودع البواب وزوجته المجدورة الوجه بانحناءات قصيرة وحث أو ـ لان على الاسراع في العودة ، وحمل بين ذراعيه الطفل الذي كان مستسلما للرقاد منكمشا على نفسه في ثوبه الجديد ٠

وناداها من فوق كتفه ، فيما كانت تتبعه ، قائلا :

ـ « حسنا ، ما وراءك ؟ »

لقد ضاق ذرعا ، لاول مرة ، ببطئها ٠ وازدادت دنوا منه وقالت في همس:

ـ « يخيل الي ، اذا شاء أحد أن يسألني ، انهم يستشعرون بعض العسر، هذه السنة ، في ذلك البيت ٠ »

لقد تحدثت في جرس مفجوع كما يتحدث المرء عن آلهة الم بها الجوع ٠

وقال وانغ لانغ ، وهو يستحثها على الشرح والتفسير :

ـ « ماذا تعنين ؟ »

ولكنها امتنعت على التعجيل ٠ فقد كانت الكلمات عندها اشياء ينبغي ان تتلقف واحدة واحدة ثم تطلق في عسر ٠

ـ « كانت السيدة العجوز ترتدي هذه السنة الثوب الذي ارتدته في السنة الماضية ٠ انا لم اشهد ذلك يحدث قبل اليوم قط ٠ والجواري ايضا لم يلبسن هذا العام ثيابا جديدة ٠ »

وصمتت لحظة ، ثم اضافت :

ـ « انا لم أر ولو جارية واحدة ترتدي فستانا جديدا مثل فستاني ٠ »

وبعدقليل استطردت قائلة :

ـ « اما ولدنا فلم اجد حتى بين محظيات السيد العجوز نفسه طفلا واحدا يضاهيه جمالا وحسن بزة ٠ »

وافترت شفتاه عن ابتسامة بطيئة ، وضك وانغ لانغ ضحكا عاليا ، وضم الطفل الى صدره في حنان ٠ ما اعظم النجاح الذي وفق اليه ٠٠٠ ما اعظم النجاح الذي وفق اليه ! ولم يكد يتهلل طربا حتى صعقه ذعر ٠ اي حماقة هذه التي كان يرتكبها ؟ ايمشي على هذا النحو تحت القبة الزرقاء وبين ذراعيه غلام ذكر تستطيع أيما روح شريرة عابرة مصادفة خلال الهواء أن تراه ! وفتح ثوبه على عجل ، وخبأ رأس الطفل في صدره وقال في صوت عال :

ـ « يا للخسارة ! ان طفلتنا انثى لا يطمع فيها احد ، انثى مجدورة الوجه ايضا ! فلندع الآلهة أن تخترمها المنون ٠ »

فقالت زوجته بأسرع ما استطاعت القول ، مدركة على نحو غامض الحكمة من موقفها هذا :

ـ « اجل ٠ ٠ ٠ اجل ٠ ٠ ٠ »

واذ سري عن وانغ لانغ بهذه الاحتياطات التي اتخذت الآن ، فقد عاد الى طرح السؤال على زوجته ، في الحال :

ـ « هل اكتشفت السبب الذي ادى الى افقارهم ؟ »

فأجابت قائلـــة :

ـ « لم تتح لي الفرصة ان اتحدث الا لحظة واحدة حديثـــا شخصيا مع الطاهية التي كنت اعمل تحت امرتها قالت : هذا البيت لن يستطيع الوقوف على قدميه الى الابد ما دام هؤلاء السادة الصغار كلهم ، وعددهم خمسة ، ينفقون المال ، كما يسفح الماء الوسخ ، في الديار الأجنبية ويبعثون الى البيت بالمرأة تلو المرأة بسبب من مللهم منهن ، وما دام سيد البيت العجوز المقيم في المنزل يضيف الى حريمه محظية او محظيتين كل عام ، وما دامت سيدة البيت العجوز تدخن من الافيون كل يوم ما يملأ ثمنه فردتي حذاء قطعا نقدية فضية ٠ »

فغمغم وانغ لانغ وقد عقد لسانه :

ـ « هل هذا ممكـــن ؟ »

فتابعت او ـ لان قائلة :

ـ « ثم ان البنت الثالثة سوف تتزوج في الربيع ٠ وبائنتها فدية امير وهي كافية لشراء مقر رسمي في مدينة كبيرة ٠ وهي لن ترضى ان تخاط ثيابها الا من انفس الأطالس المزخرفة برسوم خاصة حيكت في « سوتشاو » و « هانغتشاو » ولسوف يبعث اليها بخياط من شانغاي تصحبه حاشيته المؤلفة من خياطيـــن مساعدين خشية ان تجد ثيابها اقل تمشيا مع الزي الحديث من ثياب النساء في الديار الأجنبية ٠ »

فقال وانغ لانغ وقد صعقه الاعجاب والذعر لهذا الاسراف في تبديد الثروة :

ـ « ومن الذي ستتزوجه هذه البنت الثالثة بهذه النفقة كلها ؟ »

ـ « سوف تتزوج النجل الثاني من انجال قاض من قضاة شانغاي ٠ »

قالت المرأة ذلك ، ثم اضافت بعد تمهل طويل :

ـ « يخيل الي انهم يزدادون فقرا يوما بعد يـوم لأن سيدة البيـت العجوز نفسها انبأتني بأنهم يودون بيع شيء من الارض ـ شيء من الأرض الواقعة الى جنوب البيت ، خارج سور المدينة مباشرة ، حيث كان من دأبهم ان يزرعوا الارز كل سنة لانها ارض طيبة يسهل غمرها بالمياه بواسطة خندق محيط بالسور ٠ »

فكرر وانغ لانغ وقد اقتنع :

ـ « يبيعون ارضهم ! اذن فلا ريب في انهم يفتقرون ٠ ان الأرض هي لحم المرء ودمـــه ٠ »

واستغرق في التأمل لحظة · وفجأة خطرت له فكرة · فصفع جانب رأسه براحة يده ، وهتف ملتفتا الى زوجته :

ـ « ذلك ما لم يخطر لي على بال ! سوف نشتري تلك الارض ! »

وحدق كل منهما الى الآخر ، فأما هو ففي ابتهاج ، واما هي ففي انشداه · وتمتمـــت :

ـ « ولكن الارض ···· الارض ···· »

فصاح في جرس سيد ذي سلطان :

ـ « سوف اشتريها · سوف اشتريها من آل هوانغ الكبار · »

فقالت في ذعـــر :

ـ « انها بعيدة جدا عن بيتنا · ولسوف يتعين علينا ان نسير نصف ساعات الصباح حتى نصل اليها · »

فكرر في نكد كما كان يكرر ، في طفولته ، طلبا امتنعت امه عن تحقيقه له :

ـ « سوف اشتريها · »

فقالت في لهجة مصالحة :

ـ « ان شراء الأراضي شيء حسن · انه خير ، دون ريب ، من دفن المال في جدار من طين · ولكن لم لا تشتري قطعة من ارض عمك ؟ انه شديد التوق الى بيع تلك الرقعة المجاورة للحقل الغربي الذي نملكه · »

فقال وانغ لانغ في صوت مرتفع :

ـ « لست اريد ارض عمي تلك · فمنذ عشرين عاما وهو ينتزع المحصول انتزاعا بطريقة او باخرى ، من غير ان يطريها بشيء من سماد او بقليل مـــن كسب * اللوبيا · ان ارضه جافة كالجص · لا ، سوف اشتري ارض هوانغ·»

لقد قال بـ « ارض هوانغ » في مثل اللامبالاة التي كان خليقا به ان يصطنعها لو قال : « ارض تشينغ الذي كان جاره الفلاح · فقد استشعر انه اكثر مـــن كفؤ لهؤلاء القوم البلهاء اصحاب هذا البيت الكبير المتلاف · ولسوف يمضي اليهم ، والمال في يده ، ويقول في بساطة :

ـ « ان عندي مالا · ما ثمن الأرض التي تريدون ان تبيعوها ؟ »

وسمع نفسه يقول لسيد البيت العجوز على مسمع من وكيل املاك ذلك السيد:

ـ « اعتبرني مثل اي امرىء آخر · ما هو الثمن العادل ؟ ان المال في يدي هـــذه · »

وهكذا ستمسي زوجته ـ التي كانت جارية في مطابخ تلك الأسرة المتكبرة ـ زوجة رجل يملك قطعة من الأرض استطاعت خلال اجيال واجيال ان تورث آل

---

* الكسب : ما يبقى من عصارة البزور المستخرج منها الزيت ·

هوانغ عظمة وخطرا · ويكاد يخيل الى المرء انها قرأت ما يجول في خاطره ، ذلك بانها ما لبثت ان كفت عن المعارضة وقالت :

ـ « حسنا ، اشتريها · ان الارض المنزرعة ارزا هي ارض طيبة على اية حال · وهي قريبة من الخندق ، ولسوف يكون في ميسورنا ان نجد الماء الكافي لغمرها كل عام · ليس في هذا شك · »

وافترت شفتاها ، كرة اخرى ، عن تلك الابتسامة البطيئة ، الابتسامة التي لم تنرقطاكمداد عينيها السوداويين الضيقتين · وبعد فترة غير يسيرة قالت ·

ـ « في مثل هذا الوقت من العام الماضي كنت جارية من الجواري في ذلك البيت ·· »

وواصلا سيرهما ، صامتين مستغرقين في هذه الفكرة ·

٦

كانت هذه القطعة من الأرض التي امتلكها وانغ لانغ ، الآن ، شيئا اوقع في حياته تغييرا كبيرا · فبعد ان نقب الجدار ليخرج المال المخبوء فيه وليحمله الى البيت الكبير ، وبعد ان قدر له شرف التحدث الى سيد البيت العجوز كما يتحدث الند للند ، استبد به انقباض في النفس يكاد يكون ندما · كان كلما خطر له ان ذلك النقب الذي احدثه في الجدار امسى الآن فارغا ، بعد ان كان حافلا بالقطع النقدية الفضية التي ما كان لشيء ان يحمله على انفاقها ،يتمنى لو يوفق الى استرداد ماله · وعلى اية حال فان هذه الأرض سوف تحتاج بعد الى ساعات وساعات من العمل الكادح ، ولقد كانت ، كما قالت او ـ لان ،نائية جدا ، على مبعدة اكثر من « لي » ، اي اكثر من ثلث ميل ·والى هذا فان شراءها لم يفعمه بالاعتزاز كما قد توقع · كان قد شخص في ساعة مبكرة الى البيت الكبير ، وكان سيد البيت العجوز لا يزال نائما · صحيح ان الشمس كانت قد بلغت سمت الرأس ، ولكنه ما ان قال في صوت مرتفع :

ـ « اخبر سعادته العريقة اني أقبلت في مهمة ذات خطر ··· أخبره ان المسألة مسألة مال ! »

حتى اجابه البواب في جزم :

ـ « ان اموال العالم كلها عاجزة عن اغرائي بايقاظ النمر العجوز ·انه مضطجع مع محظيته الجديدة ، زهرة الخوخ * ، التي اشتراها منذ ثلاثة ايام

* في الاصل Peach Blosson وتعني زهرة الخوخ أو الدراق ·

ليس غير ٠ ان كل محاولة اقوم بها لايقاظه تعني المغامرة بحياتي ٠ »
ثم أضاف في شيء من الخبث ، شادا شعرات خاله :
ـ « ولا تتوهمن ان الفضة كفيلة بأن توقظه ، فقد كان يلعب بالفضة لعبا منذ أن رأى النور ! »
وهكذا تعين عليه ، آخر الامر ، أن يبحث الأمر مع وكيل املاك السيد العجوز ، وهو وغد مداهن كان يتسرب الى جيبه جزء غير يسيرمن الأموال التي تمر بين يديه ٠ ومن هنا بدا لوانغ لانغ في بعض الاحيان ان المال كان أثمن من الارض ٠ ان في استطاعة المرء أن يرى الى الفضة ملتمعة متوهجة ٠
حسنا ، لقد اصبحت الارض ملكه ٠ وفي ذات يوم غائم من ايام الشهر الثاني الجديدة قصد الى الارض ليلقي عليها نظرة ٠ ان أحدا ما كان يعرف أنها قد اصبحت ملكا له ، ولقد انطلق وحده ليراها ٠ كانت مستطيلا من صلصال اسود كثيف ينبسط في جوار الخندق الذي يحيط بسور المدينة ٠ وقاس الارض بخطواته ، في كثير من العناية ، فاذا بها تبلغ ثلاثمئة خطوة طولا ، ومئة وعشرين خطوة عرضا ٠ كانت لا تزال ثمة أربعة أحجار تشير الى زوايا الحدود ، أحجار نقش عليها شعار اسرة هوانغ الضخم ٠ حسنا ، انه لا بد ان يغير ذلك كله ٠ انه سوف ينصب الاحجار في ما بعد ولسوف ينقش عليها اسمه هو ــ ليس الآن ، لانه كان لا يزال غير راغب في افهام الناس انه بلغ من الغنى مرتبة مكنته من الشراء من الاسرة الكبيرة ، ولكن في ما بعد، عندما يصبح أكثر ثراء فليس يسأله احد عما فعل ٠ واذ نظر الى تلك الارض المستطيلة قال في ذات نفسه :
ـ « هذه الحفنة من التراب لا تعني شيئا بالنسبة الى أصحاب البيت الكبير ٠٠ أما بالنسبة الي فأنها تعني شيئا كثيرا ٠ »
ثم ان تغيرا مفاجئا طرأ على تفكيره ، فاحتقر نفسه اذ وجدها تعلق هذه الاهمية كلها علىقطعة صغيرة من الارض ٠ وكيف لا يفعل ذلك وهو الذي يذكر جيدا أنه عندما قدم قطعه الفضية ، في كثير من الاعتزاز ، الى وكيل الاراضي تناولها الرجل في لا مبالاة وقال :
ـ « هو ذا مبلغ يغطي نفقات أفيون السيدة العجوز بضعة أيام ، على أية حال ٠ »
وفجأة بدا له الفرق الذي لا يزال بينه وبين أصحاب البيت الكبيرشاسعا لا سبيل الى اجتيازه ، شأن الخندق الممتد قبالته والمليء بالماء ، عاليا كالجدار القائم الى أبعد والمنتصب أمامه قويما وقورا ٠ عندئذ اجتاحه عزم مغضب وأقسم ليعاودن ملء ذلك النقب بالفضة مرة ومرة ومرة حتى يوفق الى ان

يشتري من آل هوانغ مساحات من الارض تجعل قطعة الارض هذه تبدو في عينيه وكأن مساحتها لا تزيد على انش واحد ·

وهكذا أمست قطعة الارض هذه ، بالنسبة الى وانغ لانغ ، سمة ورمزا·

وأقبل الربيع برياحه العاصفة وسحبه الحافلة بالمطر ، وعرف وانغ لانغ بعد أيام الشتاء نصف المتبطلة أياما طويلة من العمل الكادح في خدمة أرضه · كان الرجل العجوز هو الذي يعنى ، الآن ، بأمر الطفل ،وكانت المرأة تعمل مع زوجها من الفجر حتى اللحظة التي يرين فيها الغسق على الحقول · وحين لاحظ وانغ لانغ، ذات يوم ، انها حامل من جديد عصف الاهتياج بنفسه وكان أول الخواطر التي خطرت له أنها لن تكون قادرة على العمل في موسم الحصاد · وصاح في وجهها وقد أورثه الاجهاد نزقا بالغا :

ـ« وهكذا اخترت هذا الوقت بالذات لكي تأتيني بمولود جديد ، أليس كذلك ؟! »

فأجابته في قوة :

ـ « هذه المرة سوف يكون الامر هينا · الصعوبة وقف على المرة الاولى » ·

وفي ما عدا هذا لم يتبادلا أيما حديث عن الطفل الثاني منذ أن لاحظ وانغ لانغ تضخم بطن زوجته الى أن أقبل يوم من أيام الخريف طرحت فيه معزقتها وانطلقت عائدة الى المنزل · ولم ينقلب هو ، ذلك اليوم ، الى المنزل لتناول طعام الغداء ، ذلك بأن السماء كانت مثقلة بالسحب الراعدة ، وان أرزه كان ناضجا كل النضج فهو جاهز للجمع في حزم · وفي ما بعد ، قبل ان تغرب الشمس ، عادت زوجته الى الحقل مستوية البطن نافذة القوى ، ولكن وجهها كان صامتا باسلا · ونازعته نفسه الى أن يقول لها :

ـ « حسبك ما بذلت اليوم من جهد · اذهبي واضجعي في فراشك » ·

ولكن الالم المستبد بجسده المجهد جعله قاسيا متحجر الفؤاد ، فقال في ما بينه وبين نفسه انه قاسى في عمله الكادح ، ذلك اليوم ، مثل الذي قاسته هي في مخاضها ، وهكذا اجتزأ بأن سألها بين ضربة واخرى من ضربات منجله :

ـ « أهو ذكر أم أنثى ؟ »

فأجابته في هدوء :

ـ « انه ذكر اخر » ·

ولم يضيفا على ذلك شيئا ، ولكنه كان محبورا ، وبدا له ان الالتواء والانحناء الموصولين أمسيا أقل مشقة من ذي قبل · وواصلا العمل حتى

برز القمر فوق ركام من سحب ارجوانية ، وهكذا أنجزا مهمتهما في الحقل وانقلبا عائدين الى البيت ·

وبعد ان تناول طعامه وغسل جسده الذي سفعته الشمس بماء بارد وتمضمض بالشاي مضى وانغ لانغ ليلقي نظرة على ولده الثاني · كانت أو ـ لان قد اضطجعت على السرير بعد ان طهت طعام العشاء وكان الوليد مستلقيا الى جانبها ـ بدينا ، وديعا ، متناسب الاعضاء ولكنه أقل ضخامة من الوليد الاول · ونظر وانغ لانغ اليه ، ثم ارتد الى الحجرة الوسطى والحبور يغمر نفسه · ولد ثان ، وثالث ، ورابع ، كل سنة ـ ان المرء لا يستطيع ان يزعج نفسه كل عام بالبيض الاحمر ، حسبه ان يفعل ذلك عند ولادة الطفل الاول · اولاد جدد في كل عام ، لقد غمرت السعادة بيت وانغ لانغ ·· ان هذه المرأة لا تحمل اليه الا السعادة · وصاح مخاطبا والده :

ـ « اذا ما رزقنا ، أيها العجوز ، ولدا جديدا فسوف يتعين علينا ان نجعل ولدنا البكر يشاطرك سريرك » ·

وابتهج الرجل العجوز · كان منذ أمد طويل تواقا الى ان يرى هذا الطفل يقاسمه سريره ويدفىء جسده العجوز المقرور بعظامه الغضة ودمائه الحارة المحيية ، ولكن الطفل أبى أن يفارق أمه · أما هذه المرة فقد دخل الغلام الغرفة مترنحا بقدميه الطفليتين غير الثابتتين ، وحدق الى هذا الوليد الجديد المستلقي الى جانب أمه ، وكأنما فهم بعينيه المغتمتين أن شخصا اخر قد احتل مكانه . فارتضى في غير ما احتجاج ان ينقل الى سرير جده ·

وعرف وانغ لانغ حصادا اخر خصبا ، وجمع من بيع محاصيله قدرا غير يسير من الفضة ، وخبأ ذلك كله في الجدار · ولكن الارز الذي جناه من أرض هوانغ عاد عليه بضعف الدخل الذي عاد عليه به أرز أرضه نفسها · فقد كانت تربة تلك الارض ندية خصبة ، ولقد نما الارز فيها كما تنمو الاعشاب الضارة حيث لا يريدها المرء أن تكون · وعرف كل امرىء ، الان ، ان وانغ لانغ يملك هذه الارض ، وتحدث الناس عن ضرورة تنصيبه رئيسا ·

٧

وكان عم وانغ لانغ قد بدأ يصبح ، في هذه الفترة ، ذلك البلاء الذي أدرك وانغ لانغ منذ البدء إنه سيكونه · وكان هذا العم هو الاخ الاصغر لوالد وانغ لانغ ، وهذه القرابة كانت تعطيه الحق في الاتكال على وانغ لانغ

اذا ما ألم العسر به وبأسرته · ففي الفترة التي كان فيها وانغ لانغ وأبـوه فقيرين لا يكادان يعرفان الشبع كان العم يعمل المعول في أرضه ويجني من هذا الصنيع ما يعيل به نفسه وزوجته وأولاده اسبعة · حتى اذا نعموا بالغذاء كفوا جميعا عن العمل · فكانت الزوجة لا تكلف نفسها عناء كنس كوخهم ، وكان الاولاد لا يكلفون أنفسهم عناء غسل وجوههم · ومن الامور المخجلـة ان البنات منهم بقين ، بعد أن شببن عن الطوق بل بعد ان بلغن سن الزواج ، يتسكعن في شارع القرية ، غير مسرحات شعرهن الخشن الذي جعلته الشمس قاتم اللون، متحدثات في بعض الاحيان أيضا الى الرجال · واستبد الغضب بوانغ لانغ ذات يوم عندما التقى ابنة عمه الكبرى على هذا النحو ، واعتبر ذلك عارا على الاسرة ، فاستجمع شجاعته ومضى الى امرأة عمه وقال لها :

ـ « اسمعي ، من الذي يرضى الزواج من فتاة مثل ابنة عمي يستطيع أيما رجل ان ينظر اليها ؟ لقد بلغت سن الزواج منذ ثلاث سنوات ومـا تزال تتسكع ههنا وهناك ، ولقد شهدت اليوم في شارع القرية شابا جلفا سيء السيرة يضع يده على ذراعها فلم تجبه بغير ضحكة سليطة ! »

وكان اللسان هو العضو الفعال الوحيد في جسم امرأة عمه ، فأطلقت عنانه في وجه وانغ لانغ قائلة :

ـ « حسنا ، ومن الذي سوف يتولى دفع البائنة ونفقات الزواج وأجـر الوسيط ؟ ان الانتقاد هين على اولئك الذين تمكنهم مواردهم من ان يشتروا بالفضة الفائضة عنهم مزيدا من الارض من الاسر الكبيرة ، ولكن عمك رجل بائس ، ولقد كان كذلك منذ البدء · ان نجمه منحوس ، وليس الذنب في ذلك ذنبه · تلك هي ارادة الالهة · فحيث يستطيع الاخرون ان ينتجوا قمحا جيدا تجد أن البذور التي ينثرها هو تموت في باطن الارض فلا ينبثق منها غيـــر الاعشاب الضارة · وانما يحدث ذلك رغم انه يكسر ظهره بالعمل الكادح ! »

وانخرطت في بكاء صارخ متكلف ، وشرعت تعد نفسها لاهتياج مفتعـل · لقد شدت بعقدة شعرها الملتفة عند مؤخر رأسها وطرحت خصله المحلولة على وجهها ، وأنشأت تصرخ بأعلى صوتها :

ـ « آه ، هذا شيء لا تعرفه أنت : ان يكون المرء منحوس النجم ! فبينا تطلع حقول الاخرين ارزا جيدا تطلع حقولنا أعشابا ضارة ، وبينا تصمد منازل الاخرين مئة عام متوالية تزلزل الارض تحت بيوتنا حتى لتتصدع منها الجدران ، وبينا تنجب الاخريات ذكورا أنجب أنا ـ حتى ولو حبلت بغلام ذكر ـ مولودا أنثى ـ آه ، يا له من قدر منحوس ! »

وراحت تولول ، فهرعت النسوة من البيوت المجاورة ليرين ويسمعن ·

بيد ان وانغ لانغ صمد ، وأكمل ما كان يريد أن يقوله :

ـ « مهما يكن من أمر ، وعلى الرغم من انه ليس من شأني ان أقدم النصح لشقيق والدي فاني أقول لك ما يلي : من الافضل للفتاة ان تتزوج وهي بعد عذراء · ومن ذا الذي سمع بكلبة تركت للتطوف في الشارع ولم تلد بطنا من الجراء ؟ »

حتى اذا تكلم بهذه الصراحة ، انقلب عائدا الى منزله تاركا امرأة عمه تصرخ وتولول · كان قد عقد العزم على ان يشتري هذا العام مساحة جديدة من أرض ال هوانغ ، وأن يشتري في كل عام ما استطاع شراءه من الاراضي، وكان يحلم بأن يضيف الى بيته حجرة جديدة · ولقد أغضبه أنه فيما كان هو وأولاده يرتقون الى مستوى اسرة ذات أطيان ، كانت بنات عمه يتسكعن في الشوارع حاملات نفس اسم العائلة الذي يحمل ·

و في اليوم التالي وفد عمه على الحقل حيث كان يعمل · ولم تكن او ـ لان هناك ، ذلك بأن عشرة أشهر كانت قد انقضت على ولادة الغلام الثاني ، وكانت على وشك ان تضع حملها الثالث ، وهذه المرة لم تبد مثل الجلد والقوة على الاحتمال اللذين تكشفت عنهما من قبل · فغابت عن الحقول بضعة أيام ، وهكذا عمل وانغ لانغ وحده · وانما اقبل عمه متراخيا على امتداد احد الاثلام ، وملابسه غير مزررة كما ينبغي لها أن تزرر ، ولكنها مضمومة بعضها الى بعض ومثبتة بزناره على نحو قلق ـ شأنها دائما ـ حتى ليبدو وكأن أول ريح تهب عليه قد تخلفه فجأة عاري الجسد · وتقدم الى حيث كان وانغ لانغ ، ووقف صامتا فيما كان وانغ لانغ يشق ثلما ضيقا الى جانب اللوبياء التي كان يحرثها · وأخيرا قال وانغ لانغ في خبث ، ومن غير أن يرفع بصره :

ـ « أرجو المعذرة أيها العم ، لعدم توقفي عن العمل · فهذه اللوبياء كما تعلم ، يجب ان تحرث مرتين وثلاثا اذا كان لها أن تنمو وتثمر · ولست أشك في انك قد نفضت اليد من حراثة لوبيائك · اني فلاح بطيء جدا ـ فلاح بائس ـ لا ينجز عمله الا متأخرا فهو لا يجد متسعا من الوقت للراحة » ·

وفهم العم ما انطوى عليه كلام وانغ لانغ من مداعبة غير بريئة فهما كاملا ، ولكنه أجابه في نبرة رقيقة :

ـ « انا رجل مكتوب عليه الشقاء · فهذه السنة لم تنجم من كل عشرين حبة لوبياء غير حبة واحدة ، وفي مثل هذه الحال من النماء الشحيح يصبح ضرب المعول عملا غير ذي غناء · ان علينا ان نشتري اللوبياء ، هذه السنة ، اذا طمعنا في اكلها » ·

قال ذلك وأطلق زفرة عميقة ·

وقسى وانغ لانغ فؤاده · كان يعلم ان عمه قد أقبل ليسأله مساعدة ما · وضرب الارض بمعزقته في حركة طويلة متناغمة ، وفي عناية بالغة ، محطما أصغر قطعة مدر باقية في الارض اللينة التي كانت قد حرثت من قبل حرثا جيدا · وانتصبت نبتات اللوبياء في نظام لا يعتوره خلل ، ملقية في انتصابها – تحت أشعة الشمس – حواشي دقيقة من ظل جلي · وأخيرا شرع عمه يتكلم :

– « ان التي في بيتي * حدثتني عن اهتمامك بأمر جاريتي البكر الحقيرة · والواقع ان كل ما تقوله صحيح مئة بالمئة · وان الحكمة التي ينم عنها كلامك لاكبر من سنك بكثير · ان علينا ان نسعى في تزويجها · فقد بلغت الخامسة عشرة ، ولقد كان من الجائز أن تضع مولودا في السنوات الثلاث أو الاربع الماضية · وأخشى ما أخشاه هو أن تعلق من أحد الكلاب المسعورة فتجلب العار علي وعلى اسمنا جميعا · حسبك ان تتخيل هذه الكارثة تحدث في أسرتنا المحترمة ، في بيتي أنا ، شقيق أبيك ! »

وعاود وانغ لانغ ضرب الارض بمعوله في قوة وعنف · كان يتمنى لو يستطيع الكلام في صراحة · كان يتمنى لو يقول :

– « لماذا لا تضبطها اذن ؟ لماذا لا تبقيها محتشمة في المنزل وتحملها على الكنس والتنظيف والطهو وعمل الملابس لافراد الاسرة ؟ »

ولكن المرء لا يستطيع ان يقول هذه الاشياء لرجل من جيل أبيه · من أجل ذلك اعتصم بالصمت ، وراح يعزق الارض حول نبتة صغيرة كان معوله يمسها ، وانتظر ·

وتابع عمه حديثه في تفجع :

– « لو شاء لي حسن الطالع ان اتزوج امرأة كما فعل ابوك ، امرأة تستطيع ان تعمل وان تنجب الاولاد في آن معا ، كما تفعل زوجتك أنت ايضا ، بدلا من امرأتي التي لا تعنى بشيء غير شحمها ولحمها ولا تلد شيئا غير الاناث وغير ذلك الابن البليد الكسول الذي يجعله ايثاره للبطالة لا يرقى الى مستوى الذكور – أقول لو شاء لي حسن الطالع ذلك اذن لكنت أنا أيضا قد اصبحت الان غنيا مثلك · واذن لكنت قاسمتك ثروتي ، وقاسمتك اياها بطيبة خاطر · ليس هذا فحسب ، بل لو شاء لي حسن الطالع ذلك اذن لزوجت بناتك رجالا صالحين ، ولوضعت ابنك في دكان احد التجار بوصفه « صبيا متمرنا » ** ·

---

* يقصد زوجته ·

** Apprentice

ولدفعت بطيبة خاطر الضمانة التي تطلب في مثـــل هذه الاحوال ، ولابتهجت بترميم منزلك ، ولزودتك وأباك وأولادك بخير ما عندي من زاد ، لاننــا أبنــاء دم واحد » ٠

فأجابه وانغ لانغ في اقتضاب جاف :

ـ « انت تعلم اني لست غنيا ٠ ولقد أمسى لدي الان خمسة أفـواه يتعين علي أن أطعمها ، وأبي شيخ كبير ٠ انه لا يعمل ، ومع ذلك فهو لا يزال يأكل ٠ وعلى قدر ما أعلم فأن فما جديدا يولد الان في بيتي في هذه اللحظة » ٠

فأجابه عمه في نبرة حادة :

ـ « أنت غني ٠٠٠ أنت غني ! لقد اشتريت الارض من الاسرة الكبيرة بثمن باهظ لا يعرفه غير الالهة ٠٠٠ فهل يوجد في القرية أيما امرىء اخر قادر على ان يفعل مثل فعلك هذا ؟ »

وهنا تميز وانغ لانغ من الغيظ ٠ فطرح معوله جانبــا ، وصاح فجأة وهو يحدق الى عمه :

ـ « اذا كنت أملك حفنة من الفضة فلأنني أعمل ولان زوجتي تعمـل ، ولاننا لا نهدر أيامنا ، كما يفعل بعض الناس ، على المائدة الخضراء ولا نضيع أوقاتنا في القيل والقال على عتبات لم تعرف الكنس قط ، تاركين الحقـول للاعشاب الضارة تنبت فيها وتاركين أولادنا نصف جياع » !

وشاع الدم في وجه عمه الشاحب ، فهجم على ابن اخيه وصفعه علـى خديه كليهما صفعا عنيفا ، وصاح :

ـ « خذ هذه جزاء تحدثك بهذه اللهجة مع من هو ترب من أتراب أبيك ! أليس لديك دين ؟ أليس لديك اخلاق تعصمك من التهجـم الى هذا الحد علـى ذوي قرباك ؟ ألم تسمع بالاوامر المقدسة التي تقول بأنه لا يجوز للمرء في حال من الاحوال ان ينتقد من هو اكبر منه سنا او أن يعنفه ؟ »

ووقف وانغ لانغ جامدا متجهم الوجه ، مدركا خطأه ولكنه غاضب حتى أعماق قلبه على هذا الرجل الذي كان عمه ٠

وصرخ عمه في صوت حاد مرتجف بالحنق البالغ :

ـ « سوف أنقل كلماتك هذه الى أهل القرية كلها ! أمس اقتحمت بيتـي وصحت في الشوارع قائلا ان ابنتي ليست عذراء ٠ واليوم أراك تعنفني ، أنــا الذي يجب أن أكون في منزلة أبيك اذا ما قضى ابوك نحبه ! وحتى لو كانـت جميع بناتي فاقدات بكارتهن فلست أجيز لاحد ان يتحدث بمثل هذا الحديـث عن أي منهن ! »

وراح يكرر قوله « سوف أخبر القرية كلهــا ٠٠٠ سوف أخبر القرية

كلها ٠٠٠ » حتى وجد وانغ نفسه مضطرا اخر الامر الى أن يقول :

ـ « وما الذي تريد مني أن أفعله ؟ »

لقد طعن كبرياءه ان تتسامع القرية فعلا بهذه المسألة · فقد كانت بنات عمه من لحمه ودمه على أية حال ·

وتغير عمه على التو · لقد تبخر غضبه كله · وابتسم ووضع يده على ذراع وانغ لانغ وقال في رقة :

ـ « اه ، أنا أعرفك ، أنت ولد طيب ، ولد طيب جدا ٠٠٠ ان عمك يعرفك ٠٠٠ أنت ولدي · والان ، يا ولدي ، ضع في هذه اليد البائسة العجوز قليلا من الفضة ـ عشر قطع من الفضة أو تسع قطع اذا شئت وعندئذ يصبح في ميسوري أن أتفاهم مع أحد وسطاء الزواج في شأن هذه الجارية ، في شأن ابنتي · آه ، أنت على صواب ! لقد آن الاوان ٠٠٠ لقد آن الاوان ! »

وتنهد وهز رأسه ، وتطلع الى السماء في تقى ·

ورفع وانغ لانغ معوله عن الارض ثم عاد فطرحه من جديد · وقال في اقتضاب :

ـ « تعال الى منزلي · أنا لا أحمل الفضة في جيبي مثل أمير من الامراء » ·

وراح يوسع الخطى نحو منزله ، وقد اعتلج في صدره حنق ممتنع على الوصف لان بعض تلك القطع الفضية الطيبة التي كان يعتزم ان يشتري بها مزيدا من الارض سوف يذهب الى يد عمه هذه ، لينتقل منها الى المائدة الخضراء قبل أن يهبط الليل ·

ودخل المنزل في خطى عريضة ، مقصيا عن طريقه ولديه الصغيرين اللذين كانا يلعبان على مقربة من العتبة عاريين تحت أشعة الشمس الدافئة · وفي سذاجة متكلفة نادى عمه الولدين ، وأخرج من اعماق ثوبه المتغضن قطعة نقد نحاسية لكل من الطفلين · وضم الجسدين الصغيرين البدينين المتمعين الى صدره ، وقرب أنفه اليهما فاسترّوح في محبة مصطنعة عبير جيديهما الناعمين اللذين سمرتهما الشمس ·

وقال ضاما كلا من الولدين بأحدى ذراعيه :

ـ « آه ، انتما رجلان صغيران ! »

ولكن وانغ لانغ لم يقف او يتمهل · لقد مضى الى الحجرة التي ينام فيها مع امرأته وولده الصغير · كانت الحجرة مظلمة جدا في عينيه ، بوصفه وافدا من خارج حيث تأتلق أشعة الشمس ، ولولا عمود الضياء النافذ من الثقب لما استطاع أن يرى شيئا · ولكن عبق الدم الحار الذي تذكره أحسن

التذكر ملأ منخريه فصاح في قوة :

ـ « ماذا ٠٠٠ هل وضعت حملك ؟ »

ومن الفراش أجابه صوت امرأته واهنا اكثر منه في ايما مرة قدر له فيها ان يسمعها تتكلم :

ـ « لقد قضي الامر كرة اخرى ٠ انها هذه المرة جارية صغيرة ٠٠٠ لا تستحق الذكر » ٠

وجمد وانغ لانغ في مكانه ٠ لقد صعقه حس شؤم ٠ فقد كانت المسؤولة عن ذلك البلاء كله في بيت عمه بنتا من البنات ٠ وها قد ولدت الان في بيته هو بنت أيضا !

ومن غير ان يجيب بكلمة تقم نحو الجدار وتجسس الخشونة التي كانت امارة مخبأ الفضة ، ونزع قطعة المدر ، ثم انه مد يده الى كومة المال الصغيرة وأخرج تسع قطع فضية ٠

وفجأة قالت زوجته في الظلام :

ـ « لماذا تخرج القطع الفضية من مخبأها ؟ »

فأجابها في اقتضاب :

ـ « « أنا مضطر الى أن أعيرها لعمي » ٠

ولم تجبه امرأته ، بادىء الامر ، بشيء ، ثم قالت في صوتها الواضح الكئيب :

ـ « من الافضل ان لا تسمي هذا اعارة ٠ فليس في ذلك البيت اعارة البتة ٠ انهم لا يفهمون هناك الا المنح والاعطاء » ٠

فأجابها وانغ لانغ في مرارة :

ـ « أعلم ذلك ٠ واني استشعر اذ اعطيه شيئا من المال وكأني اقتطع جزءا من لحمي ٠ ولماذا أعطيه ؟ لمجرد اننا أبناء دم واحد ! »

ثم انه ارتد الى عتبة الباب ووضع المال في يد عمه ، وانقلب مسرعا الى حقله ، وهناك استغرق في العمل وكأنما كان يبغي ان ينتزع الارض من اساسها ٠ ولم يفكر في تلك اللحظة الا في القطع النقدية الفضية ٠ لقد رآها تطرح في غير ما مبالاة على احدى الموائد الخضراء ، ورأى يدا عاطلة عن العمل تتلقفها ٠٠٠ تتلقف فضته ، فضته التي كدح طويلا لاكتسابها من نتاج حقوله ابتغاء تحويلها كرة اخرى الى قطعة ارض جيدة تضاف الى ما يملك من أراض ٠

ولم تهدأ ثائرته الا بعد ان هبط الليل ، فانتصب وتذكر بيته وطعامه ٠ ثم انه فكر في ذلك الفم الجديد الذي وفد اليوم على منزله ، فأحزنه أن يكون

عهد البنات قد بدأ في بيته ، البنات اللواتي لا يعتبرن ملكا لآبائهن ، واللواتي يولدن ويربين لعائلات اخرى · والواقع انه لم يخطر له ، في غمرة نقمته على عمه ، أن يتمهل ولو لحظة ليرى الى وجه هذه المخلوقة الصغيرة الجديدة ·

ووقف متكئا على معوله وقد غلب عليه حزن شديد · لقد تعين عليه ، الان ، ان ينتظر حصادا اخر قبل ان يوفق الى شراء تلك الارض ـ الارض التي تحاذي أرضه ـ وها قد ولد بيته الان ذلك الفم الجديد · وعبر سماء الغسق الشاحبة ذات اللون اللؤلؤي طار سرب من الغربان ، حبري السواد ، وحوم فوق رأسه ، ناعبا على نحو صارخ · وراقب وانغ لانغ الغربان تختفي مثل سحابة من السحب وسط الاشجار المجاورة لمنزله ، فاندفع وراءها ، صائحا ملوحا بمعوله · ثم انها برزت من جديد ، في تؤدة ، متحلقة فوق رأسه مرة ومرة ، ساخرة منه بنعيبها ، وانطلقت اخر الامر في السماء التي كان الظلام قد شرع يلفها من أقطارها ·

وأرسل وانغ لانغ زفرة عميقة · كان ذلك نذير شؤم ·

٨

لقد بدا وكأن الآلهة ما ان تشيح وجهها مرة عن امرىء ما حتى تضن عليه بعد بنظرة عطف واحدة · فالامطار ، التي كان ينبغي ان تهطل في أوائل الصيف ، كبحت جماح نفسها · ويوما بعد يوم كانت السموات تشرق بلمعان جديد لا يبالي · لكأن الارض المسفوعة الظامئة لم تكن عندهن شيئا مذكورا · ومن الفجر الى الفجر كانت العين لا تقع على سحابة واحدة · وفي الليل كانت النجوم تتدلى من السماء ، ذهبية قاسية في جمالها ·

ويبست الحقول وتشققت ، على الرغم من أن وانغ لانغ حرثها في اهتمام يائس · وسوق القمح الغضة التي كانت قد نجمت في شجاعة عند وفود الربيع وأعدت رؤوسها لحمل الحب ما لبثت ـ عندما وجدت أن أيا من السماء أو الارض لم تجد عليها بشيء ـ ان كفت عن النمو ووقفت جامدة لا حراك بها ، بادئ الامر ، تحت أشعة الشمس · وأخيرا ذبلت واصفارت مؤذنة بحصاد عقيم · وكانت مساكب الارز التي زرعها وانغ لانغ أول الامر مجرد مربعات من حجر اليشب فوق الارض السمراء · لقد حمل اليها الماء يوما فيوما بعد أن تخلى عن القمح ، وقد تدلت الدلاء الخشبية الثقيلة من عمود خيزراني كان

يتنكبه · ولكن على الرغم من أن ثلما حفر في لحم منكبه وتشكلت ثمة جساة في مثل حجم الطاسة فان المطر لم ينهمر ·

وأخيرا جفت المياه في البركة واستحالت الى كعكة من طين · وحتى الماء في البئر غار الى حد جعل أو-لان تقول لزوجها :

ـ « اذا شرب الاولاد وأعطي العجوز ماءه الساخن فلا بد ان يحترق الزرع » ·

فأجابها وانغ لانغ في غضب انقلب الى زفرة :

ـ « حسنا و لابد ان يجوعوا جميعا اذا جاع النبات » ·

وكان ذلك صحيحا : ان حياتهم كلها لتعتمد على الارض ·

وكانت الارض المجاورة للخندق هي وحدها التي آتت أكلها ، وما ذلك الا لان وانغ لانغ ، عندما انسلخت أشهر الصيف اخر الامر من غير مطر ، هجر سائر حقوله ومكث طوال النهار في تلك الارض رافعا الماء من الخندق ليسفحه على التربة المنهومة · وهذه السنة باع قمحه ، للمرة الاولى ، بعيد حصاده مباشرة ، وحين احس بالقطع الفضية في راحة يده أطبق اصابعه عليها في تحد · وقال في ذات نفسه انه سوف ينفذ ، برغم الآلهة والجفاف ، ما كان قد اعتزم القيام به · لقد حطم جسده وأهرق عرقه من أجل حفنة الفضة هذه ، ولسوف يفعل بها ما يحلو له · واسرع الى بيت هوانغ ، واجتمع الى وكيل الاراضي ، وقال في بساطة :

ـ « لدي ما اشتري به الارض المحاذية لارضي التي عند الخندق » ·

وكان وانغ لانغ قد سمع ههنا وههناك ان تلك السنة كانت ، بالنسبة الى آل هوانغ ، سنة محل كاد يلقي بهم في مهاوي الفقر · كانت السيدة العجوز قد حرمت ، طوال عدة أيام ، جرايتها الكاملة من الافيون ، وكانت قد أمست مثل نمرة عجوز جائعة ، فهي تستدعي وكيل الاراضي كل يوم ، وتصب عليه اللعنات ، وتصفع خده بمروحتها صائحة في وجهه :

ـ « ألم يبق لدينا أكر واحد من الارض ؟ »

حتى لقد فقد وكيل الاراضي صوابه ·

بل انه قد تنازل لها عن الاموال التي كان يبقيها لنفسه عادة كلما انجز صفقة باسم اسرة هوانغ ـ الى هذا الحد كان قد فقد صوابه · وكان ذلك كله لم يكن كافيا فاقتنى سيد البيت العجوز محظية اخرى ، وكانت جارية بنت جارية أتخذ منها في شبابها خليلة له ، ولكنها الان زوجة لاحد خدم البيت لان شهوة السيد العجوز اليها خمدت قبل ان يدخلها الى حجرته بوصفها محظية · حتى اذا وقع بصره على ابنة الجارية هذه ، وكانت لما تتجاوز

السادسة عشرة ، نظر اليها في شبق جديد ، ذلك بأنه عندما شاخ وأمسى مرتعش الاوصال مثقل الجسم باللحم اشتدت رغبته اكثر فأكثر ، على ما يبدو ، في النسوة المهزولات الصغيرات السن ، حتى اللواتي لم يشببن عن الطوق ، فاذا بشبقه لا يعرف خمودا ولا تراخيا ٠ كان عبدا لشهواته بقدر ما كانت السيدة العجوز عبدة لافيونها ، ولم يكن من سبيل الى افهامه انه لم يكن لدى الاسرة مال يفي ثمن اقراط اليشب التي يريد شراءها لمحظياته او فضة تزين أيديهن الحلوة ٠ وهل يستطيع أن يفهم هذه العبارة « لا مال » ، وهو الذي سلخ عمره موسرا موسعا عليه في الرزق ، ما ان يمد يده او يبسطها حتى تمتلىء بالمال وتنفقه كيف تشاء ٠

واذ رأى سادة البيت الصغار ابويهم على هذه الحال هزوا أكتافهم وقالوا انه لا بد يبقى لهم على أية حال ما يكفيهم عمرهم كله ٠ لقد اتحدوا على أمر واحد ليس غير ، وهو أن يؤنبوا وكيل الاراضي لسوء ادارته لممتلكاتهم ٠ حتى لقد انتهى هذا الرجل ـ وهو الذي كان في يوم مضى مداهنا ناعم الملمس تبدو عليه امارات النعمة والرخاء ـ الى أن يصبح قلقا شرس الخلق ، والى ان يلم به الهزال على نحو صارخ جعل جلده يتدلى من أوصاله وكأنه ثوب عتيق بال ٠

وكذلك لم تجد السماء بأمطارها على حقول آل هوانغ ، وهناك ايضا لم يكن حصاد ٠ من أجل ذلك كان وفود وانغ لانغ على وكيل الاراضي وهتافه : « لدي فضة » أشبه ما يكون بوفود امرىء ما على جائع وقوله له : « لدي طعام » ٠

ووثب الوكيل الى بحث المسألة وثبا ٠ وبينما تميز البحث في المرة الماضية بالمساومة واحتساء الشاي تحدث الرجلان هذه المرة في همس لاهف ٠ سرعة بالغة جعلتهما لا يقويان على النطق بغير انصاف كلمات انتقل المال من يد الى أخرى ووقعت الاوراق وختمت ، وأمست الارض ملكا لوانغ لانغ ٠

ومرة أخرى لم يجد وانغ لانغ ذهاب المال ، الذي كان لحمه ودمه ، شيئا عسيرا ٠ لقد اشترى به منية فؤاده ٠ وكان يملك الان رقعة عريضة من أرض طيبة ، ذلك بأن مساحة الحقل الجديد كانت ضعف مساحة الحقل الاول ٠ ولكن الذي أثار اعتزازه اكثر من خصب تربته السوداء انه كان في يوم من الايام ملكا لاسرة أمير من الامراء ٠ وهذه المرة لم يخبر أحدا ، حتى أو-لان نفسها ، بما قد فعل ٠

★

وانقضى شهر اثر شهر ، والمطر ما يزال منحبسا ٠ وعند اقتراب

الخريف تجمعت الغيوم ، على كره منها ، في السماء ، غيوم صغيرة خفيفة ، وفي شارع القرية كان في ميسور المرء أن يرى الرجال واقفين هـهنا وهـهناك ، متبطلين قلقين ، موجهين وجوههم شطر السماء ، يتفحصون السحائب واحدة اثر واحدة ، متناقشين هل تحمل اي منها شيئا من المطر في ثناياها · ولكن قبل أن يجتمع قدر من الغيوم كاف لاحياء الامل في النفوس هبت من ناحية الشمال الغربي ريح عاتية ، هي الريح اللاسعة الوافدة من الصحراء القصية ، فبددت تلك الغيوم في السماء كما يجمع المرء الغبار المتناثر على أرض الغرفة بالمكنسة · وغدت السماء فارغة عارية ، واشرقت الشمس المهيبة كل صباح ، وجرت لمستقرها ثم توارت بالحجاب ، متوحدة ، كل مساء · وتألق القمر ، بدوره ، مثل شمس واهنة الضياء ·

وفاز وانغ لانغ من حقوله بحصاد نزر من اللوبياء القاسية · ومن حقل قمحه ، الذي كان قد زرعه في يأس عندما اصفرت مساكب الارز وماتت قبل أن تنقل النبتات الى الحقل المروي ، جنى سنابل قصيرة غليظة توزع فيها الحب هـهنا وهـهناك · ان حبة واحدة من اللوبياء لم تتلف بالدرس ، فقد عهد الى الصبيين الصغيرين بأن يتنخلا تراب البيدر بين أصابعهما بعد أن ضرب هو وزوجته فروع اللوبياء ، وفرك القمح على أرض الحجرة الوسطى ، مراقبا كل حبة تنطلق الى مكان بعيد · وحين تقدم الى وضع أغلفة السنابل جانبا ليتخذ منها وقودا قالت زوجته :

ــ « لا ، لا تتلفها بالاحراق · أنا أذكر يوم كنت طفلة في تشانتونغ اننا شهدنا سنة ماحلة مثل هذه ، واننا طحنا فيها أغلفة السنابل نفسها وأكلناها · انها خير من العشب » ·

حتى اذا أتمت كلامها اعتصموا كلهم بالصمت ، حتى الاطفال : فقد كان ثمة شؤم في هذه الايام الغريبة المشرقة التي خذلتهم فيها الارض · والحق ان الطفلة الصغيرة وحدها هي التي لم تعرف الخوف · ذلك بأنه كان في متناولها ثديا الام الضخمان اللذان كانا قادرين ، حتى تلك اللحظة ، على اشباع حاجتها الى الغذاء · ولكن أو ـ لان غمغمت وهي ترضع تلك الطفلة :

ــ « ارضعي ، ايتها المجنونة المسكينة ، ارضعي ــ ما دمت قادرة على أن تجدي ما ترضعينه » ·

وكأنما هذا البلاء كله لم يكن كافيا ، فحملت أو ـ لان كرة اخرى ، وجف ثدياها ، وضج البيت المذعور بصرخات طفلة تبكي على نحو موصول طلبا للغذاء ·

* * *

لو ان احدا سأل وانغ لانغ :

ـ « كيف كنت تقيم أودك وأود أسرتك خلال الخريف ؟ »

اذن لاجــاب :

ـ « لست أدري ··· كنا نحصل على بعض الطعام من ههنا وههناك · »

ولكن لم يكن ثمة من يطرح عليه مثل هذا السؤال · ان أحدا في الريف كله لم يسأل غيره : « كيف تحتال على العيش ؟ » فقد كان كل امرىء مشغولا بتوجيه السؤال الى نفسه وحسب : « كيف احتال اليوم على العيش ؟ » وكان الآباء يتساءلون : « كيف نقيم أودنا وأود أولادنا ؟ »

وكان وانغ لانغ قد عني بأمر ثوره أقصى ما استطاع أن يعنى بــه · كان قد قدم الى تلك البهيمة قليلا من التبن وحفنة من فروع اللوبياء اليابسة ما بقي عنده شيء من التبن ومن فروع اللوبياء ، ثم انطلق فانتزع من أجله الورق عن بعض الاشجار حتى أقبل الشتاء ولم يبق ثمة ورقات ينتزعهـا · واذ لم يكن لديه أرض يحرثها ، واذ كان الحب ، لو زرعوه ، ييبس في بطن الارض ، واذ كانوا قد أكلوا كل ما لديهم من بذار ، فقد اضطر الى اطـلاق الثور على سجيته يلتمس غذاءه بنفسه ، مكلفا ابنه البكر أن يمتطي متنــه طوال النهار ويمسك بالحبل الممرر في منخريه خشية أن يسرقه أحد ، ولكنه انتهى آخر الأمر الى الاحجام عن هذا الصنيع نفسه خوفا من أن يغلب أهل القرية ، أو جيرانه أنفسهم ، الغلام على أمره ، ويستولوا على الثور لكــي يعقروه ويأكلوه · وهكذا أبقى الثور على عتبة الباب الى أن استبد به الهزال فهو أشبه ما يكون بهيكل عظمي ·

بيد أن الارز ما لبث أن نفد ، ولم يبق في البيت شيء من قمح : كان كل ما بقي لديهم لا يعدو قليلا من اللوبياء اليابسة وذخيرة هزيلة من الـذرة · وتضور الثور جوعا ، وقال الرجل العجوز :

ـ « عما قريب ، سوف نأكل هذا الثور ! »

عندئذ صاح وانغ لانغ مغضبا ، اذ كان ذلك الكلام عنده أشبه شــيء بقول المرء له : « عما قريب سوف نأكل انسانا · » كان الثور رفيقه فــي الحقول ، وكان هو قد سار خلفه مطريا اياه حينا لاعنا اياه حينا تبعا لمزاجه وحالته النفسية · وانما ترقى معرفته لهذه البهيمة الى عهد صباه الاول عندما اشتروه عجلا صغيرا · وقال :

ـ « كيف تريد منا أن نأكل الثور ؟ وكيف نوفق الى حرث الارض بعد ؟ »

ولكن الرجل العجوز أجاب في هدوء بالغ :

ـ « حسنا ، ان عليك ان تختار بين الابقاء على حياتك والابقاء علــي

حياة البهيمة ، بين الابقاء على حياة ولدك والابقاء على حياة البهيمة ٠ وفي استطاعة المرء أن يعاود شراء ثور من جديد بأسهل مما يعاود شراء حياتـه هو من جديـد ! »

ولكن وانغ لانغ أبى أن يذبحه ذلك اليوم ٠ وانقضى يوم ثان وثالـث ، وبكى الاطفال يريدون طعاما ولم يكن من سبيل الى تهدئتهم ، وتطلعت او ـ لان الى وانغ لانغ ، متضرعة اليه ان يرحم الاولاد ٠ واخيرا ادرك انه ليس مـن الامر بد فقال في خشونة :

ـ « فليذبح اذن ٠ أما أنا فلست أستطيع ان أفعل ذلك ٠ »

ومضى الى الغرفة التي ينام فيها ، واستلقى على السرير ، ولف رأسه باللحاف لكي لا يسمع خوار البهيمة وهي تذبح ٠

ثم ان أو ـ لان انسلت من الحجرة وتناولت مدية حديدية ضخمة كانت في الطبخ واحتزت عنق البهيمة فقضت على حياتها ٠ وجاءت بأناء فجمعـت فيه الدم المراق لكي تطبخه وتجعل منه حلوى لهم ٠ ثم سلخت الجثة الضخمة وقطعتها قطعا ٠ وأبى وانغ لانغ ان يغادر غرفته الا بعد أن تم الامر كلـه ، والا بعد أن طهي اللحم ووضع على المائدة ٠ حتى اذا حاول أن يطعم لحـم ثوره ثار حلقومه فلم يستطع أن يزدرده ، ومن ثم اجتزأ بقليل من الحساء ليس غيـــر

وقالت له أو ـ لان :

ـ « الثور لا يعدو أن يكون ثورا ، ولقد شاخ ثورنا هذا ٠ كل ، فلا بد أن نقتني بهيمة أخرى في يوم من الايام ٠٠٠ بهيمة خيرا من هذه بكثير ٠ »

وسري عندئذ عن وانغ لانغ بعض الشيء ، فأكل لقمة ثم أتبعها بأخرى ، وبعد ذلك أكلوا كلهم ٠ ولكن الثور أكل آخر الأمر ، بل هشمت عظامه التماسا لما انطوت عليه من مخ ٠ ولقد أتي على ذلك كله في برهة قصيرة ، ولم يبق من الثور غير الجلد المجفف ، القاسي ، المنشور على مشجب من خيزران اقامته أو ـ لان ابتغاء مطه مطا محكما ٠

وفي بادىء الامر نقمت القرية على وانغ لانغ لان أهلها حسبوا انه يملك فضة مخبوءة وأغذية مدخرة وأقبل عمه ، الذي كان واحدا من أوائل الذين استبد بهم الجوع ، فطرق بابه في الحاف ، ولقد كان الرجل وزوجتـه وأولاده السبعة لا يجدون ما يتبلغون به حقا ٠ وعلى كره منه وضع وانغ لانغ فـي حاشية ثوب عمه ، بكثير من التطفيف ، كومة صغيرة من الفاصولياء وحفنة ثمينة من القمح ٠ ثم انه قال في حزم :

ـ « هذا كل ما أستطيع ان أستغني عنه ، وان علي أن أفكر بوالـدي

العجوز قبل كل شيء ، حتى ولو لم يكن لدي أولاد ٠ »
وعندما وفد عليه عمه كرة أخرى صاح به :
ـ « حتى الطاعة البنوية لن تطعم أفراد عائلتي ! »
ورد عمه خالي الوفاض ٠

ومنذ ذلك اليوم انقلب عمه عليه مثل كلب رفس في قسوة ، وراح يهمس في هذا البيت من بيوت القرية وفي ذاك :

ـ « ان ابن أخي يملك فضة ويدخر طعاما ، ولكنه يأبى أن يعطينا شيئا من ذلك ، بل يأبى أن يعطيني أنا وأولادي ، نحن الذين نعتبر لحمه وعظمه ٠ فلم يبق أمامنا الا أن نموت جوعا ٠ »

وعندما نفدت المؤونة في بيت أثر بيت من بيوت القرية ، وانفقت كل اسرة آخر درهم من دراهمها في أسواق المدينة الشحيحة ، وأقبلت من الصحراء رياح الشتاء باردة مثل مدية فولاذية وجافة عقيمة عصف الذهول بقلوب القرويين لما ألم بهم وبنسائهم الموجعات من جوع ، ولما طرق آذانهم من بكاء أطفالهم ٠ وعندما ارتعد عم وانغ لانغ في الشوارع مثل كلب أعجف وهمس بين شفتيه الجائعتين : « هناك شخص واحد يملك طعاما ٠٠٠٠ هناك شخص واحد لا يزال أولاده سمانا » تلقف الرجال عصيا وقضبانا ومضوا ذات ليلة الى بيت وانغ لانغ وطرقوا بابه ٠ وحين فتح استجابة لنداءات جيرانه انقضوا عليه واقصوه عن الباب وطردوا من البيت أولاده المروعين ، واندفعوا الى كل زاوية ، ونقروا بأيديهم كل سطح ليروا أين خبأ أغذيته ٠ حتى اذا عثروا على مدخره الهزيل من حبوب اللوبياء اليابسة وعلى ملء اناء من القمح المجفف أطلقوا صيحة يائسة مفعمة بخيبة الأمل ، ووضعوا أيديهم على اثاثه ـ على المائدة ، والمقاعد الخشبية ، والسرير الذي كان الرجل العجوز مستلقيا عليه مروعا باكيا ٠

وتقدمت أو ـ لان وتكلمت ، وارتفع صوتها الجلي البطيء فوق أصوات الرجال ٠

وصاحت :

ـ « لا ، لا تمسوا هذا ، لا يزال أمامكم متسع من الوقت لذلك ٠ ان الأوان لم يئن بعد لتجريد بيتنا من مائدته وسريره ومقاعده الخشبية ٠ لقد استوليتم على كل ما لدينا من طعام ٠ ولكنكم لما تبيعوا بعد موائدكم ومقاعدكم الخشبية ٠ فاتركوا لنا مائدتنا ومقاعدنا ٠ لقد تساوينا ٠ نحن لا نملك من الفاصولياء أو من القمح أكثر مما تملكون ـ لا ، بل انكم لتملكون الان من ذلك أكثر منا ، بعد أن استوليتم على كل ما كان لدينا من حب ٠ ان الآلهة لا

بد أن تصعقكم اذا أخذتم شيئا اضافيا · والان ، سوف ننطلق معا ونبحث عن شيء من العشب ومن لحاء الشجر ، تطعمونه أنتم أولادكم ونطعمــــه نحن صغارنا الثلاثة ، وهذا الصغير الرابع الذي سيبصر النور عما قريب · »

وضغطت يدها ، فيما هي تتكلم ، على بطنها ، واستحيا الرجال منها ، وانصرفوا واحدا اثر واحد ، ذلك بأنهم لم يكونوا شريرين ، الا عندما يعضهم الجـــوع ·

وتخلف واحد منهم ، هو المدعو تشينغ ، وكان رجلا أصفر صامتــا ضئيل الجسم ذا وجه هو في أحسن أحواله أشبه شيء بوجه القرد ، وكـان وجهه ذاك غائرا الان يعصف به القلق · كان يرجو أن ينطق بكلمة اعتذارية طيبة ، اذ كان في جوهره رجلا مستقيما أكرهه بكاء طفله ، ليس غير ، على اقتراف الشر · بيد أنه كان في صدره حفنة من الفاصولياء اختطفها عندمـا اكتشف الغذاء المدخر ، وكان يخشى أن يضطر الى اعادتها اذا ما نطق ببنت شفة ، ومن أجل ذلك اكتفى بأن نظر الى وانغ لانغ بعينين شاردتين صامتيـن ومضى لسبيلـه ·

ووقف وانغ لانغ ، هناك ، في فناء بيته حيث درس عاما بعد عـــام محاصيله الخصبة ، وحيث رانت البطالة واللاجدوى طوال أشهر متعاقبة · لم يكن قد بقي في المنزل ما يقيم به أود أبيه وأولاده ··· لم يكن قد بقي مـا يقيم به أود زوجته هذه ، التي كان يتعين عليها ، الى جانب تغذية جسدهـا هي ، ان تغذي هذا الجنين الذي يتخذ سبيله نحو النماء ، هذا الجنين الذي كان خليقا به ، في وحشية الحياة الجديدة المتوقدة ، أن يسلب أمه لحمها ذاته ودماءها ذاتها · واستبد به ، لحظة ، روع بالغ ، ثم سرى في فؤاده ، كمثل دبيب الخمر الملطف ، هذا العزاء · لقد قال بينه وبين نفسه :

ـ « انهم لا يستطيعون أن ينتزعوا الارض مني · لقد وضعت كــدح جسدي وثمار حقولي في حرز حريز · ولو كنت احتفظت بالقطع النقديــة الفضية اذن لاستولوا عليها · ولو قد انفقت الفضـــة في شراء المؤن اذن لسلبوني اياها كلها · لقد بقيت لي الارض ، وانها ملك خالص لي · »

٩

وفيما هو جالس على عتبة بابه قال وانغ لانغ بينه وبيـــن نفسه ان الضرورة تقتضيه أن يعمل عملا ما · لم يكن في امكانهم ان يبقوا هنا ليموتوا

في هذا البيت الخاوي · لقد كان يعمر جسده ، هذا الجسد الذي كان يضيق كل يوم حلقة زناره الواسع حوله ، تصميم على الحياة · وما كان ليجيز لقدر أبله ان يسلبه حياته في تلك الفترة التي بلغ فيها ذروة شبابه وقوته · والحق أنه عرف في تلك اللحظات غضبا لم يكن في طوقه ان يصفه أو يعبر عنه · لقد استبد به ذلك الغضب ، في بعض الأحيان ، وكأنه مس من جنون ، فهو يندفع الى بيدره الفارغ ويهز ذراعيه في وجه السماء البلهاء المشرقة فوقه، زرقاء صافية باردة عاطلة من الغيوم على نحو سرمدي ·

وكان يصيح في طيش :

ـ « أوه ، أنت شرير اكثر مما ينبغي ، أيها العجوز القابع في السماء ! »

ليعود بعد لحظة فيصيح في نكد وكأن موجة من الخوف تجتاحه :

ـ « وهل يمكن أن يصيبني ، بعد ، شيء اسوأ من هذا الذي حدث ؟ »

وذات مرة ، مضى جارا رجلا اثر أخرى ، في ضعفه الغرثان ، الى هيكل الارض ، وبصق عامدا متعمدا على وجه الاله الصغير الوقور المتربع هناك مع صاحبته · لم يكن ثمة الان أيما عيدان بخور أمام هذين الالهين ، بل لم يكن أمامهما أيما عيدان بخور منذ أشهر عديدة ، وكانت ثيابهما الورقية ممزقة تكشف من خلال خروقها عن جسديهما الصلصاليين · ولكنهما تربعا هناك جامدين لا يحرك وجدانهما شيء · وتطلع اليهما وانغ لانغ وهو يصر بأسنانه غيظا وحنقا ، وارتد الى بيته متأوها ، وانطرح على سريره ·

كانوا قليلا ما ينهضون ، الآن ، في غير ما استثناء ، من فرشهم · فلم تكن ثمة حاجة الى النهوض ، ولقد حل النوم المتشنج ، فترة من الزمان على الاقل ، محل الغذاء الذي أعوزهم · كانوا قد جففوا قشور سنابل القمح والتهموها ، ونزعوا اللحاء عن الاشجار ، وفي طول الريف وعرضه كان الناس يأكلون ما قد يعثرون عليه من عشب أطلعه فصل الشتاء على صفحة الكثبان · لم يكن ثمة أيما حيوان في أيما مكان · وكان في ميسور المرء أن يمشي أياما وأياما من غير أن يرى حمارا أو أي ضرب من البهيمة والطير ·

وانتفخت بطون الاطفال برياح فارغة ، ولم تقع عين أحد في تلك الايام على طفل يلعب في شارع القرية · وفي منزل وانغ لانغ كان الصبيان الصغيران لا يذهبان الى أبعد من الباب حيث يقعدان تحت أشعة الشمس ، تلك الشمس المتحجرة الفؤاد التي لم يخب أوراها البتة · لقد انتهى جسداهما الملتفان الى ان يصبحا الان مهزولين عظميين ، ولولا بطناهما الضخمان لخيل الى المرء أن عظامهما الصغيرة الحادة أشبه ما تكون بعظام الطيور · ولم توفق البنت الصغيرة الى القعود وحدها من غير ما معونة أو سناد ، على الرغم من أن

أوان ذلك كان قد ان ، فهي تستلقي ساعات متواليـــة ، غير متذمـــرة ولا متشكية ، وقد لفت بلحاف عتيق · كان الحاح بكائها الغاضب قد ملأ ارجاء المنزل ، بادىء الأمر ، ولكنها ما لبثت أن أخلدت الى السكينة وشرعت تمتص في وهن أيما شيء يوضع في فمها ، غير رافعة صوتها أبدا · كان وجههـــا الصغير الغائر الخدين ذو الشفتين الصغيرتين الزرقاوين الغائرتين مثل شفتي امرأة عجوز درداء * يحدق اليهم جميعا بعينيه السوداوين الغائرتين ·

هذا التشبث بالحياة الذي تكشفت عنه تلك المخلوقة الصغيرة أثار عطف أبيها وحنانه البالغين ، وواضح أنها لو كانت ممتلئة الجسم مبتهجة النفس شأن أخويها يوم كانا في سنها اذن لما بالى بها · وكان يهمس ، أحيانا ، في رقة ، وهو ينظر اليهـــا :

ـ « يا لك من بلهاء مسكينة ···· يا لك من صغيرة بلهاء مسكينة ! »

وذات مرة عندما حاولت أن ترسل ابتسامة واهنة مبدية عن لثتهـــا الدرداء انخرط في البكاء، وأمسك بيده القاسية المهزولة يدها الصغيرة، ورفعها وقد تعلقت أصابعها بسبابته · ومن ثم كان في بعض الأحيان ينتزعها مــــن فراشها عارية عريا كاملا ويضمها الى صدره داخل سترته الدافئة على نحو مطفف ، ويقعد بها على هذه الشاكلة قرب عتبة البيت ، مجيلا طرفه في الحقول الماحلة الكئيبـــة ·

أما الرجل العجوز فكان أحسن حالا منهم جميعا ، اذ كان من دأبهـم لو وجدوا شيئا من طعام ان يقدموه اليه ، حتى ولو كان الاطفال جائعين · وقال وانغ لانغ في ذات نفسه ، باعتزاز ، انه لن يجيز لأحد في ساعة المــوت أن يقول انه نسي أباه · وحتى لو اضطر الى أن يقدم لحمه هو غذاء لابيه لما احجم عن ذلك · كان الرجل العجوز ينام ليل نهار ، ويلتهم ما يقدم اليه من طعام ، وكان لا يزال في جسده قوة كافية لتمكينه من الزحف ههنا وههناك في فناء الدار عند الظهيرة حين تكون الشمس حارة · كان أكثر ابتهاجا من أي منهم ، وذات يوم ارتعش صوته العجوز الذي كان أشبه بنسيم يرتعد بيـــن أنابيب الخيزران المصدوعة ، فقال :

ـ « لقد عرفنا من قبل أياما اسوأ ···· لقد عرفنا من قبل أياما اسوأ · وذات مرة رأيت رجالا ونساء يأكلون أولادا · »

فقال وانغ لانغ في رعب لانهائي :

ـ « لن يقع شيء مثل هذا في بيتي أبد الدهر ! »

✶

---

* الدرداء المرأة التي لا أسنان لها ·

وفي يوم من الايام وفد على منزل وانغ لانغ جاره تشينغ ، وكان قد تضاءل الان الى أقل من خيال كائن بشري ، وهمس من بين شفتيه اللتين كانتا جافتين سوداوين كالتربة :

ــ « في المدينة بدأ الناس يأكلون الكلاب ، وفي كل مكان بدأوا يأكلون الخيل والطير على اختلاف ضروبها · ونحن هنا أكلنا البهائم التي تحرث حقولنا وأكلنا العشب ولحاء الشجر · فما الذي بقي لنا الان من غذاء ؟ »

وهز وانغ لانغ رأسه في يأس · كان يضم الى صدره فتاته الصغيرة الهزيلة الشبيهة بهيكل عظمي ، ولقد خفض بصره الى الوجه العظمي الدقيق، والى العينين الحادتين المحزونتين اللتين راقبتاه من صدره على نحو موصول· وحين لمح هاتين العينين طافت على وجه الطفل ابتسامة شاردة تفطر لها فؤاده ·

وقرب تشينغ وجهه اليه وهمس :

ــ « في القرية شرعوا يأكلون لحم البشر· ويقال ان عمك وزوجته يأكلون هم أيضا هذا اللحم · والا فكيف بقوا حتى الان على قيد الحياة ، واحتفظوا بقوة تمكنهم من التنقل ههنا وههناك ــ وهم الذين لم يملكوا في يوم من الايام شيئا ، كما يعرف الجميع · »

وتراجع وانغ لانغ أمام هذا الوجه المذكر بالموت الذي كان تشينغ يدفعه نحوه فيما هو يتكلم · كان مجرد التفكير بأن عيني الرجل على مثل هذا القرب منه أمرا رهيبا لا يقوى على احتماله · وفجأة استحوذ على وانغ لانغ خوف لم يوفق الى فهمه · فنهض في سرعة وكأنه يدفع خطرا داهما ، وقال بصوت جهير :

ــ « سوف نغادر هذه البقعة · سوف نوجه وجهنا نحو الجنوب ! فالناس لا يموتون جوعا في كل مكان من هذه الارض العريضة · والالهة ، مهما تكن شريرة ، لن تبيد أبناء « هان » دفعة واحدة !

ونظر اليه جاره في أناة ، وقال باكتئاب :

ــ « آه ، أنت شاب · أنا أكبر منك سنا ، وزوجتي امرأة كبيرة ، وليس لدينا غير ابنة واحدة · ان في استطاعتنا أن نموت في غير انزعاج · »

فقال وانغ لانغ :

ــ « أنت أسعد حظا مني · ان لدي أبي ، وهو شيخ كبير ، وهذه الافواه الثلاثة الصغيرة ، وفما اخر على وشك أن يرى النور ، يجب أن نغادر هذا المكان خشية أن ننسى طبيعتنا ويأكل بعضنا بعضا كما تفعل الكلاب الضارية· »

ثم بدا له فجأة ان ما قاله كان صحيحا مئة بالمئة ، فنادى أو ــ لان التي

كانت تقطع الأيام مستلقية على فراشها من غير أن تنبس ببنت شفة ، بعد أن لم يبق لديهم أغذية يدفعونها الى الفرن ، ووقود يصطنعونه في الطهو :

ـ « تعالي ، أيتها المرأة ! سوف نرتحل جنوبا ! »

كان في صوته جذل لم يستشعره أحد فيه منذ أشهر عديدة ، ورفع الاطفال عيونهم ، وغادر الرجل العجوز غرفته في مشية عرجاء ونهضت أو ـ لان من فراشها ، في وهن ، ومضت الى باب غرفتهما واستندت الى هيكل الباب وقالت :

ـ « تلك فكرة حسنة · في استطاعة المرء أن يموت ماشيا ، على الاقل · »

كان الجنين الذي في بطنها يتدلى من حقويها الهزيلين مثل ثمرة ذات عقد ، وكانت كل ذرة من اللحم قد زايلت وجهها ، حتى لقد نتأت العظام المثلمة تحت بشرتها وكأنها الصخور ·

وقالت :

ـ « انتظر الى غد ، ليس غير · اني لا بد ان ألد ، من الان حتى ذلك الحين · هذا ما تنبئني به حركات الجنين في بطني · »

فأجابها وانغ لانغ :

ـ « غدا ، اذن ، نرحل · »

ثم رأى وجهها ، فاستحوذت عليه موجة من الشفقة أعظم من أيما موجة شفقة استشعرها نحو نفسه في يوم من الايام · لقد كانت هذه المخلوقة البائسة تحمل في أحشائها مخلوقا آخر !

وغمغم :

ـ « أخشى ما أخشاه ان لا تستطيعي السير ، أيتها المخلوقة البائسة ! »

وقال على كره منه لجاره تشينغ الذي كان لا يزال مستندا الى جدار المنزل على مقربة من الباب :

ـ « اذا بقي لديك بقية من طعام فاني استحلفك بحق الالهة أن تعطيني حفنة لكي أنقذ حياة أم أولادي ، ولسوف أنسى أني رأيتك تقتحم منزلي لتسرقه مثل لص من اللصوص · »

ونظر اليه تشينغ خجلا · وأجابه في ضعة :

ـ « أنا لم أعرف راحة الضمير منذ تلك الساعة · لقد كان ذلك الكلب ، عمك ، هو الذي حرضني ، قائلا انك تدخر محاصيل طيبة · واقسم لك ، أمام هذه السماء القاسية الفؤاد ، اني لا أملك غير حفنة صغيرة من اللوبياء المجففة الحمراء مدفونة تحت عتبة بابي · لقد ادخرت انا وزوجتي

هذه الحفنة في ذلك الموضع لساعتنا الاخيرة ، لكي نموت ، نحن وولدنا ، وفي معدنا شيء من الطعام · ولكني سوف أقدم اليك بعض تلك الحفنة ، وغدا ارتحل في اتجاه الجنوب اذا استطعت · أما أنا ، وأهل بيتي ، فسوف نبقى · أنا أكبر منك سنا وليس لدي ولد ، وسيان حياتي ومماتي · »

ومضى لسبيله ليعود عما قليل حاملا منديلا قطنيا عقد على حفنة مزدوجة من فاصولياء صغيرة حمراء ملطخة بالتراب · وما ان وقع بصر الاولاد على الطعام حتى تحلقوا حول الرجل · والتمعت عينا الرجل العجوز ، ولكن وانغ لانغ دفعهم جانبا وحمل الطعام الى زوجته المستلقية في فراشها فأكلت قليلا منه ، حبة حبة ، على غير رغبة منها ، ولكن مخاضها كان قد دنا ، وكانت تعلم انها ان لم تطعم شيئا فعندئذ لا بد أن تموت بين مخالب ألمها ·

ولم يخبىء وانغ لانغ في يده غير حبات قليلة ، وهذه قذفها الى فمه وراح يمضغها حتى أمست عجينة ناعمة ، ثم وضع شفتيه على شفتي بنته ودفع الغذاء الى فمها · وفيما هو يراقب شفتيها الصغيرتين تتحركان استشعر وكأن فاعلية ذلك الغذاء كانت تسري في عروقه هو ·

وتلك الليلة بقي في الحجرة الوسطى · كان الصبيان في حجرة الرجل العجوز ، وفي الحجرة الثالثة كانت أو ـ لان تضع ذا بطنها وحدها · لقد قعد هناك كما كان قد قعد عند ولادة ابنه البكر ، وانشأ يصغي · لقد أبت هذه المرة أيضا أن تجيز له الوقوف الى قربها في ساعة المخاض · ولقد شاءت أن تلد منفردة ، جالسة القرفصاء في الحوض العتيق الذي احتفظت به لهذا الغرض ، زاحفة بعد ذلك في نواحي الحجرة لكي تطمس آثار الحدث ، مثل بهيمة تحجب ما نشأ عن ولادة صغارها من دنس ·

وأصغى في انتباه بالغ للصرخة الحادة التي عرفها جيدا ، ولقد أصغى في يأس · وسيان عنده الان أكان الوليد ذكرا أم انثى ··· لقد كان على أية حال مجرد فم جديد يتعين عليه ان يطعمه !

وغمغم :

ـ « سوف يكون من رحمة السماء بنا أن لا يتردد في صدره نفس ! »

وعند ذاك سمع الصرخة الواهنة ـ وما كان أوهنها من صرخة ! ـ تعكر صفو الصمت لحظة · فحتم وانغ لانغ ملاحظته في مرارة :

ـ « ولكن ليس ثمة رحمة من أي نوع في هذه الايام · »

وقعد يصغي ·

ولم تطلق صرخة ثانية · ورانت على البيت سكينة لا يكدر صفوها

مكدر · ولكن السكينة كانت قد رانت ، منذ عدة ايام ، على كل مكان ، سكينة اللانشاط والناس الذين كانوا ، كل في بيته ، ينتظرون الموت · وكان هذا البيت مفعما بمثل هذه السكينة · وفجأة لم يعد في ميسور وانغ لانغ احتمالها · لقد استبد به الخوف · ونهض ، ومضى الى باب الحجرة حيث كانت أو ــ لان ، وناداها من خصاص الباب ، وأمده جرس صوته هو بقليل من الشجاعة ·

وسأل زوجته :

ــ « هل أنت بخير ؟ »

وأصغى · لنفرض انها لفظت انفاسها الاخيرة وهو قاعد هناك ! ولكنه استطاع ان يسمع خشخشة ضئيلة · كانت تطوف في الغرفة ، ولقد أجابت آخر الامر في صوت أشبه ما يكون بالتنهد :

ــ « أدخل ! »

ودخل · كانت مستلقية على فراشها ، وجسدها لا يكاد يرفع الغطاء الا قليلا · كانت وحدها في السرير ·

وسألها :

ــ « أين الوليد ؟ »

وحركت يدها فوق السرير حركة طفيفة ، فرأى جسد الوليد على أرض الحجرة ·

وصاح :

ــ « ميت ! »

فهمست :

ــ « ميت · »

وانحنى على الارض · وفحص الجسد الضئيل ·قبضة من عظم وجلد ···· مولود انثى · وكان على وشك ان يقول : « ولكنني سمعتها تصرخ ··· كانت على قيد الحياة ··· » ثم نظر الى وجه المرأة · فكانت عيناها مغمضتين ، وكان لون بشرتها كلون الرماد ، وكانت عظامها ناتئة تحت الجلد ــ وجه بائس صامت منطرح هناك ، بعد أن احتمل أقصى ما تستطيع نفس احتماله · ولم يكن ثمة ما يستطيع أن يقوله · فطوال هذه الشهور الاخيرة ، على أية حال ، كان عليه ان يجر جسده ليس غير من مكان الى مكان · اما هذه المرأة فقد احتملت مضض الجوع ، وفي أحشائها تلك المخلوقة الجائعة تئن وتعوي تشبثا منها بالحياة ·

ولم يقل شيئا ، ولكنه حمل الوليد الميت الى الحجرة الاخرى ووضعه

على الارض الطينية ، وراح يبحث حتى وجد قطعة حصير ممزقة ، ولفه بها ٠ وتدلى الرأس المستدير ذات اليمين وذات الشمال ، وعلى العنق رأى بقعتين داكنتين مرضوضتين ولكنه انجز مهمته المأتمية ٠ ثم انه مضى بالجثة الملفوفة بالحصير ، حتى اذا ابتعد عن البيت أقصى ما مكنته قوته ان يبتعد ، وضع حمله عند جانب أجوف من قبر عتيق ٠ كان هذا القبر قائما بين قبور عديدة ، باليا لا تبين معالمه ولا ينعم بعناية ما ، على سفح كثيب واقع عند تخوم حقل وانغ لانغ الغربي مباشرة ٠ ولم يكد يضع الحمل هناك حتى حام خلفه كلب جائع ذئبي ٠ وتناول حجرا صغيرا ورشقه به فأصاب خاصرته المهزولة اصابة ذات دوي ، ولكن الكلب كان من الجوع بحيث أبى ان يبتعد أكثر من أقدام معدودات ٠ وأخيرا استشعر وانغ لانغ ان ركبتيه قد خارتا تحته ، فحجب وجهه بكفيه ومضى لسبيله ٠

وغمغم بينه وبين نفسه :

ــ « الخيرة في الواقع ! »

وللمرة الاولى أحس باليأس يغمر فؤاده من أقطاره كلها ٠

وفي صباح اليوم التالي عندما اشرقت الشمس كدأبها في سمائها اللازوردية بدا له مجرد التفكير بمغادرة بيته مع هؤلاء الاطفال الذين لا حول لهم وهذه المرأة الواهنة القوى وهذا الرجل العجوز حلما من الاحلام ٠ انى يستطيعون ان يجروا اجسادهم مسافة تزيد على مئة ميل ، حتى ولو كانت الرحلة في سبيل السعة والوفرة ؟ ومن ذا الذي يكفل ان يكون في الجنوب نفسه شيء من طعام ؟ انه ليخيل الى المرء ان لا نهاية لهذه السماء النحاسية ٠ ومن يدري ، فقد يستنفدون البقية الباقية من قوتهم لمجرد العثور على جماعة جديدة من الجائعين ، جماعة غريبة عنهم بالكلية أيضا ٠ انه لخير لهم الف مرة ان يبقوا حيث يستطيعون ان يموتوا في فرشهم ٠ وقعد قانطا على الباب ، وسرح بصره ، كئيبا ، في الحقول اليابسة الجافة التي انتزعت منها كل ذرة من ايما شيء يمكن ان يعتبر غذاء او وقودا ٠

ولم يكن لديه مال ٠ لقد أنفق ، منذ عهد بعيد ، آخر فلس من فلوسه ٠ ولكن حتى المال ليس يجدي الآن نفعا ، اذ لم يكن ثمة طعام يشترى ٠ وكان قد سمع ، قبل ذلك ، بأن في المدينة قوما أثرياء يدخرون الطعام لانفسهم ولبيعه لاصحاب الثراء العظيم ، ولكن حتى هذا لم يعد قادرا على اثارة غضبه ٠ انه لم يستشعر ، ذلك اليوم ، القدرة على السير الى المدينة ، حتى ولو كان الهدف من ذلك السير هو الفوز بالغذاء من غير ما مال يدفعه ٠ لقد كان في الواقع غير جائع ٠

كان الألم المبرح الذي عصف بمعدته بادىء الامر قد خمد الآن ، ولقد أمسى في ميسوره ان يمزج بشيء من الماء بعض التراب الذي انتزعه من بقعة بعينها في احد حقوله ، وان يقدمه طعاما لأولاده من غير ان يستشعر هو نفسه ايما رغبة فيه · فقد سلخ بضعة أيام وهو يأكل التراب ممزوجا بالماء ··· ولا غرابة ، فقد كانوا يدعون التربة الاهة الرحمة ، لأنها كانت تنطوي على خصيصة مغذية ضئيلة ، برغم عجزها آخر الامر عن الابقاء على الحياة· اما اذا حولت الى وحل فعندئذ يصبح في ميسورها ان تسكت جوع الاطفال فترة من زمان ، وتشغل بطونهم الفارغة المتمددة بشيء ما · كان وانغ لانغ قد عقد العزم على ان لا يمس حبات الفاصولياء المعدودات التي كانت أولان لا تزال تضغط اصابعها عليها ، ولقد سرى عن نفسه على نحو غامض ان يسمعها تقرقشها ، حبة اثر حبة ، مطيلة الفترة ما بين مضغ الواحدة والاخرى ·

وبعد ذلك ، وفيما كان جالسا هناك على عتبة الباب ، مطرحا امله كله ، ومفكرا في متعة حالمة بالاستلقاء على فراشه والاستسلام لنوم الموت ، لمح قوما يعبرون الحقل ··· قوما يتخذون سبيلهم نحوه · ولزم مكانه فيما كانوا يقتربون منه ، ورأى ان الوافدين كانوا عمه يصحبه ثلاثة رجال لا يعرفهم ·

وهتف عمه في بشاشة متكلفة :

ـ « لقد انقضت فترة طويلة لم أرك فيها ! »

حتى اذا ازداد منه قربا قال في مثل ذلك الصوت العالي نفسه :

ـ « ولكن ما احسن صحتك ! وابوك ، أخي الاكبر ، هل هو بخير ؟ »

ونظر وانغ لانغ الى عمه · كان الرجل مهزولا ، هذا صحيح ، ولكنه غير متضور جوعا كما كان متوقعا · واحس وانغ لانغ في جسده المتغضن البقية الباقية من قوة الحياة تتجمع في جسده لتنصب غضبا مدمرا على هذا الرجل ، عمه :

وغمغم في صوت أجش :

ـ « ما اكثر ما أكلت ···· ما أكثر ما اكلت ! »

انه لم يفكر قط بأولئك الغرباء ، او بشيء من قواعد اللياقة · ولم ير الا عمه واللحم ما يزال يكسو عظامه · وفتح عمه عينيه اقصى ما يستطيع ان يفتحهما ورفع يديه الى السماء ، وصاح :

ـ « أكلت ! ليتك رأيت منزلي : ان العصفور الدوري نفسه ليعجز عن التقاط كسرة خبز هناك · وزوجتي ـ هل تذكر كم كانت بدينة ؟ كم كان

جلدها جميلا مكتنزا ناعما ؟ امـا اليوم فقد أمست اشبه بثوب معلق علـى مشجب : لا شيء غير العظام البائسة تقضقض تحت جلدها · ومن أولادنـا لم يبق غير أربعة ، فقد قضى الثلاثة الصغار نحبهم ، قضوا نحبهم · أما في ما يتصل بي فها انت ذا تراني ! »

وأمسك بحاشية ردنه ، ومسح زاوية كل من عينيه في عناية ·

وكرر وانغ لانغ في كلال :

ـ « لقد أكلت ! »

فأجابه عمه في خفة ونشاط :

ـ « انا لم أفكر الا فيك وفي أبيك ، الذي هو أخي ، ولسوف أثبت لـك ذلك الآن · فقد استعرت ، باسرع ما استطعت ، شيئـا من طعـام من أبنـاء المدينة الطيبين هؤلاء بعد ان وعدتهم بأن اساعدهم ـ بالقوة التي يمدني بها الطعام ـ في شراء بعض أراضي قريتنا · وبعد ذلك فكرت في أرضك الطيبـة قبل كل شيء ، انت ، ابن أخي الاكبر ، لقد وفدوا لشراء أرضك ولاعطائـك المال ··· والغذاء ··· والحياة ! »

قال عمه ذلك وارتد خطوة الى الوراء ، وطوى ذراعيه رادا حواشـي ثوبه القذر الممزق في صلف ·

ولزم وانغ لانغ مكـانه · انه لم ينهض ، ولم يحـي القوم الوافدين ، ولكنه رفع رأسه لينظر اليهم ، فرأى أنهم كانوا رجالا من المدينة فعلا ، رجالا يرتدون ثيابا طويلة من حرير متسخ · كانت أيديهم ناعمة ، وأظفارهم طويلة· ولقد بدوا وكأنهم قد أكلوا حتى الشبع ، وان الدم لا يزال يجري رشيقـا في عروقهم · وفجأة ابغضهم بغضا هائلا · لقد انتصبوا هناك ـ ثلاثة رجـال من أهل المدينة ، بعد ان طعموا وشربوا ـ انتصبوا أمـامه هـو الذي كـان أطفاله يجوعون ويأكلون تراب الحقول نفسه · ولماذا ؟ لكي ينتزعوا أرضـه منه في ساعة بؤسه وشقائه · والقى عليهم نظرة نكدة ، وقد غـارت عينـاه وتضخمتا في وجهه العظمي الشبيه بالجمجمة ·

وقال :

ـ « انا لن أبيع أرضي · »

وتقدم عمه خطوة الى أمام · وفي هذه اللحظة أقبل أصغر ولدي وانغ لانغ يدب نحو العتبـة على يديه وركبتيه · فمنذ هذه الايـام الاخيـرة التـي افتقد فيها الغلام القوة أمسى من دأبه في بعض الاحيان ان يعاود الحبو كمـا كان يفعل في طفولته الاولى ·

ـ « أهذا ولدك ؟ الولد الصغير الذي اعطيته قطعة نقدية نحاسية فـي

الصيف الماضي ؟ »

ونظروا كلهم الى الطفل· وفجأة شرع وانغ لانغ يبكي في صمت ـ على الرغم من انه لم يبك منذ بدء المجاعة قط · وراحت العبرات تتجمع عقدا ضخمة من الالم في حنجرته وتتحدر على خديه ·

وأخيرا همس :

ـ « كم ستدفعون ؟ »

حسنا ، لقد كان ثمة هؤلاء الاطفال الثلاثة الذين يتعين عليه ان يطعمهم ـ الاولاد والرجل العجوز · ان في امكانه وامكان زوجته ان يحتفرا لنفسيهما في الارض قبرين يضطجعان فيهما وينامان ·· ولكن كان ثمة اولئك الصغار وهذا العجوز ···

وعندئذ تكلم واحد من الرجال المدينيين ، رجل أعور غارت عينه في وجهه ، فقال في جرس متملق :

ـ « يا صديقي البائس ، سوف ندفع اليك سعرا أعلى مما تستطيع أن تعثر عليه في أيما مكان ، اكراما لولدك الذي يعضه الجوع · سوف ندفع اليك···»

وتمهل قليلا ، ثم قال في صوت اجش :

ـ « سوف ندفع اليك مئة بنس في الاكر الواحد ! »

فضحك وانغ لانغ في مرارة وصاح :

ـ « ولكن هذا اشبه بتقديمي الأرض هدية اليكم · اني أدفع هذا السعر مضروبا بعشرين عندما اشتري الارض ! »

فقال الرجل المديني الآخر :

ـ « اه ، ولكن ليس عندما تشتريها من رجال ألمت بهم مجاعة · »

وكان هذا الرجل ضئيل الجسم مهزولا ذا أنف دقيق مرتفع ، ولكن صوته انطلق من بين شفتيه عريضا غليظا حادا على نحو غير متوقع ·

ونظر وانغ لانغ الى الرجال الثلاثة · كان هؤلاء القوم على مثل الثقة من قهره ! وهل يضن المرء على أولاده الجائعين وأبيه العجوز الجائع بشيء مهما عز وغلا ؟ وفجأة استشعر أن ضعف الاستسلام يتحول في حنايا صدره الى غضب لم يعرف له ضريبا في حياته قط · ووثب على الرجال كما يثب كلب على عدو · وصاح في وجوههم :

ـ « أنا لن أبيع الارض أبدا · اني سوف أحفر الحقول شبرا شبرا وأطعم اولادي ترابها نفسه · حتى اذا اسلموا الروح واريتهم ثراها · ولسوف اموت أنا وزوجتي وأبي العجوز ـحتى أبي العجوز نفسهـ على الارض التي وهبتنا الحياة ! »

كان يسفح العبرات في غزارة ، ولقد همد غضبه فجأة كما تهمد الريح ، وواصل ارتعاده وبكاءه ولزم الرجال اماكنهم ، وعمه بينهم ، وعلى وجوههم بسمة ضئيلة · لقد اعتبروا موقف وانغ لانغ ضربا من الجنون ، وانتظروا حتى يسكت عنه الغضب ·

وفجأة تقدمت او ـ لان نحو الباب وتحدثت اليهم في صوت عادي مبتذل وكان مثل هذا الحدث كان امرا مألوفا يقع كل يوم :

ـ « ثقوا انا لن نبيع الارض ، والا لم نجد ما نقيم به اودنا بعد عودتنا من الجنوب ·ولكننا سنبيع الطاولة والسريرين والفرش والمقاعد الخشبية الأربعة وحتى خلقين الموقد · اما القشاشتان والمعولان والمحراث فلن نبيعها · · · لا، ولن نبيع الارض ! »

كان في صوتها هدوء ينطوي على قدر من القوة أعظم من ذلك الذي انطوى عليه غضب وانغ لانغ كله ، وقال عم وانغ لانغ في شيء من عدم الثقة :

ـ « هل سترحلون في اتجاه الجنوب فعلا ؟ »

وأخيرا تحدث الرجل الاعور الى الآخر وتهامسوا في ما بينهم، ثم عاد الرجل الاعور فقال :

ـ « انها أشياء بالية لا تصلح الا للوقود · سوف ندفع قطعتين فضيتين فيها جميعا · فأما أن نأخذها أو أن نتركها · »

واستدار بازدراء فيما كان يتكلم ، ولكن أو ـ لان أجابته في سكينة :

ـ « ذلك أقل من ثمن سرير واحد، ولكن اذا كنت تملك القطعتين الفضيتين فادفعهما الي في الحال وخذ الأشياء كلها · »

وبحث الرجل الاعور في زناره ، ووضع في يدها المبسوطة قطعتي الفضة، ودخل الرجال الثلاثة الى البيت وأخرجوا الطاولة والمقاعد الخشبية والسرير الذي في حجرة وانغ لانغ وفراشه ، ثم انتزعوا الخلقين من الموقد الصلصالي، حتى اذا دخلوا حجرة الرجل العجوز ظل عم وانغ لانغ في الخارج · كان لا يريد أن يراه أخوه الاكبر ، وكان لا يريد أن يكون هناك عندما يوضع الرجل العجوز على ارض الحجرة وينزع السرير من تحته· وعندما انتهى كل شيء ، واصبح البيت فارغا الا من القشاشتين والمعولين والمحراث في احدى زوايا الحجرة الوسطى قالت أو ـ لان لزوجها :

ـ « فلنذهب ما دمنا نملك قطعتين من الفضة ، وقبل أن نضطر الى بيع رافدتي البيت فلا يبقى لنا ثقب نستطيع أن ندب فيه عندما نعود · »

فأجابها وانغ لانغ في كآبة :

ـ « فلنذهب ! »

ولكنه القى نظرة على صور الرجال الظلية الصغيرة وهم يجتازون الحقل ، وغمغم مرة ومرة :

ـ « لقد احتفظت بالارض على اية حال ٠ ٠ ٠ لقد احتفظت بالارض ! »

١٠

لم يبق ما يتعين عليهم فعله غير اغلاق البيت على مفصلاته الخشبية واسقاط المزلاج الحديدي : كانوا قد وضعوا على اجسادهم كل ما يملكون من ملابس ، وفي يد كل طفل أقحمت أو ـ لان طبق أرز وعودين من عيدان الطعام فأطبق الغلامان الصغيران أصابعهما عليها في حرص شديد وتشبثا بها كوعد بغذاء سوف يفوزون به في مقبلات الايام ٠ ثم انطلقوا عبر الحقول ، موكبا صغيرا كئيبا يتحرك في بطء بالغ حتى لقد بدا وكأنهم لن يبلغوا سور المدينة أبد الدهر ٠

وحمل وانغ لانغ بنيته على صدره ، ولكنه ما ان رأى أن الرجل العجوز يتداعى الى السقوط حتى دفع الطفلة الى أو ـ لان وانحنى تحت أبيه ورفعه على ظهره وحمله مترنحا تحت هيكل الرجل العجوز الجاف الخفيف مثل نسمة من الأنسام ٠ واجتازوا صامتين بالهيكل الصغير المشتمل على الألاهين الصغيرين الجليلين اللذين لم يلحظا أحدا ممن كانوا يتخذون سبيلهم على مقربة دانية منهما ٠ وتفصد جسد وانغ لانغ الضعيف بالعرق على الرغم من البرد ومن الريح القارسة ٠ ولم تكف هذه الريح عن الهبوب في وجوههم، حتى لقد بكى الصبيان الصغيران من بردها القاسي ٠ ولكن وانغ لانغ شجعهما قائلا :

ـ « أنتما رجلان كبيران ، وانكما لمرتحلان جنوبا ٠ ان ثمة دفئا ، ولسوف نقع هناك على حاجتنا من الطعام كل يوم ، وعلى الأرز الأبيض الذي يكفينا جميعا كل يوم ، ولسوف تأكلان حتى يمتلىء بطناكما ٠ ٠ ٠ »

كانوا كلما اجتازوا مرحلة من الطريق قصيرة استراحوا بعض الشيء، حتى انتهوا اخر الامر الى باب السور ٠ وبدلا من ان يبتهج وانغ لانغ بريح الشتاء ، كما قد ابتهج في يوم من الايام ، راح يكز اسنانه في وجه تلك الريح التي كانت تهب عنيفة شرسة في مجراها مثل ماء مثلوج يندفع بين الاجراف ٠ وتحت اقدامهم كان الوحل كثيفا ، مخرما بأبر الثلج ، ولم يعد في امكان الصبيين أن يواصلا السير ، وكانت أو ـ لان الحاملة بنتها رازحة تحت ثقل جسدها نفسه ٠ وتابع وانغ لانغ طريقه مترنحا مع الرجل العجوز ، ثم انزله

عن ظهرد وانقلب راجعا فرفع كلا من الطفلين وحمله الى السور · حتى اذا اتم ذلك كله اخر الامر تدفق العرق من جسده كشآبيب المطر ، منفقا معه قوته كلها، حتى لقد اضطر الى الاتكاء فترة طويلة على السور الرطب ، مغمض العينين ، لاهثا لهاثا عنيفا ، في حين وقفت اسرته حوله مرتعدة منتظرة ·

كانوا الان على مقربة من باب البيت الكبير ولكنه كان محكم الايصـاد ، وقد انتصب المصراعان الحديديان بكامل طولهما ، وغدا الاسدان الحجريان أشهبين تلهبهما سياط الرياح من كلا الجانبين · وعلى درجات السلم المؤدية الى الباب كان يجثم بعض اشكال قذرة لرجال ونساء يحدقون ، جائعين ، الى الباب الموصد بالحديد · وعندما مر بهم وانغ لانغ وموكبه الصغير البـائس صاح احدهم في صوت مصدوع :

ـ « ان قلوب هؤلاء الاغنياء قاسية كقلوب الالهة · فهم لا يزالون يأكلون من الارز الذي ادخروه في بيوتهم ، وهم لا يزالون يصنعون من الارز الـذي يأكلونه خمرا ، في حين نموت جوعا · »

وتأوه اخر قائلا :

ـ « اوه ، ليت يدي هذه تستعيد قوتها لحظة لأضرم النار في الأبواب وفي هذه البيوت وفي الأروقة التي في الداخل ، حتى ولو غدوت أنا طعاما لها ·ـــ الف لعنة على الأبوين اللذين نسلا أبناء هوانغ ! »

ولكن وانغ لانغ لم يجب على هذا كله بشيء ، وفي صمت واصلوا سيرهم نحو الجنوب ·

★

حتى اذا اجتازوا المدينة ، وانتهوا الى الجانب الجنوبي ـ وانما تم لهم ذلك في بطء شديد حتى لقد هبط المساء وكاد الظـلام يخيم عليهم ـ وجدوا جمهرة من الناس تتخذ سبيلها نحو الجنوب · وكان وانغ لانغ قد بدأ يتساءل أية زاوية من الجدار يحسن بهم ان يختاروها للنوم مجتمعين شبه متراكمين ، عندما ألفى نفسه وأسرتـــه فجأة وسط حشد من الناس ، فسأل احد الذين كانوا يدفعونه :

ـ « الى أين يقصد هؤلاء الناس كلهم ؟ »

فأجابه الرجل :

ـ « نحن قوم جائعون ، ونحن نعتزم أن ندرك القطار الحديدي ونمتطي متنه الى الجنوب · انه ينطلق من البيت القائم هناك ، وان فيه لعربات لامثالنا من الناس أجرة ركوبها أقل من قطعة فضية صغيرة » ·

قطار حديدي ! كانت اذنه قد سمعت بذلك · ففي الايام الخالية سمـع

وانغ لانغ في حانوت الشاي رجالا يتحدثون عن هذه العربات المشدود بعضها الى بعض والتي لا يجرها لا رجل ولا بهيمة ولكن تجرها ماكينة تنفث النار والماء مثل تنين · وكان قد قال في ما بينه وبين نفسه ، مرات عديدة انذاك ، انه سوف يمضي في أحد ايام العطلة ليرى الى القطار الحديدي ، ولكن أعماله الموصولة في الحقول لم تدع له ذرة من وقت ، اذ كان يقطن الى الشمال من المدينة · والى هذا ، فقد كان ثمة ذلك الخوف المألوف من الاشياء التي لا نعرفها ولا نفهمها · وليس من الخير للمرء ان يعرف اكثر مما هو ضروري لعيشه اليومـــي ·

ومع ذلك ، فقد التفت الى المرأة ، في ارتياب ، وقال :

ــ « هل نركب نحن أيضا متن هذا القطار الحديدي ؟ »

وسحبا الرجل العجوز والاطفال بعيدا عـــن الحشد الزاحف ، بعض الشيء ، وتبادلا النظرات قلقين خائفين · وفي لحظة التمهل هذه خر الرجـــل العجوز على الارض ، واستلقى الصبيان الصغيران في التراب ، غير آبهين بوطء الاقدام حولهم · كانت أو-لان لا تزال تحمل بنيتها ، ولكن رأس البنية تدلى فوق ذراعها وقد خيم الموت على عينيها المغمضتين،فلم يتمالك وانغ لانغ عن القول بصوت مرتفع ، ناسيا كل شيء اخر :

ــ « هل ماتت الجارية الصغيرة ؟ »

فهزت أو-لان رأسها :

ــ « لا ، لم تمت بعد · ان النفس لا يزال يتردد في صدرها · ولكنهـــا سوف تموت هذه الليلة وسوف نموت كلنا الا ··· »

ونظرت اليه ، وكأن لم يعد في ميسورها أن تقول أيما كلمة أخرى ، وكان وجهها الضخم مرهقا شاحبا · ولم يجب وانغ لانغ بشيء ، ولكنه فكر في ما بينه وبين نفسه انهم ان ساروا على هذا النحو يوما اخر فلا بد ان يموتوا كلهم قبل هبوط الليل · وفي صوت حاول جهده أن يجعله بهيجا قال :

ــ « هيا ، يا أبنائي ، ساعدوا جدكم على النهوض · سوف نمتطي متن القطار الحديدي ونقعد فيما نحن نسير جنوبا » ·

ولكن أحدا لا يدري هل كان في استطاعتهم ان يتحركوا لو لم تنطلـــق من الظلام ضجة راعدة شبيهة بصوت تنين ، وعينان ضخمتان تلفظان اللهب حتى لقد صاح الناس كلهم وانشأوا يركضون · وفيما هم يشقون طريقهم وسط الزحام كانت الاكف تدفعهم ذات اليمين وذات الشمال ، ولكنهم بذلوا غايـــة جهدهم للبقاء كتلة متراصة الى ان دفعوا بطريقة ما في الظلام وفي غمرة من صياح اصوات كثيرة الى باب صغير مفتوح فالى غرفة اشبه بالعلبة ، وبعد

ذلك انطلق الشيء الذي ركبوه انطلاقا هادرا على نحو موصول وراح يندفع في الدجنة حاملا اياهم في احشائه ٠

١١

لقد استعان وانغ لانغ بقطعتيه الفضيتين على اجتياز مسافة تبلغ مئة ميل ، ورد اليه الموظف الذي اخذ القطعتين الفضيتين منه حفنة من البنسات النحاسية ، وببعض هذه البنسات اشترى وانغ لانغ من بائع أقحم صينيته في أحد ثقوب الحافلة لحظة وقوفها أربعة أرغفة صغيرة من الخبز وزبدية أرز ناعم للطفلة الصغيرة ٠ كان ذلك أكثر مما وفقوا الى أكله في وقت بعينه منذ أيام كثيرة ، وعلى الرغم من جوعهم الى الطعام فانهم ما كانوا يضعونه في أفواههم حتى فارقتهم الشهوة ، فاضطر الابوان الى اغراء الصبيين بازدراد الطعام اغراء ٠ أما الرجل العجوز فراح يمص الخبز بين لثتيه العاطلتين عن الاسنان مصا متواصلا ٠

وفيما القطار يجري مترنحا في سبيله قال وهو يبش لجميع الذين تحلقوا حوله متدافعين :

ـ « يتعين على المرء ان يأكل ٠ وسواء اكان بطني الاحمق قد امسى كسولا بعد هذه الايام الكثيرة التي قضاها من غير عمل تقريبا ام لم يكن ، فلن أحرم نفسي الطعام ٠ أنا لا أريد أن أموت لمجرد انه غير راغب في العمل ٠٠٠ »

وضحك القوم فجأة لدعابة هذا العجوز المبتسم الثغر الضئيل الجسم الذي كانت لحيته الخفيفة متشعثة فوق ذقنه كلها ٠

ولكن وانغ لانغ لم ينفق جميع بنساته النحاسية على الطعام ٠ لقد احتفظ بكل ما استطاع الاحتفاظ به منها ليشتري حصرا يشيد بها سقيفة لهم حين يبلغون الجنوب ٠ وكان في الحافلة رجال ونساء قدر لهم الارتحال جنوبا في بعض السنين الخالية ، وكان فيها قوم تعودوا الذهاب كل عام الى مدن الجنوب الغنية ليعملوا فيها وليستندوا الاكف وبذلك يوفرون ثمن الطعام ٠ وحين ألف وانغ لانغ جدة هذه العربة وألف مشهد الارض وهي تدور من خلال ثقوب الحافلة ، راح يصغي الى ما كان أولئك القوم يقولونه ٠ لقد تحدثوا بمثل ثقة الخبير يخاطب جمعا من الجهلة الاغرار ٠

وقال احدهم ، وكان رجلا ذا شفتين ضخمتين متدليتين مثل فم الجمل :

ـ « يتعين عليك ، أولا ، أن تشتري ستة حصر ٠ ان ثمن كل حصير منها

بنسان ليس غير ، هذا اذا اصطنعت الحكمة ولم تسلك مسلك فلاح ساذج ، والا تقاضاك البائع ثلاثة بنسات ، وهو ثمن ـ وأنا أقول ذلك عن تجربة ـ فاحش جدا · أنا لا أجيز لابناء المدن الجنوبية أن يخدعوني عن نفسي ، ولو كانوا أغنياء » ·

وهز الرجل رأسه وتطلع الى مستمعيه التماسا للاعجاب · وأصغى وانغ لانغ في قلق · ثم تساءل :

ـ « ثم ماذا ؟ »

لقد جلس القرفصاء في قعر الحافلة ، التي كانت على أية حال مجرد حجرة فارغة مصنوعة من خشب ، خالية من أيما شيء يستطيع المرء أن يقعد عليه ، حجرة كانت الريح والغبار ينفذان من شقوق أرضيتها ·

وتابع الرجل كلامه ، في نبرة اكثر حفولا بالثقة ، رافعا صوته فوق صرير العجلات الحديدية من تحته :

ـ « وبعد ذلك تضم بعض هذه الحصر الى بعضها الاخر على شكل كوخ وتنطلق لتستندي اكف المحسنين ، بعد أن تلطخ نفسك بالوحل والقذر لكي تثير شفقة الناس اقوى ما تكون الاثارة » ·

والواقع ان وانغ لانغ لم يمد يده في أيما يوم من أيام حياته طلبا لاحسان، ولقد كره مجرد التفكير في استنداء اكف الغرباء من ابناء الجنوب ·

وكرر :

ـ « ولكن أليس للمرء منوحة عن الاستعطاء ؟ »

فقال الرجل ذو الشفتين الغليظتين :

ـ « آه طبعا ، ولكن بعد أن يكون قد أشبع بطنه · ان ابناء الجنوب هؤلاء يملكون من الارز مقادير ضخمة تمكنك من الذهاب كل يوم الى احد المطابخ العامة حيث تملأ بطنك ، لقاء بنس واحد ، بما شئت من حساء الارز الابيض · وبعد ذلك تستطيع أن تستعطي من غير أن تضايق نفسك وتشتري شيئا من اللوبياء والملفوف والثوم » ·

ونأى وانغ لانغ بنفسه عن الاخرين ، بعض الشيء ، وأدار وجهه نحو الجدار ومد يده خلسة الى زناره وانشأ يعد ما بقي في حوزته من دراهم · كان لديه ما يمكنه من شراء الحصر الستة ، ومن شراء ما قيمته بنس واحد من الارز لكل فرد من أفراد اسرته ، ثم يبقى معه بعد ذلك كله ثلاثة بنسات · وخطر له ، في ارتياح ، ان في ميسورهم بسبب من ذلك ان يستهلوا حياة جديدة · ولكن فكرة استنداء اكف السابلة ظلت تضايقه · انها شيء صالح جدا بالنسبة الى الرجل العجوز والى الاطفال الصغار ، بل بالنسبة الى المرأة

ايضا ، أما هو فقد كانت لديه ذراعاه ٠

وفجأة سأل الرجل وهو يستدير نحوه :

ـ « أليس ثمة عمل تستطيع يدا الرجل ان تقوم به ؟ »

فقال الرجل في ازدراء ، باصقا على أرض الحافلة :

ـ « آه ، عمل ! في استطاعتك ان تجر رجلا غنيا في ركشة * صفراء اذا شئت ، فيتفصد دمك عرقا من جسمك الملتهب وانت تعدو ، ثم يتحول عرقك الى طبقة من جليد عندما تقف في انتظار من يدعوك ٠ أما أنا فأفضل أن أشحذ ! »

واطلق تجديفة فاحشة الى درجة جعلت وانغ لانغ يتورع عن توجيه ايما سؤال اخر اليه ٠

ومع ذلك فقد كان سماعه كلام ذلك الرجل شيئا مفيدا ٠ اذ ما ان حملهم القطار الحديدي الى أقصى ما استطاع ان يحملهم ثم انزلهم عن ظهره الى الارض حتى كان وانغ لانغ قد انتهى من رسم خطة بعينها فأوقف الرجل العجوز والأطفال الى جدار احد البيوت القائمة هناك ، وكان جدارا طويلا أربد ، وكلف زوجته أن ترعاهم ومضى ليشتري الحصر سائلا هذا أو ذاك أين تقع الاسواق التجارية ٠ ولم يستطع في بادىء الامر ان يفهم أجوبة القوم الا بجهد بالغ ، فقد كان جرس هؤلاء الجنوبيين قصفا جدا حادا جدا ٠ ولقد نفد صبرهم عندما سألهم عدة مرات ولم يفهموا ما يريد أن يقوله ٠ وهكذا راح يتخير الاشخاص الذين يحسن به أن يطرح السؤال عليهم محاولا ان يكونوا من ذوي الوجوه الطلقة الباشة ، ذلك بأن هؤلاء الجنوبيين قوم نزقون سريعو الغضب ٠

واخيرا اهتدى الى دكان الحصر عند حافة المدينة ، فوضع بنساته على منضدة البائع مثل امرىء يعرف سعر البضاعة ٠ وحمل لفيفة حصره ٠ وحين انقلب الى البقعة التي غادر فيها افراد اسرته وجدهم ينتظرونه هناك ، وما ان وقع بصر الاطفال عليه حتى اطلقوا صيحة من استشعر الفرج بعد الشدة ، وعندئذ ادرك ان الذعر كان قد استحوذ عليهم في ذلك المكان الغريب ٠ كان الرجل العجوز هو وحده الذي راقب كل شيء في استمتاع واندهاش ، وغمغم مخاطبا وانغ لانغ :

ـ « انت ترى مبلغ بدانتهم جميعا ، هؤلاء الجنوبيين ومبلغ شحوب جلودهم والتماعها ٠ انهم يأكلون لحم الخنزير كل يوم من غير ريب » ٠

ولكن ايا من عابري السبيل لم ينظر الى وانغ لانغ وافراد اسرته يروحون

* Richsha او Rickshaw عربة ركوب يجرها رجل ٠

ويجيئون ، وكل منهم منصرف الى شأنه فهو لا يلقي ولو نظرة على الشحاذين الواقفين على جانبي الطريق · وبين الفينة والفينة كانت قافلة من الحمير تقبل مطقطقة بحوافرها على الحصباء طقطقة توقيعية ، وكانت مثقلة بسلال الاجر لبناء البيوت وباعدال ضخمة من الحنطة وضعت على نحو عرضي فوق ظهورها المتمايلة · وفي مؤخرة كل قافلة كان قائدها يمتطي متن اخر الحمير ، حاملا سوطا طويلا ، فكان يلهب بهذا السوط ظهور البهائم الهابا مرنا ، مطلقا خلال ذلك بصيحات عالية · وكان كل قائد منهم لا يكاد يمر بوانغ لانغ حتى يرمقه بنظرة محتقرة متغطرسة ، وما كان في ميسور أيما أمير من الامراء ان يلقي نظرة اكثر غطرسة من نظرة قادة القوافل هؤلاء ، اللابسين ثياب العمل الخشنة ، فيما هم يجتازون بتلك الجماعة الصغيرة الواقفة ـ فاغرة الفم ـ عند حافة الطريق · وكان مما يمتع كل قائد منهم امتاعا خاصا ، وقد لاحظ ان وانغ لانغ واسرته غرباء عن المدينة ، ان يلهب حميره بالسوط حالما ينتهي اليهم ، حتى اذا رآهم قواد القوافل يجفلون على هذا النحو انشأوا يقهقهون · واستبد الغضب بوانغ لانغ عندما حدث ذلك مرتين او ثلاثا ، والتفت ليرى اين يستطيع ان يقيم كوخه ·

كانت أكواخ اخرى قد أقيمت هناك ملتصقة بالجدار من خلفهم ، ولكن احدا لم يدر ما الذي كان داخل ذلك الجدار · ولم يكن ثمة سبيل الى معرفة ذلك · لقد امتد هناك طويلا اربد شامخا ، وعند قاعدته التصقت السقائف الحصرية الصغيرة كما تلتصق البراغيث بظهر كلب · وراقب وانغ لانغ الاكواخ وشرع يشكل حصره على هذا النحو او ذاك ، ولكنها كانت متصلبة تعوزها الطراوة ، ولا غرابة فقد صنعت من صفيحات القصب · وحين وقع اليأس في نفسه قالت أو ـ لان فجأة :

ـ « انا استطيع ان افعل ذلك · اني اتذكره منذ طفولتي · »

ووضعت البنية على الارض وجذبت الحصر في الاتجاه المطلوب وكورت سقفا هابطا حتى الارض وعاليا الى درجة تمكن رجلا من الجلوس تحته من غير ان يرتطم رأسه باعلاه · وعلى حافات الحصر التي كانت على الارض وضعت بعض الاجر المطروح ههنا وههناك وعهدت الى الصبيين في ان يجمعا قدرا من الاجر اضافيا · حتى اذا تم ذلك دخلوا الكوخ ، وبسطوا في ارضيته حصيرا كانت أو ـ لان قد سعت جهدها ان لا تستعمله ، وقعدوا · لقد اظلهم سقف ·

واذ قعدوا على هذا النحو وراحوا يتبادلون النظرات لم يستطيعوا ان يصدقوا انهم غادروا بيتهم وارضهم ، وان ذلك البيت وتلك الارض يبعدان

عنهم الان مئة ميل · كانت مسافة بعيدة الى درجة كان خليقا بها ان تقتضيهم اسابيع من السير على الاقدام ، ولا ريب في ان عددا منهم كان خليقـــا به ان يقضي نحبه قبل اجتيازها ·

ثم انهم استشعروا حس الوفرة في هذه الديار الغنية ، حيث بدا وكأن احدا لا يعرف حتى الجوع · وعندما قال وانغ لانغ : « فلنذهب لنرى ايـــن تقع المطابخ العمومية » نهضوا في ابتهاج تقريبا وغادروا الكوخ وهـــذه المرة راح الصبيان الصغيران يقرعان طاستيهما ، وهما سائران ، بعودي الطعام ، لان شيئا سوف يفرغ فيهما عما قريب · وسرعان ما اكتشفـــوا لماذا اقيمت الاكواخ عند قدمي ذلك الجدار الطويل ، اذ كان ثمة على مبعدة قصيرة من طرفه الشمالي شارع ، وفي ذلك الشارع كان يمشي كثيـــــر من الناس حاملين طاسات ودلاء وانية من صفيح ، فارغة كلها ، ومتجهيـن الى المطابخ الشعبية الخاصة بالفقراء ، القائمة عند اقصى الشارع علـــى مسافة غير بعيدة · وهكذا اختلط وانغ لانغ واسرته بهؤلاء الاخرين ، وانتهوا معهم آخر الامر الى البنايتين الكبيرتين المصنوعتين من حصر · وتزاحـــم القوم كلهم وتدافعوا عند طرف هاتين البنايتين المفتوح ·

كان في مؤخر كل من البنايتين مواقد صلصالية ، ولكنهـا اكبر مـــن ايما افران قدر لوانغ لانغ ان يراها في يوم من الايام · وكانت عليها خلاقين حديدية يبلغ اتساعها اتساع البرك الصغيرة ، وعندما رفعت الاجفـــان الخشبية الكبيرة عن تلك الخلاقين رئي الارز الابيض الجيد يغلي ويبقبق ، وسحب البخار الارجة تتصاعد منها · وما ان استروح الناس ارج الارز هذا، وكان اعذب في آنافهم ، من ايما ارج آخر ، حتى اندفعوا كلهم مثل كتلة ضخمة، وانشأت الامهات يصحن في حنق ورعب خشية ان يداس اولادهن بالاقدام · وبكى الاطفال الصغار ، وهدر الطهاة الذين فتحوا الخلاقين قائلين :

ـ « ان ثمة مقدارا يكفيكم جميعا · سوف ينال كل منكم نصيبه عندمـا يجيء دوره · »

ولكن ايما شيء لم يستطع ان يصد الكتلة البشرية الجائعة عن سبيلها ، وتقاتل الرجال والنساء كالبهائم حتى قدم اليهم الطعام · ولم يستطع وانغ لانغ الذي كان في وسطهم ، ان يفعل شيئا غير التشبث بابيـــه ووالديـــه ، وحين جرفه المد البشري الى الخلقين الضخم بسط يده بالطاسة التي يحملها ، حتى اذا ملئت ارزا دفع ثمنه بنسا واحدا وكان اقصى ما استطاع ان يفعله ان يصمد في مكانه وان لا يجيز للحشد ان يجرفه من جديد ·

وعندما وجدوا انفسهم ، كرة اخرى ، في الشارع ووقفوا يلتهمون ارزهم،

اكل هو حتى شبع وبقيت في الطاسة بقية ضئيلة فقال :
ــ « سوف احمل هذه البقية الباقية الى البيت لنأكلها هذا المساء · »
بيد انه كان الى جانبهم رجل يبدو من بزته الخاصة الزرقاء والحمراء انه حارس المنطقة · فقال في جفاء :
ــ « لا ، ليس من حقك ان تأخذ شيئا غير الذي يحتويه بطنك » ·
فذهل وانغ لانغ لدن سماعه هذا الكلام وقال :
ــ « حسنا ، اذا كنت قد دفعت ثمن الارز فاي شأن لك بي سواء احملته بطني او خارج بطني ؟ »
عندئذ قال الرجل :
ــ « يتعين علينا ان نتخذ هذا الاجراء · لان ثمة اناسا كثيرين هم من قسوة الفؤاد بحيث يفدون على المطابخ الشعبية ويشترون الارز المخصص بالفقراء ــ لان البنس الواحد لايمكن ان يقدم الى المرء هذا الطعام كله ــ ثم يحملون الارز الى بيوتهم ويقدمونه طعاما لخنازيرهم · والارز للبشر وليس للخنازير · »
واصغى وانغ لانغ الى ذلك في دهش ، وهتف :
ــ « وهل ثمة اناس متحجرو القلوب الى هذا الحد ؟ »
ثم قال :
ــ « ولكن لماذا يقدمون الارز ، على هذا النحو ، الى الفقراء ومن الذي يقدمه ؟ »
فاجابه الرجل قائلا :
ــ « ان اغنياء المدينة ونبلاءها هم الذين يقدمونه · وبعضهم يفعلون ذلك التماسا لمرضاة الالهة وابتغاء الفوز بثواب في السماء ، على حين ان بعضهم يفعلون ذلك للظهور بمظهر الصلاح ولكي يطريهم الناس ويثنوا عليهم·»
فقال وانغ لانغ :
ــ « انه على اية حال ، وايا ما كان السبب ، عمل صالح ، ولا ريب في ان ثمة فريقا من الناس يقومون به بقلب سليم ونية خالصة · »
حتى اذا وجد ان الرجل لم يفهمه ، اضاف وكانما يصد اعتداء :
ــ « ان ثمة نفرا قليلا من هؤلاء على الاقل · »
ولكن الرجل مل الكلام معه ، فاولاه ظهره وراح يردد لحنا تافها · عندئذ جر الصبيان وانغ لانغ فرجع بهم الى الكوخ الذي اقاموه ، وهناك انطرحوا على الارض وناموا حتى الصباح التالي ، اذ كان هذا هو أول يوم يأتي عليهم ، منذ الصيف ، يعرفون فيه طعم الشبع ، ولقد غلبهم النعاس

بعيد امتلاء بطونهم ٠

وفي اليوم التالي انفقوا البنس الاخير على ارز الصباح واضحوا في امس الحاجة الى دراهم ٠ ونظر وانغ لانغ الى او ــ لان ، متحيرا لا يدري ما الذي ينبغي ان يفعله ٠ ولكن نظرته هذه لم تكن نظرة اليأس التي رنا بها اليها فوق حقولهم المجدبة الفارغة ٠ ان اضطراب الناس ههنا في الشوارع، ناضري الوجوه بالشبع،ووفرة اللحم والخضر في الاسواق،واكتظاظ الاحواض في سوق السماك بالاسماك السابحة فيها ــ كل اولئك يجعل من التعذر على المرء وعلى اولاده ان يجوعوا ٠ كان الوضع في هذه الديار مختلفا عن الوضع في ديارهم حيث عجزت الفضة نفسها عن شراء الطعام لانه لم يكن ثمة طعام البتة ٠

واجابته او ــ لان في رباطة جأش وكانما كانت هذه الحياة الجديدة شيئا مألوفا عندها عمرها كله :

ــ « في استطاعتي انا والاولاد ان استعطي اكف المحسنين ، وفي استطاعة الرجل العجوز ان يفعل ذلك ايضا ٠ ان شعره الاشيب سوف يعطف قلوب اولئك الذين يضنون علي بالحسنة ٠ »

ونادت الصبيين ، اذ كانا ــ شأن الاولاد ــ قد نسيا كل شيء ما عدا شيئا واحدا ، وهو انهما قد فازا بالطعام من جديد وانهما في بلد غريب ٠ وكانا قد انطلقا الى الشارع يحدقان الى كل ما يمر فيه ٠

وقالت لهما :

ــ « ليأخذ كل منكما طاسته وليمد يده بها هكذا ، وليصرخ هكذا ٠٠٠ »

وحملت طاستها الفارغة وبسطت ذراعها بها وراحت تستعطي في جرس يعطف القلوب :

ــ « الرحمة ، يا سيدي الصالح ٠٠٠ الرحمة ،، ياسيدتي الصالحة ! كن ذا قلب رحيم ، قم بعمل صالح في هذه الحياة كسبا للسعادة في الدارالاخرة! ان الفلس الواحد ٠٠٠ ان القطعة النقدية النحاسية التي تلقي بها الي قادرة على انقاذ طفل من الموت جوعا ! »

وحدق الصبيان الصغيران اليها ، وكذلك فعل وانغ لانغ ٠ من اين تعلمت ان تستعطي على هذا النحو ؟ ما أجهله بماضي هذه المرأة وأجابت عن نظرته بقولها :

ــ « هكذا استعطيت عندما كنت طفلة وبذلك كنت احصل على ما اقيم به اودي ٠ ففي عام مثل هذا باعني اهلي في سوق الرقيق ٠ »

ثم ان الرجل العجوز ، الذي كان نائما ، افاق من رقاده ، فاعطوه

طاسة وانطلقوا اربعتهم الى الطريق لكي يستندوا اكف الناس · وبدأت المرأة تتلو نداءاتها التماسا للعطاء وتهز طاستها لكل عابر سبيل · كانت قد اقحمت بنيتها الصغيرة في صدرها العاري ، واستسلمت البنية للرقاد وقد اخذ رأسها يتذبذب ذات اليمين وذات الشمال فيما كانت امها تعدو ههنا وههناك باسطة ذراعها بتلك الطاسة التي تحملها · واشارت الى الطفلة وهي تستعطي ، وصاحت في صوت مرتفع :

ـ « اذا لم تجودوا علي بالصدقة ، ياسيدي الطيب ويا سيدتي الطيبة ! فلا بد ان تموت هذه الطفلة ، ولا بد ان نجوع نحن ، لا بد ان نجوع نحن··· »

والواقع ان الطفلة كانت تبدو وكأنها ميتة ، وكان رأسها يتمايل يمنة ويسرة · وفي نكد وتبرم ، القى بعض السابلة ـ قليل من السابلة ـ الى المرأة المستعطية بدريهمات قليلة ·

ولكن الصبيين ما لبثا ان اعتبرا الشحاذة عبثا ولعبا ، وكان اكبرهما يضحك خجلا وفي مداراة وهو يمد يده طلبا للعطاء · حتى اذا رأتها امهما على هذه الحال جرتهما الى الكوخ وصفعتهما صفعات قوية على خدودهما ووبختهما مغضبة :

ـ « اتتحدثان عن الجوع ثم تضحكان في الوقت نفسه ! يا لكما من مجنونين ، فليعضكما الجوع اذن ! »

وصفعتهما مرة ومرة حتى تقرحت يداها وحتى جرى الدمع مدرارا على وجهيهما وشرعا ينشجان · ثم انها سألتهما ان يغادرا الكوخ قائلة :

ـ « الان اصبحتما مؤهلين للشحاذة ! سوف يكون هذا جزاء كما ، واكثر من ذلك ايضا ، اذا ضحكتما كرة اخرى ! »

★ ★ ★

اما وانغ لانغ فقدمضى الى الشوارع وانشاء يسأل ههنا وههناك حتى عرف اين تؤجر الركشات * ، فدخل ، واستأجر ركشة لذلك اليوم لقاء نصف دينار من الفضة يدفع عندما يهبط الليل ، ثم جر العربة عائدا الى الشارع من جديد ·

وفيما هو يجر هذه العربة الخشبية الكسيحة على عجلتيها بدا له ان كل امرىء كان يحسبه مجنونا · كان شديد الارتباك بين ذراعي العربة مثل ثور يشد الى المحراث للمرة الاولى ، وكان لا يقوى على السير الا بشق النفس · ومع ذلك ، فقد تعين عليه ان يعدو اذا ما كان راغبا في كسب قوته اليومي ، فقد كان الرجال يعدون ههنا وههناك وفي كلمكان من شوارع هذه المدينة فيما

* جمع ركشة وهي العربة التي يجرها رجل

هم يجرون رجالا اخرين ركبوا متون هذه العربات · ومضى الى شارع جانبي ضيق حيث لم يكن يوجد ، بدلا من الدكاكين والمحال التجارية ، غير ابواب بيوت خاصة موصدة ، وراح يجر العربة صعودا ونزولا ابتغاء التدرب على هذا العمل · ولحظة كان يقول لنفسه في يأس ان الشحاذة كان خليقا بها ان تكون خيرا له وابقى ، فتح احد الابواب وخرج رجل عجوز تشبه نظارتـــاه وثيابه نظارات المدرسين وثيابهم ، وناداه ·

وشرع وانغ لانغ يقول له ، بادىء الامر ، انه طارىء علـــى هـــذه الصناعة الى درجة لا تمكنه من العدو ، ولكن الرجل العجوز كان اصم ، اذ لم يسمع شيئا مما قاله وانغ لانغ ، فراح يومىء اليه في هدوء ان يخفـــض ذراعي الركشة ويمكنه من ركوب متنها · واطاعه وانغ لانغ ، غير عالم كيف يتخلص منه ، مستشعرا ان اصمم العجوز وحسن بزته وسيماءه التي تنم عن علم غزير قد فرضت عليه هذه الطاعة · حتى اذا استوى الرجل علـــى متن الركشة قال :

ــ « قدني الى الهيكل الكونفوشيوسي · »

وقعد ثمة ، مستقيما هادئا، ولقد كان في هدوئه شيء قطع الطريق على ايما سؤال ، فاذا بوانغ لانغ ينطلق كما قد رأى غيره يفعلون ، على الرغم من انه لم يكن يعرف البتة اين يقع الهيكل الكونفوشيوسي ·

بيد انه كان يسأل القوم ، فيما هو يجر الركشة ، وعن موقع الهيكل · واذ كانت طريقه تقتضيه الجري في شوارع مزدحمة تضج بالباعة يجيئـــون ويروحون حاملين سلالهم ، وبالنسوة الذاهبات الى السوق ، وبالعربات التي تجرها الخيل ، وبكثير من العربات الاخرى الشبيهة بهذه التي يجرها هو ، واذ كان كل شيء هناك يزحم الاخر على نحو جعل من المتعذر على وانغ لانغ ان يعدو فقد راح يمشي باسرع ما استطاع ان يفعل ، مستشعرا دائمـــا اهتزازات الثقل الخرقاء من ورائه · لقد كان متعودا حمل الاثقال علـــى ظهره ، اما جر الاثقال فكان شيئا جديدا عليه وقبل ان تتبدى اسوار الهيكل لعينيه استبد الالم بذراعيه وامتلأت يداه بالبثور ، ذلك بان ذراعي العربة كانتا تضغطان على مواطن من تينك اليدين لم يمسها المعول من قبل ·

ووثب المعلم العجوز من الركشة عندما خفضها وانغ لانغ امام ابـــواب الهيكل · ومد يده الى اعماق صدره فاخرج قطعة فضية صغيرة ودفعها الى وانغ لانغ قائلا :

ــ « انا لا ادفع اكثر من ذلك ابدا ، فلا فائدة من الاعتراض · »

حتى اذا نطق بهذه الكلمات استدار ودخل الهيكل ·

والواقع ان وانغ لانغ لم تخامره فكرة الاعتراض البتة ، ذلك بانه لم يكن قد رأى هذه القطعة النقدية من قبل وما كان يدري كم بنسا تساوي · ومضى الى دكان لبيع الارز مجاور ، حيث كانت النقود تصرف ، واعطاه الصراف بتلك القطعة النقدية ستة وعشرين بنسا ، فعجب وانغ لانغ للسهولة التي يكسب فيها المال في الجنوب · ولكن جار ركشة اخر كان يقف على مقربة منه انحنى فيما كان وانغ لانغ يعد القطع النقدية وقال له :

ـ « ستة وعشرون فقط ! من اين جررت ذلك الرأس العجوز ؟ » وعندما انبأه وانغ لانغ ، صاح الرجل :

ـ « يا له من عجوز شحيح ! انه لم يعطك الا نصف الاجرة الحقيقية ، الى اي حد ساومته قبل ان تنطلق به ؟ »

فقال وانغ لانغ :

ـ « انا لم اساومه · لقد قال « تعال » فمضيت ·»

ونظر الرجل الى وانغ لانغ نظرة ترشح بالرثاء ، ثم نادى مخاطبا النظارة :

ـ « هاي ، ههنا جلف ريفي بضفيرة شعره وكل شيء ! يقول له بعضهم: تعال فيمضي · وهذا المعتوه ابن المعتوهين لا يسأل ابدا : كم تعطيني اذا جئت ؟ افهم هذا ايها الابله : ان الاجانب البيض هم وحدهم الذين تستطيع حملهم من غير مساومة ! ان لهم امزجة مثل ملح البارود ، ولكن في استطاعتك حين يقولون « تعال » ، ان تذهب وتثق بهم ، لانهم من البلاهة بحيث لا يعرفون لاي شيء قيمة وبحيث يتركون الفضة تسيل من جيوبهم كالماء · »

وضحك القوم كلهم وهم يصغون الى كلامه ·

ولم يقل وانغ لانغ شيئا · فالحق انه استشعر انه وضيع جدا ، وجاهل جدا ، وسط هذا الحشد كله من ابناء المدينة ، وجذب عربته نائيا بنفسه عنهم من غير ان ينبس بكلمة ·

وقال في ما بينه وبين نفسه باصرار :

ـ « ومع ذلك ، فان هذا المبلغ سوف يطعم اولادي غدا · »

ثم تذكر ان عليه ان يدفع اجرة العربة عندما يهبط الليل ، وانه لا يملك حتى الان نصف هذه الاجرة ·

وخلال الصباح جر وانغ لانغ راكبا اخر ، ولقد ساوم هذا الراكب حتى اتفق معه على سعر بعينه · وبعد الظهر ناداه شخصان اثنان · ولكنه عندما هبط الليل وعد كل ما في يده من مال وجده لا يزيد على اجرة الركشة

الا بنسا واحدا ليس غير ، فارتد الى كوخه في مرارة بالغة قائلا لنفسه انه لم يكسب غير بنس نحاسي واحد في عمل اكثر مشقة من عمل يوم كامل في حقل الحصاد ٠ عندئذ غمرته ذكرى ارضه كالسيل العرم ٠ انها لم تخطر بباله ولو مرة واحدة طوال هذا النهار الغريب، أما الان فان التفكير في انها لا تزال هناك، نائية من غير ريب ولكنها ملك خالص له ، ملك ينتظر عودته ، اوقع في نفسه الامن والطمانينة ٠ على هذا النحو انقلب عائدا الى كوخه ٠

حتى اذا دخله اكتشف ان او ـ لان جمعت من الشحاذة يومها ذاك ، اربعين قطعة نقدية صغيرة ، اي اقل من خمسة بنسات ، وان الصبي الاكبر جمع ثماني قطع ، والاصغر ثلاث عشرة قطعة ٠ ولو ضم بعض هذه القطع كلها الى بعض اذن لكانت كافية لشراء الارز في صباح اليوم التالي ٠ ولكنه ما ان اخذ من الصبي الصغير قطعة النقدية حتى راح يعول مطالبا بالاحتفاظ بها ٠ لقد احب الدراهم التي جمعها من طريق الشحاذة ، ولقد نام تلك الليلة مطبقا اصابع يده عليها ٠ ولم يستطيعوا اخذها منه الا بعد ان تخلى هو عنها ليدفع ثمن نصيبه من الارز ٠

ولكن الرجل العجوز لم يكسب شيئا قط ٠ لقد سلخ النهار كله وهو قاعد على قارعة الطريق ، في انقياد بالغ ، ولكنه لم يمد كفه مستجديا ٠ لقد نام وافاق وحدق الى كل ما كان يمر به حتى اذا دب الى نفسه الملل واستسلم للرقاد من جديد ٠ واذ كان من ابناء الجيل القديم فلم يكن في وسعهم ان يعنفوه ٠ وحين رأى الى يديه فارغتين اكتفى بالقول :

ـ « لقد حرثت الارض وزرعت الحب وحصدت المحاصيل وبذلك ملأت طاستي بالارز ٠ ليس هذا فحسب ، بل لقد انجبت فوق ذلك كله ولدا واولاد ولد ٠ »

وفي مثل ثقة الطفل الساذجة اعتقد انهم لا بد ان يقدموا اليه شيئا من طعام ، فهو رجل ذو ولد وحفدة ٠

١٢

اما وقد كسرت حدة جوع وانغ لانغ الاولى ورأى ان اولاده يجدون كل يوم شيئا يقتاتون به ، وعرف ان ثمة ارزا يستطيع ان يفوز به كل صباح ، وان ما يكسبه هو من العمل وتكسبه او ـ لان من الاستجداء كاف لدفع ثمن الارز ـ اما وقد تم ذلك كله فقد انقضت غرابة حياته ، وشرع يفهم

حقيقة هذه المدينة التي كان يتشبث بأهدابها · والواقع ان تجواله في الشوارع يوميا ، طوال النهار مكنه من ان يعرف المدينة الى حد ما ، ويطلع على بعض خباياها واسرارها · لقد اكتشف ان النسوة اللواتي كان يجرهن في عربته صباحا كن يقصدن الى السوق ، في حين ان الرجال الذين كان يجرهم في تلك العربة صباحا كانوا يقصدون الى المدارس والبيوتات التجارية · أما ماهية تلك المدارس فذلك ما لم يكن لديه ايما سبيل الى معرفته· كل ما عرفه عنها أنها كانت تدعى « المدرسة الكبرى للثقافة الغربية » او « مدرسة الصين الكبرى » وما الى ذلك ، ذلك بانه لم يدخل قط الى ما وراء ابوابها · ولو قد فعل ذلك اذن لكان على مثل اليقين من ان شخصا ما لا بد ان يقبل ويسأله اي شيء كان يعمل هناك · كذلك لم يعرف ماهية البيوتات التجارية التي قاد اليها الناس ، اذ كان من دأبه ان لا يسأل عن شيء بعد فوزه بالاجر المطلوب ·

وفي الليل عرف انه يقود الناس الى صالات الشاي والى مواطن اللهو ، اللهو الصريح الذي تبلغ الشوارع اصداء موسيقاه والعابه التي تلعب بقطع من العاج والخيزران على مائدة خشبية ، واللهو السري الصامت المختبىء خلف الجدران · ولكن وانغ لانغ لم يختبر بنفسه ايا من هذه المتع ، لان قدميه لم تجتازا ايما عتبة غير عتبة كوخه هو ، ولان طريقه كانت تنتهي دائما عند باب من الابواب·· لقد عاش في المدينة الغنية غريبا مثل هرة تعيش في بيت رجل غني وتغتذي بالفتات الملقى اليها وتختبىء ههنا وههناك من غير ان تؤلف ، في يوم من الايام ، جزءا من حياة ذلك البيت الحقيقية ·

وهكذا ، وعلى الرغم من ان المئة ميل ادنى من الالف ميل وعلى الرغم من ان الطريق البرية اقرب دائما من الطريق البحرية ، فان وانغ لانغ وزوجته واولاده كانوا اشبه بالاجانب في هذه المدينة الجنوبية · صحيح ان الناس الذين يجوبون الشوارع كانوا ذوي شعر اسود وعيون سود مثل وانغ لانغ وافراد اسرته جميعا ، ومثل ابناء المنطقة التي ولد فيها وانغ لانغ كافة ، وصحيح ان المرء كان في استطاعته ، اذا ما اصغى الى لغة هؤلاء الجنوبيين، ان يفهم ما يقولون ولو في شيء من الصعوبة ···· ولكن آنهواي ليست كيانغسو · ففي آنهواي ، حيث ولد وانغ لانغ ، تجري اللغة بطيئة حلقية · اما في مدينة كيانغسو ، حيث اقاموا الان ، فكان الناس يتكلمون بمقاطع مشظاة من شفاههم ومن رؤوس السنتهم · وبينما كانت حقول وانغ لانغ تعطي ، في اناة وفي غير انزعاج ، محاصيلها من القمح والارز وشيء من الذرة واللوبياء والثوم ، مرتين في العام الواحد، كان الناس في المزارع المحيطة بمدينة كيانغسو يسمدون اراضيهم على نحو موصول بالغائط البشري النتن لكي يكرهوها

على اعطاء نتاج معجل من هذا الضرب من الخضر او ذاك ، بالاضافة الى ارزهم ٠

وفي موطن وانغ لانغ كان الرجل اذا حظي برقاقة من خبز قمح جيد منطوية على جذع ثوم اخضر اعتبر نفسه سعيدا ولم يحتج الى فضل طعام ٠ اما هنا فان الناس يتلهون بكرات لحم الخنزير ، وفروع الخيزران الغضة ، والكستناء المطهوة مع قلوب الدجاج والاوز وقوانصها واكبادها ومع هذا النوع من الخضر او ذاك ٠واذا ما اتفق لرجل منهم محترم ان مر بك وشم رائحة الثوم الذي طعمته امس ، رفع انفه وصاح : « هو ذا رجل شمالي كريه رائحة الفم خنزيري الذنب ! ان رائحة الثوم لتحمل بائعي الاقمشة انفسهم على رفع سعر القماش القطني الازرق كما كان من دأبهم ان يرفعوا السعر حين يفد عليهم رجل أجنبي ٠

ولكن القرية الصغيرة المؤلفة من السقائف الملتصقة بالسور لم تصبح هي الاخرى جزءا من المدينة او من الريف الممتد وراءها ٠ وذات مرة ، عندما سمع وانغ لانغ شابا يخطب حشدا من الناس عند زاوية الهيكل الكونفوشيوسي حيث يستطيع كل امرىء يؤانس في نفسه الشجاعة ان يقف في الجمهور خطيبا ـ ويقول ان الصين يجب ان تعلن الثورة وتنتفض في وجه الأجانب المكروهين استبد الذعر بوانغ لانغ وانسل من هناك ، معتقدا انه الأجنبي الذي تحدث عنه ذلك الشاب بمثل هذا الانفعال كله ، وعندما سمع في يوم آخر شابا ثانيا يخطب الناس ـ فقد كانت هذه المدينة حافلة بالشبان الذين يخطبون الناس ـ ويقول عند زاوية احد الشوارع ان شعب الصين يجب ان يتحد ويجب انيأخذ باسباب العلم والمعرفة في هذه الايام لم يخطر ببال وانغ لانغ ان الشاب كان يعنيه هو في هذا الكلام ٠

ولم تنقشع عن وجهه غمامة الجهل هذه ويدرك ان في تلك المدينة اناسا هم اشد منه « أجانبية » الا عندما كان ذات يوم في سوق الحرير يبحث عن راغب في ركوب عربته ٠ فقد اتفق له ان مر ، في ذلك اليوم ، بباب دكان كانت تخرج منه بعض السيدات ، احيانا ، بعد شرائهن مختلف المنسوجات الحريرية من صاحب الدكان وبذلك كان يفوز براكب يدفع اليه اجرة اكبر من تلك التي يدفعها معظم الركاب ٠ وفي ذلك اليوم غادر الدكان امامه ، على نحو مفاجىء مخلوق لم ير قط مثله من قبل ٠ ولم يدر اكان ذلك المخلوق ذكرا ام انثى ، ولكنه كان فارع الطول يرتدي ثوبا اسود ضيقا مصنوعا من قماش خشن قاس وقد طوق عنقه جلد حيوان ميت ٠ وأومأ اليه ذلك الشخص ـ سواء أكان ذكرا

ام انثى ـ ايماءة حادة بان يخفض ذراعي العربة ، فنزل عند رغبته ٠وعندما استقام واقفا من جديد ، مشدوها بهذا الذي قد جرى له ، امره الشخص بنبرات محطمة ان يقوده الى شارع الجسور ٠ وشرع يعدو مسرعا ، وهو لا يكاد يعرف ما يعمل ٠ حتى اذا لمح جار عربة آخر كان يعرفه معرفة سطحية ناداه قائلا :

ـ « انظر الى هذا الشخص ٠٠٠ من هذا الذي أجره ؟ »

فأجابه الرجل بصوت مرتفع :

ـ « أجنبية ٠٠٠٠ انثى من اميركا ٠٠٠ هنيئا لك ، لقد اصبحت غنيا ! »

ولكن وانغ لانغ ركض بأسرع ما استطاع ، خوفا من المخلوقة الغريبة التي كانت خلفه ٠وعندما وصل الى شارع الجسور كان منهوك القوى يتصبب العرق من جسده كله ٠

ثم ان هذه الأنثى وثبت من العربة وقالت بالنبرات المحطمة نفسها :

ـ « لا داعي لأن تقتل نفسك عدوا ٠ »

وغادرته وفي راحة يده قطعتان فضيتان ، وكان ذلك ضعف الأجرة المألوفة٠

عندئذ عرف وانغ لانغ ان هذه الأنثى كانت اجنبية حقا ،بل اكثر «أجانبية» منه في هذه المدينة ، وان ذوي الشعر الأسود والعيون السوداء هم بعد كل شيء في جانب ، وذوي الشعر الاشقر والعيون الزرق في جانب آخر ٠ وبعد ذلك لم يعد يستشعر انه اجنبي بكل ما في الكلمة من معنى في تلك المدينة٠

وحين انقلب الى الكوخ ، تلك الليلة ، والقطعتان الفضيتان اللتان كسبهما سليمتان في جيبه لم تمسا ، قص على او ـ لان الخبر فقالت :

ـ « لقد رأيتهم ٠ انا استندي اكفهم دائما ، لأنهم هم وحدهم الذين يلقون في طاستي القطع الفضية بدلا من القطع النحاسية ٠ »

ولكن لا وانغ لانغ ولا زوجته استشعر ان الاجنبي يلقي الفضة في طاسات الشحاذين لرقة في الفؤاد ، انما كان الأجنبي يلقي الفضة في تلك الطاسات بسبب من الجهل ولانه لم يكن يعلم ان اعطاء الشحاذين قطعا نحاسية هو ادنى الى الصواب من اعطائهم قطعا فضية ٠

ومع ذلك فقد تعلم وانغ لانغ من هذه التجربة ما لم يعلمه اياه الشبان، تعلم انه ينتسب الى الأمة نفسها التي ينتسب اليها مجانسوه ذوو الشعر الاسود والعيون السود ٠

*

كان يبدو لوانغ لانغ ، وقد تعلق على هذا النحو بضواحي المدينة الكبيرة ، الموسرة ، الحافلة بالمغريات ، انه لن يعدم الطعام بعد أبدا ٠ كان قد اقبل هو

واسرته من منطقة اذا جاع فيها الناس جاعوا لأنه ليس ثمة طعام ، ذلك بأن الأرض لا تجود بعطائها تحت سماء ليس في قلبها رحمة ٠ كان وجود الفضة في يد المرء لا قيمة له لأنها أعجز من ان تشتري شيئا حيث لم يكن شيء ٠

اما هنا في هذه المدينة فكان الطعام موفورا ٠ كانت شوارع سوق السمك المفروشة بالحصباء مطوقة بسلال كبيرة ملأى بسمك فضي ضخم اصطيد ليلا من النهر الحافل به ، وباحواض تضج بسمك لماع التقط من البرك بواسطة الشباك ، وباكوام من السراطين الصفراء تتلوى وتقرض في دهش نكد ، وبانقليس مضطرب الاوصال مهيأ لموائد الشرهين من الناس ٠ وفي اسواق الحنطة كانت سلال من الحبوب يستطيع المرء ان يضع قدميه فيها ويغوص في جنباتها ويختنق فلا يحس به احد غير الذين رأوه بأم العين ، وفيها ايضا كانت مقادير ضخمة من الارز الأبيض ، والارز الأسمر ، والقمح الاصفر الداكن والقمح الذهبي الشاحب ،وفول الصويا الاصفر ،والفاصوليا الحمراء واللوبياء الخضراء العريضة ، والذرة البيضاء الشبيه لونها بلون العصفور الكناري ، والسمسم الرمادي ٠ وفي أسواق اللحم تدلت خنازير كاملة من اعناقها ، وقد شقت وفتحت على طول اجسادها الضخمة ذات الجلد الناعم الكثيف الابيض لكي يبين للعيان لحمها الاحمر وطبقات دهنها اللذيذ ٠ وعند تجار البط علقت على السقوف والابواب صفوف مزدحمة من البط الاسمر المشوي كانت قد أديرت في بطء على السفافيد فوق جمرات الفحم ، ومن البط الابيض المملح ، وسبحات قلوب البط وقوانصها واكبادها ٠ والشيء نفسه كان يصح في الدكاكين التي تبيع الاوز والدراج وكل ضرب من ضروب الطير ٠

أما الخضر فكانت السوق حافلة بكل ما استطاعت يد الانسان ان تغري التربة بانباته منها : فجل ملتمع بعضه احمر وبعضه أبيض ، وجذور لوتس جوفاء ، وجذور تارو * وملفوف أخضر وكرفس ، وجذوع لوبياء متجعدة ، وكستناء سمراء ، وجرجير ذكي الرائحة يتبل به الطعام ٠ وبكلمة ، فلم يكن ثمة شيء قد تشتهيه نفس المرء الا وفي امكانه شراؤه من أسواق تلك المدينة ٠ وهنالك كان يتجول باعة حلويات وفاكهة طازجة وفاكهة مجففة وزلابيات حارة مصنوعة من بطاطا حلوة سمرت ** بزيوت حلوة ، وكرات من لحم الخنزير صغيرة تبلت تتبيلا رقيقا وعلفت بطبقة من طحين ثم شويت على البخار ، وحلوى مسكرة مصنوعة من أرز دبق ٠ وكان اطفال المدينة يعدون نحو باعة هذه الاشياء وأيديهم ملأى بالدراهم ، ويشترون ويأكلون حتى تلتمع جلودهم

* taro نبات له جذور تشبه البطاطا او القلقاس ٠

** احيل لونها الى السمرة ٠

بالسكر والزيت ٠

اجل لقد كان في استطاعة المرء ان يقول ان احدا في هذه المدينة لا يمكن ان يجـوع ٠

ومع ذلك ، فكل صباح كان وانغ لانغ وافراد اسرته يغادرون كوخهم بعيد طلوع الفجر ، حاملين طاساتهم وعيدان طعامهم ، ويشكلون زمرة صغيرة في موكب طويل من الناس الذين انبثقوا من اكواخهم مرتعدين في ثياب أرق من ان تدفع عنهم غائلة ضباب النهر الرطب ، وراحوا يسيرون منحني الظهور في وجه ريح الصباح الباردة متجهين الى المطابخ الشعبية حيث كان في ميسور المرء ان يشتري ، ببنس واحد ، طاسة من حساء الارز غير الكثيف ٠ وعلى الرغم من الجهد الموصول الذي بذله وانغ لانغ في جر ركشته والعدو أمامها وعلى الرغم من مد أو-لان يدها في غير انقطاع، استنداء لاكف المحسنين، فانهم لم يستطيعوا في يوم من الايام ان يكسبوا من المال ما يمكنهم من طهو ارزهـم يوميا في كوخهم نفسه ٠ فاذا اتفق ان بقي في يدهم بعد دفع ثمن الارز في مطعم الفقراء بنس واحد اشتروا به قليلا من الملفوف ٠ ولكن الملفوف كان غاليـا بأي ثمن ، اذ كان يتعين على الصبيين ان ينطلقا بحثا عن وقود يطهى بـه بين الآجرتين اللتين نصبتهما او-لان واتخذت منهما مستوقدا ، وهذا الوقود كان يتحتم عليهما أن ينتزعوه حفنات حفنات ، على قدر ما تتسع أيديهم ، من الفلاحين الحاملين أثقالا من القصب والعشب الى أسواق الوقود في المدينة ٠ وكان الفلاحون يلقون القبض احيانا على الصبيين متلبسين بالجرم المشهود فيوسعونهما ضربا وصفعا ٠ وذات ليلة رجع أكبر الولدين ـ وكـان اشد حياء من اصغرهما وأكثر خجلا بما كان ياتي من عمل ـ وقد تورمت عينـه من صفعة وجهتها اليه يد فلاح من الفلاحين ٠ ولكن أصغر الصبيين كان مـا لبث أن أمسى بارعا ، بل غدا بارعا في اللصوصية الصغيرة اكثر منه فـي الشحـاذة ٠

ولم تجد أو-لان في ذلك شيئا ذا خطر ٠ اذا كان الصبيان لا يستطيعان ان يشحذا من غير ما ضحك ولعب فليسرقا لكي يملأا بطنيهما٠ ولكن وانغ لانغ ـ على الرغم من انه لم يستطع ان يجيبهـا بشيء ـ استشعر صدره يعلو ويهبط كلما فكر في لصوصية ولديه هذه ، ولم يلم ولده البكر عندما تباطأت به قدماه في ميدان تلك الصناعة ٠ فهذه الحياة في ظل السور الكبير لم تكن هي الحياة التي أحبها وانغ لانغ ٠ كانت ثمة أرضه تنتظر عودته ٠

وذات ليلة رجع الى كوخه متأخرا ، فوجد في قدر الملفوف قطعة ضخمة من لحم الخنزير ٠ كانت هذه هي المرة الاولى التي وجدوا فيها لحما يأكلونه

منذ أن ذبحوا ثورهم · واتسعت عينا وانغ لانغ ، وقال لأو ـ لان :

ـ « لا شك في انك قد طلبت اليوم صدقة من أجنبي ·»

ولكنها لم تنبس ، وفقا لعادتها ، بكلمة ما · ثم ان الصبي الاصغر ، وكان غرا لا ينظر الى بعيد ، معجبا بما تكشف عنه من براعة ، قال :

ـ « أنا الذي اخذت هذه القطعة من اللحم · انها لي ! فحين التفت الجزار الى الناحية الاخرى، بعد أن احتزها من القطعة الكبيرة على الوضم*، انسللت تحت ذراع امرأة عجوز كانت قد أقبلت لتشتريها ، وانتزعتها وركضت نحو زقاق ضيق واختبأت في جرة ماء فارغة عند أحد الابواب الخلفية حتى جاء أخي الاكبر · »

فصاح وانغ لانغ مغضبا :

ـ « اذن فأنا لن آكل هذا اللحم ! يجب أن نأكل اللحم الذي استطعنا أن نشتريه او نشحذه ، ولكن ليس اللحم الذي نسرقه · اننا قد نكون شحاذين ، ولكننا لسنا لصوصا » ·

وأخرج قطعة اللحم ، باصبعيه ، من القدر ، وطرحها على الارض غير عابىء بصراخ الصبي الاصغر ·

عندئذ تقدمت أو ـ لان ، على طريقتها البلهاء ، ورفعت قطعة اللحم عن الارض وغسلتها بقليل من الماء ثم ارجعتها الى القدر التي كانت تغلي بما فيها ·

وقالت في هدوء :

ـ « اللحم لحم ! »

ولم يقل وانغ لانغ شيئا عندئذ ، ولكنه كان مغضبا خائفا ، لان ولديه يوشكان ان يصبحا في هذه المدينة لصين · وعلى الرغم من انه لم ينبس ببنت شفة عندما قسمت أو ـ لان قطعة اللحم المطهوة الرخصة بعوديها الاثنين ، وعلى الرغم من انه لم ينبس ببنت شفة عندما قدمت قطعا كبيرة منها الى الرجل العجوز والى الصبيين بل ملأت فم البنية بها وأكلت هي نفسها منها ، فقد أبى أن يطعم منها شيئا ، مكتفيا بالملفوف الذي اشتراه · ولكنه ما ان انتهت وجبة الطعام حتى قاد ابنه الاصغر الى الشارع ، بعيدا عن سمع المرأة ، وهناك خلف احد البيوت وضع رأسه تحت ذراعه وراح يصفعه على هذه الجهة حينا وعلى تلك الجهة حينا في قوة وعنف ، من غير ان يعطف قلبه ويحمله على الاقلاع عن ذلك بكاء الصبي واعواله ·

---

* الوضم : ما يقطع عليه الجزار اللحم ·

وصاح :

ـ « خذ ! خذ ! خذ ! لعل هذا يعلمك كيف تسرق ! »

أما في ما بينه وبين نفسه فقال عندما ترك الصبي يمضي الى البيت وهو يصرخ وينشج :

ـ « يجب أن نرجع الى الارض · »

١٣

ويوما بعد يوم ، تحت غنى هذه المدينة ، عاش وانغ لانغ في أساس الفقر التي نهضت عليها · فعلى الرغم من الغذاء المراق في الاسواق ، وعلى الرغم من شوارع تجار المنسوجات الحريرية الذين تعلن عن سلعهم رايات لماعة خفاقة مصنوعة من حرير اسود وأحمر وبرتقالي ، وعلى الرغم من الاثرياء الرافلين بالاطلس والمخمل ، الاثرياء الناعمي البشرة المرتدين أردية حريرية ، والشبيهة أيديهم بالازهار نعومة وأرجا وجمال بطالة ـ على الرغم من هذه المظاهر كلها التي أسهمت في جمال المدينة الملوكي لم يكن في الحي الذي عـاش فيه وانغ لانغ طعام كاف لاشباع الجوع الضاري ، وملابس كافية لكسو العظام العاريـــة ·

كـان الرجـال يكدحون طوال النهـار في اعداد الخبز والكعك المحلـى لموائد الاثرياء ، وكان الاطفال يكدحون من الفجر حتى منتصف الليل وينامون وسخي الاجسام مقطبي الوجوه على فرشهم الحقيرة المبسوطة على الارض، ليرجعوا الى الافران في صباح اليوم التالي مترنحين من النعاس ، فلا يعطون من الاجر ما يمكنهم من شراء رغيف من الخبز الممتاز الذي صنعوه للآخرين · وكان الرجال والنساء يكدحون في قص وصنع الفراء الثقيلة للشتاء ، والفراء الخفيفة للربيع ، والاقمشة الحريرية الثقيلة الموشاة لكي يتخذ منها اولئـك الذين طعموا مما تقدمه اليهم الاسواق في وفرة بالغة أردية ثمينة فاخرة ، في حين كانوا هم يسرقون قطعة من قماش قطني أزرق خشن ويخيطونهـا علـى نحو فطير ليغطوا بها عريهم ·

وفي أثناء عيشه بين اولئك الذين كانوا يشقون لأسعـاد الآخرين سمـع وانغ لانغ أشياء غريبة لم يلق اليها بالا · صحيح ان الرجال المسنين والنسوة المسنـات لم يقولوا أيمـا شيء لاحد · كـان ذوو اللحـى الشـائبة يجرون الركشات ، ويدفعون بأيديهم عربات ذوات عجلة واحدة مثقلة بالفحم والحطب

الى المخابز والقصور ، ويرهقون ظهورهم حتى لتتوتر عضـلاتهم كالحبـال فيما هم يجرون عربات البضـائع الثقيلة ويجرونهـا فوق الطرق المفروشـة بالحصباء ، ويأكلون مقترين على أنفسهم من طعامهم النزر الطفيف ، وينامون ساعات ليلهم القصيرة ، ويعتصمون بالصت ٠ كانت وجوههم مثل وجه أو ـلان خرساء لا تبيـن ٠ ان أحدا لم يكن يدري مـا الذي يجول في أذهانهـم ٠ واذا ما اتفق لهم ان تكلموا كان كلامهم يدور حول الطعام او حول الفلس ٠ ونادرا ما كانت كلمة « الفضة » تنطلق من شفاههم لان أيديهم كانت نادرا ما تمس الفضة ٠

كـانت وجوههم تبدو في غير ساعـات العمل منقبضـة وكـأن الغضب يشوههـا ، ولكن لم يكن ثمة في الواقـع غضب ٠ ان سنوات الكدح في نقل الاثقال المرهقة هي التي رفعت شفاههم العليا كاشفة عن أسنـانهم بتكشيرة خادعة، وهذا الكدح قد حفر تجاعيد عميقة في البشرة حول أعينهم وأفواههم٠ ولم تكن لديهم أي فكرة عن مظهرهم الجسماني ٠وذات مرة ، رأى أحدهـم نفسه في مرآة كانت على ظهر شاحنة محملة بسلع منزلية فصاح :

ـ « هو ذا مخلوق بشع ! »

وعندما ضحك اخرون منه بصوت جهير ابتسم هو موجعا ، غير عالـم علام يضحكون ، مجيلا الطرف في ما حوله متعجلا ليستيقن أنه لم يؤذ احدا ٠

وفي الاكواخ الصغيرة التي كانوا يحيون فيها ، الاكواخ المحيطة بكوخ وانغ لانغ ، كانت النسوة ـ مكدسات بعضهن فوق بعض ـ يخطن الخـرق البالية ليتخذن منها ملابس للاولاد الذين كن ينجبنهم علـى نحو موصول ، ويختلسن بعض الملفوف من حقول الفلاحين ، ويسرقن حفنات من الارز مـن اسواق الحبوب ، ويجمعن الاعشاب طوال العام من سفوح الهضاب ٠ وفـي موسم الحصاد كن يلحقن بالحاصدين كالدجاج بعيون يقظة ثاقبة تبحـث عن كل حبة او ساق نبتة ساقطة ٠ ولقد شهدت تلك الاكواخ عرض اطفال لا نهاية له ، كانوا يولدون ويموتون ويولدون من جديد حتى لقد تعذر على الاباء والامهات ان يعرفوا كم طفلا ولد وكم طفـلا مات ، وحتى لصعب عليهم ان يعرفوا عدد الاحياء من الاطفال، اذ كانوا لا يرون فيهم الا افواها يجب اطعامها

ان هؤلاء الرجال والنساء والاطفال كانوا يروحون ويجيئون في الاسواق ودكاكين بيع الاقمشة ، ويطوفون في الريف المحاذي للمدينة : الرجـال يقومون بعمل او بآخر لقـاء بنسات معدودات ، والنسوة والاطفال يسقون ويشحذون وينشلون ، ولقد كان وانغ لانغ وزوجته واطفاله بينهم ٠

وارتضى الشيوخ من الرجال والعجائز من النساء هذه الحياة على علاتها · ولكن سرعان ما جاء زمان بلغ فيه الغلمان سنا بعينها ، فهم لم يعودوا بعد اطفالا وهم لم يصبحوا بعد شيوخا ، وعندئذ غلب الاستياء على نفوسهم · ودار بين الشبان حديث : حديث غاضب مزمجر · وفي ما بعد، عندما اكتملت رجولتهم وتزوجوا وملأ افئدتهم الذعر من تضخم الاسرة وتعدد افرادها استحال غضب شبابهم الشتيت يأسا ضاريا وثورة اعمق من ان يعبر عنها في كلمات ، ذلك بانهم كدحوا طوال حياتهم باقسى مما تكدح البهائم ، وكدحوا لمجرد الفوز بحفنة من الفضلات يملأون بها بطونهم · وفيما كان وانغ لانغ يصغي ذات مساء الى مثل هذا الحديث عرف ، للمرة الاولى ، ما الذي كان يجري في الجانب الاخر من السور الكبير الذي استندت اليه صفوف اكواخهم ·

وانما كان ذلك في الساعات المتأخرة من احد ايام الشتاء هذه الموشكة على الانقضاء ، عندما يبدو للمرة الاولى وكأن في الامكان ان يعود الربيع من جديد · كانت الأرض المحيطة بالاكواخ لا تزال موحلة بالثلج الذائب ، ولقد تسربت المياه الى الاكواخ ، حتى لقد اضطرت كل اسرة الى ان تجمع من ههنا وههناك بضع آجرات تنام عليها · ولكن الى جانب مضايقات الارض الرطبة كان ثمة في هذه الليلة اعتدال في الهواء رفيق ، وهذا الاعتدال اورث وانغ لانغ عصبية بالغة ، فامتنع عليه النوم في الحال وفقا لمألوف عادته بعد العشاء ، واضطر الى الخروج الى حافة الشارع والوقوف هناك عاطلا عن العمل ·

ههنا كان من دأب ابيه العجوز ان يجلس القرفصاء ويتكىء على السور، وههنا جلس الان بعد ان اقبل وفي يده طاسة طعامه لكي يلتهمها ، عندما احال الاطفال الكوخ الى جحيم من الصخب والصياح · وكان الرجل العجوز يمسك باحدى يديه طرف انشوطة من قماش نزعتها او – لان من زنارها ، وضمن نطاق هذه الانشوطة كانت البنية الصغيرة تتمايل ذات اليمين وذات الشمال من غير ان تسقط · وعلى هذا النحو ، انفق ايامه معنيا بهذه الطفلة التي ابت منذئذ البقاء محمولة على صدر امها وهي تستعطي · والى هذا ، فقد كانت او–لان تحمل في بطنها جنينا جديدا ، ولقد كان ضغط البنية الكبيرة على جسمها ، من خارج ، اوجع من ان تتحمله ·

وراقب وانغ لانغ البنية تقع ثم تقوم والرجل العجوز يجذب طرفي الانشوطة · وفيما كان واقفا على هذا النحو احس بنسيم المساء العليل يداعب وجهه ، فاعتمل في صدره شوق لاعج الى حقوله ·

وقال لابيه في صوت جهير :

ـ« في يوم مثل هذا يتعين على المرء ان يحرث الحقول ويبذر القمح ٠ »

فقال الرجل العجوز في سكينة :

ـ « آه ، انا اعرف ما يجول في خاطرك ٠ لقد اضطررت مرتين اثنتين ، ثم مرتين اثنتين ، الى ان افعل ما فعلناه هذا العام وان اترك الحقول واعلم انه ليس فيها بذار لموسم حصاد جديد ٠ »

ـ « ولكنك وفقت دائما الى العودة ، يا ابي ٠ »

فقال الرجل العجوز في بساطة :

ـ « لقد كانت الارض هناك ، يا ابني ٠ »

حسنا ولسوف يرجعون هم ايضا ، ان لم يكن هذا العام ففي العام القابل على الاقل ـ كذلك قال وانغ لانغ في ما بينه وبين نفسه ، ما داموا يملكون تلك الارض ! وكان في التفكير فيها وقد امتدت هناك تنتظر عودته، غنية بامطار الربيع ، ما ملأ نفسه حنينا ٠ فانقلب الى الكوخ وقال لزوجته في خشونة :

ـ « لو كان لدي شيء ابيعه اذن لبعته ولرجعت الى الارض ٠ ولولا الرأس العجوز لسرنا على الاقدام ولو عضنا الجوع ٠ ولكن انى يستطيع هو والطفل الصغير ان يسيرا مئة ميل ؟ وانت ، مع حملك الذي في بطنك ! »

كانت او ـ لان تغسل اطباق الارز بقليل من الماء ، فما كان منها الا ان ركمتها في زاوية من زوايا الكوخ ورفعت بصرها نحوه من المكان الذي جلست فيه القرفصاء ، واجابته في اناة :

ـ « ليس لدينا ما نبيعه غير البنية ٠ »

وحبس وانغ لانغ انفاسه ، وقال في صوت جهير :

ـ « لا ٠ انا لن ابيع ولدا من اولادي ! »

فاجابته في اناة بالغة :

ـ « ولكن اهلي باعوني ٠ لقد باعوني لاحدى الاسر الكبيرة لكي يصبح في ميسورهم ان يعودوا الى بيتهم ٠ »

ـ « واذن ، فهل ترغبين في بيع البنية ؟ »

ـ «لو كان الامر الي وحدي اذن لآثرت ان اقتلها على ان ابيعها ٠٠٠ لقد كنت عبدة رقيقة لعبيد ارقاء ! ولكن الاطفال الموتى لا يعودون على آبائهم بشيء ٠ اني على استعداد لان ابيع هذه البنية من اجلك ٠٠٠٠ من اجل اعادتك الى الارض ! »

فقال وانغ لانغ في قوة :

ـ « لن ارتضي ذلك بحال · حتى لو انفقت عمري في هذا القفر » ·

ولكنه ما ان غادر الكوخ من جديد حتى راودته ، برغم ارادته ، تلك الفكرة التي ما كان لها ان تخطر له على نحو تلقائي البتة · ونظر الى البنية الصغيرة وهي تترنح على نحو موصول عند طرف الانشوطة الذي كان جدها يمسك به· كانت قد افادت كثيرا من الغذاء المقدم اليها يوميا ، وعلى الرغم من انها لما تنطق بعد بأيما كلمة مهما تكن ، فقد كانت ممتلئة الجسم بقدر ما يمكن لطفل ان يمتلىء جسمه بفضل العناية الضئيلة · كانت شفتاها الشبيهتان بشفتي امرأة عجوز باسمتين حمراوين ، وكشانها في ما مضى غمرت البهجة نفسها عندما نظر اليها وابتسمت ·

وفكـــــر :

ـ « كان ممكنا ان اقدم على ذلك لو لم ترح رأسها على صدري وتبتسم على هذا النحو · »

ثم فكر في ارضه كرة اخرى وصاح في انفعال :

ـ « ألن يقدر لي ان أراها من جديد ؟ ان كل مـــا نجنيه من الكدح والاستعطاء لا يكاد يكفي لتأمين قوتنا اليومي ! »

ومن اعماق الغسق اجابه صوت ، صوت عميق قوي :

ـ « لست انت الشخص الوحيد · ان ثمة الفا مثلك في هذه المدينة · »

واقترب الرجل وهو يدخن بيبة خيزران قصيرة · كان رب الأسرة التي تقطن في الكوخ الثاني الى يمين كوخ وانغ لانغ · وكان رجلا نادرا ما يرى في وضح النهار ، ذلك بأنه كان ينام سحابة النهار ويسلخ ساعات الليـل جـارا عربات مثقلة بالبضائع تضيق بها الشوارع الغاصة خلال النهـار بالعربات الأخرى التي كان بعضها يتخطى بعضها على نحو موصول · ولكن وانغ لانغ كان يراه احيانا عائدا الى بيته مع الضحى لاهثا منهوك القوى ، وقد انحدرت كتفاه الضخمتان المفتولتا العضل من اثر التعب · وانما اجتاز به وانغ لانغ على هذا النحو ، عند الفجر ، فيما كان هو منطلقا لجر ركشته ، وفي بعض الأحيان كان الرجل يغادر كوخه عند الغسق ، قبيل مباشرته عمله الليلـي ، ويقف مع الرجال الآخرين الموشكين ان يأووا الى اكواخهم لينالوا قسطا من النوم ·

فسأله وانغ لانغ في مرارة :

ـ « حسنا ، وهل سنبقى على هذه الحال الى الأبد ؟ »

ومج الرجل من بيبته ثلاث مجات ثم بصق على الأرض · ثم قال :

ـ « لا، ليس الى الأبد · فحين يكون الأغنياء اغنياء اكثر مما ينبغـي

تكون ثمة وسائل ، وحين يكون الفقراء فقراء اكثر مما ينبغي تكون ثمة وسائل· ففي الشتاء الماضي بعنا بنتين ونجونا من الهلاك، وهذا الشتاء اذا كان الجنين الذي في بطن زوجتي انثى ، سنعمد الى بيعها ايضا ·انا لم احتفظ الا ببنت واحدة ـ بنتي الأولى · إما الأخريات فبيعهن خير من قتلهن ، على الرغم من ان هناك من يؤثر قتلهن قبل ان يتنفسن · تلك هي احدى الوسائل التي يفزع اليها حين يكون الفقراء فقراء اكثر مما ينبغي · اما حين يكون الاغنياء اغنياء اكثر مما ينبغي فثمة وسيلة ، واذا لم اكن مخطئا فان هذه الوسيلة سوف تصطنع وشيكا · (وهز رأسه وأشار بجذع بيبته الى السور القائم خلفه) هل رأيت ما وراء هذا السور ؟ »

وهز وانغ لانغ رأسه علامة النفي ، محدقا في دهش · وتابع الرجل قائلا

ـ « لقد حملت احدى بناتي الى هناك لأبيعها ، ورأيت كل شيء · انك لن تصدقني اذا حدثتك كيف يجيء المال ويروح في ذلك البيت · سوف أقول لك ما يلي : حتى الخدم يأكلون هناك بعيدان طعام عاجية مطوقة بالفضة ، وحتى الجواري يزين آذانهن بأقراط من اليشب واللؤلؤ ، ويطرزن احذيتهن باللآلىء · وحين يعلق بها قليل من الوحل أو يعتريها خرق ضئيل لا أعتبره أنا ولا تعتبره أنت خرقا يطرحن تلك الاحذية غير آبهات بها وباللآلىء التي تزينها ! »

ومج الرجل مجة عميقة من بيبته ، وأصغى وانغ لانغ فاغر الفم · لقد كان وراء هذا السور ، اذن ، شيء مثل هذا كله !

وأردف الرجل :

ـ « هناك وسيلة حين يكون الناس أغنى مما ينبغي ··· »

واعتصم بالصمت لحظة ، ثم أضاف في لامبالاة وكأنه لم يقل شيئا :

ـ « حسنا ، فلنعد الى العمل ! »

وغاب في حواشي الليل ·

ولكن وانغ لانغ لم يستطع أن ينام تلك الليلة ، ذلك بأنه فكر بالفضة والذهب واللآلىء الموفورة في الجانب الاخر من هذا السور الذي يستند اليه جسده ، جسده المكسو بهذه الملابس التي يرتديها كل يوم ، اذ لم يكن لديه لحاف يلتحف به ، ولم يكن لديه غير حصير ممدود على الآجر من تحته · واغرته نفسه كرة أخرى ببيع البنية ، حتى لقد قال فيما بينه وبين نفسه :

ـ « لعل من الخير لها أن تباع لاسرة غنية حيث يكون في امكانها ان تأكل أطايب الطعام وتتزين بالجواهر ، اذا ما قدر لها أن تشب عن الطوق وسيمة فتانة، وأن تنتزع اعجاب سيد من السادة · »

ولكنه أجاب نفسه مواصلا التفكير على الرغم منه :

ـ « حسنا ، ولكن اذا ما عقدت العزم فانها لن تساوي ثقلها ذهبا وجواهر . واذا ما عادت علينا بقدر من المال يمكننا من العودة الى الارض، من أين نأتي بما يساعدنا على شراء ثور ، وطاولة ، وسرير ومقاعد خشبية كرة أخرى ؟ اأبيع طفلة من اولادي لكي نجوع هناك بدلا من أن نجوع هنا ؟ اننا لا نملك حتى البذار الذي نستطيع نثره في الارض . »

ولم يعرف عن أية وسيلة كان جاره يتحدث عندما قال :

ـ « هناك وسيلة حين يكون الناس أغنى مما ينبغي . »

١٤

وأثار الربيع فورة في قرية الاكواخ . لقد أمسى في ميسور اولئك الذين كانوا يستعطون ويشحذون أن يذهبوا الان الى الهضاب والارض الموات ويستأصلوا الاعشـــاب الصغيرة الخضراء والخس البري وكيس الراعي التي اطلعت أوراقا جديدة واهنة ، ولم يعودوا مضطرين الى اختلاس الخضر من هنا وهناك . كان جمع غفير من النسوة والاطفال يخرجـــون كل يوم من الاكواخ ، في ثياب خلقة بالية ، وينطلقون نحو الريف والطرق العامة ـ حاملين قطعا من الصفيح والحجارة الحادة أو السكاكين المثلمة وسلالا مصنوعة من أغصان خيزران ملوية أو قصب مشقوق ـ التماســـا لطعام كان في امكانهم الفوز به من غير شحاذة ومن غير مـــال . وكل يــوم كانت أو ـ لان تنطلق مع هذا الجمع الغفير ، أو ـ لان والصبيان .

ولكن الرجال خلقوا للعمل ، ولقد عمل وانغ لانغ كدأبه من قبل ، على الرغم من أن الايام الدافئة الآخذة في الطول ومن ان أشعة الشمس والامطار المفاجئة ملأت نفوس الناس بضروب التوق والاستياء . لقد عملوا ، فـــي الشتاء ، معتصمين بالصمت، صابرين في عناد على الثلج والجليد اللذين حجبا وجه الارض تحت أقدامهم ذات النعال القشية ، عائدين مع العتمة الى أكواخهم حيث يأكلون ـ من غير أن ينطقوا بكلمة ـ ما اشتروه من طعـــام بمحصول عمل النهار وشحاذتـــه ، مستسلمين لنوم عميق ، رجـــالا ونساء وأطفالا مجتمعين ، لكي يعوضوا عن ذلك الذي كان غذاؤهم أفقر وأندر من أن يوقعه في أجسادهم . كذلك كان الحال في كوخ وانغ لانغ ، ولقد عرف

جيدا انه كان كذلك من غير ريب في سائر الاكواخ ٠

أما وقد ورد الربيع فقد شرع الكلام يجيش في أفئدتهم وينطلق مسموعا من شفاههم ٠ وفي المساء ، عند تطاول الغسق ، كانوا يغادرون أكواخهم ويتحلقون آخذين بأطراف الحديث ، وكان وانغ لانغ يرى هذا أو ذاك من الرجال الذين عاشوا على مقربة منه والذين لم يلمحهم قط خلال الشتاء ٠ ولو كانت أو ــ لان أمرأة من هاتيك النسوة اللواتي يحدثن أزواجهن بكل شيء اذن لسمع مثلا بهذا الرجل الذي كان يضرب زوجته ، وبذاك الرجل الذي أصيب بجذام أكل خديه أكلا ، وبذلك الرجل الذي كان أمير عصابة من اللصوص ٠ ولكنها كانت صامتة لا تنطق بغير الاسئلة والاجوبة النادرة التي كانت تطرحها وتعطيها ، وهكذا وقف وانغ لانغ حييا عند تخوم الحلقة وأصغى للحديث ٠

لم يكن معظم هؤلاء الرجال ذوي الاسمال يملكون شيئا غير ما يكسبونه من عمل النهار وشحاذته ، ولقد كان وانغ لانغ يعي أنه ليس في الحق واحدا منهم ٠ كان يملك ارضا ، وكانت أرضه تنتظر ايابه ٠ ان هؤلاء كانوا لا يفكرون الا في الوسيلة التي تمكنهم في غد من أن يأكلوا لقيمات من سمك ، أو التي تمكنهم من ان ينعموا بقليل من البطالة ، وربما من أن يقامروا بعض الشيء ، ببنس واحد أو بنسين اثنين ، اذ كانت أيامهم كلها رديئة مفعمة بالفاقة ولا غنى للمرء عن المقامرة في بعض الاحيان ، ولو يائسا ٠

أما وانغ لانغ فكان يفكر في أرضه ، بقلب أسيان من خيبة الامل ، ويفكر في الوسيلة التي تمكنه من العودة اليها ٠ انه ما كان ينتسب لا الى هذه الحثالة المتشبثة بأسوار قصر غني من الاغنياء ولا الى قصر ذلك الرجل الغني ٠ كان ينتسب الى الارض ، ولم يكن ليستمتع بأيما قدر من حلاوة الحياة الحقيقية الا حين يحس بالارض تحت قدميه ، ويسير خلف محراث في أيام الربيع ، ويحمل بيده منجلا في موسم الحصاد ٠ وهكذا راح يصغي ، في معزل عن الاخرين ، اذ كان فؤاده مدركا ملكيته لارضه ، أرض القمح الطيبة التي ورثها عن آبائه ، وأرض الارز الخصبة التي اشتراها من الاسرة الكبيرة ٠

كان هؤلاء الرجال لا يفتأون يتحدثون ، أبد الدهر ، عن المال ، عن الفلس الذي دفعوه ثمنا لنصف ذراع من القماش ، وعما دفعوه ثمنا لسمكة صغيرة لا يزيد طولها على طول الاصبع ، أو عما استطاعوا أن يكسبوه في اليوم الواحد ٠ وكانوا لا يفتأون يتحدثون أيضا عما كان يجدر بهم ان

يفعلوا لو ملكوا الاموال المدخرة في خزائن الرجل المقيم وراء السور ۰ وكل يوم ، كان الحديث يختم على هذا النحو :

ـ « ولو كان لدي الذهب الذي عنده ، ولو كانت في يدي هذه القطع الفضية التي يحملها كل يوم في زناره ، ولو كنت أملك اللآلىء التي تتزين بها محظياته ، والجواهر التي تزهو بها زوجته ۰۰۰ »

واذ أصغى وانغ لانغ الى جميع الاشياء التي يجدر بهم أن يفعلوها لو ملكوا هذه الثروة كلها لم يسمعهم يتحدثون الا عن الاسراف في الاكل والنوم ، وعن الاطايب التي يفكرون في التهامها والتي لم يذوقوها قط من قبل ، وعن صالات الشاي التي يعتزمون المقامرة فيها ، وعن الحسان اللواتي سوف يشترونهن اشباعا لشهوتهم ، وفوق كل هذا عن البطالة التي سينعمون بها أبد الدهر وكيف أنهم لن يكدحوا بعد اليوم شأنهم في ذلك كشأن الرجل الثري خلف الاسوار ۰

ثم ان وانغ لانغ هتف فجأة :

ـ « لو كنت أملك الذهب والفضة والجواهر اذن لاشتريت بها أرضا ، أرضا طيبة ، واذن لاطلعت من الارض محاصيل وافرة ! »

عندئذ اجتمعوا كلهم عليه وشرعوا يسخرون منه :

ـ « هو ذا فلاح ذو ضفيرة ، فلاح ساذج لا يفهم شيئا من حياة المدن ومما يستطيع المرء أن يفعله بالمال ۰ انه سوف يواصل العمل مثل عبد رقيق وراء ثور أو حمار ! »

واستشعر كل منهم انه احق من وانغ لانغ بامتلاك تلك الثروة لانهم عرفوا كيف ينفقونها على نحو أفضل ۰

ولكن هذه السخرية لم تحمل وانغ لانغ على تغيير رأيه ۰ لقد حملته على مجرد القول في ما بينه وبين نفسه بدلا من القول في صوت جهير يستطيع الاخرون سماعه :

ـ « مهما يكن من أمر ، فانني اشتري بالذهب والفضة والجواهر أراضي خصبة طيبة ۰ »

وأورثه تفكيره هذا شوقا متزايدا كل يوم الى الارض التي كان يملكها فعلا ۰

واذ استحوذ على وانغ لانغ هذا التفكير بأرضه استحواذا موصولا فقد رأى ، وكأنه في حلم ، الى الاحداث التي جرت من حوله ـ كل يوم ـ في المدينة ۰ لقد ارتضى هذه الغرابة وتلك من غير أن يسأل كيف ولم ، مكتفيا بأن يعرف أن شيئا بعينه قد حدث ذلك اليوم ۰ كان ثمة ، مثلا ، هذه

الاوراق التي يوزعها الرجال ههنا وههنا ، والتي يقدمونها اليه هو نفسه في بعض الاحيان ٠

ذلك بأن وانغ لانغ لم يقدر له أن يتعلم في صباه أو في أيما وقت آخر معنى الحروف المرسومة على الورق ، ومن أجل ذلك لم يستطع أن يفهم شيئا من هذا الضرب من الورق المغطى بعلامات سود والملصق على أبواب المدينة أو على الجدران أو المبيع حفنات حفنات ، أو الموزع مجانا أيضا ٠ ولقد أعطي هو مثل هذه الاوراق مرتين اثنتين ٠

وفي المرة الاولى أعطاه الورقة رجل أجنبي مثل ذلك الذي جره من غير أن يدري في ركشته ، ذات يوم ، ولكن هذا الرجل الذي أعطاه الورقة كان فارع الطول مهزولا مثل شجرة جردتها من أوراقها رياح عاتية ٠ وكان ذلك الرجل ذا عينين زرقاوين كالجليد ووجه كثيف الشعر ، وحين قدم الورقة الى وانغ لانغ لاحظ ان يديه أيضا كانتا كثيفتي الشعر حمراوي البشرة ٠ والى هذا ، فقد كان ذا أنف ضخم ناتىء بين خديه مثل الحيزوم بين جانبي سفينة ، ولقد خشي وانغ لانغ ان يتناول أي شيء من يده ، ولكنه وقد رأى الى عيني الرجل الغريبتين والى أنفه الرهيب خشي ان يرفض أخذ الورقة أيضا ٠ وكان فزعه من الرفض أعظم من فزعه من الاخذ٠وهكذا أخذ ما وضع في يده ، وعندما وجد في نفسه من الشجاعة ما مكنه ،بعد ذهاب الرجل الاجنبي ، من أن يلقي عليها نظرة رأى على الورقة صورة رجل أبيض البشرة معلقا على صليب من خشب ٠ وكان هذا الرجل عاريا الا من قصاصة من قماش حول خصره ، وكانت القرائن كلها تؤذن بأنه ميت ، فقد كان رأسه متدليا على كتفه وكانت عيناه مغمضتين فوق شفتيه الملتحيتين ٠ ونظر وانغ لانغ الى صورة الرجل في ذعر وفي شوق متعاظم ٠ كانت تحت الصورة أحرف ، ولكنه لم يستطع أن يفهم من هذه شيئا ٠

وحمل الصورة الى بيته ليلا ، وأطلع الرجل العجوز عليها ٠ ولكنه كان هو الاخر لا يعرف القراءة ، فراحوا جميعا يقلبون الرأي في معناها المحتمل ، وانغ لانغ والرجل العجوز والصبيان الصغيران ٠ وصاح الصبيان في ابتهاج وذعر :

ـ « وانظروا الى الدم المتدفق من جانبه ! »

وقال الرجل العجوز :

ـ « ينبغي أن يكون هذا الرجل شريرا جدا حتى يشنق على هذه الشاكلة ٠ »

ولكن الصورة أوقعت الرعب في نفس وانغ لانغ ، وانشأ يتساءل لماذا

قدمها اليه رجل أجنبي ؟ هل كان لهذا الرجل أخ عومل هذه المعاملة فهو يعتزم الاثثار له ؟ من أجل ذلك اجتنب وانغ لانغ المرور في الشارع الذي لقي فيه ذلك الرجل· وبعد بضعة أيام ، عندما نسيت الورقة ، أخذتها أو - لان وخاطتها متخذة منها عقب حذاء بعد أن أضافت اليها قصاصات أخرى من ورق كانت قد جمعتها من ههنا وهنهناك لتقوية أعقاب الاحذية وتدعيمها ·

أما في المرة الثانية فقد أعطاه الورقة امرؤ من أبناء المدينة ، شاب حسن البزة كان يتحدث بصوت جهير فيما هو يوزع بعض الاوراق ههنا وههناك على الجموع التي تحتشد حول أيما شيء جديد وغريب في شارع من الشوارع · وكانت هذه الورقة تحمل صورة ترشح بالدم والموت أيضا ، ولكن الرجل الذي مات هذه المرة لم يكن أبيض البشرة كثيف الشعر ، ولكن رجلا مثل وانغ لانغ نفسه ، رجلا عاديا أصفر مهزولا ، أسود الشعر والعينين ، يرتدي أسمالا زرقاء بالية · وفوق صورة الميت وقف رجل ضخم بدين وطعنه عدة طعنات بمدية طويلة كانت في يده · كان مشهدا يدعو الى الرثاء ، ولقد حدق وانغ لانغ اليه وتمنى لو يستطيع ان يفهم شيئا من الحروف المرسومة تحته · ثم انه التفت الى رجل كان واقفا قربه وقال :

- « هل تعرف حرفا أو حرفين تستطيع بواستطهما أن تنبئني بمعنى هذا الشيء الرهيب ؟ »

فأجابه الرجل :

- « الزم الهدوء وأصغ الى المعلم الشاب · انه يفسر لنا كل شيء »

وهكذا أصغى وانغ لانغ ، وكان الذي سمعه شيئا لم يطرق أذنيه في أيما يوم من أيام حياته ·

لقد أعلن المعلم الشاب :

- « ان الرجل الميت هو أنتم أنفسكم · والقاتل الذي يطعنكم بمديته حين تموتون ، ومن غير أن تعرفوا ذلك ، هم الاغنياء والرأسماليون الذين لا يتورعون عن طعنكم بالمدى حتى بعد وفاتكم · واذا كنتم فقراء مدوسين بالاقدام فما ذلك الا لان الاغنياء يستولون على كل شيء · »

حسنا ، لقد كان وانغ لانغ يعلم علم اليقين أنه فقير معدم ، ولكنه كان حتى تلك الساعة يلقي وزر ذلك على سماء أبت أن تمطر في ابان المطر، أو على سماء ما تكادتمطر حتى تأبى الاقلاع عن ارسال المطر وكان ارسال المطر عادة خبيثة · أما حين كانت السماء تجود عليه بالمطر وبأشعة الشمس

بمقادير صحيحة تمكن البذور من أن تطلع رأسها من الارض وتمكن سوق* القمح من حمل الحب فلم يكن يعتبر نفسه فقيرا ٠ من أجل ذلك أصغى في انتباه بالغ ليزداد علما بعلاقة الاغنياء بهذه المسألة : انحباس المطر في موسم المطر ٠ وأخيرا ، عندما تحدث الشاب في اسراف بالغ ولكن من غير أن يقول شيئا عن هذه المسألة التي استأثرت باهتمام وانغ لانغ تجاسر وانغ لانغ على طرح هذا السؤال :

ـ « سيدي ، هل ثمة طريقة تمكن الاغنياء الذين يضطهدوننا من انزال الغيث من السماء بحيث يصبح في امكاني أن أعود لحراثة الارض ؟»

عندئذ التفت اليه الشاب في ازدراء وقال :

ـ « ما أعظم جهلك ، أنت يا من لا يزال يضفر من شعره ذنبا طويلا! ليس في ميسور أحد أن ينزل الغيث حين ينحبس الغيث ، ولكن أي شأن لهذا بنا ؟ لو شاركنا الاغنياء ما يملكون ، فعندئذ لا نبالي أمطرت أم لم تمطر ، لانه سوف يكون لدينا جميعا ، في مثل هذه الحال ، مال وطعام ٠ »

وانطلقت من صفوف المستمعين صيحة عالية ، ولكن وانغ لانغ أعرض بجانبه غير مقتنع ٠ أجل ، ولكن أرضه كانت تنتظره ٠ ان المال والطعام ليتبددان كأن لم يكونا ، واذا لم ترسل السماء أمطارها وأشعتها الشمسية بمقادير صحيحة تحدث المجاعة كرة ثانية ٠ ورغم هذا كله أخذ ، راضيا ، تلك الاوراق التي أعطاهاياها الخطيب الشاب لانه تذكر أن أو ـ لان لم يكن لديها ورق كاف لاعقاب الاحذية ، وهكذا دفع تلك الاوراق اليها عندما انقلب الى بيته ،قائلا :

ـ « دونك ما تصنعين به أعقابا للاحذية ! »

وراح يعمل على مألوف عادته ٠

ولكن كثيرا من رجال الاكواخ الذين تحدث اليهم عند المساء كانوا قد سمعوا في كثير من اللهفة ما قاله الخطيب الشاب ، وكان مما زاد لهفتهم ضراما علمهم ان رجلا غنيا كان يسكن في الجانب الاخر من السور ، وأن ما يحول بينهم وبين الوصول الى ثرواته الطائلة لم يكن غير هذه الطبقة من الاجر ـ ولقد بدت في أعينهم شيئا هزيلا جدا يمكن أن يدك ببضع ضربات من عمود ضخم كهذا الذي يستعينون به كل يوم في نقل الاحمال الثقيلة على مناكبهم ٠

والى استياء الربيع انضاف الان هذا الاستياء الجديد الذي غرسه ذلك الشاب وأمثاله في نفوس سكان الاكواخ ، ذلك الشعور بأن الاخرين

* جمع ساق ٠

يملكون على نحو غير عادل تلك الاشياء التي حرموا هم منها · واذ فكروا يوما بعد يوم في هذه الاشياء كلها وتحدثوا عنها في الغسق ، واذ لم يحمل اليهم عملهم ـ وهذا أعظم شأنا وخطرا ـ أيما أجر اضافي برغم تعاقب الايام وكرورها فقد تولد في قلوب الشبان وذوي البنية القوية مد لا يقاوم مثل مد النهر الذي ضخمته ثلوج الشتاء ـ مد الرغبة الضارية الطامي ·

ولكن وانغ لانغ، الذي رأى ذلك كله وسمع حديث القوم واستشعر غضبهم في ضيق غريب ، لم يرغب في أيما شيء غير العودة الى أرضه والسير على ثراها من جديد ·

★ ★ ★

ثم ان وانغ لانغ رأى شيئا اخر جديدا لم يفهمه في هذه المدينة التي كانت لا تفتأ تفاجئه كل يوم بشيء جديد · كان يجر ركشته الفارغة هابطا بها الشارع ، ذات يوم، بحثا عن زبون ، عندما وقع بصره على رجل أمسكت به جماعة من الجنود المسلحين ، حتى اذا احتج الرجل شهر الجنود المدى في وجهه · وفيما كان وانغ لانغ يشهد ذلك في ذهول ألقي القبض على ثان ثم على ثالث، وبدا ان هؤلاء الذين اعتقلوا كانوا كلهم رجالا من العامة التي تشتغل بأيديها · وبينا استرسل وانغ لانغ في التأمل والتحديق ألقي القبض على رجل اخر أيضا ، وكان هذا الرجل يقطن في أقرب الاكواخ الى كوخه المتكيء على السور ·

ثم ان وانغ لانغ ادرك فجأة ، وقد أفاق من ذهوله ، أن جميع هؤلاء الرجال الذين ألقي القبض عليهم كانوا لا يعرفون أكثر مما يعرف هو لماذا يساقون على هذا النحو الاعتباطي ، شاءوا أم أبوا · فاندفع بركشته الى زقاق جانبي حيث تركهم وانطلق كالسهم الى بائع من باعة الماء الساخن، خشية أن يلقي الجند القبض عليه ، هو أيضا ، واختبأ هناك ، جاثما خلف الخلاقين الضخمة ، الى ما بعد انصراف الجند · وعندئذ سأل صاحب الدكان عن معنى هذا الذي رآه · فأجابه الرجل في لا مبالاة ، وكان عجوزا أذبله البخار المتصاعد حوله من خلاقين صناعته النحاسية :

ـ « انها مجرد حرب أخرى نشبت في مكان ما · ومن ذا الذي يدري علام هذا القتال كله عن يمين وعن شمال ؟ ولكن الحال كانت هكذا دائما منذ صباي الاول وستبقى هكذا بعد مماتي · هذا شيء أعرفه جيدا · »

فتساءل وانغ لانغ في اضطراب بالغ :

ـ « حسن ، ولكن لماذا يلقون القبض على جاري ، وهو لا يقل براءة عني ، أنا الذي لم أسمع قط بهذه الحرب الجديدة ؟ »

فصفق العجوز أغطية خلاقينه ، وأجاب :

ـ « هؤلاء الجنود ذاهبون الى ميدان المعركة في مكان ما ، وهم محتاجون الى من يحمل لهم فرشهم وبنادقهم وذخائرهم الحربية ، وهكذا يكرهون أمثالك من العمال على القيام بذلك · ولكن من أي منطقة أنت؟ ان هذا ليس بالمشهد الجديد في هذه المدينة · »

فألح وانغ لانغ لاهثا :

ـ «ولكن ماذا بعد ؟ وبأي أجر ؟ بأي تعويض ؟ »

والواقع انالرجل العجوز كان طاعنا في السن الى حد بعيد ، ولم يكن يراوده كبير أمل في أيما شيء أو اهتمام بأي شيء غير خلاقينه · فأجابه في لامبالاة:

ـ « ليس ثمة أجر · انهم لا يعطونك غير كسرتين من خبز جاف في اليوم ، وغير رشفة من ماء البرك · وفي استطاعتك أن تنقلب الى بيتك بعد وصول الجند الى الجهة التي يقصدون ، اذا تمكنت رجلاك من حملك · »

فقال وانغ لانغ مشدوها :

ـ « حسنا ، وأسرة المرء ···؟ »

فقال العجوز في سخرية ، رافعا الغطاء الخشبي عن أقرب الخلاقين اليه لكي يرى هل بلغت المياه درجة الغليان أم لا :

ـ « حسن ، وهل يفكرون في شيء كهذا ؟ »

وغلفته سحابة من بخار ، فأمسى من العسير على المرء أن يرى الى وجهه وهو يحدق الى داخل الخلقين · ومع ذلك ، فقد كان لطيفا ، ذلك بأنه عندما انبثق من البخار كرة أخرى رأى ما لم يستطع وانغ لانغ أن يراه من مجثمه ، رأى الجنود يقتربون من جديد ، مفتشين الشوارع التي كان قد فر منها الان كل عامل قوي البنية ·

وقال لوانغ لانغ :

ـ « انحن أكثر · لقد عادوا · »

فجثم وانغ لانغ منكمشا أقصى ما استطاع الانكماش خلف الخلاقين · ومر الجنود متخذين سبيلهم نحو الغرب ، محدثين بأحذيتهم الجلدية ذات الرقاب ـ عند وطئهم حصباء الطريق ـ دويا غير يسير · حتى اذا تلاشى هذا الدوي غادر وانغ لانغ مجثمه منطلقا كالسهم ، وأمسك ذراعي ركشته بيديه ، وراح يعدو بها فارغة الى الكوخ ·

وكانت أو ـ لان قد رجعت اللحظة من جانب الطريق لتطهو قليلا من الاعشاب الخضراء التي وفقت الى جمعها ، فقص عليها ما حدث في كلمات

مهشمة لاهثة ، وكيف انه نجا من الاعتقال وما كاد · وفيما هو يتحدث استبد به ذعر جديد : لقد تخيل نفسه مسوقا الى ساحة القتال وقد خلف أباه العجوز وأسرته كلها للعوز والجوع · ليس هذا فحسب ، بل لقد تخيل نفسه وقد سفح دمه في ساحة من ساحات القتال ولم يعد في امكانه ان يكحل العين برؤية أرضه · فنظر الى أو ـ لان ببصر شارد ، وقال :

ـ « لقد أصبحت ميالا الان الى بيع الجارية الصغيرة والعودة شمالا الى الارض · »

أما هي فاستغرقت ، بعد سماعها ذلك الكلام ، في التفكير ، ثم قالت على طريقتها البسيطة الخالية من كل انفعال :

ـ « انتظر بضعة أيام · هناك شائعات غريبة · »

ومع ذلك ، فانه لم يعاود الخروج من الكوخ في وضح النهار بل أرسل ولده البكر ليعيد الركشة الى المكان الذي استأجرها منه · حتى اذا هبط الليل مضى الى البيوتات التجارية ، ولقاء نصف ما كان قد كسبه من قبل راح يجر طوال الليل عربات ضخمة مثقلة بالصناديق · كان يجر كلا من هذه العربات دزينة رجال لاهثين راشحين بالعرق · وكانت الصناديق ملأى بالمنسوجات الحريرية ، والاقمشة القطنية ، والتبغ الأرج الى درجة جعلت عبقه يرشح من خلال الخشب · وكانت ثمة أيضا جرار كبيرة من زيت ودنان ضخمة من خمر ·

لقد كدح طوال الليل مغالبا الحبال في الشوارع المظلمة · كان عاري الجسد يتصبب العرق منه سيولا ، وكانت قاماه الحافيتان تنزلقان على حصباء الطريق التي جعلتها رطوبة الليل دبقة ندية · ولكي يدلهم على الطريق ، كان يتقدم اولئك الرجال الجارين العربات صبي صغير يعدو حاملا بيده شعلة ، وعلى ضوء هذه الشعلة كانت وجوه الرجال وأجسادهم والحجارة الندية تلتمع على حد سواء · وانقلب وانغ لانغ الى كوخه قبيل الضحى ، لاهثا مكدودا لا شهوة له الى الطعام الا بعد أن ينال قسطا من نوم · أما في رابعة النهار ، عندما كان الجنود يجوسون خلال الشوارع ، فكان ينام آمنا في أقصى زاوية من الكوخ خلف ركام من قش كانت أو ـ لان قد جمعته ليتخذ منه ملاذا ·

أما أين نشبت المعارك ومن هم المتقاتلون فذلك ما لم يعرفه وانغ لانغ · ولكن ما ان استوى الربيع شبابا حتى ملئت المدينة باهتياج الذعر · فطوال ساعات النهار كانت عربات الخيل تنقل الاغنياء وممتلكات الاغنياء من ملابس وفرش ذات أغطية من الأطلس ونساء الاغنياء الحسان وجواهرهن الى ضفة

النهر حيث حملتهم المراكب الى مواطن اخرى ، في حين قصد آخرون الـى ذلك البيت الذي كان محطة للقطار الحديدي ينطلق منها ويفد عليها ٠ واخذ وانغ لانغ نفسه بعدم الخروج الى الشوارع في وضح النهار ، ولكن ولديـه انقلبا الى الكوخ وقد برقت عيونهما واتسعت ، وصاحا :

ـ « لقد رأينا فلانا وفلانا ، رجلا بدينا ضخما مثل اله في هيكل ، رجلا تكسو جسمه عدة أقدام من حرير أصفر ، في ابهامه خاتم ذهبي ذو حجـــر أخضر مثل قطعة من زجاج ، رجلا يلتمع جلده التماعا متوهجا بالزيـــت والغـــذاء ! »

وذات مرة صاح الصبي البكر :

ـ « لقد رأينا آلافا وآلافا من الصناديق وعندما سألت أي شيء كـان فيها قال لي أحدهم : « ان فيها ذهبا وفضة ، ولكن الاغنياء لا يستطيعون أن يذهبوا بكل ما يملكون ، ولسوف يصبح ذلك ملكا لنا في يوم من الايام ٠ » فما الذي عناه بقوله هذا ، يا أبي ؟ »

ونظر الغلام الى أبيه نظرات ترشح بالفضول ، حتى اذا أجابه وانغ لانغ في اقتضـــاب :

ـ « ومن أين أعرف ما الذي يعنيه مدني متعطل ؟ »

هتف الغلام في كآبة :

ـ « آه ، لشد ما أتمنى لو أذهب في هذه اللحظة بالذات وآخذهـــا اذا كانت لنا ٠ اني تواق الى أن أذوق قرصا من الحلوى ٠ أنا لم أذق قط مـــن قبل قرص حلوى نشرت على سطحه حبات السمسم ٠ »

عند هذه الكلمات استفاق العجوز من أحلام يقظته ، ورفع بصره وقال كمن يدمدم بينه وبين نفسه :

ـ « عندما كانت المواسم طيبة كنا ننعم بمثل هذه الحلوى في مأدبـة الخريف ، بعد أن يدرس السمسم ٠ ذلك اننا كنا نختفظ قبل بيعه بقليل منـه لأعداد الحلوى ٠ »

وتذكر وانغ لانغ الحلوى التي صنعتها أو ـ لان مرة في عيـــد رأس السنة ، حلوى دقيق الأرز ودهن الخنزير والسكر ، فسال لعابه ، واستشعر في فؤاده حرقة على ما فات ٠

وغمغـــم :

ـ « ليت الزمان يمن علينا بالعودة الى ارضنا ٠ انا لا أطمع في أكثـر مـــن ذلـك ٠ »

ثم بدا له فجاة انه لن يستطيع البقاء يوما اضافيا في هـــذا الكـــوخ

الحقير ، الذي كان أضيق من أن يسمح له بمجرد الاضطجاع على طوله خلف ركام القش وانه لن يستطيع ان يسلخ ليلة كادحة أخرى ملوي الجسد على حبل يحتز لحمه فيما هو يجر حملا ثقيلا فوق حصباء الطريق · لقد أصبح الان يعرف كل حصاة منها وكأنها عدو شخصي ، وأصبح يعرف كل أثر من آثار دواليب العربات يمكنه من اجتناب حجر من الاحجار أو توفير درهم من قوته · لقد أتت عليه ساعات في الليالي البهيمة تفجر فيها حقد قلبه كُلـه ـ وبخاصة عندما كانت الامطار تجعل الشوارع ندية أكثر مما ينبغي ـ ضـد هذه الحجارة التي تحت قدميه ، هذه الحجارة التي بدت وكأنها تتشبث وتتعلق بدواليب حمله غير الانساني ·

ـ « آه ، يا لارضنا الحلوة ! » كذلك صاح فجأة ، وانخرط في بكـاء مرير أوقع الذعر في نفوس أولاده ، وحمل الرجل العجوز على التطلع الـى ابنه في ذهول ، وعلى تصعير وجهه ذي اللحية الخفيفة نحو اليمين حينا ونحو الشمال حينا ، كما يصعر طفل وجهه حين يرى أمه منخرطة في البكاء ·

وكرة ثانية قالت أو ـ لان في صوتها العادي الواضح :

ـ « انتظر لحظة وعندئذ نرى شيئا ، ان الناس يلغطون الان في كـل مكـــان · »

*

ومن زاوية كوخه التي اختبأ فيها سمع وانغ لانغ ، ساعة بعد ساعة ، وطأ أقدام ، وطأ أقدام الجنود الزاحفين الى المعركة · وذات مرة رفـع الحصير القائم بينهم وبينه رفعا ضئيلا جدا ، واختلس النظر من الشق فرأى هذه الاقدام تمر وتمر ، أحذية جلدية ذات أعناق وعصائب قماشية ، زاحفة احداها خلف الاخرى ، زوجا زوجا ، وعشرين عشرين ، وآلافا أثر آلاف · وفي موهن من الليل ، حين كان رازحا تحت حمله ، رأى وجوههم تترجرج وهي تمر به ، بعد أن انتزعتها من الظلام لحظة تلك الشعلة التي كـانت تتقـدم الصفوف · ولم يجرؤ على طرح أيما سؤال متصل بهم ، ولكنه جر حملـه في ضراوة ، والتهم طاسة أرزه ، ونام خلال ساعات النهار ، في كوخه ، نومـا متقطعا خلف القش · ان أحدا ما كان يتكلم ، في تلك الايام ، مع أي امـرىء آخر · فقد كان الرعب يعصف بالمدينة ، وكان كل امرىء يتعجل انجاز مـا تعين عليه اداؤه من عمل وينقلب الى بيته ويوصد الباب دونه ·

لم يعد سكان الاكواخ يتجاذبون أطراف الاحاديث ، في الغسق ، علـى مقربة دانية من أكواخهم · وفي الاسواق كانت الفرش التي اعتادت أن تغص بصنوف الاغذية قد أمست الان فارغة · ونزع تجار المنسوجات الحريريـة

راياتهم المشرقة ، وأوصدوا الاجزاء الامامية من دكاكينهم الكبيرة بألواح خشبية غليظة متداخل بعضها في بعضها الاخر تداخلا قويا ، حتى لكان يخيل لمن يجوس خلال المدينة عند الظهيرة ان القوم كلهم قد إستسلموا للرقاد ·

لقد تهامس الناس في كل مكان بأن العدو قد اقترب ، فدب الذعر في نفوس جميع أولئك الذين يملكون شيئا ما · ولكن وانغ لانغ لم يخف ، وكذلك سكان الاكواخ فانهم لم يخافوا أيضا · فهم من ناحية ما كانوا يعرفون من هو هذا العدو ، وهم من ناحية لم يكن لديهم ما يخسرونه ، اذ كانت حياتهم نفسها لا تساوي شيئا كثيرا · فليقترب العدو ما شاء له الاقتراب ، فليس في الامكان أسوأ مما كان · ولكن كل امرىء كان يمضي لسبيله لا يلوي على شيء ، وما كان أحد ليتكلم مع الاخر على ملأ من الناس ·

ثم ان مديري المحلات التجارية أنبأوا العمال الذين كانوا يجرون الصناديق من ضفة النهر واليها بان يوفروا على انفسهم عناء المجيء ، اذ لم يكن يفد على تلك المحلات ، في تلك الايام ، أحد من الراغبين في شراء أو بيع ، وهكذا لبث وانغ لانغ في كوخه عاطلا عن العمل ، ليل نهار · وسره ذلك بادىء الامر اذ بدا له أن جسده مرهق الى درجة يحتاج معها الى قدر لا نهائي من الراحة ، فاستسلم لنوم عميق مثل رجل أسلم الروح · ولكن اذا كان وانغ لانغ لم يشتغل ويكدح فانه كذلك لم يكسب أيما مال ، وما هي الا أيام معدودات حتى نفد آخر بنس كانوا قد ادخروه ، فاذا به يضطر كرة اخرى الى التفكير ، بيأس ، في ما يستطيع أن يفعله للخروج من هذا المأزق · وزاد الطين بلة أن المطابخ الشعبية أغلقت أبوابها أيضا ، بعد أن انزوى اولئك الذين كانوا يسعفون الفقراء على هذه الشاكلة في بيوتهم الخاصة وأوصدوا الابواب على أنفسهم ، ولم يبق بعد لا طعام ولا عمل ، وخلت الشوارع من أيما عابر سبيل يستطيع المرء أن يستندي كفه ·

عندئذ حمل وانغ لانغ بنيته الصغيرة بين ذراعيه ، وجلس معها في الكوخ ، وانشأ يتأملها · ثم قال في رفق :

ـ « أيتها البلهاء الصغيرة ، هل تحبين أن تذهبي الى أحد البيوت الكبيرة حيث يوجد طعام وشراب ، وحيث تستطيعين أن تنعمي بثوب كامل يغطي جسمك ؟ »

فابتسمت البنية ، غير فاهمة شيئا مما قال ، ورفعت يدها الصغيرة لتمس ـ في دهش ـ عينيه المحدقتين اليها · وغلب عليه التأثر ، فنادى المرأة قائلا :

ـ « قولي لي ، هل كانوا يضربونك في ذلك البيت الكبير ؟ »

فأجابته في جرس بليد كئيب :
ـ « كانوا يضربونني كل يوم · »
فصاح من جديـد :
ـ « ولكن هل كان ذلك بزنار من قماش ليس غير أم كان ذلك بخيزرانة أو حبـــل ؟ »
فأجابته بالطريقة الميتة نفسها :
ـ « لقد ضربت بسير جلدي كان من قبل رسنا لاحد البغال · وكـان ذلك السير يعلق على جدار المطبخ · »
حسنا ، لقد عرف أنها فهمت مـــا كان يجول في خاطره ، ولكنـه فـــزع الى أمله الاخير وقال :
ـ « ان بنيتنا هذه فتاة صغيرة جميلة ، ان جمالها ليلفت النظر منـذ الان ، قولي لي ، هل كانت الجواري الجميلات يضربن أيضا ؟ » ·
فأجابته في لا مبالاة ، وكأن الامر لا يعنيها :
ـ « أجل ، كن يضربن أو يحملن الى فراش رجل ، تبعا للنزوة الغالبة · بل كن يحملن الى فرش جميع الرجال الذين يرغبون في مضاجعتهن تلـــك الليلة وكان السادة الصغار يختصمون حول هذه الجارية أو تلك ويقولون : « اذا كانت من نصيبك هذه الليلة فعندئذ تكون من نصيبي غدا · » حتى اذا ملوا جميعا جارية معينة اختصم الخدم على ما أهمله السادة الصغار ، وكل هذا قبل أن تشب الجارية عن الطوق ··· اذا كانت مليحة الوجه · »
ثم ان وانغ لانغ تنهد ، وضم البنية الى صدره ، وقال لها ، في رفق ، مرة بعد مــرة :
ـ « أوه ، أيتها البلهاء الصغيرة ···· أوه ، أيتها البلهاء الصغيرة المسكينـــة ! »
أما في ما بينه وبين نفسه فكأن يصيح كما يصيح المرء الذي اهمـــه طوفان غامر فليس لديه متسع للتفكير :
ـ « ليس ثمة طريقة أخرى ··· ليس ثمة طريقة أخرى ··· »
وفيما كان جالسا هناك انفجر دوي مفاجيء أشبه ما يكون بتفطر السماء وخروا كلهم ـ على نحو تلقائي ـ على الارض وحجبوا وجوههم ، اذ بـدا لهم وكأن الهدير الرهيب يوشك ان يتخطفهم جميعا ويسحقهم جميعا · وغطى وانغ لانغ وجه البنية بيده ، غير عالم عن أي مشهد راعب سوف يتكشف هذا الدوي المهول ، وصاح الرجل العجوز في أذن وانغ لانغ :
ـ « أنا لم أسمع شيئا مثل هذا طوال عمري ! »

وصرخ الصبيان فرقا وذعرا ٠

ولكن السكينة ما لَبثت أن رانت بمثل الفجاءة التي تبددت بها ، وعندئذ رفعت أو ـ لان رأسها وقالت :

ـ « ذلك من غير شك هو الخطر الذي سمعتهم يتحدثون عنه : لقد تحقق الان ٠ ان العدو قد اقتحم أبواب المدينة ٠ »

وقبل أن يوفق أي منهم الى اجابتها انطلقت في ارجاء المدينة صيحة ، أصوات بشرية متعاظمة ، كانت خافتة بادىء الامر ، شأن العاصفة تقترب من بعيد ، ثم تركزت في زعقة عميقة راحت ترتفع وترتفع فيما كانت تملأ الشوارع ٠

عندئذ قعد وانغ لانغ على أرضية كوخه منتصب الجذع ، وتمشى في أوصاله خوف غريب استشعر أثره المزلزل حتى في جذور شعره ، وقعد كل امرىء منتصب الجذع وحدق بعضهم الى بعض مترقبين شيئا لم يكونوا يعرفونه ٠ ولكنهم ما سمعوا غير ضجة اجتماع الناس وزعيقهم على نحو اجماعي ٠

ثم انهم سمعوا ، من وراء السور ، غير بعيد عنهم ، صرير باب ضخم يئز على مفصلاته ويئن فيما كان يفتح على كره ٠ وفجأة أقحم الرجل الذي كان قد تحدث مرة عند الغسق الى وانغ لانغ ودخن بيبة خيزرانية قصيرة٠٠٠ أقحم رأسه في مدخل الكوخ وصاح :

ـ « ألا تزالون قابعين هنا ؟ لقد جاءت الساعة ٠٠٠ وفتحت أبواب الرجل الغني في وجهنا ! »

وبمثل سحر من ضرب ما توارت أو ـ لان عن الانظار متسللة تحت ذراع الرجل فيما كان يتحدث ٠

عندئذ نهض وانغ لانغ ، بطيئا بطيئا نصف مترنح ، ووضع البنية على الأرض وخرج ٠ وهناك ، أمام الباب الحديدي الكبير المؤدي الى بيت الرجل الغني كانت جمهرة من العامة تتدافع في صخب محاولة اقتحامه ، مطلقة تلك الصيحة العميقة النمرية التي كان قد سمعها ترتفع وتطمي في الشوارع ، وعرف أن أبواب الاغنياء كلهم تعرضت لهجوم مماثل من جمهرة زاعقة من رجال ونساء كانوا قد جوعوا وسجنوا ثم وجدوا أنفسهم ـ مؤقتا ـ احرارا قادرين على أن يفعلوا ما يشاؤون ٠ وفتحت الابواب نصف فتحة وتدافع القوم ابتغاء اقتحام المنازل متراصين كالبنيان حتى لقد كانت القدم تطأ القدم والجسد يلتصق بالجسد ، وحتى لكان أفراد هذه الكتلة البشرية يتقدمون وكأنهم شخص واحد ٠ واندفعت من وراء هذه الجمهرة طائفة مسرعة

جرفت معها وانغ لانغ على نحو أمسى معه نقطة في بحرها فهو مضطر الى الاندفاع الى الامام ، مع المندفعين ، شاء أم أبى ، برغم انه هو نفسه لم يعرف ماذا يريد لانه كان شديد الانشداه بما قد حدث ٠

وهكذا حمل الى ما وراء عتبة الباب الكبير ، وقدماه لا تكادان تمسان الارض بسبب من ضغط المتدافعين ٠ ومن كل جهة انطلقت من الحشود الزاعقة صيحة أشبه بزئير موصول ترسله وحوش مغضبة ٠

لقد حمله التيار من رواق الى رواق حتى انتهى الى الاروقة الداخلية نفسها ، ولكنه لم ير أحدا من أولئك الرجال والنساء الذين كانوا يحيون في ذلك البيت ٠ لكأنما كان القوم قد اقتحموا قصرا مات منذ عهد بعيد ، لولا هذه الزنابق المبكرة التي نورت بين صخور الحديقة ، والزهرات الذهبية التي ازدانت بها اغصان شجيرات الربيع الاولى العارية ٠ أما في الغرف فكانت أطباق الطعام موضوعة على المائدة ، وفي المطابخ كانت النار مضرمة ٠ لقد عرفت هذه الحشود أروقة الاغنياء معرفة جيدة ، ذلك بأنها تخطت الاروقة الامامية حيث عاش الخدم والجواري وحيث تقوم المطابخ ، وتقدموا الى الاروقة الداخلية حيث الفرش الانيقة التي يضطجع عليها سادة القصر وسيداته ، وحيث صناديقهم المدهونة بالاسود والاحمر والذهبي ، وصناديقهم الزاخرة بالملابس الحريرية ، وحيث الموائد والكراسي المنقوشة ، وحيث اللوحات الكتابية المزخرفة معلقة على الجدران ٠ وعلى هذه الكنوز انقضت الحشود فنهبت مضامين كل صندوق وكل خزانة من الصناديق والخزائن التي فتحت منذ لحظات وراح بعضهم ينتزع ما في أيدي بعضهم الاخر ، حتى لقد انتقلت الثياب والفرش وأدواتها والسجف والصحون من يد الى يد ، بعد أن حاولت كل يد أن تخطف ما في الاخرى ، من غير أن يجد ايما امرىء متسعا من الوقت للنظر الى ما اخذ ٠

وكان وانغ لانغ هو وحده الذي لم يأخذ شيئا في خضم تلك الفوضى العارمة ٠ انه لم يستول في أيما يوم من أيام حياته على ما هو ملك للاخرين ، وما كان في ميسوره ان يفعل ذلك فجأة ٠ وهكذا وقف في وسط الحشد ، اولا ، يدفعه القوم ذات اليمين وذات الشمال ، حتى اذا ثاب اليه رشده بعض الشيء شق طريقه في عناد خلال الزحام ، فالفى نفسه اخر الامر على هامش الحشد ، وهناك وقف يجرفه المتدافعون جرفا طفيفا مثل الدوامات الصغيرة عند حافة دردور من الدرادير ٠ ومع ذلك فقد كان قادرا على أن يعرف أين تقف قدماه ٠

كان قد انتهى الى مؤخرة الرواق الداخلي الاقصى حيث تحيا زوجات الاثرياء ، وكان الباب الخلفي نصف مفتوح ، ذلك الباب الذي ادخره الاغنياء ،

طوال قرون عديدة ، للنجاة بأنفسهم في مثل هذه المناسبات ومن أجل ذلك دعوه باب الامن ·وليس من ريب في انهم فروا كلهم ، ذلك اليوم ، من خلال هذا الباب ، واختبأوا ههنا وههناك في الشوارع المجاورة ، حيث راحوا يستمعون الى الصراخ المنبعث من أروقتهم · ولكن رجلا واحدا ليس غير لم يوفق الى الفرار ، سواء بسبب من بدانته أم بسبب من استغراقه في نوم ثقيل· أمام هذا الحشد بالذات وجد وانغ لانغ نفسه ، فجأة ، في حجرة داخلية فارغة كان الرعاع قد اقتحموها ثم غادروها حتى لقد أمسى في ميسور الرجل الذي اختبأ في مكان سري ولم يعثر عليه أن يدب من مخبأه ابتغاء النجاة بنفسه · وهكذا عثر به وانغ لانغ فيما كان ينأى بنفسه عن الاخرين ويخيل اليه أنه أمسى هو الاخر وحيدا ·

كان رجلا ضخما بدينا ، ليس بالشيخ ولا بالشاب ، وكان مضطجعا عاري الجسم في سريره ، مع امرأة حسناء من غير ريب ، ذلك بأن جسده العاري تبدى من خلال رداء من الاطلس الارجواني كان يتدثر به · لقد تثنت كتل اللحم الضخمة الصفراء فوق صدره وفوق بطنه ، وفي جبال خديه كانت عيناه صغيرتين غائرتين مثل عيني خنزير · وحين وقعت عيناه على وانغ لانغ ارتعدت أوصاله كلها ، وزعق وكأنما طعن لحمه بمدية ، حتى لقد دهش وانغ لانغ ــ وهو الاعزل ــ أعظم الدهش ولم يتمالك نفسه عن الضحك لهذا المشهد · ولكن الرجل البدين ركع على أرض الغرفة وراح يقرع آجرها برأسه ويصيح :

ــ « رحماك ! رحماك ! لا تقتلني ! سوف أعطيك مالا ··· مالا كثيرا ···· »

كانت هذه الكلمة ــ « المال » ــ هي التي أوقعت في ذهن وانغ لانغ ــ فجأة ــ وضوحا ثاقبا · المال ! آه ، ولقد كان في أمس الحاجة اليه ! وخطرت له هذه الخاطرة ، على نحو واضح وكأن صوتا كان ينطق بها : « المال ···· لقد أنقذت البنية ··· الارض ! »

وهتف فجأة في صوت جاف لم يعرف هو نفسه أنه كان في صدره :

ــ « أعطني المال اذن ! »

ونهض الرجل البدين ، متنهدا مدمدما ، واقحم يديه الصفراوين في جيوب ردائه ثم أخرجهما فائضتين بالفضة ، وبسط وانغ لانغ فضل سترته وتلقى المال منه · ثم انه صاح كرة أخرى بمثل ذلك الصوت الغريب الذي كان اشبه شيء بصوت رجل آخر :

ــ « أعطني اكثر ! »

ومن جديد خرجت يدا الرجل من جيوبه فائضتين بالفضة ، وقـــال متحســرا :

ــ « لم يبق لدي غيرها · لم يبق لدي غير روحي البائسة ! »

وانشأ يبكي ، فتدحرجت عبراته كالزيت على خديه المتهدلين ·

وفجأة مقته وانغ لانغ ــ وقد رأى اليه يرتعد ويبكي ــ كما لم يمقـــت أيما شيء في حياته قط ، وصاح فيما كانت موجة المقت هذه تجتاحه :

ــ « اغرب عن وجهي ، والا قتلتك مثل دودة بدينة ! »

كذلك زعق وانغ لانغ ، على الرغم من أنه كان رجلا رقيق القلب الى حد جعله لا يقوى على ذبح ثور · ففر الرجل من أمامه مثل كلب ، وتوارى عــن النظـــــر ·

وهكذا الفى وانغ لانغ نفسه وحيداً مع القطع الفضية · ولكنه لم يضع أيما وقت في عدها ، لقد اقحمها في صدره ، واتخذ سبيله ، عبر « باب الامن » المشرع ، الى الازقة الخلفية ، ومن ثم الى كوخه · وضغط الى صدره تلك القطع الفضية التي كانت لا تزال دافئة من جسد الرجل الاخر ، وقال مخاطبا نفسه مرة ومرة :

ــ « سنعود الى الارض ···· غدا سنعود الى الارض ! »

١٥

ولم تكد تنقضي أيام معدودات حتى بدا لوانغ لانغ أنه لم يبتعد عــن ارضه قط شانه في ذلك كشأن قلبه الذي لم يبتعد ، في الواقع ، عنها البتــة · وبست قطع من الفضة اشترى شيئا من بذار الجنوب الجيد ، بذور قمــح وأرز وذرة ممتلئة · وبتبذير عظيم للمال اشترى ضروبا من البذار لم ينثر في أرضه مثلها قط ، وكرفسا ولوتسا لبركته ، وفجلا احمر كبيرا يطبخ مع لحــم الخنزير في المواسم والاعياد ومع قليل من اللوبياء الارجة الحمراء ·

وبعشر قطع فضية اشترى ثورا من فلاح كان يحرث حقله ، وقد عقــد هذه الصفقة حتى قبل أن يصل الى أرضه · لقد رأى الرجل يحرث الحقــل ، فوقف ، ووقفوا كلهم ، الرجل العجوز والاطفال والمرأة ، برغم شوقهم العارم الى المنزل والارض ، وراحوا يتأملون الثور · كان وانغ لانغ قد أعجب أعظم اعجاب برقبته القوية الضخمة ولاحظ في الحال ذلك البأس الشديد الذي كانت

كتفاه تجران به المحراث تحت النير الخشبي • وصاح :

ـ « هذا ثور لا غناء فيه • بكم قطعة من الفضة تبيعني اياه ، على أن يكون مفهوما اني لا أملك بهيمة ما ، واني مضطر لان أقنع بأي شيء ؟ »

فأجابه الفلاح :

ـ « أنا أفضل أن أبيع زوجتي على بيع هذا الثور الذي لا يزيد عمره على ثلاث سنوات والذي لا يزال في ريعان الشباب • »

وواصل حرثه رافضا ان يكف عن العمل لمساومة وانغ لانغ •

ثم بدا لوانغ لانغ وكأنما يتعين عليه أن يمتلك ، من بين ثيران العالم كلها ، هذا الثور بالذات ، فقال لاو ـ لان ولابيه :

ـ « ما رأيكما فيه كثور ؟ »

فحدق العجوز الى الثور وقال :

ـ « يبدو أنه حيوان مخصي خصيا جيدا • »

وقالت أو ـ لان :

ـ « انه أكبر مما يقول بسنة واحدة • »

ولكن وانغ لانغ لم يجب بشيء اذ كان قلبه قد اصطفى هذا الثور ، بسبب من كتفيه القويتين وشعره الاصفر الناعم وعينيه الكبيرتين السوداوين • ان في ميسوره ، بمثل هذا الثور ، أن يحرث حقوله ، وان في ميسوره ـ اذا ما شد هذا الثور الى مطحنته ـ أن يطحن القمح • فمضى الى الفلاح وقال :

ـ « سوف أعطيك ما يكفيك لشراء ثور آخر وزيادة ، ولكني أريد أن تبيعني هذا الثور • »

وأخيرا ، بعد مساومات ومشاحنات وتظاهر بقطع المفاوضة وافق الفلاح على بيع البهيمة بثمن يعدل ثمن ثور من الثيران في تلك الديار ونصف ذلك الثمن معه • ولكن الفضة ما لبثت أن فقدت قيمتها ، عند وانغ لانغ، حين نظر الى هذا الثور ، ولقد دفعها الى يد الفلاح ، وانتظر ريثما حرر الفلاح البهيمة من نيرها ، ثم قادها بحبل أدخل في خطمها ، وقلبه يرقص طربا بهذه القنية الجديدة •

حتى اذا بلغوا البيت وجدوا ان الباب قد نزع ، وأن قش السطح قد رفع • وفي داخل البيت كانت معاولهم وقشاشاتهم التي خلفوها وراءهم قد اختفت ، وهكذا لم يبق غير الروافد الخشبية والجدران اللبنية • حتى الجدران اللبنية كانت قد خربتها الثلوج المتأخرة وأمطار الشتاء وطلائع الربيع • ولكن ما ان انحسرت الدهشة الاولى حتى أخذ وانغ لانغ ينظر الى ذلك كله نظرة ترشح باللامبالاة • لقد وجه وجهه الى المدينة واشترى محراثا

جديدا صالحا مصنوعا من خشب متين ، وقشاشتين ومعولين وحصرا لتغطية السطح ريثما يستطيعون الحصول على بعض القش في موسم الحصاد ٠

ثم انه وقف ، عند هبوط الليل ، على عتبة بيته وسرح نظره ، في الارض ، في أرضه هو ، وقد انبسطت لينة ناضرة من اثر جليد الشتاء ، مستعدة لان تزرع كرة أخرى ٠ كان الربيع في أوجه ، وفي البركة الضحلة نقت الضفادع على نحو وسنان ٠ وتمايلت شجرات الخيزران القائمة عند زاوية البيت تمايلا رفيقا في وجه نسيم الليل العليل ٠ ومن خلال الغسق كان في ميسوره أن يرى ، على نحو ضبابي ، أهداب الشجر عند تخوم الحقل المجاور ٠ كانت شجرات دراق ، مزدانة بزهر وردي ليس أمعن منه في الرقة ، وشجرات صفصاف أطلعت أوراقا خضراء رخصة ٠ ومن الارض المترقبة المخلدة الى الراحة ارتفع ضباب واهن ، فضي مثل ضوء القمر ، وتعلق بجذوع الاشجار ٠

وبدا لوانغ لانغ ، بادىء الامر ، وطوال فترة غير قصيرة ، أنه لا يود أن يرى أيما كائن بشري ، وأنه يتمنى لو يخلى بينه وبين أرضه ٠ ولم يقم بأي زيارة لايما بيت من بيوت القرية ، حتى اذا وفد القوم عليه ، أولئك الذين أبقت عليهم مجاعة الشتاء ، استقبلهم في تجهم ، وصرخ في وجوههم :

ـ « أيكم انتزع باب بيتي ، وأيكم استولى على معولي وقشاشتي ، وأيكم أشعل قش سقفي في موقده ؟ »

فهزوا رؤوسهم ، مؤكدين براءتهم ٠ وقال أحدهم :

ـ « انه عمك ٠ »

وقال آخر :

ـ « لا ٠ حين يطوف اللصوص وقطاع الطرق بالمنطقة من اقصاها الى اقصاها في أيام المجاعة والحرب اللعينة هذه كيف يستطيع المرء أن يقول ان هذا أو ذاك سرق أيما شيء ؟ ان الجوع ليحيل الانسان ، كائنا من كان ، الى لص ٠ »

عندئذ أقبل تشينغ ، جاره ، متسللا من بيته ، ليرى وانغ لانغ ويقول له :

ـ « خلال الشتاء نزلت عصابة من اللصوص في بيتك وراحت تغير على القرية والمدينة كلما وجدت الى ذلك سبيلا ٠ ويقال ان عمك يعرف عن هذه العصابة اكثر مما ينبغي للرجل الامين أن يعرف ٠ ولكن من ذا الذي يعلم الحقيقة في هذه الايام ؟ أنا لا أجرؤ على اتهام أي انسان ٠ »

ولم يكن هذا الرجل ، في الواقع ، غير خيال ٠ كان جلده قد التصق

بعظامه أشد ما يكون الالتصاق ، وكان شعره قد أمسى خفيفا أشيب الى أبعد الحدود ، برغم انه لما يبلغ الخامسة والاربعين من عمره • وحدق وانغ لانغ اليه لحظة ، ثم قال فجأة في حنان :

ـ « واذن فقد كان الذي أصابك أسوأ من الذي أصابنا • ما الذي كنت تسد به رمقك ؟ »

فتنهد الرجل وأجاب في صوت مهموس :

ـ « سلني ما الذي لم أسد به رمقي ؟ لقد أكلنا كل شيء ، اكلنا قاذورات الشوارع كالكلاب عندما مضينا لنشحذ في المدينة • والكلاب الميتة أكلناها أيضا • وذات يوم ، قبل أن تموت زوجتي ، عملت حساء من لحم لم أجرؤ على ان اسأل لحم أي شيء هو • ولكني عرفت في سرور أنها لم تكن تملك الشجاعة لقتله ، واذا كنا ناكل منه فلانها كانت قد وجدته • ثم انها ماتت ، اذ لم يكن لها مثل قوتي على الاحتمال ، وبعد موتها بعت البنية الى احد الجنود لاني لم أستطع أن أراها تجوع وتموت أيضا • »

واعتصم بالصمت لحظة ثم أضاف :

ـ « لو كان لدي قليل من البذار لاستأنفت العمل في الحقل • ولكن لا بذار عندي • »

فصاح وانغ لانغ في خشونة :

ـ « تعال الى هنا ! »

وجره بيده الى المنزل ، وأمره أن يبسط ذنب سترته البالي وأفرغ فيه جزءا من ذخيرة البذار التي اشتراها من الجنوب • لقد أعطاه بذار قمح وأرز وملفوف ، وقال :

ـ « غدا سوف أذهب وأحرث أرضك بثوري القوي • »

وفجأة انخرط تشينغ في البكاء ، وفرك وانغ لانغ عينيه وصاح وكأنه غاضب :

ـ « أتظن اني نسيت انك أعطيتني تلك الحفنة من الفاصولياء ؟ »

ولكن تشينغ لم يستطع أن يجيب بشيء • الا انه مضى لسبيله باكيا ـ باكيا في غير انقطاع •

لقد سر وانغ لانغ أن يكتشف ان عمه لم يعد في القرية • أما أين كان فذلك ما لم يعرفه احد معرفة يقينية • لقد قال بعضهم انه ذهب الى مدينة ما ، وقال بعضهم انه يقيم مع زوجته وابنه في احدى المناطق النائية • وعلى أية حال ، فان أحدا منهم لم يبق في منزلهم بالقرية • لقد بيعت بناته ـ البنت الاكثر جمالا أولا ـ بالثمن الذي دفع فيهن ، ولقد استبد بوانغ لانغ غضب شديد

عندما سمع بهذا النبأ · ولكن حتى البنت الصغرى ، التي كانت مجدورة الوجه ، بيعت بحفنة من البنسات لجندي مر بالقرية في طريقه الى ميدان القتال ·

وانصرف وانغ لانغ الى حراثة التربة في عزم لا يعرف الكلل ، مستكثرا على نفسه حتى تلك السويعات التي يتعين عليه قضاؤها في البيت التماسا للطعام والرقاد · وكان يؤثر أن يحمل رغيفه المرقق المطوي على شيء من الثوم الى الحقل ، والأكل هناك فيما هو يفكر ويخطط قائلا بينه وبين نفسه : « هنا سوف أجعل الحمص ذا العين السوداء ، وهنا سوف أقيم مساكب الارز الغض · » حتى اذا أصابه الكلال من كدح النهار تمدد في أحد الاثلام واستسلم للرقاد مستشعرا دفء أرضه الطيب ·

وفي البيت لم تضع أو - لان دقيقة من وقتها · فبيديها الاثنتين ثبتت الحصر الى الروافد الخشبية تثبيتا محكما ، وحملت التراب من الحقول ومزجته بالماء ورممت جدران البيت ، وأعادت بناء الفرن وسدت الثقوب التي أحدثها المطر في الارضية ·

ثم انها رافقت وانغ لانغ الى المدينة ، ذات يوم ، واشتريا معا سررا ومائدة وستة مقاعد خشبية وخلقينا حديديا ضخما ثم اشتريا للمتعة ابريق شاي فخاريا أحمر رسمت عليه بالحبر زهرة سوداء وستة أكواب تنسجم مع الابريق أحسن انسجام · وأخيرا قصدا الى دكان من دكاكين بيع البخور واشتريا الهـا ورقيا من آلهة الثروة ليعلقاه على الجدار فوق الطاولة التي في الحجرة الوسطى ، واشتريا شمعدانين من الصفيح ، ووعاء صفيحيا للبخور ، وشمعتين حمراوين ابتغاء اضاءتهما أمام الاله - شمعتين حمراوين ضخمتين صنعتا من شحم البقر وجعلت في وسطهما عوضا عن الفتيلة قصبة رقيقة ·

وفوق هذا فكر وانغ لانغ بالالهين الصغيرين اللذين في هيكل الارض ، فعرج على الهيكل في طريق عودته وألقى عليهما نظرة · كان مشهدهما يثير الشفقة بعد أن محا المطر قسمات وجهيهما وكشفت ملابسهما الورقية الممزقة عن فخار جسديهما عاريا دبقا · أن أحدا لم يبال بهما في تلك السنة الرهيبة ، ولقد نظر وانغ لانغ اليهما في ارتياح متجهم وقال في صوت عال كما يخاطب المرء طفلا معاقبا :

- « هذا جزاء الالهة الذين يسيئون الى الناس ! »

ومع ذلك فحين استعاد البيت ذاتيته وتوهج الشمعدانان الصفيحيان ، واشتعلت الشمعتان فيهما مرسلتين ضياء أحمر ، ووضع ابريق الشاي والاكواب على الطاولة ، ووضعت السرر في أماكنها مجللة بأغطية جديدة ،

والصقت قصاصة ورق جديدة على الثقب الذي في حجرة نومه ، وتدلى باب جديد على مفصلاته الخشبية ··· خاف وانغ لانغ من السعادة التي ينعم بها · وتضخم بطن أو ـ لان بجنينها التالي ، وتقلب أولاده حول عتبته رأسا على عقب وكأنهم دمى سمراء ، واستند أبوه العجوز الى الجدار الجنوبي وغفا وابتسم وهو نائم · وفي حقوله نبت الارز الغض أخضر كحجر اليشب وأجمل ، ورفعت شجيرات اللوبياء الغضة رؤوسها المقلنسة * من على سطح التربة · ومن القطع الفضية بقي مقدار كاف لاطعامهم حتى موسم الحصاد ، اذا ما أكلوا في غير اسراف · ورفع وانغ لانغ نظره الى السماء الزرقاء فوقه ورأى الى السحب البيضاء المتدفعة عبرها ، مستشعرا في جسده هو وفي حقوله المحروثة اثر اشعة الشمس واثر الامطار المرسلة من السماء بنسب ملائمة ، وتمتم على نحو لا ارادي :

ـ « يجب أن أحرق عودا من البخور أمام الاهي الهيكل الصغيرين · ان لهما ـ على اية حال ـ سلطانا على الارض · »

١٦

وذات ليلة ، فيما كان وانغ لانغ مضطجعا مع زوجته أحس أن بين ثدييها كتلة قاسية يبلغ حجمها حجم قبضة رجل · فقال لها :

ـ « ما هذا الذي على صدرك ؟ »

ومد يده نحوها فألفى رزمة قماشية الغلاف ـ رزمة قاسية ولكنها تتحرك تحت أصابعه · وارتدت الى الوراء في عنف ، بادىء الامر ، حتى اذا امسك بالكتلة ، بعد ذلك ، لينتزعها من جسدها استسلمت له وقالت :

ـ « حسنا ، انظر اليها اذن اذا لم يكن من ذلك بد ! »

وأمسكت بالخيط الذي يشدها الى عنقها وقطعته وقدمت ذلك الشيء الى زوجها ·

كان ملفوفا بخرقة صغيرة ، فنزعها عنه · وفجأة تناثرت في يده كومة من جواهر · وحدق وانغ لانغ الى الجواهر مشدوها · كان ركاما من الحجارة الكريمة لم يحلم امرؤ قط أن يرى مثله مجتمعا في يد واحدة ، حجارة كريمة حمراء مثل لب البطيخ الداخلي ، ذهبية كالقمح ، خضراء كالاوراق الغضة في

* التي تعلوها القلانس ·

الربيع ، صافية كالماء المنبجس من بطن الارض · أما اسماء هذه الجواهر فذلك ما لم يعرفه وانغ ، ذلك بأنه لم يسمع بأسماء الجواهر ولم يرها قط في آن معا · ولكنه وقد حملها الان في يده ، في راحة يده القاسية السمراء ، عرف من تألقها ولمعانها في الحجرة نصف المظلمة انه يمتلك ثروة · لقد أمسك بها جامدا ، مخمورا بروعة اللون والشكل ، صامتا ، وراح هو وزوجته يحدقان الى ما في يمينه · وأخيرا همس في اذنها لاهثا :

ـ « أين ··· أين ··· ؟ »

فاجابته هامسة هي الاخرى في رفق :

ـ « في بيت الرجل الغني · لا ريب في انه كنز محظية من المحظيات · لقد رأيت آجرة قلقة في الجدار ، فانسللت الى هناك في خفة ورشاقة لكي لا يراني احد ويطالبني بنصيب من الكنز · ونزعت الآجرة من الجدار ، ثم الجواهر اللامعة ، ووضعتها في ردني · »

وعاود الهمس في اذنها ، مفعما بالاعجاب :

ـ « ولكن كيف عرفت ؟ »

فاجابته وعلى شفتيها تلك الابتسامة التي لم يرها احد في عينيها :

ـ « أنسيت اني عشت في بيت رجل غني ؟ ان الخوف ليستبد دائما بقلوب الاغنياء · وذات مرة رأيت اللصوص في احدى سنوات الجدب يندفعون الى باب البيت الكبير ، والجواري والمحظيات وحتى سيدة البيت العجوز يركضن هنا وهناك وفي يد كل منهن كنز خبأته في مكان سري معد سلفا · وهكذا عرفت المعنى الذي يفيده وجود آجرة قلقة · »

وران عليهما الصمت من جديد واستغرقا في تأمل الجواهر الرائعة · ثم ان وانغ لانغ اخذ ، بعد برهة ، نفسا طويلا وقال في حزم :

ـ « على أية حال فان المرء لا يستطيع الاحتفاظ بكنز مثل هذا · ان علينا ان نبيعه ونستثمر ثمنه على نحو مضمون في ···· الارض ، اذ ليس ثمة شيء مضمون غير الارض · ولو قد عرف أحد من الناس بهذا الكنز اذن لقضي علينا قبل طلوع شمس اليوم التالي ، واذن لاستولى لص من اللصوص على الجواهر · ان علينا ان نشتري بثمنها ارضا في هذا اليوم بالذات ، والا لما نمت الليلة · »

واعاد لف الجواهر بالخرقة البالية فيما كان يتكلم ، وأحكم ربطها بالخيط · وبينا هو يفتح سترته ليقحمها في صدره لمح وجه المرأة مصادفة · كانت جالسة عند قدم السرير متصالبة الرجلين ، وكان وجهها الغليظ ـ الذي لم يعبر في يوم من الايام عن أيما شيء ـ مندفعا الى أمام ، فاغر الفم ، ترين

عليه مسحة حنين اغبش ٠
وسألها ، ناظرا اليها في دهش :
ـ « والان ، ماذا بك ؟ »
فقالت له في همس اجش :
ـ « هل ستبيعها كلها ؟ »
فأجابها مندهشـــا :
ـ « ولم لا ؟ وما الذي يحملنا على الاحتفاظ بجواهر مثل هذه في بيت من الطيــن ؟ »
ـ « أتمنى لو أستطيع الاحتفاظ لنفسي بجوهرتين اثنتين ٠ »
قالت ذلك في كآبة يائسة ، شأن من لا يتوقع شيئا ٠ فغلب عليه التأثر كما يخلق به ان يغلب عليه أمام طفل من أطفاله يتوق الى دمية أو الى قطعـــة حلـــوى ٠
وصاح في انشداه :
ـ « كفى ! كفى ! »
فتابعت في اتضاع :
ـ « ليتني أستطيع الاحتفاظ باثنتين فحسب ، باثنتين صغيرتين فحسب ـ اللؤلؤتين البيضاوين الصغيرتين حتى ٠٠٠٠ »
فكرر وانغ لانغ فاغر الفــم :
ـ « لؤلؤتين ! »
فقالـــت :
ـ « سوف أخبئهما ٠٠٠٠ انا لن أتزين بهما ٠٠٠ سوف أخبئهما فقط ٠ »
وخفضت عينيها ، وشرعت تلوي جانبا من غطاء السرير ، ارتخى عنده أحد الخيوط ، وانتظرت في أناة مثل امرىء لا يتوقع جوابا أو يكاد ٠
عندئذ نظر وانغ لانغ لحظة ، من غير أن يدرك ذلك ، الى قلب هـــذه المخلوقة البليدة المخلصة التي كدحت عمرها كله في عمل ما من غيـــر أن تعوض من ذلك بأي عوض ، والتي كانت قد رأت الاخريات ، في البيت الكبير ، يتحلين بالجواهر التي لم يقدر لها هي أن تمسها بيدها ، في يوم من الايـــام ، مجـــرد مس ٠
واضافت ، وكأنها تخاطب نفسها :
ـ « كان في استطاعتي أن أحملها بيدي في بعض الاحيان ٠ »
ورق فؤاده لسبب خفي عليه ، فأخرج الجواهر من صدره ونزع عنها غطاءها وقدمها اليها في صمت ، فراحت تبحث بين الالوان الساطعة مقلبـة

الاحجار الكريمة بيدها القاسية السمراء تقليبا دقيقا متمهلا حتى عثرت على اللؤلؤتين البيضاوين الناعمتين ، فأخذتهما ، ثم عاودت ربط الجواهر الباقية وأعادتها اليه · ثم انها حملت اللؤلؤتين واقتطعت من زاوية ثوبها مزقــة ولفتهما بها وخبأتهما بين ثدييها · لقد اطمأنت وسري عنها ·

ولكن وانغ لانغ راقبها ذاهلا نصف فاهم ، حتى لقد راح في ما بعد ، خلال ذلك اليوم والايام الاخرى ، يقف ويحدق اليها ويقول في ما بينه وبين نفســه :

ـ « حسنا ، ان زوجتي لا تزال تحمل تينك اللؤلؤتين بين ثدييها ، في مــا احســب · »

ولكنه لم يرها قط تخرجهما من صدرها ، أو تنظر اليهما · ولم يتحدثا عنهما بعد ذلك البتة ·

أما الجواهر فقد قلب الرأي في شأنها تقليبا ، وأخيرا قرر أن يمضــي الى البيت الكبير ويرى ما اذا كان لا يزال ثمة بقية من أرض يستطيــع أن يشتريهـــا ·

وهكذا مضى الى البيت الكبير ، ولم يكن هناك في تلك الايام بواب يقف لدى المدخل فاتلا شعرات خاله الطويلة ، ساخرا من اولئك الذين لم يستطيعوا أن يدخلوا الى بيت هوانغ من غير اذنه · كان الباب الكبير موصدا ، فراح وانغ لانغ يقرعه بكلتا قبضتيه · ولكن أحدا لم يأت · وكان عابرو السبيــل يرفعون أبصارهم ويقولون له بصوت مرتفع :

ـ « اي ، في استطاعتك أن تقرع وتواصل القرع · فاذا كان سيد البيت العجوز يقظان فقد يأتي ، واذا كان في البيت « جارية ـ كلبة » فقد تجــيء وتفتح اذا مالت نفسها الى ذلك · »

ولكنه سمع آخر الامر وقع اقدام بطيئة تقترب نحو العتبة ، وقع اقــدام بطيئة مترددة كانت تتوقف ثم تتقدم على نحو مفاجيء · ثم سمع القضيــب الحديدي المحكم ايصاد الباب يسحب في بطء ، واذا بالباب يئز ، واذا بصوت مصدوع يهمس :

ـ « مــن بالباب ؟ »

فأجاب وانغ لانغ ، على الرغم من ذهوله ، في صوت قوي :

ـ « هذا أنا ، وانغ لانغ ! »

عندئذ قال الصوت في نكد :

ـ « وانغ لانغ ؟ من هو هذا اللعين ؟ »

ومن هذا النعت أدرك وانغ لانغ أن المتكلم هو سيد القصر نفسه ، لانه

اصطنع نعتا تعود القوم اطلاقه على الخدم والجواري ۰ وهكذا أجاب وانغ لانغ في اتضاع أكثر من ذي قبل :

ـ « سيدي ومولاي ، لقد اقبلت لاحدثك في مسألة صغيرة ، لا لكي أزعج سيادتك ، ولكن لافاوض الوكيل الذي يخدم معاليك في صفقة صغيرة ۰ »

عندئذ أجاب سيد القصر العجوز من غير أن يزيد الفتحة التي زم شفتيه من خلالها اتساعا :

« في امكانك أن تلعن ذلك الكلب ، فقد تركني منذ عدة أشهر ولم يعد بعدها قط ۰ »

ولم يعرف وانغ لانغ ما الذي يتعين عليه أن يفعله بعد هذا الجواب ۰ لقد كان من المتعذر عليه أن يتحدث عن شراء الارض الى سيد القصر مباشرة ، من غير ما وسيط ، ومع ذلك فقد كانت الجواهر تتدلى في صدره لاذعة كالنار ، ولقد أراد أن يتخلص منها ، وأراد أكثر من ذلك أن يفوز بالارض ۰ فالبذار الذي كان لديه كان في ميسوره أن يزرع ضعف الارض التي يملك ، ولقد طمع بأرض بيت هوانغ الطيبة ۰

فقال في تردد :

ـ « لقد جئت لاتحدث في موضوع مبلغ من المال صغير ۰ »

وفي الحال أوصد السيد العجوز مصراعي الباب ، وقال بصوت لم يتكلم من قبل بأعلى منه :

ـ « ليس في هذا البيت مال ۰ ان الوكيل اللص ـ على أمه وعلى أم أمه اللعنة بسببه ـ سلبني كل ما أملكه ۰ من المستحيل علي أن أسدد أي دين ۰ »

فسارع وانغ لانغ الى القول :

ـ « لا ۰۰۰ لا ۰۰۰ لقد جئت لادفع مالا ، لا لاحصل دينا ۰ »

عندئذ أطلق صوت لم يكن وانغ لانغ قد سمعه من قبل صيحة ثاقبة ، واقحمت امرأة وجهها ، فجأة ، بين مصراعي الباب ۰

وقالت في نبرة حادة :

ـ « ماذا ؟ هذا شيء لم أسمع بمثله منذ عهد طويل ۰ »

وبصر وانغ لانغ بوجه وسيم ماكر متورد يحدق اليه ۰

واستطردت المرأة قائلة في حرارة :

ـ « ادخل ! »

وفتحت الباب على نحو يمكن وانغ لانغ من الدخول ، حتى اذا وقف مشدوها في الرواق أحكمت من خلفه ايصاده بالحديد ۰

ووقف سيد القصر العجوز هناك ساعلا محدقا ، مرتديا رداء قذرا من

الاطلس الرمادي تتدلى منه حاشية فرو اتسخت من طول السحب على الارض ٠ لقد كان في وقت مضى رداء رائعا ، كما يستطيع كل امرىء أن يرى ، اذ كان الاطلس ما يزال ثقيلا وناعما ، على الرغم من أن البقع واللطخات كانت تغطيه كله ، ولقد كان متغضنا وكأنما اصطنع كما تصطنع منامة من المنامات ٠ وحدق وانغ لانغ ، بدوره ، الى السيد العجوز ، فضوليا ولكنه برغم ذلك نصف خائف ، فقد كان طوال عمره يخاف أصحاب البيت الكبير نصف خوف ، ولقد بدا له ان من المستحيل أن يكون سيد القصر العجوز ، الذي سمع الناس يتحدثون عنه كثيرا ، هو هذا المخلوق الفاني الذي كان لا يفوق أباه العجوز مهابة ، بل الذي كان أقل من أبيه مهابة ، فقد كان أبوه رجلا عجوزا نظيفا مبتسم الثغر ، على حين كان سيد القصر العجوز الذي كان في ما مضى دينا قد أمسى الان مهزولا ، وكان جلده قد تدلى طيات طيات ، وكان قد أهمل جسده فلم يغسله وأرسل لحيته فلم يحلقها ، وكانت يده صفراء مرتعشة حين أمرها على ذقنه وشد بها شفتيه الهرمتين المتهدلتين ٠

أما المرأة فكانت نظيفة البزة ٠ كانت ذات وجه قاس حاد الزوايا ، وكان أنفها الكبير الاحجن يخلع عليها ضربا من جمال الصقور ٠ كانت عيناها السوداوان حادتين براقتين ، وكان جلدها الشاحب محكم الشد فوق عظامها ، وكانت وجنتاها وشفتاها حمراء قاسية ٠ وكان شعرها الاسود اللامع صقيلا كالمرآة ، ولكن كان في ميسور المرء أن يدرك ، من لغتها ، أنها لم تكن من أسرة القصر ، بل جارية ذات صوت حاد ولسان مرير ٠ وفي ما عدا هذين الاثنين ، المرأة والسيد العجوز ، لم يكن ثمة أيما شخص آخر في الرواق ، حيث كان من دأب جمهرة من الرجال والنساء والاطفال أن تعدو جيئة وذهوبا وقد انهمك كل فرد من أفرادها في اداء قسطه من العناية بشؤون البيت الكبير ٠

وقالت المرأة في جفاف :

ـ « فلنتحدث الان عن المال ٠ »

ولكن وانغ لانغ تردد ٠ انه لم يستطع أن يتكلم أمام السيد العجوز ، وهذا ما أدركته المرأة في الحال كما أدركت كل شيء قبل التعبير عنه بلغة الكلام ، فقالت للرجل العجوز في حدة :

ـ « أغرب أنت من هنا ! »

فانصرف السيد الطاعن في السن متثاقلا ، ساعلا ، من غير أن ينبس بكلمة ، فاذا بمشايته المخملية العتيقة تصفق عند عقبيه تصفيقا صارخا ٠ أما وانغ لانغ فلم يعرف ـ وقد خلي وحيدا مع هذه المرأة ـ ما الذي يحسن به أن يقوله أو يفعله ٠ لقد أذهله الصمت المخيم على أرجاء القصر كله ٠ واختلس

النظر الى الرواق المجاور ، ومع ذلك فلم يكن ثمة أي شخص آخر · وحوالي الرواق رأى ركاما من النفايات والاقذار والقش المتناثر وأغصان شجـــــر الخيزران وابر الصنوبر المجففة وفروع الازهار الميتة وكأن أحدا لم يحمـل مكنسة لازالتها ، منذ عهد بعيد ·

وقالت المرأة في نبرة أحفل بالحدة :

ـ « والآن ، أيها الرأس الخشبي ! ما هي المسألة التي جئت من اجلها ؟ اذا كنت تحمل مالا فدعني أراه · »

فاجفل وانغ لانغ لدن سماعه هذه اللهجة غير المتوقعة ، وقـــال فـي حـــذر :

« لا · انا لم أقل ان لدي مالا · لقد جئت لاقترح عقد صفقة · »

فأجابته المرأة :

ـ « الصفقة تعني مالا · اما مالا يدخل الجيب واما مالا يخرج مـــن الجيب · وليس في جيوبنا ههنا مال حتى نخرجه · »

فاعترض وانغ لانغ في رقة :

« حسنا ، ولكني لا أستطيع التحدث الى امرأة · »

وعجز عن أن يفهم شيئا ما من الوضع الذي ألفى نفسه فيه وكان لا يزال يجيل الطرف في ما حوله · فقالت المرأة في غضب :

ـ « ولكن لمـــاذا ؟ »

ثم صرخت في وجهه فجأة :

ـ « ألم تسمع ، ايها المعتوه ، انه لا يوجد أحد هنا ؟ »

فحدق وانغ لانغ اليها في وهن ، غير قادر علـــى ان يصدق ، فصرخت المرأة في وجهه من جديد :

ـ « انا والسيد العجوز ···· ليس ههنا أحد آخر ! »

فسألها وانغ لانغ ، وهو من الانشداه بحيث لم يستطع ان ينطق بكلمات متلاحمة الاجزاء :

ـ « أين هم اذن ؟ »

فأجابت المرأة :

ـ « حسنا ، ان السيدة العجوز قد ماتت · ألم تسمع في المدينـة كيف اقتحم اللصوص البيت واستولوا على ما شاءوا من الجواري والممتلكـات ؟ ولقد علقوا السيد العجوز مـــن ابهـامه وراحوا يوسعونـــه ضربـا ، وشدوا السيدة العجوز الى كرسي وكموا فمها ، وولى كل امرىء فرارا · اما انـا فبقيت · لقد اختبأت في خزان ماء نصف فارغ تحت غطاء خشبي · وحيـــن

غادرته كان القوم كلهم قد انصرفوا ، وكانت السيدة العجوز قد ماتت في كرسيها ، انهم لم يمسوها ولكنها لفظت أنفاسها من شدة الرعب · كان جسدها أشبه بالقصبة العفنة بسبب من الافيون الذي كانت تدخنه فلم يكن في طوقها ان تحتمل الرعب · »

فتلجلج وانغ لانغ :

ـ « والخدم والجواري ؟ والبواب ؟ »

فأجابت في لامبالاة :

ـ « آه ، اولئك تعني ··· لقد انصرفوا منذ زمن بعيد ··· انصرف كل ذي قدمين قادرتين على حمله ··· اذ لم يكن قد بقي ، منذ منتصف الشتاء ، شيء من طعام او مال · والواقع ، (وهنا انخفض صوتها فأمسى همسا) انه كان بين اللصوص الذين اقتحموا البيت عدد كبير من الخدم · لقد رأيت ذلك البواب الكلب بعيني رأسي ··· لقد كان يتقدم أفراد العصابة كلهم ، ولقد أشاح بوجهه عندما وقع بصره على رب القصر العجوز ، ومع ذلك فقد عرفت شعرات خاله الثلاث الطويلة · وكان في صفوف العصابة غيره أيضا ، اذ كيف يكتشف أحد غير اولئك الذين عرفوا البيت الكبير مخابىء الجواهر والمواطن التي ادخرت فيها الكنوز غير المعدة للبيع ؟ وأنا لا أبرىء ذمة وكيل الاراضي العجوز نفسه ، على الرغم من انه قد يعتبر ان مما لا يليق بكرامته ان يلعب في تلك المسألة دورا علنيا ، اذ كان واحدا من أنسباء الاسرة الابعدين · »

وسكتت المرأة ، وكان صمت الاروقة ثقيلا كما يكون الصمت بعد انطفاء الحياة · ثم قالت :

ـ « ولكن هذا كله يكن شيئا مفاجئا · فطوال حياة سيد القصر العجوز وحياة أبيه كان سقوط هذه الاسرة متوقعا · لقد كف سادة القصر ، في الجيل الاخير ، عن رعاية الارض بأنفسهم مكتفين بأخذ الاموال التي كان الوكلاء يقدمونها اليهم ، وينفقونها في غير مبالاة كما يسفح المرء الماء · وخلال هذه الاجيال فقدت الارض حيويتها ، وشيئا بعد شيء بدأت الاسرة تفقد الارض نفسها من طريق البيع ··· »

ـ « وأين سادة القصر الشبان ؟ » كذلك سألها وانغ لانغ وهو لا يزال يجيل الطرف فيّ ما حوله بعد ان تعذر عليه تصديق هذه الاشياء ·

فقالت المرأة في لامبالاة :

ـ « ههنا وههناك · ومن حسن الطالع ان الفتاتين تزوجتا قبل حدوث الكارثة · وحين عرف أكبر السادة الشبان بما أصاب أباه وأمه وجه رسولا

لاصطحاب السيد العجوز ، أبيه ، الى حيث كان يحيا ، ولكنني أقنعت الرجل الطاعن في السن بأن لا يذهب ، قائلة :

ــ « ومن الذي يبقى في القصر ؟ ان ابقاء لا يليق بي أنا ، فلست الا امرأة مستضعفة ٠ »

وزمت شفتيها الرقيقتين الحمراوين ، في حياء متكلف ، بينا كانت تنطق بهذه الكلمات ، وخفضت بصرها الوقاح ، ثم عادت الى القول ، بعد ان تمهلت بعض الشيء :

ــ « والى هذا ، فقد كنت جارية سيدي الوفية طوال هذه السنين العديدة ، وليس لي أي بيت آخر ٠ »

فأنعم وانغ لانغ ، عندئذ ، النظر اليها ثم أشاح بوجهه عنها في الحال٠ لقد شرع يفهم من كانت هذه المخلوقة ، امرأة تلزم رجلا عجوزا فانيا طمعا في الاستيلاء على آخر فلس من ثروته ٠ فقال في ازدراء :

ــ « كيف أستطيع ان أباحثك في صفقة تجارية وأنا ارى انك لست الا جارية ؟ »

عندئذ صاحت في وجهه :

ــ « انه سوف يفعل أيما شيء اطلبه منه ٠ لقد كنت له أكثر من جارية ٠ »

وتأمل وانغ لانغ في جوابها ذاك ٠ حسنا ، وماذا يهمه هو ، ما دامت الارض هناك ؟ ان غيره خليق به ان يشتريها ، بواسطة هذه المرأة ، ان لم يتقدم هو الى شرائها ٠٠٠

وسألها على كره منه :

ــ « ما مساحة الارض الباقية ؟ »

وفهمت في الحال الهدف الذي رمى اليه ، فسارعت الى القول :

ــ « اذا كنت قد أقبلت لتشتري ارضا فاعلم ان السيد العجوز لا يزال يملك بقية من أراضيه ٠ ان عنده مئة أكر الى الغرب ، ومئتي أكر الى الجنوب ، وهو راغب في بيعها ٠ انها ليست كلها قطعة واحدة ، ولكن القطع التي تتألف منها واسعة ٠ وهي معروضة للبيع حتى آخر أكر ٠ »

قالت ذلك من غير ما تردد البتة ، ومن هنا أدرك وانغ لانغ أنها كانت تعرف كل شيء عما بقي للرجل العجوز ، حتى آخر قدم من الارض ٠ ولكنه ظل عاجزا عن التصديق ، غير راغب في مباحثتها بأمر الصفقة التي جاء من أجلها ٠

فقال في ارتياب :

ـ « من غير المحتمل ان يتمكن السيد العجوز من بيع أرض أسرته كلها دون موافقة اولاده ٠ »

ولكن المرأة ردت عليه في حيوية :

ـ « من هذه الناحية تستطيع ان تثق ان الاولاد سألوه ان يبيعها إذا استطاع ٠ فالارض واقعة في منطقة لا رغبة لأي منهم في السكنى فيها ، والعصابات تعيث فسادا في ديارنا خلال أيام المجاعة هذه ، ولقد قالوا له : « نحن لا نستطيع ان نحيا في مثل هذا المكان ٠ فلنبع الارض ونقتسم المال ٠ »

فسألها وانغ لانغ ، وهو ما يزال غير مصدق :

ـ « ولكن في يد من يتعين علي ان اضع المال ؟ »

فأجابته المرأة في رقة :

ـ « في يد السيد العجوز ٠ وهل ثمة يد غيرها ؟ »

ولكن وانغ لانغ عرف ان يد السيد العجوز تصب في يدها ٠ من أجل ذلك لم يشأ ان يتحدث معها أكثر مما فعل ، فاستدار قائلا :

ـ « في يوم آخر ٠٠٠ في يوم آخر ٠٠٠ »

ومضى الى الباب ، فلحقت به حتى الشارع وهتفت :

ـ « غدا في مثل هذه الساعة ٠٠٠ في مثل هذه الساعة او بعد الظهر ٠٠٠٠ جميع الاوقات سواء ! »

وهبط الشارع من غير ان يجيبها بشيء ، مندهشا لأعظم اندهاش ، محتاجا الى التفكير في ذاك الذي سمعه ٠ واتجه نحو حانوت الشاي الصغير الذي يختلف اليه العبيد وطلب كوبا من الشاي ٠ حتى اذا وضعه الغلام أمامه في خفة والتقط البنس الذي دفعه اليه وقذفه في الهواء بحركة وقاح استغرق وانغ لانغ في التفكير ٠ وكلما استغرق في التفكير بدا له سقوط الاسرة الكبيرة الغنية وتشتتها شيئا فظيعا أكثر فأكثر ٠٠٠ تلك الاسرة التي كانت طوال حياته هو وطوال حياة أبيه وحياة جده قوة في البلدة ومجدا لها٠

وقال مخاطبا نفسه في أسف :

ـ « تلك ثمرة اهمال الارض ٠ »

وفكر في ولديه اللذين كانا ينموان مثل أغصان الخيزران الصغيرة الغضة في الربيع ، فقرر ان يحملهما في ذلك اليوم بالذات على الكف عن اللعب في أشعة الشمس وان يسند اليهما مهام بعينها في الحقل ، حيث تستشعر عظامهما ودماؤهما في وقت مبكر متعة الوطء على التربة، وحيث تنعم أيديهما بلمسة المعول القاسية ٠

ولكن تلك الجواهر كانت طوال ذلك الوقت تلسع جسده بنارها وترهقه

بثقلها ، ولقد كان خائفا على نحو موصول · لقد بدا له وكأن بريقها لا بد ان يتألق من خلال اسماله البالية ، وان امرءا راح يصيح :

ـ « ههنا رجل فقير يحمل كنز امبراطور ! »

وما كان لقلبه ان يطمئن الا بعد ان يحولها الى ارض · وهكذا انتظر ريثما وجد صاحب الدكان لحظة من فراغ ، فناداه وقال :

ـ « تفضل واشرب كوبا على حسابي ، وأخبرني بأنباء البلدة فقد كنت غائبا عنها طوال الشتاء · »

وكان صاحب الدكان مستعدا ابدا لمثل هذا الحديث ، وخاصة اذا ما احتسى شايه هو على حساب رجل آخر ، فسارع الى الجلوس الى مائدة وانغ لانغ · كان رجلا ضئيل الجسم ذا وجه كوجه ابن عرس ، وعين يسرى ملوية حولاء · كانت ملابسه صلبة سوداء من أثر الدهن الذي يلطخ صدر سترته وسرواله ، اذ كان يبيع الى جانب الشاي بعض الاطعمة يطهوها بنفسه وكان مولعا بالقول : « هناك مثل يقول : الطاهي البارع لا تكون سترته نظيفة أبدا · » وهكذا اعتبر قذارته صوابا وضرورة · لقد جلس وشرع يتحدث في الحال :

ـ « حسنا ، وبالاضافة الى المجاعة ، وهي شيء ليس بالنبأ الجديد ، كان النبأ الاعظم هو اقتحام اللصوص قصر آل هوانغ · »

كان هذا على وجه الضبط هو ما سعى وانغ لانغ الى سماعه ، ومضى الرجل يحدثه عنه في لذة ، واصفا كيف راحت الجواري اللواتي بقين هناك يصرخن ويولولن ، وكيف استاقهن اللصوص معهم ، وكيف اغتصب هؤلاء اللصوص المحظيات الباقيات في القصر وطردوهن منه واستاقوا بعضهن معهم أيضا حتى لم يعد أحد يجرؤ الان على السكنى في ذلك القصر البتة · وختم الرجل كلامه بقوله :

ـ « لم يعد أحد يجرؤ غير السيد العجوز الذي أمسى الان طوع بنان جارية تدعى كوكو كانت قد سلخت سنوات عديدة في حجرة السيد العجوز ـ في حين كان غيرها يجيء ويروح ـ بسبب من براعتها · »

فسأله وانغ لانغ مرهفا سمعه :

ـ « واذن فتلك المرأة هي اليوم صاحبة الامر والنهي ؟ »

فأجابه الرجل :

ـ « في الوقت الحاضر ، تستطيع تلك المرأة ان تفعل كل شيء · وهكذا فانها تفيد من هذه السلطة لتحتجز لنفسها كل ما يمكن ان يحتجز ، ولتبتلع كل ما يمكن ان يبتلع · ولسوف يرجع سادة القصر الشبان ، في يوم من

الايام ، من غير ريب ، بعد أن يسووا أمورهم في بقاع أخرى ، وعندئذ لن تستطيع ان تخدعهم بمزاعمها التي تتلخص في انها خادم مخلص تستحق المكافأة ، وعندئذ لا بد ان يطردوها طردا ٠ ولكنها قد ضمنت نفقات معيشتها منذ اليوم ، ولو عاشت مئة عام ٠ »

فسأله وانغ لانغ آخر الأمر ، مرتعدا من شدة التلهف :

ـ « والارض ؟ »

فقال الرجل في ذهول :

ـ « الأرض ؟ »

كانت الارض لا تعني ، عند صاحب الدكان ذاك ، أي شيء البتة ٠ فقال وانغ لانغ في فروغ صبر :

ـ « أهي للبيع ؟ »

فأجابه الرجل في لا مبالاة :

ـ « أوه ، الأرض ! »

ثم ان زبونا دخل الدكان ، فنهض وتابع كلامه بصوت عال فيما كان يمضي لسبيله :

ـ « لقد سمعت أنها للبيع ، ما عدا القطعة التي دفن فيها أفراد الأسرة خلال الأجيال الستة الماضية ٠ »

وتابع طريقه ٠

ثم ان وانغ لانغ نهض هو الاخر ، بعد أن سمع ما جاء من أجل سماعه ، وغادر الدكان ، وقرع الباب الكبير كرة أخرى ، فاقبلت المرأة لتفتح له ، فوقف من غير أن يدخل وقال لها :

ـ « أخبريني أولا هل سيختم السيد العجوز أوراق البيع بختمه الخاص ؟ »

فأجابته المرأة في لهفة ، وعيناها مركزتان على عينيه :

ـ « سيفعل ٠ ٠ ٠ سيفعل ٠ ٠ ٠ بأمكانك أن تنتزع مني حياتي ان لم يفعل ٠ »

ـ أيا تفضلين : أن تأخذي بالارض فضة أم ان تأخذي بها جواهر ؟ »

ـ « أريد أن آخذ بها جواهر ! »

١٧

لقد أمسى وانغ لانغ الآن يملك من الارض مساحة أكبر مما يستطيع امرؤ ذو ثور واحد أن يحرثه ويحصده ، ومن المحاصيل مقدارا أكثر مما يستطيع

رجل واحد أن يخزنه ، وهكذا بنى غرفة صغيرة أخرى ملحقة ببيته واشترى حمارا وقال لجاره تشينغ ٠

ـ « بعني قطعة الارض الصغيرة التي تملكها ،واترك البيت المنعزل وتعال الى منزلي وساعدني في حراثة أرضي ٠ »

ولقد نزل تشينغ عند رغبة جاره وكان بذلك سعيدا ٠

وهطلت الغيوث في ابانها ، ونما الارز الغض ٠ وعندما حصد القمح وجمع في غبوط * ثقيلة زرع الرجلان الارز الغض في الحقول المغرقة بالماء ٠ وكان مازرعه وانغ لانغ من الارز في هذه السنة أكثر مما زرعه في أيما سنة خلت ، ذلك بأن السماء أرسلت مطرها غزيرا الى بعد الحدود حتى لقد انتهت الاراضي التي كانت من قبل جافة الى أن تصبح الان صالحة لنمو الارز ٠ حتى اذا آتت الارض أكلها لم يستطع هو وتشينغ أن يحصداه وحدهما ، فقد كان المحصول خصبا وافرا ، فاستأجر وانغ لانغ رجلين آخرين من أهل القرية ليعاوناهما في الحصاد ٠

وفيما كان يعمل على الارض التي اشتراها من أسرة هوانغ تذكر أيضا سادة القصر الشبان المتبطلين ، فراح يأمر ولديه كل يوم ، في نبرة جافة ، بالذهاب معه الى الحقول حيث عهد اليهما بمختلف الاعمال التي تستطيع أيديهما الصغيرة أداءها ، من مثل سوق الثور والحمار ، قانعا بأن يستشعر ـ اذا لم يستطيعا النهوض بأي عمل ذي شأن ـ حرارة الشمس على جسديهما وكلال السير جيئة وذهوبا في محاذاة الاثلام ٠

ولكنه أبى أن يجيز لأو ـ لان العمل في الحقول ٠ فهو لم يعد رجلا فقيرا ، لقد أمسى رجلا قادرا على استئجار العمال اذا شاء ، بعد أن أعطته الارض هذه السنة من غنى المحاصيل ما لم تعطه اياه في أيما سنة من السنين الماضيات ٠ ولقد اضطر الى أن يبني غرفة أخرى ويلحقها بالبيت لكي يخزن فيها الغلال والا لما وجدوا في ذلك البيت حيزا يستطيعون السير فيه ٠واشترى ثلاثة خنازير ، وسربا من الدجاج يغتذي على الحب المضيع أثناء الحصاد ٠

وعملت أو ـ لان في البيت ، وخاطت ملابس جديدة لكل فرد من أفراد الاسرة ، وصنعت لهم احذية جديدة أيضا ، وأعدت لكل سرير غطاء من قماش مزهر ** محشو بقطن دافىء جديد ٠ حتى اذا تم ذلك كله اصبحوا أغنياء بالملابس والفرش كما لم يكونوا في أيما يوم من الايام ٠ وكرة أخرى

---

* جمع غبط وهي القبضات المحصودة المصرومة من الزرع ٠

** اي من قماش رسمت عليه ازهار مختلفة ٠

اضطجعت أو ـ لان على سريرها وانجبت ولدا · وهذه المرة أيضا ابت أن يكون الى جانبها، خلال المخاض ، أحد · فعلى الرغم من أنها كانت قادرة على استئجار من تشاء ، اثرت شأنها من قبل أن تكون وحدها ·

وتطاول مخاضها هذه المرة · وحين انقلب وانغ لانغ الى بيته في المساء وجد أباه واقفا بالباب يضحك ويقول :

ـ « بيضةذات محين * هذه المرة ! »

وعندما بلغ وانغ لانغ الحجرة الداخلية كانت أو ـ لان على سريرها والى جانبها وليدان اثنان ، غلام وأنثى ، وقد أشبه كل منهما الاخر كما تشبه حبة الارز حبة الارز · وضحك في صخب لهذا العمل الرائع الذي وفقت اليه ، ثم فكر في شيء بهيج يقوله ، وخاطبها قائلا :

ـ « واذن فهذا هو السبب الذي من أجله حملت الجوهرتين في صدرك ! »

وعاود الضحك لما كان قد فكر فيه من قول بهيج · وحين رأت أو ـ لان الى حبوره البالغ ابتسمت ابتسامتها البطيئة الاليمة ·

واذن فلم يكن لدى وانغ لانغ ، انذاك ، أيما هم يقلقه اللهم الا هم طفلته الكبرى · ذلك ان هذه الطفلة لم تكن لتنطق أو تعمل ما ينطق به الاطفال ويعملونه في مثل سنها · كان قصاراها أن تفتر شفتاها عن ابتسامتها الطفلية عندما تلتقي عيناها عيني أبيها · وسواء أكان مرد ذلك الى السنة الاولى البائسة من عمرها أو الى المجاعة أو أيما سبب آخر ، فقد تصرم شهر اثر شهر ووانغ لانغ ينتظر أن تنطلق الكلمات الاولى من شفتيها ، بل ينتظر أن ينطلق من هاتين الشفتين اسمه الذي كان الاطفال يجعلونه « دا ـ دا » · ولكن صوتا ما ، لم ينطلق · كل ما فاز به وانغ لانغ كان تلك البسمة العذبة الفارغة ، وحين نظر اليها تنهد وقال :

ـ « أيتها الصغيرة البلهاء ··· يا صغيرتي البلهاء المسكينة ! »

وفي ما بينه وبين نفسه قال بلهجة لا تخلو من اللوم :

ـ « لو بعت هذه الفأرة المسكينة ثم اكتشف القوم حالها هذا ، اذن لقتلوها ! »

وأقام لهذه الطفلة وزنا كبيرا ـ وكأنما أراد أن يسترضيها ـ فكان يصحبها الى الحقل في بعض الاحيان ، فتتبعه صامتة حيثما اتجه ، مبتسمة حين يتكلم ويراها نصب عينيه ·

★

في تلك الديار ، حيث عاش وانغ لانغ عمره كله وحيث عاش أبوه

* المح : صفار البيض ·

وأبو أبيه على الزراعة ، كانت المجاعات تتعاقب مرة كل خمس سنوات ، أو اذا تكشفت الالهة عن شيء من اللين ، مرة كل سبع أو ثماني أو ربما عشر سنوات · وانما كان ذلك لأن السماء كانت تمطر أكثر مما ينبغي او لا تمطر البتة ، أو لان نهر الشمال كانت تضخمه الامطار وثلوج الشتاء في الجبال النائية فيغرق الحقول من فوق السدود التي بناها الناس ، منذ قرون، لصده عن سبيله ·

وفي كل مرة ، كان القوم يفرون من المنطقة ثم يرجعون اليها · ولكن وانغ لانغ أخذ على نفسه أن ينشىء ثروته انشاء مكينا بحيث لا يضطر في السنوات العجاف التالية الى مفارقة أرضه البتة وبحيث يحيا على ثمرات السنين الخيرة ، وهكذا يتمكن من البقاء على قيد الحياة حتى يحل عام اخر · لقد أخذ على نفسه ذلك ، ومدت اليه الالهة يد العون ، فأعطت الارض غلالها خصيبة وافرة طوال سبع سنوات ، وفي كل عام كان وانغ لانغ ورجاله يدرسون مقدارا من القمح اكثر بكثير مما يستطيعون أن يستهلكوه · وكان كل عام يستأجر معاونين جددا حتى بلغ عدد اولئك المعاونين ستة رجال · وبنى بيتا جديدا وراء بيته القديم : غرفة كبيرة خلف رواق وحجرتان صغيرتان تقوم كل منهما على جانب من الرواق في محاذاة الغرفة الكبيرة · وغطي البيت بالآجر ، أما الجدران فقد شيدت من مجرد لبن قاس مضروب منتزع من الحقول ، ولكنهم طلوه بطبقة من الكلس فهو أبيض نظيف · والى هذه الحجرات انتقل هو واسرته ، في حين عاش العمال ، وعلى رأسهم تشينغ ، في البيت القديم القائم في المقدمة ·

وكان وانغ لانغ قد اختبر الآن جاره القديم تشينغ اختبارا دقيقا ، فألفى الرجل أمينا وفيا ، فجعله رئيسا على عماله ووكيلا لاراضيه ومنحه راتبا حسنا : قطعتين فضيتين في الشهر بالاضافة الى طعامه · ولكن على الرغم من حث وانغ لانغ صاحبه على الاكل ، والاكل جيدا ، فأن عظامه ظلت غير مكسوة باللحم ، وظل هو ضئيل الجسم مهزولا نزاعا الى الاسراف في الجد · ومع ذلك فقد اشتغل في ابتهاج ، عاملا في قليل من الحيوية ، وفي صمت ، من الفجر حتى الغسق ، متحدثا بصوته الواهن ان كان ثمة ما ينبغي أن يقال ، مؤثرا الف مرة ان لا يكون ثمة ما يقال وان يتمكن من الاعتصام بالصمت · وساعة بعد ساعة ،كان يرفع معوله ثم يضرب به الارض، وعند الشروق وعند الغروب كان يحمل الى الحقول دلاء الماء أو دلاء السماد لطرحها على صفوف الخضر ·

ومع ذلك فقد عرف وانغ لانغ انه ما نام أي من العمال ، كل يوم ، اكثر مما

ينبغي تحت شجرات النخيل ، أو أصاب من قصعة الفاصولياء المشتركة أكثر من نصيبه ، او اذا ما أوعز ايما واحد منهم الى زوجته أو طفله بالمجيء خلسة في موسم الحصاد لانتزاع حفنات من القمح الذي كان يضرب بعصى الدق ، فأن تشينغ كان خليقا به أن يهمس في أذنه ، عند نهاية العام حين يتناول السيد والخدم طعام الغداء معا بعد الحصاد :

ـ « يجب أن لا نعيد فلانا وفلانا الى العمل في العام القادم · »

وبدا وكأن حفنة اللوبياء وحفنة البذار اللتين تبادلهما هذان الرجلان قد جعلتهما أخوين ، باستثناء أن وانغ لانغ ، الذي كان اصغر الاثنين ،أخذ محل الاخ الاكبر ، ولم ينس تشينغ قط أنه كان مستأجرا وكان ايحيا في بيت يملكه شخص آخر ·

وفي نهاية السنة الخامسة لم يعمل وانغ لانغ بنفسه ، في حقوله الا قليلا بعد أن اضطر الى انفاق وقته كله ، وقد اتسعت أراضيه وترامت أطرافها ، في بيع محاصيله في الاسواق والاشراف على الايدي العاملة في حقوله · كان جهله للمعرفة الكتبية ولمعنى الحروف التي ترسم على الورق بفرشاة من شعر الجمل وبالحبر يعوق نشاطه شيئا كثيرا · والى هذا فقد كان يستشعر العار كلما قصد الى محل من محال الحنطة حيث كان القمح يشترى ثم يباع ، وكلما صيغ عقد لبيع مقدار بعينه من القمح او الارز ، اذ كان يتعين عليه أن يقول ، في كثير من الضعة ، لتجار المدينة المتكبرين :

ـ « سيدي ، وهل لك أن تقرأه لي ، فأنا جاهل اكثر مما ينبغي · »

وكان يستشعر الخجل أيضا كلما اضطر الى أن يذيل باسمه عقدا من العقود اذ كان يرى شخصا آخر ، وربما مستخدما حقيرا ، يرفع حاجبيه ازدراء فيما هو يمر رأس فرشاته المحددة على صفيحة الحبر الندية ويرسم ، على عجل ، الاحرف التي يتألف منها اسم وانغ لانغ ، أما أعظم الخزي فكان يستشعره حين يسأله الرجل متندرا :

ـ « أهو حرف لانغ التنيني أم حرف لانغ الاصم أم ماذا ؟ »

فيجيبه وانغ لانغ في ذلة :

ـ « اكتبه كما تشاء ، فأنا أجهل من أن أعرف كيف يرسم اسمي · »

وذات يوم من أيام الحصاد هذه ، بعد أن سمع رنين الضحك الذي أطلقه المستخدمون في دكان القمح ـ وكانوا كلهم قد أخلدوا الى الراحة في فترة الظهيرة وراحوا يصغون الى كل ما يجري من حولهم ، ولم يكونوا جميعا غير غلمان لا تكاد أعمارهم تزيد على أعمار أولاده ـ انقلب عائدا الى بيته ثائرا مغضبا وراح يخاطب نفسه فيما كانت قدماه تطآن أرضه الواسعة :

ـ « أن أحدا من معتوهي المدينة هؤلاء لا يملك ذراعا من الارض ، ومع ذلك فان كلا منهم يشعر بأن في استطاعته أن يسخر مني في بلاهة لاني أجهل معاني ضربات الفرشاة على الورق ٠ »

حتى اذا خمد غيظه قال في ما بينه وبين نفسه :

ـ « لا ريب في ان من العار علي ان لا أعرف القراءة والكتابة ٠ سوف أسحب ولدي البكر من الحقول وأبعث به الى احدى مدارس المدينة ، ليتلقى العلم فيها ، حتى اذا قصدت الى أسواق القمح قرأ لي وكتب بالنيابة عني وبذلك أضع حدا لهذا الضحك الساخر مني ، أنا الذي أعد اليوم من أصحاب الاطيان ٠ »

وبدا له أن هذا حسن ٠ وفي ذلك اليوم بالذات استدعى ابنه البكر ، وكان الآن غلاما طويل القامة مستقيمها في الثانية عشرة يشبه أمه بعظام وجهه العريضة ويديه الكبيرتين وقدميه الضخمتين ولكنه يتمتع بمثل نباهة أبيه ٠ وحين وقف الغلام بين يديه ، قال وانغ لانغ :

ـ « انك لن تذهب بعد اليوم الى الحقول ، ذلك لاني أريد أن يكون في أسرتي عالم يقرأ العقود ويكتب اسمي فلا أشعر بالخجل حين أمضي الى المدينة ٠ »

فشاع الدم في وجه الغلام عنيفا قانيا والتمعت عيناه ببريق قوي ، وقال :

ـ « ذلك ، يا أبت ، ما كنت أتمناه ، في السنتين الاخيرتين ، ولكني لم أجرؤ على طلبه ٠ »

وما كاد الصبي الاصغر يسمع بهذا حتى أقبل باكيا متشكيا ، وهو أمر قد ألفه اذ كان منذ تمت له القدرة على النطق غلاما مهذارا صخابا مستعدا دائما للتظلم ، زاعما أن حصته أقل من حصة الاخرين ٠ وهكذا دخل على أبيه منتحبا وقال :

ـ « حسنا ، وأنا أيضا لن أعمل في الحقول ، فليس من العدل أن يستريح أخي في مقعد ويتعلم شيئا بينا يفرض علي أن أشتغل مثل فلاح جلف ٠ ألست ابنك بقدر ما هو ابنك ؟ »

وكان وانغ لانغ عاجزا عن احتمال ضجته ، وكان مستعدا لان يعطيه أيما شيء اذا أسرف في البكاء التماسا له ٠ فسارع الى القول :

ـ «»حسن ، حسن ، اذهبا كلاكما ٠ واذا ما شاءت السماء ، لسوء الطالع ، أن تأخذ واحدا منكما فعندئذ يبقى لدي آخر ذو ثقافة تمكنه من النهوض عني بعبء أعمالي ٠ »

ثم انه ارسل أم أولاده الى المدينة لكي تشتري قماشا تصنع منه ثوبا

طويلا لكل من الصبيين ، ومضى هو نفسه الى دكان من دكاكين بيع الورق والحبر ، واشترى ورقا وفراشي وصفيحتي حبر على الرغم من أنه لم يكن يعرف من هذه الشؤون شيئا · واذ خجل من أن يصرح بجهله فقد ظل مرتابا في كل ما عرضه الرجل على ناظريه ، ولكن كل شيء أعد آخر الامر ، واتخذت الترتيبات لارسال الصبيين الى مدرسة صغيرة قرب باب المدينة يديرها رجل عجوز كان قد تقدم في السنوات الخالية للامتحانات الحكومية ولكنه سقط · ومن ثم وضع في الحجرة الوسطى من بيته بعض المقاعد الخشبية والطاولات وراح يعلم الاولاد المواد الكلاسيكية ، لقاء مبلغ ضئيل كان يتناوله كل يوم من أيام الاعياد ، ضاربا اياهم بمروحته الضخمة المطوية اذا ما تكاسلوا أو اذا ما عجزوا عن أن يعيدوا على مسامعه تلك الصفحات التي أنعموا النظر فيها من الفجر حتى غروب الشمس ·

ولم يكن التلامذة ينعمون بشيء من الراحة الا في أيام الربيع والصيف الحارة ، اذ كان النعاس يغلب الرجل العجوز آنذاك فيستسلم للرقاد بعد تناول طعام الغداء ، وتمتلىء الحجرة الصغيرة المظلمة بغطيطه · عندئذ كان الغلمان يتهامسون : ويلعبون ، ويرسمون رسوما تمثل ضروبا من البذاءات كان بعضهم يعرضها على بعضهم الاخر ، ويكتمون ضحكهم اذ يرون ذبابة تئز حول فم الرجل العجوز المنفغر المتهدل ، ويتراهنون حول هذا السؤال : أتدخل الذبابة كهف فمه أم لا ؟ حتى اذا فتح المعلم العجوز عينيه فجأة — وما كان أحد يدري متى يفتحهما في سرعة بالغة وعلى نحو مختلس وكأنه لم ينم قط — رآهم متلبسين بالجرم وراح يوزع ضربات مروحته من حوله ، مصيبا هذه الجمجمة حينا وتلك الجمجمة حينا · وكان الجيران ، اذا ما سمعوا طقطقات المروحة الضخمة وصرخات التلاميذ ، يقولون :

— « انه معلم عجوز فاضل ، على أية حال · »

وفي اليوم الاول عندما اصطحبهما الى هناك سار في مقدمتهما ، اذ لم يكن من اللائق ان يسير الاب والابن جنبا الى جنب ، وحمل منديلا أزرق مليئا بالبيض الطازج · وقدم هذه البيضات الى المعلم العجوز لدن وصوله الى « المدرسة » · وراعت وانغ لانغ نظارتا المعلم العجوز النحاسيتان الضخمتان، ورداؤه الاسود الطويل الفضفاض ، ومروحته الهائلة التي كانت لا تفارقه حتى في الشتاء ، فانحنى له وقال :

— « سيدي ، دونك ولدي اللذين لا يصلحان لشيء · واذا كان في الامكان اقحام أيما شيء في جمجمتيهما النحاسيتين الغليظتين فلا ريب في أن السبيل الى ذلك هو ضربهما ليس غير · واذن فليس عليك ، اذا رغبت في

ارضائي ، الا أن تضربهما لكي تحملهما على التعلم حملا ٠ »

ووقف الصبيان وحدقا الى الصبية الاخرين الجالسين على المقاعد الخشبية ، وحدق هؤلاء الاخرون بدورهم اليهما ٠

حتى اذا انقلب وانغ لانغ الى بيته ، مخلفا الغلامين وراءه ، استشعر وكأن قلبه يكاد يتفجر تيها واعتزازا ، وبدا له أن ليس بين جميع الاولاد الذين رآهم في غرفة الصف من يضارع ولديه في طول القامة ، وقوة الجسم ، وسمرة الوجه البرونزية ٠ وحين اجتاز بباب المدينة التقى جارا من جيرانه عائدا من القرية فوجه اليه الرجل سؤالا أجابه عنه بقوله :

ـ « أنا عائد اليوم من مدرسة ولدي ٠ »

واذ لمح علامات الدهش مرتسمة على وجه الرجل ، قال في لا مبالاة متكلفة :

ـ « لم أعد في حاجة اليهما في الحقول ، ولسوف يكون في ميسورهما أيضا أن يتعلما أحرف الهجاء حتى التخمة ! »

أما في ما بينه وبين نفسه فقال وهو يمضي لسبيله :

ـ « لن يدهشني على الاطلاق أن يوفق أكبرهما بفضل هذا العلم كله الى تسنم رئاسة البلدية ! »

ومن ذلك الحين لم يعد الصبيان يدعيان الولد الاكبر والولد الاصغر ، بعد أن خلع عليهما المعلم العجوز اسمين من الاسماء المدرسية ٠ ذلك بأن هذا المعلم العجوز لم يكد يحيط علما بصناعة أبيهما حتى ابتدع لهما اسمين جديدين ، فاطلق على الكبير اسم نانغ اين ، وعلى الصغير اسم نانغ وين ، وكانت اللفظة الاولى من كل من الاسمين تعني « من نبعت ثروته من الارض ٠ »

١٨

هكذا بنى وانغ لانغ مصائر أسرته ٠ وحين اطلت السنة السابعة وفاض النهر الشمالي الكبير بسبب من غزارة الامطار والثلوج في ناحية الشمال الغربي ، حيث كان منبعه ، تخطت مياهه كل حد وغمرت اراضي تلك المنطقة برمتها ٠ ولكن وانغ لانغ لم يخف ٠ انه لم يخف ، على الرغم من أن جزءا كبيرا من أرضه يبلغ خمسيها كان قد أمسى بحيرة يغمر ماؤها كتفي رجل وزيادة ٠

وطوال أواخر الربيع وأوائل الصيف ارتفع الماء على نحو موصول حتى لقد انبسط آخر الامر مثل بحر عظيم بهي كسول يعكس في مرآته صورة السحاب والقمر وشجرات الصفصاف والخيزران الغارقة جذوعها في الماء · وههنا وهناك تماسك بيت لبني مهجور بضعة أيام فوق الماء ثم تداعى الى السقوط رويدا رويدا وعاد الى المياه والتراب · وكذلك كانت حال جميع البيوت التي لم تشيد كما شيد بيت وانغ لانغ فوق هضبة من الهضاب ، هذه الهضاب التي برزت الان وكأنها جزر · وانشأ الناس ينتقلون من المدينة واليها على متون المراكب والاطواف ، وكالعادة مات كثير من الناس جوعا ·

ولكن وانغ لانغ لم يخف · كانت أسواق القمح مدينة له بالمال ، ومع ذلك فقد كانت مخازنه ملأى بمحاصيل السنتين الاخيرتين ، وكانت بيوته قائمة فوق مرتفع لا ترقى اليه المياه ، فليس لديه ما يخافه ·

ولكن لما كان من المتعذر عليه أن يزرع جزءا كبيرا من الارض فقد استشعر الفراغ أكثر مما استشعره في أيما عهد من حياته · ليس هذا فحسب ، بل ان تبطله وامتلاء جوفه بطيب الطعام كانا يورثانه كثيرا من الضيق والنرفزة بعد أن يكون قد أصاب من النوم أقصى ما يستطيع أن يصيب وأنجز كل ما تعين عليه أن يعمله · وكان ثمة ، فوق هذا ، اولئك العمال الذين كان يستأجرهم مرة كل عام ، ولقد كان من الحماقة ان يشتغل في حين يقعد الذين يأكلون أرزه نصف عاطلين منتظرين يوما بعد يوم أن تنحسر المياه عن الارض· وهكذا بعد أن أمرهم بأن يجددوا تقشيش سقف المنزل القديم ، ويرأبوا صدوع الآجر في السقف الجديد الذي كان يرشح منه الماء في مواضع ، ويصلحوا المعاول والقشاشات والمحاريث ويطلقوا الماشية ويشتروا البط لتربيته في الماء ويفتلوا خيوط القنب حالا ـ وكلها أشياء كان في الايام الخالية يقوم بها بنفسه عندما حرث أرضه وحده ـ أمست يداه فارغتين ، ولم يدر ما الذي يصنعه بنفسه ·

ولكن المرء لا يستطيع أن يقعد طوال النهار محدقا الى بحيرة ماء تغمر حقوله ، ولا يستطيع أن يأكل في الوقعة الواحدة أكثر مما تتسع له معدته · فكان وانغ لانغ اذا ما أصاب حظه من النوم امتنعت عيناه على الرقاد · وكان المنزل ، حيث طوفت قدماه في ضيق ، صامتا ـ صامتا اكثر مما يحتمله دمه الحار العنيف · وكان والده العجوز قد غدا الان واهنا جدا نصف أعمى وتقريبا نصف أصم · وكان من العبث الذي لا طائل تحته توجيه الكلام اليه الا اذا دعت الحاجة الى سؤاله هل يستشعر الدفء والشبع أو هل يرغب في شرب الشاي · ولقد حز في نفس وانغ لانغ ان يعجز الرجل العجوز عن ادراك مدى

الثراء الذي تم لابنه ، وان يغمغم كلما وجد أوراق الشاي في طاسته : « حسبي قليل من الماء · الشاي شيء ثمين كالفضة · » ولكن لم يكن ثمة فائدة من قول أيما شيء للرجل العجوز ، اذ كان ينسى ما يقال له في الحال ، ويحيا منعزلا في عالمه الخاص ، ولقد كان يحلم في معظم الوقت أنه عاد فتى من جديد ، فتى في عنفوان الشباب · كان لا يرى مما يجري حوله الان غير القليل القليل ·

ان الرجل العجوز والفتاة الكبرى ، التي لم تنطق بكلمة قط مكتفية بالجلوس الى جانب جدها ، ساعة اثر ساعة ، فاتلة قطعة من قماش فهي تطويها وتنشرها مبتسمة لها ··· ان هذين المخلوقين لم يكن لديهما ما يقولانه لرجل قوي واسع الثراء · فما ان يملأ وانغ لانغ للرجل العجوز كوب شاي ويمر يده على وجنة الفتاة ويتلقى ابتسامتها العذبة الفارغة التي كانت تنحسر عن وجهها في سرعة بالغة محزونة مخلفة العينين الغبشاوين غير اللامعتين تسبحان في فراغ كبير ··· أقول ما ان يفعل وانغ لانغ ذلك حتى ينتهي كل شيء · وكان من دأبه أن يشيح بوجهه عنها بعد لحظة صمت ، وتلك كانت آية الحزن الذي توقعه بنته في نفسه ، وينظر الى طفليه الاصغرين : الصبي والبنت اللذين أنجبتهما أو ــ لان في آن معا ، واللذين كانا يعدوان الان حول العتبة في حبور ومرح ·

ولكن المرء لا يستطيع الاكتفاء بحماقة الاطفال · ذلك بأنهم كانوا ينصرفون الى العابهم الخاصة ، بعد أن ينفقوا مع أبيهم فترة قصيرة كلها ضحك ومكايدة ، فاذا به يجد نفسه وحيدا مفعما بالقلق · عندئذ كان من دأب وانغ لانغ أن ينظر الى أو ــ لان ، زوجته ، كما ينظر الرجل الى المرأة التي يعرف جسدها أحسن معرفة ، وحتى الشبع ، والتي عاشت على مقربة دانية منه حتى لقد أمسى لا يجهل من أمرها شيئا ولا يتوقع أو يرجو ان يقع عندها على جديد ·

وبدا لوانغ لانغ أنه ينظر الى أو ــ لان للمرة الاولى في حياته ، فرأى للمرة الاولى أنها كانت امرأة لا يستطيع أحد أن يصفها بغير صفتها الحقيقية : مخلوقة بليدة عادية تكدح في صمت من غير أن تبالي بمظهرها الخارجي · لقد رأى للمرة الاولى ان شعرها خشن أسمر غير مصقول بشيء من الزيت · وأن وجهها عريض قاسي البشرة تعوزه نضرة الحيوية ، وان قسماته كلها أضخم مما ينبغي وأنها خلو من أيما ضرب من الجمال أو الاشراق · كان حاجباها متناثرين ، وكان شعرها نزرا أكثر مما ينبغي ، وكانت شفتاها ضخمتين جدا ، وكانت يداها وقدماها كبيرة منتشرة · واذ رآها على هذا النحو بعينين جديدتين صاح في وجهها :

ـ « ان كل امرىء ينظر اليك خليق به أن يقول انك زوجة رجل عادي لا زوجة رجل يملك أرضا ويستأجر العمال لحراثتها ! »

كانت هذه أول مرة تحدث فيها عن مظهرها الخارجي ، ولقد أجابته بنظرة بطيئة مؤلمة ٠ كانت جالسة على مقعد خشبي تخيط عقبا من أعقاب الاحذية بأبرة طويلة تغرزها في العقب ثم تخرجها منه ٠ وفجأة كفت عن العمل ، تاركة الابرة معلقة في الهواء ، فاغرة فمها فهو يبدي عن أسنانها المسودة ٠ ثم ان الدم انتشر عنيفا في وجنتيها الناتئتين ، وكأنها فهمت اخر الامر أنه نظر اليها كما ينظر رجل الى امرأة ، فغمغمت قائلة :

ـ « لقد ساءت حالي منذ ولد هذان الطفلان الاخيران معا ٠ انني لاستشعر في احشائي نارا ٠ »

وأدرك الان أنها توهمت ، بسذاجتها ، أنه اتهمها بالعجز ، منذ أكثر من سبع سنوات ، عن انجاب الاولاد ٠ فقال بنبرة جاءت أكثر جفاء مما أراده لها :

ـ « أردت ان أقول ألا تستطيعين أن تشتري قليلا من الزيت تصقلين به شعرك كما تفعل النسوة الاخريات وان تخيطي لنفسك سترة جديدة من قماش أسود ؟ وهذا الحذاء الذي تنتعلينه ٠٠٠ انه لا يليق بزوجة رجل صاحب أطيان ، كما هو حالك الان ٠ »

ولكنها لم تجب بشيء ٠ لقد اكتفت بأن تنظر اليه في اتضاع ، ومن غير أن تعرف ما تفعل ، وبأن تخبىء قدميها بوضع احداهما فوق الارض تحت المقعد الخشبي الذي جلست اليه ٠ وفي أعماق نفسه ، كان وانغ لانغ خجلا من تعنيف هذه المخلوقة التي تبعته في اخلاص طوال هذه السنين كلها وكأنها كلب أمين ، وتذكر أنها تركت فراشها ، يوم كان فقيرا يعمل في الحقول بنفسه ، حتى بعيد وضعها ولدا من أولادها ، واقبلت لتساعده في الحصاد ٠٠٠ ومع ذلك فلم يستطع أن يكبت الاهتياج في صدره ، فتابع كلامه غير راحم ، وان يكن قد فعل ذلك برغم ارادته الباطنية :

ـ « لقد كدحت وأمسيت ثريا ، واني لاود أن تبدو زوجتي وكأنها غزالة ٠ وقدماك هاتان ٠٠٠ »

ولم يتم ٠ لقد بدا له أنها كانت بشعة كلها ، ولكن أبشع ما فيها قدماها الضخمتان في نعليهما القطنيين الفضفاضين ٠ ونظر اليهما في غيظ فدفعتهما أبعد فأبعد تحت المقعد الخشبي ٠

وأخيرا قالت في همس :

ـ « ان أمي لم تحبسهما في الحديد ، اذ باعني أهلي وأنا بعد صغيرة

جدا · ولكني سوف أحبس قدمي الفتاة الصغيرة في الحديد · »

ولكنه طوى كشحه عنها ، فقد كان يستشعر الخجل لانــه ثــار عليهــا ويستشعر الغضب لانها لم تقابل ثورته بثورة مماثلة ، مجتزئة بالذعر يلفهــا ويستبد بها · وعاود ارتداء ثوبه الاسود الجديد ، وقال في تبرم :

ـ « حسنا ، سوف أذهب الى دكان الشاي لعلي أسمع بنبأ جديد فليس في بيتي غير المجانين ، وغير رجل خرف وطفلين · »

وتعاظم ضيقه فيما كان يتخذ سبيله الى المدينة ، لانه تذكر فجـــأة ان جميع هذه الاراضي الجديدة التي يملكها ما كان في ميسوره ان يشتريهـــا عمره كله لو لم تستول أو ـ لان على حفنة الجواهر من بيت الرجل الثـري ولو لم تعطه اياها عندما طلب اليها ذلك · ولكنه ازداد غضبا عندما تذكر ذلك وقال وكأنه يرد على حديث قلبه في تمرد :

ـ « حسنا ، ولكنها لم تعرف ما فعلته · لقد استولت عليها لمجرد المتعة كما يستولي طفل على حفنة من حلوى حمراء وخضراء ، ولقد كان خليقا بها أن تخبئها في صدرها الى الابد لو لم اكتشفها أنا هناك ·

ثم تساءل : ترى الا تزال تخفي اللؤلؤتين بين ثدييها ؟ ولكن بينا كان في ما مضى لا يرى ثمة غير شيء غريب وطريف يستغرق تفكيره أحيانـــا ويتمثله في خياله ، أمسى الان يفكر في ذلك بازدراء ، لان ثدييها كانا قـــد أمسيا رخوين مترهلين · بعد ان ولدت ذلك العدد كله من الاطفال ، وفقــدا جمالهما ، فمن الحمق والخسران ان ينطويا بعد على تينك اللؤلؤتين ·

ومع ذلك فأن هذا كله ما كان خليقا به أن يكون ذا شأن او خطر لــو بقي وانغ لانغ رجلا فقيرا ولو لم تغمر المياه حقوله · ولكنه كان يملك مالا · كان ثمة فضة مخبوءة في جدران بيته ، وكان ثمة كيس فضة مدفون تحـــت آجرة في أرضية بيته الجديد ، وكان ثمة فضة ملفوفة بقطعة من قماش فـــي الصندوق الذي في حجرته حيث ينام هو وزوجته ، وفضة خيطت الى الحصير الممدود تحت فراشهما ، وكان زناره مليئا بالفضة ، فهي لا تعــوزه البتــة · وهكذا · بدلا من أن تفارق يديه الان وكأنها دم الحياة ينزف من جرح ، أمست ترقد في زناره فهي تحرق أصابعه كلما مستها ، وأمست تواقـــة الـــى أن تصرف في هذا الوجه أو ذاك · وشرع لا يبالي بها ، ويفكر في الذي يستطيع أن يفعله للاستمتاع بأيام رجولته ·

ولم تبد الاشياء حسنة في عينيه بقدر ما كانت من قبل · فدكان الشاي التي كان من دأبه ان يدخلها في خجل ، مستشعرا انه مجرد قروي عــادي ، بدت له الآن قذرة وضيعة · وفي الايام الخالية لم يكن يعرفــه أحد هنــاك ،

وكان الندل وقحين معه ، اما الآن فقد اصبح الناس يكزون بعضهم بعضا بأكواعهم كلما دخل دكان الشاي ، وكان في ميسوره ان يسمع رجلا منهم يهمس في أذن آخر :

ـ « هو ذا الرجل الذي يدعونه وانغ من ابناء قرية وانغ ، ذلك الرجل الذي اشترى الارض من آل هوانغ في ذلك الشتاء الذي توفي فيه السيد العجوز خلال المجاعة العظمى · لقد أمسى ثريا ، الآن · »

وكان وانغ لانغ لا يكاد يسمع ذلك حتى يقعد في لامبالاة متكلفة ، ولكن قلبه كان يمتلىء اعتزازا بما قد أحرزه من نجاح · اما في هذا اليوم الذي عنف فيه زوجته فقد عجزت حتى الحفاوة البالغة عن ادخال الحبور على فؤاده ، فجلس مكفهر الوجه وانشأ يحتسي شايه مستشعرا ان كل ما في حياته لم يكن حسنا بقدر ما ظن من قبل · عندئذ قال في ما بينه وبين نفسه فجأة :

ـ «ما الذي يحملني على احتساء الشاي في هذه الدكان التي يملكها ابن عرس أحول يقل دخله عن اجرة عامل من عمال أرضي ، انا الثري الذي يملك أطيانا والذي أمسى ولده في عداد العلماء ؟ »

ونهض في سرعة ، وطرح ثمن كوب الشاي على الطاولة ، وغادر المكان قبل ان يوفق أحد الى التكلم معه · وراح يطوف في شارع المدينة غير عارف اي شيء يريد · حتى انتهى آخر الامر الى كشك واحد من قصاص الاخبار ، فاستراح فترة عند طرف مقعد خشبي مزدحم وأصغى للرجل يحكي قصة عن عهد « الممالك الثلاث » في العصور الخالية ، حين كان المحاربون شجعانا أولي مكر · ولكنه ظل ضيق الصدر ، فلم يخضع لسحر القاص كما خضع الآخرون · على العكس، لقد ارهقت اعصابه ضربات ناقوس الرجل النحاسي الصغير ، فنهض ومضى لسبيله ·

وكان في المدينة صالة شاي كبيرة فتحها منذ قريب رجل من أهل الجنوب بارع في تلك الصناعة ، وكان وانغ لانغ قد مر قبل ذلك بهذه الصالة ، فامتلأ فؤاده رعبا حين فكر كيف ينفق المال هناك في الميسر واللعب وعلى النسوة العاهرات · اما الان ، وقد ساقه ضيقه بالتبطل ورغبته بالفرار من تبكيت ضميره اذ تذكر انه قسا على زوجته وظلمها ، فوجه شطر ذلك المكان · لقد اكرهه ضيقه واهتياجه على ان يرى شيئا جديدا او يسمع شيئا جديدا · وهكذا اجتاز عتبه صالة الشاي الجديدة متقدما نحو الحجرة الكبيرة المتألقة، الملأى بالموائد والمنفتحة على الشارع، ودخلها في شيء غير يسير من الجسارة محاولا ان يعزز جسارته هذه ويضاعفها لان فؤاده كان خوارا ، ولانه تذكر

انه كان ـ منذ سنوات قليلة ليس غير ـ مجرد رجل فقير لا يكاد يجد في جيوبه في أيما وقت من الاوقات غير قطعة فضية واحدة ، او قطعتين فضيتين اثنتين ، ومجرد رجل اضطره الفقر حتى الى جر ركشة من الركشات في شوارع احدى المدن الجنوبية ٠

وفي بادئ الامر لم يتحدث بأيما شيء البتة في دكان الشاي الكبيرة ٠ حتى اذا دفع ثمن شايه في سكينة ، انشأ يحتسيه مجيلا في ما حوله نظرا ذاهلا مشدوها ٠ كانت هذه الدكان صالة ضخمة ، وكان سقفها قد مموه بماء الذهب ، وعلى الجدران علقت لوحات مصنوعة من نسيج حريري ابيض تمثل صور نساء ٠ الى هاته النساء كان وانغ لانغ ينظر خلسة وفي حسن انتباه ، ولقد بدا له انه يراهن في ما يراه النائم لان أحدا على ظهر الارض لم تكتحل عينه قط بمثل حسنهن ٠ اما في اليوم الاول فقد نظر اليهن واحتسى الشاي في سرعة ومضى لسبيله ٠

وسرعان ما ألف الذهاب الى صالة الشاي هذه ، يوما بعد يوم ، ما بقيت أرضه مغمورة بالمياه، فكان يدفع ثمن الشاي ويجلس وحده، ويحتسيه، ويحدق في صور النسوة الحسان ٠ وكان مقامه هناك يتطاول كل يوم ، اذ لم يكن لديه ما يفعله في أرضه او في بيته ٠ وهكذا كان خليقا به ان يستمر على هذه الحال اياما عديدة في غير انقطاع ، ذلك بأنه كان ـ برغم فضته المخبوءة في عشرين موضعا او يزيد ـ لا يزال فتى قروي الملامح ، وكان وحده بين زبائن تلك الصالة الغنية جميعا يرتدي ثوبا من قطن لا من حرير ويلقي على ظهره جديلة من الشعر لا يحمل مثلها أيما امرئ من أهل المدنية ٠ وذات يوم فيما كان جالسا الى احدى الموائد يحتسي الشاي ، قرب مؤخر الصالة ، ويحدق الى صور الحسان هبط شخص ما من سلم ضيقه معلقة بالجدار الاقصى فهي تؤدي الى الدور العلوي ٠

والواقع ان صالة الشاي هذه كانت هي البناء الوحيد المؤلف من دورين ، في تلك المدينة ، باستثناء « الباغودا الغربية » * الشامخة بأدوارها الخمسة خارج « الباب الغربي » ٠ ولكن الباغودا كانت ضيقة ، وكان ضيقها هذا يتعاظم عند الجزء الاعلى منها ، في حين ان الدور الثاني من صالة الشاي كان مربعا مثل الدور الارضي ٠ فاذا جن الليل انبعث من النوافذ العليا غناء النسوة الصارخ ، وضحك القوم الخفيف وانغام المزاهر توقعها ايدي الفتيات توقيعا رقيقا ٠ وكان في ميسور المرء ان يسمع الموسيقى

* الباغودا في الهند وبورما والصين ، هيكل او بناء مقدس برجي الشكل متعدد الادوار او الطبقات ٠

متدفقة الى الشوارع ، وبخاصة بعد منتصف الليل ، على الرغم من ان ضجيج الزبائن الكثر المحتسين الشاي وقعقعة النرد والدومينو كانا يطغيان ، حيث تعود وانغ لانغ ان يجلس ، على كل صوت آخر ٠

وهذا هو السبب الذي من أجله لم يسمع وانغ لانغ ، تلك الليلة ، وقع قدمي امرأة تهبط السلم الضيقة من خلفه محدثة صريرا واضحا ٠ وهكذا حدق في قوة عندما مس شخص ما كتفه ، غير متوقع ان يعرفه هناك أحد ٠ حتى اذا رفع بصره وجد أمامه وجه امرأة ضيقا وسيما ، وجه كوكو ، المرأة التي أفرغ في يديها الجواهر يوم اشترى الارض والتي ثبتت يدها يد الرجل العجوز المرتعشة وساعدته على مهر صك البيع بخاتمه ٠ وضحكت عندما رأته ، وكان ضحكها ضربا من همس حاد ٠

وقالت وهي تمط لفظة « فلاح » في خبث :

ـ « هاي ! ولكنك وانغ الفلاح ! ومن ذا الذي كان يتوقع ان يراك هنا ؟ »

لقد بدا لوانغ لانغ ، انذاك ، ان عليه ان يثبت لهذه المرأة ـ بأي ثمن ـ أنه كان أكثر من مجرد قروي ساذج ، فضحك وقال في صوت مرتفع أكثر مما ينبغي :

ـ « أليست أموالي صالحة للانفاق بقدر أموال أي رجل آخر ؟ والمال لا يعوزني في هذه الايام ٠ لقد حالفني حظ سعيد ٠ »

وتوقفت كوكو عند هذا ٠ كانت عيناها ضيقتين لامعتين مثل عيني أفعى ، وكان صوتها ناعما كالزيت جاريا من اناء ٠

ـ « ومن الذي لم يسمع بذلك ؟ وأنى يستطيع رجل ان ينفق ما يفيض لديه من مال على نحو أفضل من انفاقه في مكان مثل هذا ، حيث يفد الاغنياء التماسا للمتعة ، وحيث يجتمع السادة المتأنقون فيطعمون ويلهون ؟ ان لدينا خمرا يعز نظيرها ـ هل ذقتها ، يا وانغ لانغ ؟ »

فأجابها وانغ لانغ نصف خجل :

ـ « انا لم اشرب في يوم من الايام غير الشاي ٠ أنا لم أمس الخمر او النردفي حياتي قط ٠ »

فصاحت في وجهه ، مطلقة ضحكة مجلجلة :

ـ « شاي ! ولكن لدينا خمرة « عظم النمر » ، وخمرة الفجر ، وخمرة الارز الارجة ٠٠٠ فعلام تضطر الى شرب الشاي ؟ »

وخفض وانغ لانغ رأسه ، فقالت في رقة وختل :

ـ « وأحسب انك لم تنظر قط الى ايما شيء آخر ، أليس كذلك ؟ لم

تنظر الى اية ايد صغيرة جميلة او الى اية وجنات فواحة بالعبير ؟ »

وغالى وانغ لانغ في خفض رأسه وانتشر الدم الاحمر في وجهه، واستشعر وكأن كل امرىء حوله كان ينظر اليه في سخرية مصغيا الى صوت المرأة • حتى اذا تجرأ على اجالة النظر ، من تحت جفنيه ، في ما حوله وجد ان القوم في شغل شاغل عنه • وانفجرت طقطقات النرد من جديد ، فقال في اضطراب :

ـ « لا ••• لا ••• انا لم اعرف شيئا من هذا ••• انا لم اعرف غير الشاي ••• »

عندئذ ضحكت المرأة كرة اخرى ، واشارت الى الصور المرسومة على اللوحات الحريرية ، وقالت :

ـ « ها هن امامك ، أعني صورهن • اختر الحسناء التي تريد أن تراها ، وضع الفضة في يدي اجئك بها في الحال • »

فقال وانغ لانغ مشدوها :

ـ « هذه ؟ لقد حسبت انها صور نساء خياليات كاللواتي يراهن المرء في الحلم ، او انها صور الاهات في جبل كوين لوين كاللواتي يتحدث عنهن القصاص الشعبي ! »

فاجابت كوكو في مرح ساخر :

ـ « لست مخطئا ، فهن نساء من النوع الذي يراه المرء في الاحلام ، ولكنها أحلام تستطيع قطع فضية معدودات ان تحيلها الى لحم ودم • »

ومضت لسبيلها ، هازة رأسها ، غامزة الخدم الواقفين هناك ، مشيرة الى وانغ لانغ وكأنها تقول : « هو ذا قروي ابله ! »

ولكن وانغ لانغ راح يحدق الى الصور في شوق جديد • واذن ، ففي اعلى هذه السلم الضيقة ، في الغرف التي فوقه ، كانت هاته النسوة بلحمهن ودمهن، وكان رجال يصعدون للاجتماع بهن ـ رجال غيره طبعا ،ولكنهم رجال على أية حال ! حسنا ، لو لم يكن الرجل الذي كانه ، عاملا صالحا،رجلاذازوجةواولاد، فاي صورة كان يختار ـ متظاهرا كما يتظاهر طفل ان في استطاعته ان يفعل شيئا معينا ـ اي صورة كان يتظاهر باخذها ؟ وانعم النظر الى كل من الوجوه المرسومة على الحرير ، وقد استبد به الشوق ، وكأنها كانت كائنات حقيقية • كانت قد تراءت له ، من قبل ، متكافئة الجمال • من قبل ، عندما لم يكن ثمة مسألة اختيار • اما الان فكان بعض تلك الوجوه اجمل ، على نحو واضح ، من بعضها الاخر • ومن العشرين صورة او اكثر اختار ثلاثا كانت اكثر الصور جمالا ، ومن الثلاث اختار ايضا فوقع اختياره على شيء رشيق صغير ليس لجماله من نظير ، على جسد خفيف كالخيزران ووجه صغير محدد

كوجه هرة صغيرة ، ويد تحمل غصنا عليه زهرة لوتس مبرعمة ، كانت تلك اليد دقيقة مثل أعنام * المنشار غير الملتفة ·

وحدق الى هذه الصورة ، وفيما هو يحدق تدفقت في عروقه حرارة شبيهة بحرارة الخمر ·

وفجأة ، قال في صوت مرتفع :

ـ « انها كالزهرة على غصن شجرة سفرجل · »

واذ سمع صوته الم به الذعر والخجل ، وسارع الى النهوض ، ودفع حسابه ، وغادر المكان · كانت العتمة قد هبطت ، فانقلب عائدا الى بيته·

ولكن فوق الحقول وفوق المساء انبسط ضياء القمر مثل شبكة من ضباب فضي ، وفي جسم وانغ لانغ جرى الدم خفيا ، حارا ، متسارعا ·

١٩

حسنا ، لو ان المياه انحسرت الآن عن ارض وانغ لانغ ، تاركة اياها ندية متبخرة تحت اشعة الشمس بحيث لا تنقضي غير ايام معدودات من حرارة الصيف حتى تصبح في حاجة الى ان تحرث وتمهد وينثر فيها البذار اذن لما استطاع وانغ لانغ ان يعاود الذهاب الى صالة الشاي الكبيرة · ولو ان احد اولاده لزم فراش المرض او لو ان الرجل العجوز انتهى فجأة الى ايامه الاخيرة اذن لشغل وانغ لانغ بالامر الجديد ولنسي الوجه المستدق المرسوم على اللوحة الحريرية وجسد المرأة الرشيق مثل قضيب الخيرزان ·

ولكن المياه ظلت راكدة جامدة لا يداعبها غير نسيم الصيف الخفيف الذي كان يهب عند الغروب ··· في حين ظل الرجل العجوز يهوم كدأبه ، وظل الصبيان يدرجان الى المدرسة مع الفجر فلا يعودان الى البيت حتى يهبط الليل · وهكذا استبد الضيق بوانغ لانغ ، فهو يجتنب نظرات او ـ لان التي كانت ترنو اليه على نحو بائس فيما كان يروح في بيته ويجيء ملقيا بنفسه على كرسي حينا،ناهضا عنه حينا من غير ان يشرب ما صبته له زوجته من الشاي، ومن غير ان يدخن البيبة التي اشعلها · وفي ختام يوم طويل من ايام الشهر السابع ، يوم اطول من الايام السالفة جميعا ، عندما توانى الغسق مدمدما عذبا مع انفاس البحيرة ، وقف وانغ لانغ بباب بيته واستدار فجأة من غير

* العنم : خيوط تتعلق بها الكرمة في تعاريشها

ان ينطق بكلمة ومضى الى حجرته وارتدى ثوبه الجديد ، ذلك الثوب الاسود اللامـع الـذي خاطته لـه او ـ لان ليلبسه في الاعياد ، والذي كـان يضاهي بلمعانه الحرير او يكاد • ومن غير ان يقول لاحد ايما كلمة اتخذ سبيلـــه في المجازات الضيقة الممتدة على تخوم المياه وعبر الحقول حتى انتهى الى ظلمـة باب المدينة ، فاجتازه وراح يطوي الشوارع الى ان بلغ صالة الشـــاي الجديدة •

وهناك كان كل شيء مضاء • وتحت مصابيح نفطية ساطعة لا تشتري الا من مدن الساحل الاجنبية قعد الزبائن وطفقوا يشربون ويتسامرون • كانت اثوابهم مشرعة لنسيم المساء العليل ، وفي كل مكان كانت المراوح تروح وتجيء وكانت الضحكات القلبية تنساب الى الشارع وكأنها نغمات الموسيقى • كان كل الابتهاج الذي لم يقع عليه وانغ لانغ في عمله اليومي في الحقول محتجزا هنا ضمن جدران هذا البيت حيث يجتمع الناس ليعبثوا ، لا ليعملوا البتة •

وعند العتبة تردد وانغ لانغ ووقف تحت الضياء الساطع المتدفق مـن الابواب المشرعة • ولقد كان من المحتمل ان ينتهي تردده بالعودة من حيث اتى ذلك بأنه كان لا يزال يستشعر في قرارة نفسه جزعا وجبنا على الرغم من ان اندفاع الدم في جسده كان يفجر عروقه تفجيرا ، لولا ان انبثقت من الظـــلال المتاخمة للضوء امرأة كانت من قبل متكئة في تكاسل على الابواب • كانـت هذه المرأة هي كوكو • وتقدمت لدن رؤيتها وافدا جديدا ، اذ كانت مهمتها ان تغري الزبائن بالاتصال بغانيات الصالة ، ولكنها ما ان عرفت هوية الوافد الجديد حتى هزت كتفيها وقالت :

ــ « آه ، انه الفلاح لا غيره ! »

ولسع وانغ باللامبالاة الحادة الراشحة من صوتها ، وامده غضبـــه المفاجىء بشجاعة لم تكن لديه في غير تلك الحال ، حتى لقد قال :

ــ « حسنا ، اليس لي الحق في ان ادخل الى البيت وفي ان اعمـــل كما يعمل الرجال الآخرون ؟ »

فهزت كتفيها من جديد ، وضحكت وقالت :

ــ « اذا كنت تملك الفضة التي يملكها الآخرون استطعت ان تفعـــل ما يفعلون • »

وأذن فيتعين عليه ان يريها انه من العظمة والغنى بحيث يفعل ما يشاء • فاقحم يده في زناره واخرجها ملأى بالفضة ، وقال للمرأة :

ــ « ايكفيك هذا ام لا يكفيك ؟ »

فحدقت الى حفنة الفضة ثم قالت في غير ما ابطاء اضافي :

ـ « تعال وقل ايهن تشاء ؟ »
فغمغم وانغ لانغ من غير ان يدري ما كان يقول :
ـ « يا الهي ، انا لا أعرف اني أريد شيئا · »
ثم ان شهوته غلبته فهمس :
ـ «تلك المرأة الصغيرة ··· تلك المرأة ذات الذقن المستدقة والوجه النحيل الصغير ، الوجه الابيض الوردي مثل زهرة سفرجل ، والتي تحمل في يدها برعما من براعم اللوتس · »

فهزت المرأة رأسها في اطمئنان وثقة ، واومأت اليه وشقت طريقها بين الموائد المزدحمة ، فتبعها وانغ لانغ وقد فصلته عنها مسافة ما · لقد بدا له ، بادىء الرأي ، ان الناس كلهم كانوا يرفعون ابصارهم ويراقبونه ، ولكنه ما ان استجمع شجاعته واجال طرفه في ما حوله حتى وجد ان ايا منهم لم يكن يلقي اليه بالا ، ما خلا واحدا او اثنين هتفا : « واذن فقد آن موعد الاجتماع بالنسوة ؟ » في حين هتف اخر : « هو ذا رجل شبق محتاج الى ان يبدأ في ساعة مبكرة ! »

ولكنهما كانا قد شرعا ، الآن ، يرتقيان السلم الضيق المستقيم ، ولقد فعل وانغ لانغ ذلك في عسر ، اذ كانت هذه هي اول مرة يرتقي فيها سلما في بيت · ومع ذلك ، فحين وصلا الى فوق الفى وانغ لانغ نفسه في بيت لا يختلف في شيء عن اي بيت ارضي ، باستثناء انه بدا في عينيه شاهقا جدا عندما اجتاز باحدى النوافذ ورفع بصره الى السماء · وقادته المرأة عبر رواق مظلم فاسد الهواء وصاحت وهي تسعى امامه :
ـ « هوذا اول رجل يفد هذه الليلة ! »

وعلى طول الرواق فتحت الابواب فجأة ، وههنا وههناك اطلت رؤوس البنات وسط رقع من الضياء كما تنبثق الازهار من اغشيتها في وجه الشمس، ولكن كوكو صاحت في قسوة :
ـ « لا ، لست انت مرادنا ، ولا انت ، ان احدا لم يسأل عن اي منكن · ان هذا الرجل يبغي الفتاة السوتشاوية القصيرة الضئيلة الجسم الوردية الوجه ··· انه يبغي لوتس ! »

فغمرت الرواق موجة من اصوات مختلطة ساخرة وصاحت فتاة قرمزية البشرة مثل زهرة الرمان ··· صاحت في صوت عريض :
ـ « فلتأخذ لوتس هذا الرجل ··· ان رائحة الحقول والثوم تفوح منه ! »

هذا الكلام سمعه وانغ لانغ ، وعلى الرغم من انه احس بكلمات

المرآة تطعنه وكأنها خنجر فقد استنكف عن الاجابة ، لانه خشي ان يكـــون قد بدا ، فعلا ، على حقيقته ـ فلاحا ساذجا • ولكنه تابع طريقه في ثقة ، عندما تذكر ما يحفل به زناره من قطع فضية • واخيرا قرعت المرأة براحة يدها احد الابواب الموصدة قرعا عنيفا ، ودخلت من غير ان تنتظر • وهناك على سرير يعلوه غطاء احمر مزهر ، كانت تجلس فتاة مهزولة الجسم •

*

لو ان احدا زعم له ان ثمة يدين صغيرتين مثل هاتين اذن لما صدقه ، يدين صغيرتين جدا ذواتي عظام رقيقة جدا ، واصابع مستدقة جدا ، واظافر طويلة مخضبة بلون وردي قاتم كلون براعم اللوتس • ولو ان احدا زعم له ان في الامكان ان توجد قدمان مثل هاتين ، قدمان صغيرتان مقحمتان في حذاء من الاطلس الوردي لا يزيد طوله على طول اصبع الانسان الوسطى ويتأرجح على نحو طفلي فوق حافة السرير ••• لو ان احدا زعم له مثل هذا الزعم اذن لما صدقه بحال •

وقعد متصلب الاوصال الى جانبها • وحدق اليها فرأى انها كانـــت كالصورة ، ولقد كان خليقا به ان يعرفها اذا ما التقاها ، ذلك بانه كان قـــد رأى الصورة من قبل • ولكن يدها الملتفة ، يدها الناعمة البيضاء كاللبن ، كانت على الخصوص مثل اليد المرسومة على الحرير • كانت يداها متشابكتين فوق حاشية ثوبها الوردي الحريري ، ولم يكن قد قام في وهمه ان في امكان المرء ان يمسهما •

ونظر اليها كما كان قد نظر الى الصورة ، فرأى جذعهـــا النحيـــل كالخيزران في سترتها القصيرة الضيقة • لقد رأى الوجه الصغير المستدق مركزا في وسامته المصبغة فوق الياقة العالية المبطنة بفرو ابيـــض • رأى العينين المدورتين كالشمس ، ففهم للمرة الاولى ما الذي عناه القصاص عندما تغنوا بالعيون المشمشية التي كانت لحسان العصور الخالية • انها لم تكـن في ناظريه لحما ودما ، ولكن صورة امرأة مرسومة على القماش •

ثم انها رفعت يدها الصغيرة الملتفة ووضعتها على كتفه ، ثم امرتهـــا في بطء ، وفي بطء شديد ، على طول ذراعه • وعلى الرغم من انه لم يستشعر قط من قبل ايما لمسة في مثل هذه الخفة والرقة ، وعلى الرغم من انه لو لم يرها لما ادرك انها كانت تمر فقد نظر فرأى اليد الصغيرة تهبط فوق ذراعه واستشعر وكأن نارا اشتعلت عبر ردنه وفي لحم ذراعه ، وراقب اليد حتى انتهت الى اقصى الردن ثم سقطت ، في تردد استاذي دام لحظة ليس غير ، على

معصمه العاري ثم على تجويف يده القاسية القائمة المسترخي · وشرع يرتعد ، غير دار كيف يتقبلها ·

عندئذ سمع ضحكا خفيفا رشيقا يرن مثل جرس « باغودا » فضي عبثت به الريح · وقال صوت ناعم شبيه بالضحك :

ـ « اوه ، ما اجهلك ، ايها الفتى الكبير ! هل تعتزم ان تسلخ الليل بطوله وانت تحدق الي ؟ »

وهنا امسك يدها بكلتا يديه ، ولكن في احتراس ، لانها كانت مثل ورقة نبات جافة سريعة التقصف ، ورقة حارة وجافة ، وقال لها متوسلا ، شارد اللب :

ـ « لست اعرف شيئا ··· علميني ! »

وعلمته ·

*

وهكذا مرض وانغ لانغ ذلك المرض الذي هو اخطر ما قدر على الانسان· كان قد عانى من قبل الكدح تحت أشعة الشمس ، وعانى بلاء الرياح الجافة المثلوجة الهابة من الصحراء القاحلة ، وعانى الجوع عندما ابت الحقول ان تؤتي اكلها ، وعانى يأس العمل من غير امل في شوارع مدينة جنوبية · ولكنه لم يعان في أي من هذه الحالات مثل الذي عاناه الان تحت يد هذه الفتاة النحيلة·

ومنذ ذلك الحين انشأ وانغ لانغ يذهب كل يوم الى صالة الشاي · كان كل مساءينتظر حتى تبدي رغبتها في إستقباله ، وكان كل ليلة يدخل عليها حجرتها · لقد فعل ذلك كل ليلة ، وكل ليلة كان هو هو ذلك القروي الساذج الذي لا يعرف شيئا فهو يرتعد لدن الباب ، ويقعد متصلب الاوصال الى جانبها، وينتظر اشارة ضحكتها ، حتى اذا عصفت به الحمى وغلب عليه جوع مرضي اتبع ارشاداتها خطوة خطوة اتباعا عبوديا الى ان تحين لحظة الازمة عندما كانت ترغب ـ مثل زهرة نضجت وآن قطافها ـ ان يمتلكها امتلاكا كاملا ·

بيد انه لم يوفق قط ، في يوم من الايام ، الى امتلاكها امتلاكا كاملا ، وهذا ما كان يبقيه محموما ظمآن حتى ولو منحته مبتغاه منها · فيوم وفدت او ـ لان على بيته كانت عافية لبدنه ، وكان يشتهيها في شبق كما تشتهي بهيمة الفها ، وكان كلما اتصل بها يقع في نفسه الارتياح ثم ينساها وينصرف الى اداء عمله في الحقل راضيا مطمئنا · اما الآن فلم يكن في حبه هذه الفتاة شيء من مثل ذلك الارتياح ، ولم تكن هي لتحمل العافية الى بدنه · وفي موهن من الليل ، عندما كانت تنفض يدها منه ، دافعة اياه خارج الباب في نزق ، بيديها الصغيرتين اللتين كان يحس بهما قويتين على نحو مفاجيء فوق كتفيه ، مقحمة

قطعة الفضية في صدرها ، كان هو يمضي لسبيله جوعان كحاله ساعة وفد عليها . كان أشبه شيء برجل ميت من الظمأ شرب ماء البحر الاجاج فهو ، برغم انه ماء ، لا يزيد دمه الا ظمأ على ظمأ حتى يقضي نحبه آخر الامر، مخبلا بشربه نفسه . ودخل عليها حجرتها ونال وطره منها مرة ومرة وفي كل مرة كان يخرج من عندها وقد اعوزه الرضا والارتياح .

وطوال ذلك الصيف الحار احب وانغ لانغ هذه الفتاة على هذا النحو . انه لم يعرف عنها شيئا ، من اي بلد هي ومن هي . ذلك بانه لم يكن ينطق ، كلما خلا اليها ، غير عشرين كلمة تقريبا ، ونادرا ما كان يصغي الى تدفق حديثها الموصول ، الخفيف ، الموشح بالضحك كحديث الطفل . كان يجتزئ بالنظر الى وجهها ، ويديها ، واوضاع جسدها ، وتعبيرات عينيها الواسعتين العذبتين ، كان ثملا بتأملها . انه لم يرتو منها قط ، ولقد كان ينقلب الى بيته مع الفجر ، مبهورا غير مكتف ولا راض .

وتعاقبت الايام الى ما لا نهاية . انه لم يعد ينام في فراشه ، متذرعا بحرارة الغرفة ، فهو يفرش حصيرا تحت الخيزرانات وينام ثمة نوما متقطعا ، سالخا ساعات بكاملها يقظان محدقا الى الظلال المستدقة ترسلها اوراق الخيزران ، وقد امتلأ صدره بوجع عذب استعصى عليه فهمه .

كان اذا ما تحدث اليه احد ، زوجته او ولد من اولاده ، او اذا وفد عليه تشينغ وقال : « المياه ستنحسر وشيكا . اي البذار يجب ان نعد ؟ » صاح قائلا :

ــ « لماذا تزعجني ؟ »

وطوال الوقت بدا قلبه وكأنه يوشك ان يتفطر لانه لم يوفق الى الارتواء من تلك الفتاة .

وفيما كانت الايام تكر على هذا النحو وفيما كان لا يحيا الا لينفق ساعات النهار ريثما يهبط الليل كان لا ينظر الى وجه او ــ لان الكئيب ووجوه أولاده المغتمة ، اولئك الاولاد الذين كانوا يكفون فجأة عن اللعب كلما اقترب منهم . بل كان لا ينظر الى ابيه العجوز الذي كان يلقي عليه نظرة فاحصة ويسأله :

ــ « ما هذا الداء الذي يحيلك الى رجل ضيق الصدر سريع الغضب والذي يجعل بشرتك صفراء كالصلصال ؟ »

وبينما كانت هذه النهارات تنقضي ليهبط الليل في اثرها كانت لوتس تفعل بوانغ لانغ ما تشاء . لقد سخرت ذات يوم من جديلة شعره ، برغم انه كان ينفق جزءا من النهار في صقلها ، وقالت : « ان رجال الجنوب ليس لهم

اذناب قرود كهذه !.» فما كان منه الا ان انصرف من غير ان ينطق بكلمة وقص تلك الجديلة على الرغم من ان هزؤ الناس وسخريتهم عجزا من قبل عن اقناعه بالاقدام على هذا الصنيع ٠

وعندما رأت او ـ لان ما قد فعله صرخت في ذعر :

ـ « لقد قصصت حياتك ! »

ولكنه صاح في وجهها :

ـ « وهل كتب علي ان اظهر الى الابد بمظهر معتوه متشبث بالزي العتيق؟ ان جميع شبان المدينة يقصون شعرهم ٠ »

ومع ذلك ، فقد كان في قرارة نفسه خائفا مما فعل ٠ ومع ذلك أيضا فقد كان على استعداد لان يقص حياته اذا أمرته لوتس بذلك او رغبت فيه ، لانها كانت تملك مختلف المحاسن التي قدر له ، منذ شب عن الطوق ، ان يتمنى اجتماعها في امرأة ٠

وبدنه الاسمر القوي الذي كان لا يغسله الا نادرا ، معتبرا عرق كدحه النظيف غسلا كافيا له في الايام العادية ، هذا البدن شرع وانغ لانغ يتفحصه وكأنه بدن رجل آخر فأمسى يغسله كل يوم حتى لقد قالت زوجته يوما وقد استبد بها القلق :

ـ « سوف تقضي على حياتك بهذا الاغتسال كله ! »

واشترى من احد الدكاكين صابونة زكية الرائحة ، قطعة من مادة معطرة مستوردة من الخارج ، وفرك بها جلده ٠ واقلع منذ ذلك الحين عن اكل عروق الثوم الاخضر ، وهو شيء كان من قبل مولعا به ولوعا شديدا ، خشية ان تتضايق لوتس من رائحته البغيضة ٠

ولم يعرف احد من اهل بيته اي معنى يجب ان يستخلصه من هذه الاشياء كلها٠

ليس هذا فحسب ، بل لقد اشترى أقمشة جديدة ليتخذ منها ثيابا له ٠ وكان من دأب او ـ لان منذ دخولها بيته ان تفصل ملابسه بيديها جاعلة اياها عريضة طويلة لتكون فضفاضة على جسمه وتحتال في خياطتها على نحو متين لكي تكون قوية قادرة على الصمود ٠ بيد انه شرع الآن يسخر من تفصيلها ومن خياطتها ، فاصبح يحمل الاقمشة الى خياط في المدينة ليصنع له منها ثيابا كثياب أهل المدن : رداء من حرير رمادي رقيق يكاد يلتصق بجسده التصاقا ، وسترة من اطلس اسود ليس لها ردنان لكي يلبسها فوق ذلك الرداء٠ واشترى حذاء من السوق فكان اول حذاء لم تصنعه يدا امرأة يلبسه في حياته كلها ٠ لقد صنع من مخمل اسود كذلك الحذاء الذي كان قد رآه يصفق في عقبي السيد العجوز ٠

ولكنه استشعر الخجل من ان يرتدى ، على نحو مفاجيء ، هذه الثياب الرائعة امام او ــ لان وامام الاولاد • لقد ابقاها مطوية في ورق اسمر مزيت، وتركها في صالة الشاي عند مستخدم كان قد تعرف اليه • ولقاء اجر بعينه اجاز له المستخدم الدخول خلسة الى حجرة داخلية حيث كان يرتديها قبل ان يرتقي السلم • والى هذا ، اشترى خاتما فضيا مطليا بالذهب لكي يضعه في اصبعه • واذ نما شعره حيث كان من قبل حليقا فوق جبينه فقد راح يرجله بزيت أجنبي زكي الرائحة اشتملت عليه زجاجة صغيرة كان قد دفع قطعة فضية كاملة ثمنا لها •

ولكن او ــ لان نظرت اليه في دهش ولم تدر ما الذي ينبغي ان تفهمــه من هذا كله • ومع ذلك ، ففيما كانا يطعمان الارز ظهيرة يوم من الايام اطالت التحديق اليه ثم قالت في كآبة :

ــ « اني لارى في وجهك سيماء تذكرني بواحد من السادة اصحاب البيت الكبير • »

فاطلق وانغ لانغ ضحكة مدوية ، وقال :

ــ « وهل كتب علي ان ابدو دائما مثل فلاح من الفلاحين ، في حين نملك من الفضة ما يكفينا بل اكثر مما يكفينا ؟ »

ولكنه كان في قرارة نفسه مبتهجا جدا بملاحظة زوجته • ولقد ابدى نحوها من اللطف ، ذلك اليوم ، اكثر مما كان قد ابداه طوال ايام عديدة •

كانت الاموال ــ الفضة الثمينة ــ تتدفق الآن في يديه كالسيل • لم يكن عليه ان يدفع ثمن الساعات التي تعود ان يقضيها مع الفتاة فحسب ، بل كان عليه فوق ذلك ان يشبع رغباتها ومطالبها الصغيرة • فقد كانت تتنهد وتتشكى، وكأن فؤادها يكاد يتفطر تحت وطأة الرغبات الملحة :

ــ « اه ، مسكينة انا ! مسكينة انا ! »

حتى اذا همس ، بعد ان تعلم آخر الامر كيف يتكلم في حضرتها :

ــ « ولكن ما بالك ، يا فؤادي الصغير ؟ »

اجابته قائلة :

ــ « انت لا توقع السرور في نفسي ، اليوم ، لان الفتاة التي تحتل الحجرة المقابلة لغرفتي ، عبر الرواق ، والتي ندعوها « اليشب * الاسود » ، لها عاشق اعطاها دبوسا ذهبيا تزين به شعرها ، في حين ليس عندي انا غير هذا الدبوس

* اليشب : حجر كريم يشبه الزبرجد لكنه اصفى منه •

الفضي العتيق الذي ما فتئت اصطنعه منذ سنوات وسنوات ٠ »

عندئذ لم يستطع الا ان يهمس في اذنها ـ وكأنه كان يفعل ذلك انقاذا لحياته نفسها ـ مقصيا بعض الشيء خصلة من شعرها الناعم الاسود لكي يكحل بصره باذنيها الصغيرتين ذواتي الشحمتين الطويلتين :

ـ « لا تبتئسي ! سوف اشتري دبوسا ذهبيا لشعر جوهرتي ٠ »

ذلك بانها كانت قد علمته صيغ التحبب هذه كلها ، كما يعلم المرء كلمات جديدة لطفل من الاطفال ٠ كانت قد علمته ان يقولها لها ،ولكنه لم يكن قادرا على قولها على نحو يرضيه ٠ كان يتلعثم بها ، ولا عجب فقد كان كلامه مقصورا ـ عمره كله ـ على البذر والحصاد ، والشمس والمطر ٠

وهكذا خرجت الفضة من الجدار ومن الكيس ٠ اما او ـ لان التي كان خليقا بها في الايام الخالية ان تقول له في يسر كثير : « ولكن لماذا تخرج المال من الجدار » فقد اعتصمت الآن بالصمت ، مكتفية بمراقبته حزينة كسيرة الفؤاد ، مدركة احسن الادراك انه كان يحيا حياة منفصلة عنها بل منفصلة عن الارض ، ولكنها غير عارفة اي ضرب من الحياة كانت ٠ والواقع انها كانت قد شرعت تخافه منذ ذلك اليوم الذي رأى فيه على نحو واضح انها محرومة من جمال الشعر وجمال الجسم وان قدميها كبيرتان ٠ ولقد كانت تخشى ان تسأله ايما سؤال ، اجتنابا لغضبه الذي امسى الان محضرا على نحو موصول ٠

وأقبل يوم رجع فيه وانغ لانغ الى بيته من طريق الحقول ، وتقدم نحو زوجته فيما كانت تغسل ملابسه عند البركة ٠ لقد وقف هناك صامتا لحظة ، ثم قال لها في خشونة ، وانما كان خشنا لانه كان خجلا ، ولانه ابى ان يعترف في قرارة نفسه بخجله هذا :

ـ « اين اللؤلؤتان اللتان كانتا معك ؟ »

فاجابته في ذعر ، رافعة بصرها عن حافة البركة وعن الثياب التي كانت تضربها على حجر مسطح ناعم :

ـ « اللؤلؤتان ، انهما معي ٠ »

فغمغم غير ناظر اليها ولكن الى يديها المبللتين المتغضنتين :

ـ « لا فائدة من الاحتفاظ باللآلىء لغير ما سبب ٠ »

عندئذ قالت في اناة :

ـ « لقد فكرت ذات يوم في ان اتخذ منهما قرطين ٠ »

واذ خشيت ان يسخر منها اضافت :

ـ « في استطاعتي ان اقدمهما الى بنتنا الصغيرة في يوم زفافها ٠ »

فاجابها في صوت عال مقسيا قلبه :

ـ « وما حاجة ابنتنا الى اللآلىء ما دامت بشرتها سوداء كالتراب ؟ لقد جعلت اللآلىء للجميلات من النساء ! »

وصمت لحظة ثم صاح فجأة :

ـ « اعطيني اياهما ··· انا في حاجة اليهما ! »

عندئذ اقحمت يدها المبللة المتغضنة في صدرها واخرجت منـــه الصرة الصغيرة وقدمتها اليه وراحت تراقبه فيما كان يحل عقدتها · وتدحرجـــت اللؤلؤتان في راحة كفه ، والتمعتا في ضوء الشمس التماعا رقيقا كاملا · وضحك وانغ لانغ ·

ولكن او ـ لان استانفت ضرب ثيابه ، وحين تحدرت العبرات من عينيها بطيئة ثقيلة لم ترفع يدها لتكفكفها · كل ما فعلته انها واصلت ضرب الملابس المنشورة على الحجر بعصاها الخشبية في عزم اشد ·

٢٠

وهكذا كان جائزا ان يذهب وانغ لانغ الى ابعد من ذلك حتى لينفـــق كل ماملك من فضة لو لم يرجع عمه فجأة من غير ان يوضح اين كان واي شيء كان يفعله · لقد وقف بالباب وكانه هبط من سحابة ، في اسمال بالية غير مزررة لا يمسكها عليه ، كدابه دائما ، غير زنار لا يعرف الاحكام · كان وجهـــه كالعهد به دائما ، ولكنه بدا اليوم متغضنا مسفوعا بالشمس والريح · وحين رآهم جالسين الى المائدة يتناولون طعام الصباح المبكر افتر فمه عن ابتسامة عريضة · اما وانغ لانغ فلزم مكانه فاغر الفم ، ذلك انه كان قد نسي ان عمه لايزال على قيد الحياة ، فكان وقع هذا الوفود المفاجيء في نفسه اشبه بالوقع الذي تتركه في نفس المرء عودة رجل قادم من عالم الاموات · وطرف العجوز ، ابوه ، بعينه على نحو متواتر وانشأ يحدق ، ولم يتبين هوية الزائر الا بعد ان صاح :

ـ « حسنا ، هوذا اخي الاكبر ، وابنه ، واحفاده ، وامرأة اخي ! »

عندئذ نهض وانغ لانغ وفي قرارة نفسه روع عظيم ولكن على ظاهر وجهه وصوته مسحة من لياقة :

ـ « حسنا ، يا عم ، هل اكلت ؟ »

فاجابه عمه في صراحة :

ـ « لا · ولكني سوف آكل معكم · »

ثم انه جلس الى المائدة وادنى اليه طاسة وعودي طعام وسكب لنفسه في غير تكلف شيئا من الارز ، والسمك المالح المجفف ، والجزر المملح ، والفاصولياء المجففة التي كانت على المائدة · لقد اكل وكانه كان يتضور جوعا ، ولم ينطق احد بكلمة الا بعد ان تجرع على نحو صارخ ثلاث طاسات من حساء الارز غير المكثف مقرمشا باسنانه على عجل ، حسك السمك ولب الفاصوليا · حتى اذا شبع قال في بساطة وكأن ذلك حقه :

ـ « سوف انام الآن ، ذلك ان عيني لم تعرفا الرقاد هذه الليالي الثلاث · »

فذهل وانغ لانغ ولم يدر ما يفعل ، ثم قاده الى سرير ابيه · فرفع عمه اللحاف وتحسس القماش الجيد والقطن النظيف الجديد ، والقى نظرة على السرير الخشبي والطاولة الجيدة والكرسي الخشبي الكبير التي كان وانغ لانغ قد اشتراها لحجرة ابيه ، وقال :

ـ « حسنا ، لقد سمعت انك غني ، ولكني لم اعرف انك على مثل هذا الغنى كله · »

وانطرح على السرير وسحب اللحاف فوق كتفيه ، على الرغم من حر الصيف ، واصطنع كل شيء وكأنه ملكه ، واستسلم للرقاد من غير ما كلام اضافي ·

وانقلب وانغ لانغ الى الحجرة الوسطى مذعورا ، اذ كان يعرف جيدا ان لا سبيل منذ اليوم الى اخراج عمه من البيت بعد ان عرف ان لدى وانغ لانغ ما يغذيه به · وفكر وانغ لانغ في ذلك وفكر في زوجة عمه وقد استبد به رعب عظيم لانه ادرك ان الاثنين سوف يقيمان في بيته منذ اليوم ، وان احدا لن يقوى على منعهما من ذلك ·

وكان الذي خاف ان يكون · فبعد انقضاء الظهر تمطى عمه على السرير، آخر الامر ، وتثاءب ثلاث مرات على نحو صارخ ، وغادر الحجرة ضاما الملابس حول جسده ، وقال لوانغ لانغ :

ـ « سوف اذهب وآتي بزوجتي وولدي · نحن ثلاثة افواه ، وفي بيتك الكبير هذا لن نعدم شيئا من طعام نأكله وبعض اسمال نلبسها · »

واسقط في يد وانغ لانغ ولكنه اجاب بنظرات مكتئبة ، اذ من العار على المرء الذي وسع الله عليه في الرزق ان يطرد اخا ابيه وابن اخي ابيه من بيته· ولقد عرف وانغ لانغ انه لو فعل ذلك اذن لالبس ثوب الخزي في القرية حيث

يتمتع اليوم بالاحترام بسبب من ثرائه ، وهكذا لم يجرؤ على قول شيء · ولكنه امر العمال الزراعيين كلهم بالانتقال الى البيت القديم واخلاء الغرف الامامية· والى هذه الغرف وفد عمه ، مساء ذلك اليوم نفسه ، مصطحبا زوجته وولده · وعصف الغضب بوانغ لانغ ، وزاد غضبه احتداما اضطراره الى دفن ذلك كله في قلبه وان يرحب بانسبائه ويرد عليهم في ابتسام · فعل هذا ، على الرغم من انه كان كلما رأى وجه زوجة عمه البدين الناعم استشعر انه يكاد ينفجر غيظا ، وكلما رأى وجه ابن عمه الوقح اللئيم لم يكد يتمالك نفسه عن صفعه بيده · وطوال ثلاثة ايام لم يقصد الى المدينة بسبب من غضبه ·

حتى اذا الفوا كلهم ما قد حدث ، وقالت او ــ لان له : « اطرح هذا الغضب · لا بد من احتمال ما لا بد منه · » وحتى اذا لاحظ وانغ لانغ ان عمه وزوجة عمه وابنها سوف يظهرون قدرا كافيا من اللباقة والكياسة اكراماللطعام والملجأ اللذين نعموا به ··· حتى اذا تم ذلك كله انصرفت أفكاره على نحو أعنف من ذي قبل نحو الفتاة لوتس ، فغمغم في ما بينه وبين نفسه :

ــ « حين يمتلىء بيت الرجل بالكلاب الضارية يتعين عليه ان يلتمس الامن في مكان آخر · »

واضطرمت في صدره الحمى القديمة والالم القديم ، وكان لا يزال بعيدا عن ان ينعم بالارتياح والرضا في حبه :

والآن فأن ما لم تستطع او ــ لان ان تراه بسبب من سذاجتها ، وما لميستطع الرجل العجوز ان يراه بسبب من غباشة الشيخوخة ، وما لم يستطع تشينغ ان يراه بسبب من صداقته ، رأته امرأة عم وانغ لانغ في الحال،فصاحت والضحكة في عينيها :

ــ « آه ! ان وانغ لانغ يعتزم ان يقطف زهرة في مكان ما · »

وحين نظرت اليها او ــ لان في اتضاع ، غير فاهمة شيئا ، ضحكت وقالت كرة اخرى :

ــ « لا بد دائما من قطع البطيخة نصفين قبل ان يتمكن المرء من رؤية البذور ، اليس كذلك ؟ حسنا ، من الواضح ان زوجك متيم بحب امرأة اخرى!»

هذاالكلام سمعه وانغ لانغ يصدر من فم زوجة عمه في الرواق ، امام نافذة غرفته ، فيما كان مضطجعا ذات صباح باكر في حجرته ، وقد استبد به النعاس والكلال وذهب الحب بنشاطه كله · وسرعان ما افاق من رقاده ، وانشأ يصغي مشدوها بفطنة هذه المرأة وذكائها · وقرقر الصوت الغليظ ، متدفقا كالزيت من حنجرتها البدينة :

ــ « حسنا ، لقد رأيت كثيرا من الرجال ، وحين يصقل احدهم شعره

ويشتري ثيابا جديدة وينتعل فجأة حذاء مخمليا فعندئذ يكون ثمـــة امرأة جديدة · هذا شيء ثابت · »

واطلقت او ـ لان صوتا متقطعا · ولم يستطع وانغ لانغ ان يسمـــع ما قالته ، ولكن زوجة عمه استأنفت كلامها قائلة :

ـ « ويجب ان لا تتوهمي ، ايتها البلهاء المسكينة ، ان الرجل تكفيه امرأة واحدة · اما اذا كانت زوجة الرجل امرأة كادحة مرهقة اضنت جسدها فـي العمل من اجله فعندئذ تكون هذه المرأة اقل من كافية بالنسبة اليه · وفي مثل هذه الحال يحمله خياله ، على نحو أسرع ، الى مكان اخر ، وانت ايتهـــا البلهاء المسكينة لم تخلقي قط للاستحواذ على خيال الرجل ، فهو لا ينظر اليك الا كما ينظر الى ثور يكد من اجل خدمته · وليس من حقك ان تتذمري حيـن يصبح ذا ثروة ويشتري لنفسه امرأة اخرى يجيء بها الى بيته ، اذ الرجـــال كلهم سواء في ذلك · حتى زوجي العجوز ، الذي لا يصلح لشيء ، خليق بـه ان يفعل الشيء نفسه لولا ان المسكين لم يقدر له في ايما يوم من ايام حياته ان يكسب من الفضة ما يمكنه من مجرد اقامة الاود · »

قالت ذلك واكثر ، ولكن هذا كان كل ما سمعه وانغ لانغ وهو مضطجـع في فراشه ، لان تفكيره تركز على هذا الذي كانت قد قالته · وفجأة ادرك الوسيلة الى اشباع جوعه وظمأه الى تلك الفتاة التي احب · انه سوف يشتريها ويجيء بها الى بيته ويتخذ منها زوجة له لكي لا يكون في ميسور ايما رجل ان يفد عليها، وبذلك يتمكن من ان يأكل حتى الشبع ، ويشرب حتى الارتواء · وفي الحال ، نهض من فراشه ، وغادر غرفته ، واومأ الى امرأة عمه خلسة ، وقال عندما تبعته الى خارج الباب ، تحت النخلة حيث لم يكن في طوق احد ان يسمع ما كان يريد ان يقوله :

ـ «لقد اصغيت وسمعت ما قلته في الرواق ، وانك لعلى صواب · اني لفي حاجة الى اكثر من تلك المرأة ، ولم لا والارض التي املكها قادرة علـــى اطعامنا كلنا ؟ »

فاجابته في ذلاقة ولهفة :

ـ « ولم لا ، حقا ؟ تلك حاجة استشعرها جميع الذين وفقوا الى النجاح والاثراء · ان الشرب من كأس واحدة امر مفروض على الفقير دون غيره من الناس · »

على هذا النحو تحدثت ، عارفة ما الذي سيقوله بعد ذلك · ولقد تابع كلامه وفق ما توقعت :

« ولكن من الذي سيفاوض باسمي ويقوم بدور الوسيط ؟ ان الرجل لا

يستطيع أن يذهب الى امرأة ويقول لها : تعالي الى بيتي ٠ »

فأجابته في الحال :

ـ « اتكل في هذه المسألة علي ٠ كل ما أطلبه منك هو أن تسمي لـــي المرأة وأنا أسوي الامر كله ٠ »

عندئذ أجاب وانغ لانغ كارها حيبا ، ذلك بأنها كانت أول مرة ينطق فيها باسمها ، بصوت عال ، أمام احد من الناس :

ـ « انها المرأة التي تدعى لوتس ٠ »

لقد بدا له ان كل امرىء لا بد قد عرف لوتس وسمع بها ، ناسيا انه هو نفسه كان يجهل ، قبل شهرين قصيرين من شهور الصيف ، أنها موجودة ٠ ومن هنا ألم به شيء من ضيق الصدر عندما سألته زوجة عمه من جديد :

ـ « وأين تقيم ؟ »

فأجابها في حدة :

ـ « أين ٠٠٠ أين يمكن أن تقيم الا في صالة الشاي الكبيرة التي في شارع المدينة الرئيسي ؟ »

ـ « الصالة التي تدعى بيت الازهار ؟ »

فرد وانغ لانغ قائلا :

ـ « وهل يعقل أن تكون في غيرها ؟ »

وفكرت قليلا ، ناقرة شفتها السفلى المزمومة بأحد أصابعها ، واخيرا قالت :

ـ « لست اعرف أحدا هناك ٠ يتعين علي ان أبحث عن طريقة ، من هي مدبرة هذه المرأة ؟ »

وحين أنبأها ان مدبرتها هي كوكو ، التي كانت جارية في البيت الكبير، ضحكت وقالت :

ـ « أوه ، تلك الجارية ؟ أهذا ما فعلته بعد أن مات السيد العجوز في سريرها ذات ليلة ؟ حسنا ، لقد كان ذلك متوقعا منها ٠ »

وأرسلت من جديد ضحكتها المنقنقة ، « هيه ٠٠٠ هيه ٠٠٠ هيه ٠٠٠ »

ـ « تلك الجارية ! ولكنها مسألة بسيطة حقا ٠ كل شيء واضح ٠ تلك الجارية ! منذ البدء كانت مستعدة لان تفعل أي شيء ، ولو كلفت انشاء جبل من الجبال ، اذا ما وضعت في يدها مقدارا كافيا من الفضة ثمنا لذلك ٠ »

واذ سمع وانغ لانغ ذلك استشعر جفافا مفاجئا في حلقه ، وانطلق صوته في همس :

ـ « فضة اذن ! فضة وذهب ! أنا مستعد لدفع كل ما يجب دفعه ولـــو

كان ثمن أرضي نفسه ! »

ثم ان وانغ لانغ أبى ، بسائق من حمى غريبة مضادة من حميات الحب، أن يعاود الذهاب الى صالة الشاي الكبيرة الا بعد أن تسوى المسألة · وفي ما بينه وبين نفسه قال :

ـ « اذا رفضت أن تجيء الى بيتي وان تكون لي وحدي من دون الناس جميعا فلن أعود لرؤيتها البتة ولو احتزت حنجرتي ! »

ولكنه كان لا يكاد يفكر في هذه الكلمات ، « اذا رفضت أن تجيء » حتى يكف قلبه عن الخفقان من شدة الذعر ، فيروح يعدو كل مرة ، نحو امرأة عمه ، ويقول لها :

ـ « ان قلة المال لن تكون سببا في ايصاد الباب · » وأضاف ذات مرة : « هل قلت لكوكو ان لدي من الفضة قدرا كافيا لتحقيق رغباتي كلها ؟ » وعاود القول : «قولي لها اني لن أكلفها عمل شيء ما في بيتي ، ولكنها سوف ترتدي الاردية الحريرية ليس غير وتأكل زعانف كلاب البحر ، اذا شاءت ، كل يوم · » حتى لقد ضاق صدر المرأة البدينة بذلك ، آخر الامر ، فصاحت في وجهه ، مديرة عينيها ذات اليمين وذات الشمال :

ـ « كفى ! كفى ! هل أنا بلهاء ؟ وهل هذه هي أول مرة أجمع فيها ما بين رجل وامرأة؟ دعني وشأني أسوي لك المسألة · لقد قلت كل شيء عدة مرات · »

عندئذ لم يبق لديه ما يفعله غير قضم أظافره وترتيب البيت على عجل حتى لا تقع عينا لوتس فيه على ما يزعج او يشين · وحث أو ـ لان على القيام بعبء ذلك ، فهي تكنس وتغسل وتنقل الطاولات والكراسي ، حتى لقد ازدادت تلك المرأة المسكينة روعا على روع بعد أن ادركت الآن على الرغم من أنها لم تقل شيئا ـ ما الذي كان ينتظرها ·

وأمسى وانغ لانغ لا يطيق النوم مع أو ـ لان ، وقال في ذات نفسه : حين تصبح في البيت زوجتان اثنتان يتعين علي أن أضيف اليه غرفا جديدة وان انشيء رواقا آخر ومكانا أستطيع أن أخلو فيه الى محبوبتي · وهكذا استدعى عماله الزراعيين ـ فيما كان ينتظر مسعى امرأة عمه من أجل انجاز المسألة ـ وامرهم بأن يشيدوا رواقا جديدا يضاف الى البيت خلف الحجرة الوسطى ، وبأن يبنوا حول الرواق ثلاث غرف جديدة ، واحدة كبيرة ، واثنتان صغيرتان تحاذي كل منهما جانبا من جانبي الرواق · وحدق العمال الزراعيون اليه ولكنهم لم يجرؤوا على الاعتراض · ومن غير أن يقدم اليهم أي تفسير راح يشرف عليهم بنفسه ، وبذلك لم يعد في حاجة الى التحدث حتى مع تشينغ

عن هذا المشروع الجديد · وأعمل العمـــال معازقهم في الحقول ليصنعـوا الجدران من ترابها وليضربوا هذه الجدران تضريبا · وأرسل وانغ لانـغ الى المدينة من يشتري له آجرا للسطح ·

حتى اذا أنجزت الغرف ومهدت الارض وسويت ، اشترى قطعا مـــن الطوب رصفها العمال جنبا الى جنب ولاحموا ما بينها بالكلس ، وبذلك أمست لجحرات لوتس الثلاث أرضية طوبية صالحة · واشترى وانغ لانغ قمـاشا أحمر ليتخذ منه سجفا للابواب واشترى مائـــدة جديدة وكرسيين مزدانين بالنقوش ليوضعا الى جانبيها ولوحتين فنيتين تمثلان هضابا وماء لتعلق على الجدار خلف المائدة · واشترى صحنا أحمر مدورا مطليـــا ذا غطاء ، ووضع في ذلك الصحن شيئا من حلوى السمسم والسكاكر المزخرفة ووضع الصندوق على المائدة · ثم انه اشترى سريرا عريضا عميقا مزدانا بالنقوش ضخما حتى ليكاد يحتل وحده غرفة صغيرة ، واشترى سجفا مزهرة لتعلـق حوله · ولكنه في كل ذلك كان يستحيي من أن يسأل أو-لان أيما سؤال ، وهكذا أقبلت زوجة عمه في الامسيات وعلقت سجف السرير وانجزت المهام التي لا يحسن الرجل اداءها ·

ثم ان كل شيء قد انتهى ، ولم يبق ثمة ما يفعل · وانقضى من الايام قمر كامل * ولم تنجز المهمة التي عهد وانغ لانغ في ادائها الى امرأة عمه · وهكذا تسكع وحده في الرواق الجديد الصغير الذي كان قد بنـــاه للوتس ، وخطر له ان ينشيء بركة في وسط الرواق ، ودعا احمد العمال الزراعيين فحفر الرجل بركة مربعة كل ضلع من اضلاعها ثلاثة أقدام وكساها بالآجر ، ومضى وانغ لانغ الى المدينة واشترى لها خمس سمكات ذهبية · ثم انـه لم يعد في ميسوره ان يفكر في أيما شيء اضافي يفعله ، وكرة أخرى راح ينتظر ضيق الصدر محموما ·

وخلال هذه الفترة كلها لم يقل شيئا لاحد الا ان يكون كلامـــه تقريعا للاولاد اذا رأى أنوفهم قذرة ، او صراخا في وجه أو-لان اذا لم تسرح شعرها ثلاثة ايام متوالية او اكثر ، حتى لقد انخرطت او-لان اخر الامر ، ذات صباح، في بكاء صارخ ، كما لم يرها قط تبكي من قبل ، حتى عندما ألمت بهم المجاعة أو في أيما وقت اخر · وهكذا قال في خشونة :

– « ولكن ماذا دهاك ، يا امرأة ؟ ألا استطيع ان أسألك تسريح جديلـة شعرك من غير ان تنخرطي في البكاء ؟ »

ولكنها لم تجبه بغير قولها مرة ومرة وهي تنتحب :

* اي انقضى شهر قمري ·

ـ « لقد أنجبت لك أولادا ··· لقد أنجبت لك أولادا ··· »

وأفحم مستشعرا ضيقا بالغا ، وغمغم في ما بينه وبين نفسه ، فقد كان خجلا منها ، وهكذا تركها وشأنها · كان صحيحا انه لم تكن لديه ، من وجهة نظر القانون ، ايما شكوى على زوجته ، فقد أنجبت له ثلاثة أولاد صالحين ، أولاد لا يزالون على قيد الحياة ، فليس له من عذر غير هوى النفس ·

وكرت الايام على هذا النحو الى أن وفدت امرأة عمه ، ذات يوم ، وقالت :

ـ « لقد قضي الامر · ان المدبرة المعاونة لصاحب صالة الشاي سوف تنجز المسألة شرط أن تضع في يدها مئة قطعة فضية دفعة واحدة ، وان الفتاة سوف تفد الى بيتك اذا قدمت اليها قرطين من اليشب وخاتما من اليشب أيضا ، وخاتما ذهبيا ، وبذلتين من الاطلس وبذلتين من الحرير ، ودزينة من الاحذية، ولحافين حريريين لسريرها » ·

ومن ذلك كله لم يسمع وانغ لانغ غير هذا الجزء : « لقد قضي الامر ·· » وصاح :

ـ « ليكن ذلك ··· ليكن ذلك ··· »

وهرع الى الحجرة الداخلية وأخرج القطع الفضية وأفرغها بين يديها ، محاذرا أن يلمحه أحد ، اذ كان يكره أن يرى أيما امرىء حصيلة الحصاد الخصب ، طوال سنوات عديدة ، تضيع على هذه الشاكلة · وقال لامرأة عمه:

ـ « واحتفظي لنفسك بعشر قطع من الفضة صالحات » ·

فتظاهرت بالرفض ، متقهقرة بجسدها البدين ، ومديرة رأسها ذات اليمين وذات الشمال صائحة في همس صارخ :

ـ « لا · لن احتفظ لنفسي بشيء · نحن اسرة واحدة ، وأنت ولدي ، وانا أمك ، وانما أفعل ذلك من أجلك لا من أجل الفضة » ·

ولكن وانغ لانغ رأى يدها مبسوطة فيما كان لسانها يعلن الرفض ، فأفرغ القطع الفضية فيها ، معتبرا أنه ينفقها في وجهها الصالح ·

ثم انه اشترى شيئا من لحم الخنزير ولحم البقر وسمك المندرين وفروع الخيزران والكستناء · واشترى مجموعة من طيور الجنوب المجففة لادخالها في الحساء ، وشيئا من زعانف كلب البحر ، واشترى كل طريف من المآكل كان يعرفه ، وراح ينتظر ، اذا كان في امكان المرء أن يدعو ذلك الضيق القلق الذي استبد به انتظارا ·

وذات يوم مشرق متألق لاهب من أيام الشهر الثامن ، ذلك الشهر الذي يعتبر خاتمة الصيف ، وفدت على بيته · لقد بصر بها وانغ لانغ تقبل من بعيد · كانت محجلة في محفة خيزرانية محمولة على أكتاف الرجال ، ولقد

راقب المحفة تتمايل ذات اليمين وذات الشمال فوق المجازات الضيقة المحاذية للحقول ، ووراء المحفة كانت كوكو تمشي على الاثر • ثم ان الفزع عصف به لحظة ، وقال في ذات نفسه :

ـ « ما هذا الذي سوف أدخله الى بيتي ؟ »

وفي سرعة بالغة ارتد نصف ذاهل الى الحجرة التي اضطجع فيها طوال هذه السنوات كلها مع زوجته ، وأوصد الباب ، وهناك في ظلام الغرفة راح ينظر في اضطراب حتى سمع امرأة عمه تدعوه في صوت عال الى الخروج ، ذلك بأن المحفة كانت قد انتهت الى الباب •

عندئذ غادر غرفته في أناة ، خجلا مرتبكا وكأنه لم ير الفتاة من قبل قط ، خافضا رأسه فوق ملابسه النفيسة ، متقلب الطرف ذات اليمين وذات الشمال ولكن من غير أن ينظر الى أمام البتة • بيد أن كوكو حيته في ابتهاج :

ـ « حسنا ، اني ما كنت أعلم أننا سوف نعقد صفقة مثل هذه ! »

ثم انها تقدمت نحو المحفة التي كان الرجال قد أنزلوها عن مناكبهم ، ورفعت الستارة وألصقت لسانها بأعلى حلقها ثم باعدت ما بينهما على نحو ذي دوي وقالت :

ـ « اخرجي ، يا زهرة اللوتس ! هوذا بيتك وهوذا سيدك ! »

كان وانغ لانغ مكتئبا اعظم الاكتئاب ، ذلك بأنه رأى على وجوه حملة المحفة ابتسامات عريضة منطوية على مكر وسخرية ، وقال في ما بينه وبين نفسه :

ـ « ولكن هؤلاء ليسوا غير جماعة من المتسكعين في شوارع المدينة • انهم رعاع لا شأن لهم » •

وكان من الغضب بحيث استشعر وجهه أحمر متقدا ، ومن أجل ذلك أخذ على نفسه ان لا يقول ايما شيء بصوت مرتفع •

وعندئذ رفعت الستارة • وقبل أن يدرك ما فعل نظر فرأى الفتاة لوتس جالسة على الكرسي الظليل ، مصبغة غضة مثل زنبقة • ونسي كل شيء ، حتى غضبه على حملة المحفة المدينيين الساخرين • نسي كل شيء ما خلا انه اشترى هذه المرأة لتكون خالصة له وانها قد وفدت على منزله لتبقى فيه الى الابد • فوقف متصلب الاوصال مرتعدا وأنشأ يتأملها وهي تنهض عن الكرسي، لطيفة مثل زهرة تتمايل مع النسيم • واذ استغرق في التأمل غير قادر على رفع عينيه عنها ، فقد بسطت يدها الى كوكو وترجلت • كان رأسها مائلا بعض الشيء ، وكان جفناها منخفضين فيما راحت تمشي متمايلة متأرجحة

على قدميها الصغيرتين ، متوكئة على كوكو · حتى اذا مرت بـه لم تتحدث اليه ، ولكنها اكتفت بالهمس في اذن كوكو بصوت واهن :

ـ « أين جناحـي ؟ »

وهنا تقدمت زوجة عمه لتأخذ بيدها من الجانب الاخر ، وقادت المرأتان الفتاة الى الرواق والى الحجرات الجديدة التي بناها وانغ لانغ لها · ومن نزلاء بيت وانغ لانغ كلهم لم يكن ثمة احد حتى يراها تدخل تلك الحجرات ، ذلك بأنه كان قد طلب الى العمال الزراعيين والى تشينغ أن ينصرفوا طـوال ذلك اليوم الى العمل في حقل ناء ، وكانت أو-لان قد قصدت الى مكان ما من غير أن تقول الى أين ، وكانت قد اصطحبت توأميها الصغيريـن ، وكـان الصبيان في المدرسة ، وكان الرجل العجوز قد استسلم للرقاد مستندا الـى الجدار فلم يسمع شيئا ولم ير شيئا · أما المعتوهة المسكينة فكانت لا ترى أحدا من الغادين والرائحين وكانت لا تعرف وجه أحد غير أبيها وأمها · ولكن مـا ان دخلت لوتس جناحها حتى سحبت كوكو الستار خلفها ·

وبعد برهة خرجت امرأة عم وانغ لانغ ضاحكة في شيء مـن خبث ، ونفضت احدى يديها بالاخرى وكأنما كانت تبغي ان تزيل عنهما شيئا كـان عالقـا بهمـا ·

وقالت وهي ما تزال تضحك :

ـ « انها مثقلة بالعطور والاصباغ ، وان رائحتها اشبه ما تكون برائحة بغي عاديـة » ·

ثم أضافت في خبث أعمق :

ـ « انها ليست شابة بقدر ما تبدو ، يا ابن اخي ! واني لاجـرؤ على القول انها لو لم تكن على ابواب سن يكف فيها الرجال وشيكا عن النظر اليها لما كان في امكان اليشب في اذنيها والذهب في اصابعها وحتى الحرير والاطلس على جسدها ان تغريها بدخول بيت فلاح من الفلاحين ، ولو كان هذا الفلاح موسرا » ·

حتى اذا رأت الغضب يعصف بوجه وانغ لانغ لهذا الحديث الواضح اكثر مما ينبغي سارعت الى القول :

ـ « ولكنها جميلة حقا ، وان عيني لم تقعا على امرأة أجمل منهـا في أيما يوم من الايام · ولسوف تجدها لذيذة مثل أرز الحجارة الكريمة الثمانية في يوم عيد ، بعد هذه السنوات التي قضيتها مع جارية بيت هوانغ الغليظـة العظـام » ·

ولكن وانغ لانغ لم يجب بشيء · لقد انشأ يذرع البيت جيئة وذهوبـا ،

وأصغى غير قادر على التزام السكون · وأخيرا آنس من نفسه الجرأة على رفع الستارة الحمراء ودخول الرواق الذي بناه للوتس ، والمضي من ثم الى الغرفة المظلمة حيث كانت هي ، وهناك ظل واقفا في جانبها بقية النهار كله حتى هبوط الليل ·

وطوال هذه الفترة لم تقترب أو-لان من البيت قط · كانت قد نزعت عن الجدار ، عند مطلع الفجر ، معزقة ، ونادت ولديها التوأمين ، وأخذت قليلا من الطعام البارد لفته بورقة ملفوف ولم تعد بعد ذلك · ولكن ما ان هبط الليل حتى انقلبت الى البيت ، صامتة ، ملوثة بالتراب والوحل ، مكفهرة الوجه بالتعب ، يتبعها ولداها صامتين أيضا · ولم تقل أيما كلمة لاحد ، ولكنها مضت الى المطبخ وأعدت الطعام ووضعته على المائدة جريا على مألوف عادتها ، ونادت الرجل العجوز وقدمت اليه عودي الطعام وأطعمت المعتوهة المسكينة ، ثم أكلت بعض الشيء مع الاولاد · حتى اذا آووا للرقاد ، ولزم وانغ لانغ مكانه من المائدة وانشأ يحلم اغتسلت استعدادا للنوم ، ثم قصدت آخر الامر الى حجرتها المألوفة واضطجعت منفردة على سريرها ·

ثم ان وانغ لانغ راح يغتذي وينهل من حبه ليل نهار · كان يمضي ، يوما بعد يوم ، الى حجرة لوتس حيث كانت تضطجع مسترخية على سريرها ، ويجلس الى جانبها متابعا كل حركة من حركاتها · ولم تخرج ولو مرة واحدة في شمس الخريف المبكر الدافئة ، لقد لزمت سريرها على نحو موصول ريثما تغسل كوكو جسدها النحيل بماء فاتر ، وتفرك بشرتها بالزيت ، وتضمخ شعرها بالزيت والطيب · ذلك ان لوتس كانت قد طلبت ، في اصرار ، ان تلازمها كوكو وان تعمل خادمة في بيتها ، ولقد دفعت لها أجرا سخيا الى أبعد حدود السخاء حتى لقد آثرت المرأة خدمة امرأة واحدة على خدمة عشرين ،فعاشت هي ولوتس، سيدتها ، منفصلتين عن الاخرين في الرواق الجديد الذي كان وانغ لانغ قد شيده ·

وطوال النهار كانت الفتاة تستلقي في ظلمة غرفتها الباردة ، قاضمة ضروبا من الحلويات والفاكهة ، غير مرتدية الا رداء مفردا من حرير في مثل خضرة المروج ، وسترة صغيرة ضيقة لا تكاد تبلغ خصرها فوق سروال واسع فضفاض · على هذا النحو كان وانغ لانغ يجدها كلما دخل عليها وانشأ يغتذي وينهل من معين حبه ·

حتى اذا غربت الشمس أخرجته من لدنها بنكدها الفاتن ، وحممتها كوكو وعطرتها من جديد ، وألبستها ثيابا نضرة ، حريرا أبيض ناعما يلي جسدها مباشرة ، وحريرا دراقي اللون فوق الاردية الحريرية التي كان

وانغ لانغ قد قدمها اليها ، وانعلتهـا حذاء صغيرا موشى . وعندئذ كانت الفتاة تتمشى في الرواق وتتأمل البركة الصغيرة ذات السمكات الذهبيـة الخمس ، وكان وانغ لانغ يقف ويحدق الي روعة ما يملك .وكان جسدها يتمايل على قدميها الصغيرتين ، وفي ناظري وانغ لانغ لم يكن في العالم ما هو أجمل من قدميها الصغيرتين المستدقتين ويديها الواهنتين الملتفتين .

واغتذى وانغ لانغ ونهل من معين حبه ، ونعم بوليمة الجمال وحده ، فهو راض سعيد .

٢١

ولا يحسبن المرء ان وفود هذه الفتاة التي تدعى لوتس وخادمتها كوكو على منزل وانغ لانغ كان في ميسوره أن يتم من غير أن يحدث خضة وخلافـا من نوع ما ، على اعتبار ان امراتين أو أكثر تحت سطح واحد يعكر صفـو السلم . ولكن وانغ لانغ لم يتوقع ذلك . وعلى الرغم من أنه رأى من خـلال نظرات أو ـلان الكئيبة وشراسة كوكو أن الامر لا يجري على ما يرام فقد أبى أن يبالي بذلك ، معرضا عن كل امرىء ما بقيت نار الحب الاولى مضطرمـة الأوار في صدره .

ومع ذلك ، فقد كان وانغ لانغ يدرك ، حين يولج النهار في الليل وينقلب الليل الى فجر ، أنه لم يكن يحلم ، وان الشمس لا تزال تشرق عند الصباح ، وأن هذه المرأة لوتس هناك في بيته ، وأن القمر يطلع في أبانه ، وانها كانـت هناك لتضغط على يده ساعة يشاء . وانطفأ ظمأ حبه بعض الشيء ، ورأى أشياء كان قد عمي عنها من قبل .

لقد رأى أولا ، ان النزاع كان ناشبا بين او ـ لان وكوكو . وأثار ذلك دهشه ، اذ كان يتوقع ان تنقم او ـ لان على لوتس وتبغضها ، فكثيرا ما سمع عن حالات كهذه ، بل لقد سمع ان بعض النسوة يذهبن الـى حد الانتحـار بأدخال حبل في رافدة من خشب اذا ما جاء الرجل بامرأة أخرى الى بيته . وان بعضهن الآخر ينزعن الى توبيخه ويسعين جهدهن لتنكيد حياته جزاء ما قد فعل . ولقد سره ان تكون او ـ لان امرأة صامتة ، اذ كانت عاجزة على الاقل عن ان تفكر في سبه وتوجيه قارص الكـلام اليه . ولكنـه لم يتوقع ان غضبها ـ وهي التي سكتت عن لوتس ـ سوف ينصب على كوكو .

والواقع ان وانغ لانغ ما كان يفكر الا في ارضاء لوتس · فما ان تضرعت اليه قائلة :

ـ « دعني أتخذ من هذه المرأة خادما لي ، فانا وحيدة في هذا العالم · لقد توفي أبي وتوفيت أمي قبل ان اوفق الى النطق ، ولقد باعني عمي حالما تبرعمت مفاتني لتفرض علي حياة كالتي كنت أعيشها ، وليس لدي أحد · »

قالت ذلك وأرسلت عبراتها ، تلك العبرات التي كانت غزيرة أبدا ، مستعدة أبدا ، متألقة أبدا في آماق عينيها النجلاوين ، وما كان في ميسور وانغ لانغ أن يضن عليها بأيما شيء تطلبه منه حين ترفع بصرها اليه على هذا النحو · والى هذا ، فقد كان صحيحا أنه لم يكن لدى الفتاة من يخدمها، وأنها سوف تكون متوحدة في بيته ، ذلك بأنه كان من المتوقع ـ على نحو واضح ـ ان او ـ لان لن تخدم الزوجة الثانية ، وأنها لن تتحدث اليها او تشعر نفسها أنها موجودة في البيت اطلاقا · واذن فلم يكن ثمة غير امرأة عمه ، ولقد كان من اكره الاشياء على نفس وانغ لانغ ان يرى الى هذه المرأة تختلس النظر وتتجسس وتكون من القرب الى لوتس بحيث تتحدث معها عنه · من أجل ذلك كله كانت كوكو هي خير من تكلف خدمة لوتس ، وما كان يعرف اي امرأة أخرى قد توافق على المجيء الى داره لاداء هذه المهمة·

ولكن بدا أن او ـ لان غضبت ، حين رأت كوكو ، غضبا عميقا كالحا لم يعهده وانغ لانغ منها قط ، وما كان ليظن أنها قادرة على مثله · وكانت كوكو راغبة في انشاء علاقة ود وصداقة مع او ـ لان ، ما دامت تتناول أجرها من وانغ لانغ ، على الرغم من عدم نسيانها أنها كانت في البيت الكبير تعمل في غرفة سيد البيت على حين كانت أو ـ لان جارية مطبخ وواحدة من كثيرات · ومع ذلك ، فقد وجهت الكلام الى او ـ لان ، حين رأتها اول ما رأتها ، بلهجة ودية :

ـ « وهكذا عدنا ، يا صديقتي القديمة ، الى العيش تحت سقف بيت واحد بيت أنت السيدة فيه والزوجة الاولى ، وبكلمة أخرى ، أنت فيه بمثابة الام لي · لشد ما تغيرت الاشياء ! »

ولكن أو ـ لان اكتفت بالتحديق اليها ليس غير ، حتى اذا عرفتها وعرفت مهمتها في البيت لم تجب بشيء ، ولكنها وضعت على الارض جرة الماء التي كانت تحملها ، ومضت الى الحجرة الوسطى حيث كان وانغ لانغ يجلس في ما بين فترات حبه ، وقالت له في وضوح :

ـ « ما الذي تفعله هذه الجارية في بيتنا ؟ »

ونظر وانغ لانغ ذات اليمين وذات الشمال · لقد كان يود لو يتحدث

في صراحة وان يقول بصوت السيد النافذ : « البيت بيتي ، وكل من أجيز له دخوله سوف يدخله ، ومن أنت حتى توجهي الي هذا السؤال ؟ » ولكنه لم يستطع ، بسبب من خجل كان يستشعره في ذات نفسه حين تكــون او ــ لان أمامه ، ولقد أثار ذلك الخجل غضبه ، لانه كان لا يرى ، حين يفكر في الامر ، ايما مبرر للخجل ، فهو يفعل اكثر مما يفعله ايما رجل يجد في جيبه فضلا من فضة ٠

ومع ذلك ، فلم يستطع ان يتكلم ، فــاجتزأ بالنظر ذات اليميــن وذات الشمال ، وتظاهر بأنه نسي بيبته في بعض ملابسه الاخرى ، وراح يبحــث عنها في زناره ٠ ولكن أو ــ لان وقفت هناك على قدميهــا الضخمتين جامدة لا تريم ، وراحت تنتظر ٠ حتى اذا لم ينطق بأي شيء عاودت سؤاله فـــي صراحة ، وبالكلمات نفسها :

ــ « ما الذي تفعله هذه الجارية في بيتنا ؟ »

واذ رأى وانغ لانغ انها تطمع في جواب على ذلك السؤال ، قال فـــي صوت واهن :

ــ « وماذا يضيرك ذلك ؟ »

فقالت أو ــ لان :

ــ « لقد احتملت نظراتها المتشامخة طوال أيام شبابي في البيت الكبير واندفاعها الى المطبخ عشرين مرة في اليوم الواحد وصرخها : .« هيا ، أعدي الشاي للسيد ! » ٠٠٠ « هيا ، أعدي الطعام للسيد ! » وكانت دائما تزعــم ان هذا حِار اكثر ممــا ينبغي ، وان ذاك بــارد اكثر ممــا ينبغي ، وان ذلك مطهو على نحو رديء ، وكنت انا بشعة اكثر مما ينبغي ، وبطيئة اكثــر مما ينبغي ، وكيت اكثر مما ينبغي ، وزيت * اكثر مما ينبغي ٠٠٠ »

ولكن وانغ لانغ ظل معتصما بالصمت ، ذلك بأنه مــا كــان يدري مــا الذي يتعين عليه ان يقوله ٠

وانتظرت أو ــ لان ، حتــى اذا أحجم عن الكــلام اغرورقت عيناهــا بالعبرات النزرة الحرى ، فراحت تغمز بهما لكي تحول دون تدحرجهــا على خديها ،وأخيرا أمسكت بطرف مئزرها الازرق ، ومسحت عينيها وقالت :

ــ « انها سوف تورثني في بيتي نفسه الما مريرا ، وليس لي أم استطيع ان افزع الى بيتها ٠ »

وحين أبى وانغ لانغ الخروج على عمود الصمت ولم يعط أيما جواب على الاطلاق ، مكتفيا بالقعود وباشعال بيبته ، نظرت اليه ، بعينيها الغريبتين

* يقول العرب « كيت وزيت » كما يقولون « كيت وكيت » ٠

البكماوين الشبيهتين بعيني بهيمة عاجزة عن الكلام ، نظرات ترشح بالرثاء والحزن ، ثم مضت لسبيلها متمايلة متلمسة طريقها الى الباب بسبب من العبرات التي كادت تعميها ٠

وراقبها وانغ لانغ وهي تمضي ، وابتهج اذ وجد نفسه في الغرفة وحيدا، ولكنه كان مع ذلك خجلا ، وكان لا يزال غاضبا بسبب من خجله ذاك ، وقال مخاطبا نفسه متمتما بالكلمات في صوت مرتفع وفي اهتياج وتبرم وكأنه يتشاجر مع امرىء ما :

ــ « حسنا ، ولكني لست أول من أقدم على ذلك ، ولقد كنت برا بها ، وهناك رجال اسوأ مني ٠ »

وختم بقوله ان على أو ــ لان ان ترتضي هذه الحال وتتحملها ٠

ولكن أو ــ لان لم ترتض ولم تتحمل ، واستغرقت في أعمالها بصمت ٠ كانت تغلي الماء ، صباح كل يوم ، وتقدمه الى الرجل العجوز ، على حين كانت تقدم الشاي الى وانغ لانغ اذا لم يكن في الرواق الداخلي ٠ حتى اذا مضت كوكو لتحمل الماء الحار الى مولاتها وجدت الخلقين فارغة ، وعجزت جميع احتجاجاتها الصارخة عن أن تثير أيما استجابة عند أو ــ لان ٠ وعندئذ لم يكن أمام كوكو الا ان تغلي بنفسها الماء لمولاتها اذا ما طمعت في الفوز به ٠ ولكن أوان اعداد حساء الصباح كان يحين عندئذ فيتعذر على كوكو اصطناع الخلقين لغلي ماء اضافي ، وتواصل أو ــ لان اعداد الطعام في لامبالاة ، موصدة أذنيها دون صراخ كوكو :

ــ « وهل تريدين ان تظل مولاتي الرقيقة مضطجعة في سريرها طوال الصباح وليس ثمة جرعة ماء ترطب حنجرتها الظمأى ؟ »

ولكن أو ــ لان ما كانت لترد على ذلك ٠ كان جوابها الوحيد اقحام مقدار جديد من العشب والقش في أحشاء الفرن ناشرة اياه في عناية وحرص بالغين كدأبها في الايام الخالية حين كانت للورقة المفردة قيمة بسبب من النار التي تضرمها تحت الطعام ٠ عندئذ كانت كوكو ترفع شكواها على نحو صارخ الى وانغ لانغ فيغضب اذ يرى الى حبه يشوه بهذه الاشياء ، ويمضي الى أو ــ لان لكي يوبخها ٠ ولقد صرخ في وجهها ذات يوم :

ــ « الا تستطيعين أن تضيفي الى الخلقين ملء كيلة من ماء عند الصباح ؟ »

ولكنها أجابته وعلى وجهها كآبة أعمق من أيما كآبة قدر لها أن عرفتها من قبل :

ــ « أنا لست جارية من الجواري في هذا البيت على الاقل ٠ »

عندئذ تجاوزغضبه حد الاحتمال · فأمسك بكتف أو ـ لان وهزها هزا عنيفا وقال :

ـ « كفى حماقة ! انه ليس للخادمة ولكن للسيدة! »

وصبرت على عنفه ، ونظرت اليه ، وقالت في بساطة :

ـ « والى تلك المرأة قدمت لؤلؤتي الاثنتين! »

ثم انه رفع يده عنها ووقف صامتا لا ينطق · كان الغضب قد سكت عنه فمضى لسبيله خجلا وقال لكوكو :

ـ « سوف أقيم مستوقدا آخر ، وأنشيء مطبخا جديدا · ان الزوجة الاولى لا تعرف شيئا من ضروب الترف التي تحتاج اليها الزوجة الاخرى من أجل العناية بجسدها الشبيه بالزهرة ، والتي تفيدين منها أنت أيضا · ولسوف يكون في امكانك أن تطبخي ما تشائين فيه · »

وهكذا أصدر أمره الى العمال بأن يبنوا غرفة صغيرة ويجعلوا فيها مستوقدا طينيا ، واشترى خلقينا حسنا · ولقد سرت كوكو لقوله :

« سيكون في امكانك أن تطبخي ما تشائين فيه » ·

أما وانغ لانغ فقال في ذات نفسه ان مشكلاته قد سويت آخر الامر ، وان زوجتيه لن تتخاصما منذ اليوم ، وانه سوف يستمتع بحبه استمتاعا· وبدا له من جديد أنه لن يمل لوتس أبد الدهر ولن يمل الطريقة التي كانت تطيل بها شفتيها ، استياء وحردا ، خافضة جفنيها مثل بتلات زنبقة من الزنابق فوق عينيها النجلاوين ، والطريقة التي كان الضحك يلتمع بها من عينيها حين ترنو اليه ·

ولكن مسألة المطبخ الجديد هذه أمست ، على أية حال ، شوكة في جنبه، ذلك بان كوكو شرعت تقصد الى المدينة كل يوم وتشتري هذا الضرب أو ذاك من الاطعمة الغالية المستوردة من المدن الجنوبية ·كانت ثمة أطعمة لم يسبق له أن سمع بها قط : جوز الليشي وتمر بالعسل ، وحلوى غريبة مصنوعة من دقيق الارز ، وبندق وسكر أحمر ، وسمك أقرن * بحري ، وعشرات من الطرف الاخرى · وكانت هذه كلها تكلفه من المال اكثر مما كان يود أن يدفع ، ولكن ليس بقدرما كانت كوكو تزعم أنها دفعته ثمنا لها · لقد كان واثقا من هذا ، ومع ذلك فانه لم يجرؤ على ان يقول لها : « أنت تأكلين لحمي ! » اذ خشي ان تسوءها ملاحظة كهذه فتغضب عليه ، وان تسوء لوتس أيضا ، وهكذا لم يكن يجد ما يفعله غير اقحام يده في زناره على كره منه ·وكان ذلك اشبه بالشوكة في جنبه يوما بعد يوم · واذ لم يكن لديه من يشكو بثه اليه فقد

* أي ذو قرون

كانت تلك الشوكة تخزه أعمق فأعمق على نحو موصول ، ولقد بردت بعض الشيء من نار حبه للوتس ٠

وكان ثمة ، فوق ذلك ، شوكة أخرى صغيرة انبثقـــت من الاولى ٠ وتفصيل الامر أن امرأة عمه ، المحبة لاطايب الطعام ، كانت كثيرا ما تمضي الى الرواق الداخلي في أوقات الطعام ، حيث اخذت تسرح على هواها ٠ ولم يرتح وانغ لانغ لاختيار لوتس هذه المرأة ، دون غيرها من أهل بيته ، صديقة لها ٠ كانت النسوة الثلاث يأكلن في شهية في الاروقة الداخلية ، وكنيتحدثن في غير انقطاع ، هامسات ضاحكات ، وكان ثمة ما أعجب لوتس في زوجـة عمه ، وكانت النسوة الثلاث سعيدات بالحياة معا ،وذلك ما لم يرض وانــغ لانــغ ٠

ومع ذلك فلم يكن ثمة ما يستطيع أن يفعله ، اذ ما ان قال لها في رفق متملقا اياها :

ـ « والان ، لوتس ، يا زهرتي، لا تضيعي عذوبتك على شمطاء بدينة مثل هذه ٠ أنا اريد هذه العذوبة لنفسي ٠ وعلى أية حال ، فتلك المرأة مخلوقة خادعة غير جديرة بالثقة ٠ ولست احب أن أراها تلازمك من مطلع الشمس حتى مغربها ٠ »

حتى غلب الاستياء على لوتس ، فأجابت في نكد ، ماطة شفتيهـا مشيحة بوجهها عنه :

ـ « ولكن هل نسيت انه ليس لي أحدغيرك ، وانه لا أصدقاء لي ، واني متعودة العيش في بيت بهيج ، وفي بيتك لا يوجد غير زوجتك الاولى التـــي تكرهني وغير أولادك هؤلاء الذين هم آفتي الكبرى ، وانه ليس لي من أحد ٠ »

ثم أنها شهرت أسلحتها في وجهه ، فحظرت عليه الدخول الى غرفتها تلك الليلة ، وتشكت قائلة :

ـ « أنت لا تحبني ، اذ لو كنت تحبني اذن لرغبتفي ادخال السعادة على قلبي ٠ »

وهنا تراجع وانغ لانغ ، مهينا مهتاجا ، وأسف لما بدر منه وقال :

ـ « ليكن ما تريدين ليس غير ، والى الابد ٠ »

وغفوت له في تشامخ ، ومن ذلك الحين أمسى لا يجرؤ على معارضتها، بأية طريقة ، في رغائبها ٠ وبعد ذلك ، أضحت لوتس اذا وفد عليها ـ وهي تتحدث أو تشرب الشاي أو تأكل شيئا من الحلوى مع امرأة عمه ـ تأمره بأن ينتظر ، غير مبالية به البتة ، فكان ينأى بجانبه موسعا الخطى غاضبا لاستنكافها عن استقباله حين تكون هذه المرأة هناك ٠ وخمد حبه بعضالشيء،

على الرغم من أنه لم يدرك هو نفسه ذلك ٠

والى هذا ، فقد أثار غضبه أن تأكل امرأة عمه من الاطعمة المترفة التي تعين عليه أن يشتريها للوتس ، وأنها أصبحت أكثر بدانة وتملقا مما كانت ، ولكنه لم يستطعأن يقول شيئا ، ذلك بأن امرأة عمه كانت بارعة وكانت تعامله في كياسة ، وتطريه بكلمات عذاب ، وتقف له احتراما حين يدخل الغرفة٠

وهكذا لم يعد حبه للوتس خالصا ، كاملا ، مستغرقا روحه وجسده كل الاستغراق شأنه في الايام الاولى ٠ لقد طعن هذا الحب مرة ومرة بنبال من الغضوب * الصغيرة حتى أمست النصال تتكسر على النصال ٠٠٠ وكان واقع تلك النبال أشد مضاضة على نفسه لانه كان مضطرا الى احتمالها ولانه أمسى عاجزا حتى عن الذهاب ، بحرية ، الى أو - لان ليتحدث اليها ، بعد أن فصلت صروف الدهر ما بين حياته وحياتها ٠

ثم ان هموم وانغ لانغ ومتاعبه نبتت مثل حقل الشوك من جذر واحد وراحت تنتشر ههنا وههناك ٠ ففي ذات يوم أفاق والده فجأة من رقاده تحت أشعة الشمس - وكان يخيل الى المرء أنه أمسى عاجزا ، بحكم الشيخوخة ، عن رؤية أيما شيء - وأنشأ يترنح متوكئا على عصاه ذات الرأس الشبيه بالتنين ، هذه العصاالتي كان وانغ لانغ قد اشتراها له لمناسبة عيد ميلاده السبعين ، واتخذ سبيله نحو الباب حيث كانت ستارة بسيطة تفصل الحجرة الرئيسية عن الرواق الذي كانت لوتس تتمشى فيه ٠ والواقع أن الرجل العجوز لم يكن قد لاحظ هذا الباب من قبل قط ، حتى عندما شيد الرواق الجديد ، ويبدو انه كان يجهل ان امرأة أخرى قد أضيفت الى البيت ولم يكن وانغ لانغ قد قال له : « لقد أصبح لدي زوجة ثانية » لان الرجل العجوز كان أشد صمما من أن يفهم شيئا من أيما صوت ينبئه بشيء جديد لم يكن يتوقعه٠

ولكنه رأى في ذلك اليوم ، من غير ما دافع ظاهر ، هذا الباب الجديد فمضى اليه ،وأزاحالستارة ٠ وشاءت المصادفة أن يحدث ذلك في موهن من الليل لحظة كان وانغ لانغ ولوتس يتمشيان في الرواق ، ويقفان الى جانب البركة ، ويتأملان أسماكها ، وان تكن نظرات وانغ لانغ مركزة في المحل الاول على لوتس ٠ حتى اذا رأى الرجل العجوز ابنه واقفا الى جانب فتاة رشيقة القوام مصبغة الوجه صاح في صوت حاد مصدوع :

- « ان في البيت مومسا ! »

وأبى أن يسكت ، على الرغم من أن وانغ لانغ وقد خاف أن تغضب لوتس - ذلك بأن هذه المخلوقة الصغيرة كان في امكانها ان تصرخ وتعول

---

* جمع غضب

وتضرب يدا بيد ـ تقدم نحو العجوز وقاده الى الرواق الخارجي حيث حاول أن يهدئه قائلا :

ـ هدىء من روعك ، يا أبتي · هذه ليست مومسا ، ولكنها زوجة ثانية جئت بها الى بيتي · »

ولكن الرجل العجوز لم يسكت ، وليس يدري أحد هل سمع ما قيل له أم لا · لقد واصل صياحه : « في هذا البيت مومس ! » ثم قال فجأة وقد رأى وانغ لانغ الى جانبه : « أنا لم تكن لي غير امرأة واحدة ، وكذلك أبي لم تكن له غير امرأة واحدة ، ولقد حرثنا الارض · » واستأنف الصياح بعد فترة : « أقول إنها مومس ! »

وهكذا أفاق الرجل العجوز من رقاده الهرم المتقطع ، بضرب من الكراهية الخبيثة للوتس · كان يمضي الى باب رواقها ويصيح فجأة في الهواء :

ـ « مومس ! »

أو كان يزيح الستارة ويبصق في ضراوة على أرضية الرواق · وكان يجمع أحيانا بعض الحصى ويقذف بها بذراع واهنة الى البركة الصغيرة لكي يروع السمك ، ويعبر عن غضبه بمثل الطرائق الوضيعة التي يصطنعها طفل شرير ·

وهذا أيضا أحدث خضة في بيت وانغ لانغ ، ذلك بأنه كان يستحيي أن يوبخ أباه ،وكان يخشى غضب لوتس ، بعد أن اكتشف أنها ذات مزاج نكد وانها تفقد أعصابها في سهولة ويسر · وهذا القلق الذي كان يعصف بنفس وانغ لانغ ويحمله على الحيلولة بين أبيه وبين أغضاب لوتس كان مرهقا له، وكان عاملا آخر جعل من حبه ثقلا عليه ثقيلا ·

وذات يوم سمع صيحة منبعثة من الرواق الداخلي ، فاندفع نحوه بعد أن أدرك ان الصوت صوت لوتس ، وهناك وجد أن التوأمين الصغيرين ، الذكر والانثى ، كانا قد قادا الى الرواق الداخلي بنته الكبرى ، معتوهته المسكينة · والحق أن الاولاد الاربعة الآخرين كانوا يتساءلون دائما عن ماهية هذه السيدة التي تحيا في الرواق الداخلي ، ولكن الصبيين كانا يستشعران خجلا بالغا وكانا يعرفان احسن المعرفة لماذا كانت هناك وأي شيء كان يفعله أبوهما حين يقصد اليها ، على الرغم من أنهما لم يتبادلا الحديث عنها قط الا في ما بينهما وبين نفسيهما على نحو سري · ولكن الولدين الاصغرين ما كانا ليكتفيا باختلاس النظرات وتبادل التعليقات وتنشق العطور التي كانت تصطنعها وغمس أصابعهما في أطباق الطعام التي كانت كوكو

تنقلها من حجراتها بعد أن تتناول طعامها ·

وشكت لوتس امرها ، مرات عديدة ، الى وانغ لانغ قائلة ان اولاده يورثونها بلاء لا سبيل الى احتماله ، وتمنت لو كانت ثمة طريقة لاحتجازهم حتى تتخلص من اعناتهم · ولكن وانغ لانغ أبى ذلك ، وأجابها مازحا :

ـ « ماذا تريدين ! انهم يحبون مثل ابيهم ان يكحلوا الطرف برؤية الوجوه الجميلة ! »

ورفض أن يحول بينهم وبين الدخول الى رواقها · وكانوا هم لا يقدمون على ذلك اذا ما رأوه ، أما اذا لم يروه فعندئذ كانوا يدخلون الرواق ويغادرونه خلسة · ولكن البنت الكبرى لم تعرف شيئا من أي شيء ، فهي تكتفي بالقعود في أشعة الشمس مستندة الى جدار الرواق الخارجي ، مبتسمة، عابثة بقطعة قماشها المفتولة ·

أما في ذلك اليوم ، وكان الصبيان الكبيران في المدرسة ، فقد بدا للولدين الاصغرين أن من حق البنية المعتوهة أيضا أن ترى سيدة الرواق الداخلي ، فأخذا بيديها وجراها الى الرواق ، فوقفت وجها لوجه أمام لوتس التي لم ترها قط من قبل ، والتي قعدت وانشأت تحدق اليها · حتى اذا رأت المعتوهة حرير سترة لوتس المشرق واليشب لامعا في أذنيها استبد بها ابتهاج غريب وبسطت يديها لتتلقف الالوان المشرقة ، واطلقت ضحكة عالية ، ضحكة لم تكن غير مجرد صوت خلو من المعنى · وروعت لوتس وأعولت ، حتى لقد هرع وانغ لانغ لنجدتها · وارتعدت أوصال لوتس غضبا ، وراحت تقفز على قدميها الصغيرتين · وهزت اصبعها في وجه الفتاة البائسة الضاحكة وصرخت قائلة :

ـ « أنا لن أبقى في هذا البيت اذا ما اقتربت هذه مني · ان أحدا لم ينبئني بأن علي أن أحتمل ههنا معتوهات لعينات ، ولو قد عرفت ذلك لما وفدت الى حيث يزعجني أولادك القذرون ! »

قالت ذلك ودفعت بيدها الصبي الصغير الذي كان أدنى اليها من غيره ، والذي كان ينظر اليها فاغر الفم ممسكا بيده يد اخته التوأم ·

عندئذ أفاق الغضب الصالح في نفس وانغ لانغ ، ذلك بأنه كان يحب أولاده ، فقال في خشونة :

ـ « لن أرتضي أن يلعن أولادي على مسمع مني ، لا لن أرتضي أن تلعن حتى بلهائي الصغيرة ، كائنا من كان اللاعن ، فكيف اذا جرت اللعنة على لسانك ، أنت التي لم يحمل رحمك ولدا لايما رجل من الرجال ! »

وجمع ولديه وقال لهما :

ـ « هيا اخرجا من هنا ، يا بني ويا بنيتي ، ولا ترجعا الى رواق هذه المرأة بعد اليوم ، لانها لا تحبكما ، واذا كانت لا تحبكما فهذا يعني انها لا تحب أباكما أيضا » ٠

والتفت الى بنته الكبرى وقال في رقة بالغة :

ـ « وانت ، يا بلهائي البائسة، ارجعي الى المكان الذي تعودت الجلوس فيه تحت أشعة الشمس » ٠

فابتسمت ، وأمسك هو بيدها ، وقادها الى خارج الرواق ٠

ذلك بأن الذي استثار غضبه أقصى ما استثاره أن تتجرأ لوتس على لعن طفلته هذه ووصفها بالبله ٠ ورزح فؤاده تحت ثقل جديد من الرثاء لهذه الفتاة والتألم لحالتها البائسة ، حتى انه استنكف عن العودة الى لوتس يوما أو يومين ٠ لقد لاعب أولاده ، ومضى الى المدينة ، واشترى قرصا من حلوى الشعير لبلهائه البائسة ٠ وكان في ابتهاجها الطفلي بالحلوى الدبقة ما سرى عن نفسه ٠

حتى اذا انقلب الى رواق لوتس كرة أخرى لم يشر أي منهما الى غيابه يومين اثنين ، ولكنها بذلت جهدا خاصا لارضائه ٠ ذلك بأن امرأة عمه كانت هناك ، عند دخوله الرواق ، تحتسي الشاي ، فما كان من لوتس الا ان اعتذرت منها وقالت :

ـ « هوذا سيدي قد اقبل لرؤيتي ، ويتعين علي أن أكون مطيعة له اذ ان ذلك يوقع البهجة في نفسي » ٠

ووقفت حتى مضت المرأة لسبيلها :

ثم انها تقدمت نحو وانغ لانغ ، وأخذت بيده ، وجذبته الى وجهها وانشأت تتودد اليه ٠ أما هو ، فعلى الرغم من أنه أحبها من جديد ، فان حبه لها لم يكن خالصا كشأنه من قبل ، ولم يعد في أيما يوم من الايام القابلة خالصا كشأنه من قبل ٠

★

وانقضى الصيف آخر الامر ٠ كانت السماء ، في الصباح المبكر ، صافية باردة زرقاء كمياه البحر ٠ وهبت على الارض ريح خريفية مطهرة ، واستيقظ وانغ لانغ وكأنه كان مستغرقا في نوم عميق ٠ لقد انطلق الى باب بيته ، والقى نظرة على حقوله ، فرأى أن المياه كانت قد انحسرت ، وأن الارض تنبسط متألقة تحت الريح الباردة الجافة وتحت الشمس اللاهبة ٠

ثم ان صوتا هتف في ذات نفسه ، صوتا أعمق من الحب هتف داعيا اياه الى أرضه ٠ لقد طغى على كل صوت من أصوات حياته ، فنزع الرداء الطويل

عن جسده ، وخلع حذاءه المخملي وجوربيه الابيضين ، ورفع سرواله حتى ركبتيه ، وانتصب قويا ناشطا وصاح :

ـ « أين المعول وأين المحراث ؟ وأين بذار القمح ؟ تعال ، يا تشينغ ، يا صديقي ··· تعال ··· ادع الرجال ··· اني منطلق الى الارض ! »

٢٢

وكما شفي وانغ لانغ من داء قنوطه عندما رجع من المدينة الجنوبية وقد شدت من عزائمه تلك المرارة التي تحملها هناك ، كذلك شفي الان من داء حبه بفضل تربة حقوله السوداء الطيبة · لقد استشعر التربة الندية تحت قدميه ، واسترو عبق الارض ينبعث من الاثلام التي شقها لزرع القمح · ووزع الاوامر على عماله ، فبذلوا جهدا جبارا ذلك اليوم ، حارثين الارض هنا وهناك · ووقف وانغ لانغ خلف الثيران بادىء الامر ملهبا ظهورهـا بالسوط ، وكحل طرفه باحشاء الارض وهي تنقلب فيما كـان المحراث يشق التربة ، ثم نادى تشينغ ، وأعطاه الحبال ، وتناول هو معولا وراح يعـزق التربة فتحولت الى ذرور دلغاني دقيق ، ناعم كالسكر الاسود ، ضارب هـو الاخر الى السواد بسبب من رطوبة قشرة الارض السطحية · وانما قام بذلك لمجرد المتعة التي كان يجدها في هذا الصنيع ، لا بسبب من أيما ضرورة أو حاجة · حتى اذا ألم به الكلال استلقى على أرضه ونام ، فسرت عافية الارض في لحمه ودمه ، وبرىء من دائه ·

وحين هبط الليل ، وجنحت الشمس المتوهجة للغروب من غير أن تكدر صفحتها سحابة ما ، راح يوسع الخطى عائدا الى بيته موجع الجسد، كليلا ، ولكنه منتصر ، وأزاح ستارة الباب المؤدي الى الرواق الداخلي حيث كانت لوتس تتمشى في ملابسها الحريرية · حتى اذا رأت الى الوحل ملوثـا ثيابه صرخت مستنكرة ، وارتعدت حين اقترب منها ·

ولكنه ضحك ، وامسك يديها الصغيرتين بيديه التربتين ، وضحك كرة أخرى وقال :

ـ « وهكذا ترين ، الان ، أن سيدك ليس غير فلاح ، وانك زوجة فلاح ! »

عندئذ صرخت في حدة واهتياج :

ـ « كن أي شيء أردت ، انني لست زوجة فلاح ! »

وضحك من جديد ، وفارقها في خفة ورشاقة ٠

وأكل أرزه المسائي من غير أن ينظف يديه التربتين ، ولم يغتسل حتى قبل النوم الا على كره منه ٠ وفيما كان يغسل جسده ضحك كرة اخرى ، ذلك بأنه لم يغسله اليوم هذه المرة لايما امرأة ، وضحك لانه أمسى حرا ٠

ثم بدا لوانغ لانغ وكأنه رجع من غيبة طويلة ، وتراءى له فجأة ان عليه ان يؤدي جمهرة من الاعمال الكبيرة ٠ كانت الارض تلح في طلب الحراثة والزرع ٠ ويوما بعد يوم راح يكدح عليها فاذا بالشحوب الذي خلعه صيف حبه على بشرته ينقلب الى سمرة عميقة من أثر الشمس ، واذا بيديه اللتين كانتا قد اطرحتا قشرتيهما الصلبتين بسبب من بطالة الحب تستعيدان قسوتهما من جديد حيث ضغط المعول وحيث خلف مقبضا المحراث طابعهما ٠

كان اذا ما انقلب الى بيته ظهرا ومساء يأكل في شهية من الطعام الذي أعدته له أو-لان : أرز طيب ، وملفوف ، وفاصوليا ، وثوم اخضر لف في رقاقات من خبز القمح ٠ وحين كانت لوتس تسد انفها عند وفوده عليها ، وتصرخ مشمئزة من ريحه الكريهة كان يضحك ولا يبالي بشيء ويرشقها بأنفاسه القوية ، فيتعين عليها احتمال ذلك جهد طاقتها ، اذ كان يأبى الا ان يطعم مما يحب ٠ والان ، وقد استرد عافيته من جديد ، وتحرر من داء حبه فقد أمسى في ميسوره أن يقصد اليها ويقضي منها وطرا ثم يستغرق في أشياء جديدة ٠

وهكذا احتلت هاتان المرأتان مكانهما في بيته : فاما لوتس فكانت هي دميته ومتعته وكانت تشبع حبه للجمال وللصغر ولمباهج جنسها الخالص ٠ واما أو-لان فكانت امرأته العاملة والام التي انجبت له أولاده والتي أدارت شؤون بيته وأطعمته هو وأباه وأولاده مما تطهوه يداها ٠ وكان مما يوقع الاعتزاز في نفس وانغ لانغ في القرية ان الرجال كانوا يذكرون ، في شيء من الحسد ، زوجته التي في الرواق الداخلي٠ لكان اولئك الرجال كانوا يتحدثون عن جوهرة نادرة أو دمية نفيسة لا غناء فيها الا انها رمز يؤذن بأن صاحبه لم يعد مضطرا الى الاستغراق كليا في امر الغذاء والكساء وان في استطاعته ان ينفق ماله على المتعة اذا شاء ٠

وكان عمه أكثر رجال القرية اعجابا بالثراء الذي تم له وتحدثا عنه ، ذلك بأن عمه كان في تلك الايام مثل كلب يتزلف ويلتمس العطف ٠ كان يقول :

ـ « انظروا الى ابن اخي الذي يحتفظ لمتعته الشخصية بحسناء لم تقع عينا احد منا نحن الرجال العاديين على مثلها » ٠ ويقول : « وهو يدخل على زوجته التي ترتدي أردية من حرير وأطلس مثل سيدة في بيت كبير ٠ أنا

لم أر ذلك ولكن زوجتي تحدثني به ٠ » ويقول أيضا : « ان ابن اخـــي ينشىء اليوم بيتا كبيرا ، وأولاده سوف يكونون أولاد رجل ثري ، ولن يكونوا مضطرين الى العمل طوال حياتهم كلها » ٠

هكذا شرع رجال القرية ينظرون الــــى وانغ لانغ في احترام متعاظم ويتحدثون اليه لا كما يتحدثون الى واحد منهم بل الى رجل يحيا في بيت كبير، وأمسوا يفدون عليه ليستدينوا منه المال لقــــاء فائدة ، وليشاوروه في زواج ابنائهم وبناتهم ٠ واذا ما تنازع اثنان على تخوم حقل من الحقول كان يطلب الى وانغ لانغ ان يفصل في النزاع ، وكان الطرفان المتنازعان يقبلان حكمــه مهما يكن ٠

ولئن كان وانغ لانغ في الايام السالفة منهمكا في حبه ليس غير فقد شبع الان منه وانهمك في أشياء كثيرة ٠ وهطلت الامطار في ابانها ، ونبت القمح ونماء وكرت الايام ٠ وعند اقتراب فصل الشتاء حمــــل وانغ لانغ محاصيله الى الاسواق ، ذلك بأنه ادخر قمحه الــــى أن ارتفعت الاسعــار ، وهذه المــرة اصطحب ولده البكر ٠

ان المرء ليعتز اذ يرى ابنه البكر يتلو بصوت عال تلك الحروف التي خطت على الورق ، ويضع الفرشاة والحبر على قصاصة ورق ويكتب اشياء يستطيع الاخرون تلاوتها ، ولقد استشعر وانغ لانغ ، الان ، هذا الاعتــزاز بالذات ٠ لقد وقف في زهو ورأى الى ذلك يحدث ، وأبى أن يضحك عندمــا هتف المستخدمون الذين سخروا منه في ما مضى :

ـ « ان هذا الطفل ليخط حروفا جميلة ، وانه لغلام بارع ! »

ولكن وانغ لانغ ابى التظاهر بانه يعتبر من غير المألوف ان يكــون لـــــه ولد كهذا ٠ ومع ذلك ، فما ان قال الفتى في نبرة حادة وهو يقرأ : « هو ذا حرف ذو جذر خشبي في حين ان من حقه أن يكون جذره مائيا » حتى استشعر وانغ لانغ وكأن قلبه يتفجر اعتزازا وتيها ، وحتى اضطر الـــــى أن يشيح بوجهه ويسعل ويبصق على الارض انقاذا لنفسه ٠ وعندمــــا سرت بيـــن المستخدمين همهمة اعجاب بحكمة ابنه اكتفى بالقول :

ـ « غيره اذن ! اننا لن نذيل بتوقيعنا أيما شيء أخطأ الكاتب فـــي كتابتــه » ٠

ووقف في زهو وراقب ابنه وهو يرفع الفرشاة ويغير العلامة المغلوطة ٠

حتى اذا تم ذلك وكتب الابن اسم ابيه على صك بيع القمح وعلى ايصال الدفع انقلب الاثنان الى البيت معا ، الاب والابن ، وقال الاب في ما بينه وبين نفسه ان ابنه قد غدا الان رجلا وغدا ابنه البكر ، وان عليه ان يفعل ما هو

شرعي لابنه ، وان عليه ان ينصرف الى البحث لابنه عن زوجة وان يخطبها له منذ الان لكي لا يضطر ابنه الى الذهاب وكأنه الشحاذ الى احد البيوت الكبيرة كما قد فعل هو من قبل ويلتقط ما خلف هناك وما أبدى كل امرىء رغبته عنه ، ذلك بأن ابنه كان ابن رجل غني صاحب اطيان ·

وهكذا شرع وانغ لانغ يبحث عن فتاة جديرة بأن تصبح زوجة ابنه ، ولم تكن تلك المهمة مهمة يسيرة ، اذ ما كان ليرتضي لابنه امرأة عادية · وتحدث في ذلك ، ذات ليلة الى تشينغ ، بعد أن اختليا في الحجرة الوسطى ، ابتغاء دراسة ما يتعين عليهما شراؤه من بذار الربيع وتقدير ما كان لديهما من هذه البذار · انه لم يتحدث حديث من يتوقع عونا كبيرا ، إذ كان يعلم ان تشينغ ساذج اكثر مما ينبغي ، ولكنه مع ذلك كان يعرف ان الرجل ذو وفاء أشبه بوفاء كلب أمين لسيده ، ولقد كان يجد كثيرا من الراحة في الافضاء بسريرة نفسه الى امرىء كهذا ·

ووقف تشينغ في صغار بينا جلس وانغ لانغ الى الطاولة وتحدث ، ذلك بأنه جعل من دأبه ، بعد أن أمسى وانغ لانغ موسرا ، أن لا يجلس في حضرته وكأنهما متكافئان ، على الرغم من الحاح وانغ لانغ في ذلك · وقف وأنشأ يصغي في انتباه مركز بينا كان وانغ لانغ يتحدث عن ابنه وعن الخطيبة التي كان يبحث له عنها · حتى اذا أتم وانغ لانغ حديثه تنهد تشينغ وقال بصوته المتردد الذي كاد أن يكون همسا :

ـ « لو كانت بنيتي المسكينة هنا وفي صحة جيدة اذن لقدمتها اليك بالمجان وبكل طيبة خاطر · ولكني لست أدري مكانها ، وجائز أن تكون قد ماتت من غير أن أعرف » ·

فشكره وانغ لانغ ، ولكنه أبى أن يصرح بما انطوى عليه فؤاده من أن ابنه يجب أن يزوج فتاة مستواها ارفع بكثير من مستوى ابنة تشينغ ، الذي لم يكن ـ رغم انه رجل صالح ـ غير فلاح عادي يعمل على أرض رجل اخر ·

وهكذا عقد وانغ لانغ العزم على أن لا يشاور أحدا في الامر ، فجعل يصغي الى الاحاديث الدائرة في صالة الشاي كلما تكلم القوم عن الفتيات او عن اثرياء المدينة الذين بلغت بناتهم سن الزواج · ولكنه لم يقل شيئا لامرأة عمه حاجبا عنها غرضه · صحيح انها قد اظهرت كفاءة حسنة عندما احتاج هو الى امرأة من صالة الشاي يتخذها لنفسه زوجة ، وانها كانت مؤهلة للنهوض بمهمة مثل هذه ، ولكنها لم تكن تصلح للمهمة الحاضرة · انه ما كان يريد ان يعهد في تزويج ابنه الى امرأة مثل زوجة عمه التي لم يكن في ميسورها ان تعرف أيا من البنات اللواتي اعتبرهن جديرات بابنه البكر ·

وتكامل العام بالثلج وببرد الشتاء القارس • واطل عيد راس السنة ، واكلوا وشربوا ، وتوافد الرجال على وانغ لانغ ، لا من الريف فحسب بل من المدينة ايضا ، ليتمنوا له عاما سعيدا ، وقالوا :

ـ « ليس ثمة سعادة نستطيع ان نتمناها لك اعظم من سعادتك التي بها تنعم : أولاد في بيتك ، ونساء ، ومال ، وأرض » •

وعرف وانغ لانغ ـ وقد ارتدى ثوبه الحريري وأحاط بـه أولاده من جانبيه جميعا رافلين بأثواب صالحة ، وركمت الحلوى وبذور البطيخ وضروب الجوز على المائدة ، والصقت على ابوابه في كل مكـان قصاصات من ورق احمر لمناسبة العام الجديد والازدهار القادم ـ عرف ان حظه كان سعيدا •

ولكن الربيع ما لبث أن وفد ، واخضر الصفصاف اخضرارا باهتـا ، وتبرعمت شجرات الدراق على نحو قرنفلي ، ووانغ لانغ لما يجد ما كـان يلتمسه لولده •

وتعاقبت أيام الربيع طويلة حارة فاغمة بريـا زهر الخوخ والكرز ، واطلعت شجرات الصفصاف أوراقها كاملة ونشرتها ، واكتست الاشجـار ثوبا أخضر ، وكانت الارض الندية الداخنة حبلى بالحصاد، وتغير ابن وانغ لانغ البكر تغيرا مفاجئا • لقد شب عن الطوق ولم يبق طفلا • ولقد اصبح نكدا مشاكسا ، فهو لا يأكل هذا الطعام او ذاك، وهو برم بكتبه • وروع وانغ لانغ، ولم يدر لذلك معنى ولا مغزى ، وتحدث عن رغبته في استشارة طبيب مـن الاطبـاء •

ولم يكن ثمة سبيل البتة الى اصلاح الغلام • ذلك بأنه كان اذا ما قـال له والده ، بعد أن يلجأ الى وسائل الاقناع كلها : « هيا ، كل من هذا اللحـم الطيب ومن هذا الارز الممتاز » جرفته موجة من العناد والكآبة • أما اذا مـا اتفق لوانغ لانغ أن يغضب لموقف ولده هذا فعندئذ كـان ينخرط في البكـاء ويفر من الغرفة •

واستبد الدهش بوانغ لانغ ولم يستطع ان يستنتج من ذلك شيئا ، حتـى لقد كان يلحق بالغلام ويقول له بأقصى ما استطاع من رقة :

ـ « أنا أبوك ، فاطلعني على سريرة نفسك ! »

ولكن الغلام ما كان يجيبه بشيء غير التنهد وهز الراس في قوة وعنف •

ليس هذا فحسب ، بل لقد بدأ الغلام يبغض استاذه العجوز ، فهـو لا ينهض في الصباح من فراشه ليذهب الى المدرسة الا اذا صرخ وانغ لانغ في وجهه بل اذا ضربه ، وعندئذ كان يمضي مكفهر الوجه ، وفي بعض الاحيان كان يقضي أياما بكاملها متسكعا في شوارع المدينة ، ولم يعرف وانغ لانغ ذلك

الا ليلا ، عندما قال صبيه الثاني في شيء من حقد :

ـ « أخي الاكبر لم يذهب الى المدرسة اليوم » ٠

عندئذ غضب وانغ لانغ على ولده البكر ، وصرخ في وجهه :

ـ « وهل تحسب أني راغب في انفاق الفضة من أجل لا شيء ؟ » وفي غمرة من غضبه انقض على الصبي وراح يوسعه ضربا بقضيب من خيزران ، الى ان طرق ذلك سمع أو ـ لان ، أم الصبي ، فهرعت من المطبخ ، ووقفت بين ابنها وبين أبيه بحيث انهمرت الضربات عليها برغم انعطاف وانغ لانغ الى هذه الناحية أو تلك لكي يدرك الصبي ٠ ومن عجب ان الصبي ـ وهو الذي كان من دأبه ان ينخرط في البكاء لاقل توبيخ يوجه اليه ـ كان يحتمل هذا الضَرب المبرح بقضيب الخيزران غير مطلق صوتا ما ، متحجر الوجه شاحبه مثل تمثال من التماثيل ٠ ولم يستطع وانغ لانغ ان يفهم أي معنى لذلك ، على الرغم من انه فكر في هذ االامر لين نهار ٠

لقد فكر في ذلك ذات ليلة بعد أن تناول العشاء ، لانه كان قد ضرب ، ذلك اليوم ، ابنه البكر لعدم ذهابه الى المدرسة ٠ وفيما كان يقلب الرأي دخلت أو ـ لان الغرفة ٠ لقد تقدمت في صمت ووقفت أمام وانغ لانغ ، ورأى أن لديها شيئا ترغب في قوله ٠ وهكذا قال لها :

ـ « تكلمي ٠ ما وراءك ، يا أم ولدي ؟ »

فقالت :

ـ « لا فائدة تجنيها من ضرب الغلام على هذا النحو ٠ لقد رأيت هذا الشيء يصيب الاسياد الصغار في أروقة البيت الكبير ، ولقد ألم بهم مع موجة من كآبة ٠ فكان سيد القصر العجوز يبحث لهم ، عند ذلك ، عن بعض الجواري ان لم يكونوا قد وفقوا الى العثور على أي منهن بأنفسهم ٠ وسرعان ما كانت الازمة تنقضي في يسر ٠ »

فأجابها وانغ لانغ قائلا :

« ولكني لا أريد شيئا من ذلك ٠ فحين كنت أنا غلاما لم أعرف كآبة مثل هذه ، ولم اعرف لا نزقا ولا انخراطا في البكاء ، ولا جواري أيضا ٠٠٠ »

واعتصمت أو ـ لان بالصمت لحظة ثم اجابت في أناة :

ـ « أنا في الواقع لم الحظ ذلك الا على الشبان من سادة القصر ٠ لقد عملت أنت على الارض ، ولكنه اشبه ما يكون بسيد صغير من سادة القصر ، وهو يقضي معظم وقته متبطلا في البيت » ٠

ودهش وانغ لانغ ، بعد فترة من تفكير ، ذلك بأنه رأى الصدق في ما قالت ٠ صحيح انه حين كان هو غلاما لم يكن ثمة متسع من الوقت للكآبة ،

اذ كان يتعين عليه ان ينهض من فراشه مع الفجر لكي يضع النير في عنق الثور ويمضي الى الحقل مصطحبا محراثه ومعوله ، وفي موسم الحصاد كان يتعين عليه أن يعمل حتى ينقصم ظهره ، واذا ما بكى كان بكاؤه طويلا اذ لم يكن ثمة من يسمعه ، وما كان في استطاعته أن يولي فرارا كما ولى ابنه من المدرسة فرارا ، ذلك بأنه لو فعل اذن لما وجد ما يأكله لدن عودته الى البيت ،وهكذا كان مضطرا الى العمل والكدح · لقد تذكر هذا كله ، وقال مخاطبا نفسه :

ـ « ولكن ولدي ليس هكذا! · انه أرق مما كنت انا ، وأبوه رجل غني في حين كان أبي رجلا فقيرا· وهو غير مضطر الى العمل والكدح ، لان لدي في حقولي عددا كافيا من العمال الزراعيين · والى هذا فليس في استطاعة المرء أن يسوق الى الحقل عالما مثل ولدي ويكلفه الوقوف خلف المحراث » ·

وكان في سريرة نفسه معتزا بأن يكون له ولد مثل هذا ، ومن أجل ذلك قال لاو ـ لان :

ـ « اذا كان يشبه سيدا من سادة القصور الشباب فتلك قصة اخرى · ولكني لا أستطيع ان اشتري له جارية · سأخطب له احدى الفتيات ، ولسوف نزوجه عما قريب · ذلك ما ينبغي ان يعمل » ·

ثم نهض ، ومضى الى الرواق الداخلي ·

٢٣

وحين رأت لوتس الى وانغ لانغ شارد اللب في حضرتها مفكرا في أشياء أخرى غير جمالها ، مطت شفتيها متجهمة وقالت :

ـ « لو عرفت انك سوف تنظر الي ـ بعد سنة قصيرة ليس غير ـ من غير أن تراني اذن لبقيت في صالة الشاي » ·

وأشاحت بوجهها عنه فيما كانت تتكلم ونظرت اليه من زاوية عينها حتى لقد ضحك وأمسك بيدها ووضعها على خده واستروح أرجها وأجاب :

ـ « أجل ، ولكن المرء لا يستطيع ان يفكر دائما بالجوهرة التي زين بها سترته ، بيد انه اذا ما فقد تلك الجوهرة فعندئذ يعجز عن احتمال الخطب · اني افكر في هذه الايام بولدي البكر ، وكيف تقلقه الشهوة وتكدر صفو حياته · ان علي أن أزوجه ، ولكني لا أدري كيف أجد الفتاة التي يحسن به أن يتزوجها · ولست أرتضي ان يتزوج أيا من بنات فلاحي القرية ، فليس

هذا مما يليق على اية حال ، نظرا الى اننا نحمل كلانا اسم وانغ المشترك • ومع ذلك فانا لا اعرف أحدا في المدينة معرفة تمكنني من أن أقول لـه : « هـذا ابني ، وهي ذي بنتك » ، وانا أكره ان أذهب الى وسيطة محترفة خشية أن تعقد صفقة ما مع رجل له بنت مشوهة الخلقة او معتوهة » •

وكانت لوتس تنظرالى الولد البكر نظرة عطف بعد ان استوى شابـا وسيم الوجه ، فارع الطول ، فابتهجت بما قاله وانغ لانغ لها واجابت مستغرقة في التأمل :

ـ « كان ثمة رجل تعود الوفود علي في صالة الشاي الكبيرة ، وكـان كثيرا ما يتحدث عن بنته ، لانها كانت ـ كما زعم ـ مثلي انا ، ضئيلة الجسم ناعمة ، ولكنها ما تزال طفلة • وقال لي : « اني احبك مستشعرا حرجا غريبا، وكأنك بنتي التي من لحمي ودمي • انت تشبهينها كما تشبه القطرة القطرة ، وهذا هو سر انزعاجي ، لانه عمل غير شرعي » • ومن أجل ذلك هجرني ، برغم انه كان يحبني حبا جما ، ووجه وجهه نحو فتاة حمراء ضخمة الجسم يدعونها « زهرة الرمان » •

فسألها وانغ لانغ :

ـ « من أي ضرب من الناس كان ذلك الرجل ؟ »

ـ « كان رجلا صالحا ، وكانت يده مبسوطة بالفضة كل البسط ، وكان لا يعد بدفع شيء من المال الا أوفى بما وعد • ولقد كنا كلنا راغبات فيـه ، اذ لم يكن شحيحا • واذا ما اتفق ان اصاب الكلال فتاة منا لم يكن يصرخ في وجهها ، كما يفعل بعضهم ، قـائلا انه قد خدع • لا ، لقد كـان في مثل هذه الحال يقـول في كياسة أمير او كياسة رجـل متحدر من بيت علم ونبـل : « حسنا ، دونك هذه القطع الفضية ، واستريحي يا صغيرتي الـى ان يزهر الحب من جديد •» لقد كان يتحدث الينا في لطف بالغ • »

واستغرقت لوتس في تفكير عميق • وعز على وانغ لانغ ان تسترسـل في التفكير في حياتها القديمة فسارع الى ردها الى دنيا الواقع ، قائلا :

ـ « وما كانت صناعته ؟ ومن أين جاء بتلك الثروة كلها ؟ »

فاجابته :

ـ « لست أدري • ولكني احسب انه مدير لسوق من اسواق القمح • وعلى اية حال فسوف اسأل كوكو التـي تعرف كل شيء عن الرجال وعـن مصادر ثرواتهم • »

ثم انها صفقت بيديهـا فهرعت كوكو اليهـا من المطبخ ، وقد توهجت وجنتاها العاليتان وتوهج انفها بالنار • وسألتها لوتس :

ـ « من كان ذلك الرجل الطيب البدين الضخم الذي تعود الوفود علي ثم استبدل بي « زهرة الرمان » لاني كنت اشبه بنته الصغيرة الى حد اثار قلقة على الرغم من انه كان يحبني انا اكثر ؟ »

فأجابتها كوكو في الحال :

ـ « آه ، انه ليو ، تاجر القمح ٠ آه ، لقد كان رجلا صالحا ! كان يضع الفضة في راحة يدي كلما رآني ٠ »

فسألها وانغ لانغ ، في بلادة ، لانه كان حديث امرأة ولانه في أغلب الظن لن يؤتي ثمرة ما :

ـ « وأين سوقه ؟ »

فقالت كوكو :

ـ « في شارع الجسر الحجري ٠ »

ولم تكد تنهي كلامها حتى ضرب وانغ لانغ احدى يديه بالاخرى ابتهاجا وقال :

ـ « حسن جدا ٠ ذلك هو المكان الذي أبيع فيه قمحي ، وانه لشيء مناسب حقا ، وفي امكاننا ان نقدم عليه من غير ريب ٠ »

وللمرة الاولى استثير شوقه ، فقد بدا له ان من حسن الطالع ان يزوج ابنه لابنة الرجل الذي كان يشتري قمحه ٠

وكدأبها كلما كان ثمة عمل ينبغي اداؤه استروحت كوكو رائحة المال في هذا المشروع كما تستروح هرة رائحة الدهن ٠ فمسحت يديها بفضل مئزرها ، وقالت في حرارة :

ـ « أنا على استعداد لخدمة السيد » ٠

كان وانغ لانغ شاكا ٠ وفي غمرة من هذا الشك نظر الى وجهها الماكر ، ولكن لوتس قالت في ابتهاج :

ـ « ولكن هذا صحيح ٠ ان كوكو سوف تذهب وتسأل السيد ليو ، وهو يعرفها جيدا ، وفي الامكان انجاز الامر ، لان كوكو لا تعوزها البراعة ، ولسوف تنال أجر الوسيطة اذا نجحت في مهمتها » ٠

ـ « أوه ، ولسوف أنجح من غير ريب ! »

قالت كوكو ذلك في حماسة ،وضحكت اذ فكرت في الاجر يوضع في راحة يدها قطعا فضية كثيرة ، وحلت عقدة مئزرها وقالت في حرارة :

ـ « سوف أذهب الان وفي الحال ، لان اللحم جاهز للوضع على النار ، ولان الخضر قد غسلت »٠

ولكن وانغ لانغ لم يكن قد درس المسألة مليا ، وما كان في ميسوره أن

يبت فيها بمثل هذه السرعة كلها ، فهتف :

ـ « لا ، فأنا لم أقرر شيئا بعد · يجب ان أفكر في المسألة بضعة أيام ، ولسوف انبئكما بالذي يستقر عليه رأيي » ·

كانت المرأتان فارغتي الصبر : أما كوكو فابتغاء الفوز بالفضة ، وأما لوتس فلأن ذلك كان شيئا جديدا وهي في حاجة الى شيء جديد تتسلى بـــه ، ولكن وانغ لانغ تابع كلامه قائلا :

ـ « لا ، انه ولدي ولسوف أنتظر » ·

وهكذا كان خليقا به ان ينتظر بضعة أيام ، مفكرا في هذا او ذاك لــو لم يرجع الفتى ، ابنه البكر ، الى البيت ذات صباح ، مع الفجر ، متقد الوجــه أحمر الوجنتين لما قد عاقر من الخمر ، نتن النفس ، مضطرب المشية · وسمعه وانغ لانغ يترنح في الرواق ، فهرع ليرى من هناك · وكان الدوار يعصف برأس الفتى ، ولقد قاء على الارض ، ذلك بأنه لم يكن متعودا غير الخمر الخفيفة الشاحبة التي كانوا يصنعونها من أرزهم بعد تخمره ، وسقط منطرحا على الارض وسط قيئه مثل كلب من الكلاب ·

وذعر وانغ لانغ ، ونادى أو-لان ، فتعاونا على رفع الفتى عن الارض ، وغسلت أو-لان وجهه ومددته على السرير في غرفتها الخاصة · وسرعان مــا استسلم الفتى لنوم عميق هو بالموت أشبه ، فلم يكن في ميسوره ان يجيب بشيء على أسئلة أبيه ·

ثم ان وانغ لانغ مضى الى الغرفة التي ينام فيها الصبيان ، فوجــد الصبي الصغير يتثاءب ويتمطى ويشد كتبه ضمن قماشة مربعة لكي يحملهــا الى المدرسة ·

وقال وانغ لانغ له :

ـ « ألم ينم أخوك الاكبر في السرير معك ، الليلة البارحة ؟ »

فأجابه الصبي على كره منه :

ـ « لا » ·

كان شيء من الخوف يرين على محياه · واذ لمح وانغ لانغ ذلك صرخ في وجهه بخشونة :

ـ « الى أين ذهب ؟ »

حتى اذا أحجم الصبي عن الاجابة اخذ بخناقه وانشأ يهزه هزا عنيفا ويصيح :

ـ « أخبرني كل شيء ، أيها الجرو ! »

واستبد الذعر بالصبي ، فانخرط في البكاء والعويل ، وقال في صـــوت

تقطعه التنهدات :

ـ « لقد قال لي اخي الاكبر ان لا أخبرك ، وقال انـــه سوف يخزني ويحرقني بابرة حامية اذا اخبرتك · واذا لم اخبرك اعطاني بنسا » ·

وهذا فقد وانغ لانغ صوابه وصاح :

ـ « أخبرني ، أنت يا من يستحق الموت ! »

فأجال الصبي بصره في ما حوله ، وقال في يأس بعد أن أدرك أن أبـــاه سوف يخنقه اذا لم يجب :

ـ « انه لم ينم في سريره منذ ثلاث ليال · أما أين هو وأي شيء يفعل فهذا ما لا أعرفه · كل ما أعرفه هو أنه يذهب مع ابن عمك ، أعني ابـــن عمنـــا » ·

عندئذ أرخى وانغ لانغ قبضته عن عنق الصبي ودفعه جانبا وانطلـــق موسعا الخطى الى جناح عمه ، وهناك وجد ابن عمه ملتهب الوجـــه أحمر الوجنتين من أثر الشراب ، مثل ابنه نفسه ، ولكنه كان أثبت قدما · ذلك بأن هذا الشاب كان أعلى من ابنه سنا وأكثر ألفة لعادات الرجال وأسلوبهم فـــي العيش · وصاح وانغ لانغ في وجهه :

ـ « الى أين قدت ولدي ؟ »

فسخر الشاب من وانغ لانغ وقال :

ـ « ان ابن عمي في غير حاجة الى من يقوده · ان في استطاعتـــه أن يذهب وحده · »

ولكن وانغ لانغ كرر سؤاله ، وهذه المرة نازعته نفسه الى أن يقتل ابن عمه ، ذلك الشقي الوقح المحتال ، وصرخ في صوت رهيب :

ـ « أين قضى ولدي هذه الليلة ؟ »

وارتاع الشاب لصراخ وانغ لانغ فأجاب مكفهر الوجه كارها ، خافضا عينيه الوقحتين :

ـ « لقد كان عند المومس التي تسكن في الرواق الذي كان تابعا في وقـــت مضى للبيت الكبير · »

وحين سمع وانغ لانغ ذلك أطلق زفرة طويلة ، ذلك بأن تلك المومس كانت معروفة لدى كثير من الرجال ، ولم يكن يقصد اليها أحد غير الفقراء والعوام، لانها كانت قد تجاوزت مرحلة الشباب فهي مستعدة لان تمنح الشيء الكثيـــر لقاء شيء قليل · ومن غير أن ينتظر ريثما يتناول طعامه ، انطلق من بـــاب بيته وراح يعدو في الحقول · للمرة الاولى لم ير شيئا مما نما في أرضه ، ولم يلاحظ أي شيء من خصب المحاصيل الواعدة ، بسبب من البلاء الذي أورثـــه

اياه ابنه ، لقد انطلق مركز العينين الى أمام ، ودخل باب السور المحيط بالمدينة ، واندفع نحو البيت الذي كان في زمن مضى كبيرا ٠

كان مصراعا الباب الثقيلان مشرعين الان على مداهما ، ولم يكن ثمة من يوصدهما على مفصلاتهما الحديدية الغليظة اذ كان كل امرىء حرا في الدخول والخروج في تلك الايام ٠ ودخل ٠ كانت الاروقة والحجرات غاصة بأقوام من العامة استأجروا الغرف ، في كل غرفة أسرة ٠ وكان البيت قذرا ، وكانت الكثرة الكثيرة من شجرات الصنوبر القيمة قد قطعت بالفأس ، في حين كانت بقيتها الباقية تنتصب ميتة ، وكانت البرك التي في الاروقة تختنق بما ألقي فيها من نفايات ٠

ولكنه لم ير شيا من ذلك ٠ لقد وقف في رواق المنزل الاول وصاح :

ـ « أين المرأة التي تدعى يانغ ، يانغ المومس ؟ »

كان ثمة امرأة جالسة على كرسي منخفض لا ظهر له ، كرسي ذي قوائم ثلاث ، وكانت تخيط نعل حذاء ٠ ورفعت المرأة رأسها وأومأت الى باب جانبي منفتح على الرواق ، واستأنفت خياطتها وكأنما وجه اليها الرجال مثل هذا السؤال من قبل ، مرات ومرات ٠

ومضى وانغ لانغ الى الباب ، وقرعه ، فأجابه صوت متبرم :

ـ « اغرب من هنا ، فقد أديت مهمتي هذه الليلة ، وآن لي أن أنام فأنا امرأة أعمل الليل بطوله ٠ »

ولكنه قرع الباب من جديد ، فصاح الصوت :

ـ « من يقرع الباب ؟ »

وأبى أن يجيب ، ولكنه واصل القرع ، اذ كان يبتغي الدخول مهما كلف الامر ٠ وأخيرا سمع شيئا متثاقلا ، وفتحت الباب امرأة لم تعد شابة ، امرأة ذات وجه ذابل متهدل ، وشفتين غليظتين وصبغ أبيض خشن على جبينها وصبغ أحمر لم تكن قد غسلته عن فمها ووجنتيها ، ونظرت اليه وقالت في جفاف :

ـ « لا ، لا أستطيع استقبالك قبل أن يهبط الليل ، وفي ميسورك أن تبكر ما شئت في المجيء عندما تسقط العتمة ، أما الان فيجب أن أنام » ٠

لكن وانغ لانغ قاطعها في جلالة ، فقد أثار مشهدها تقززه ، وكان مجرد التفكير في أن ولده يختلف الى هذا المكان القذر شيئا وراء احتماله ٠ وقال :

ـ « اني لم آت لامر يتعلق بي ٠٠٠ فأنا غير محتاج الى امثالك ٠ ولكني أتيت لامر يتعلق بولدي ٠ »

وفجأة استشعر انتفاخا في أوداجه ونزعة الى البكاء أسفا على ولده ثم ان المرأة سألته :

ـ « وما بال ولدك ؟ »
فأجابها وانغ لانغ مرتعش الصوت :
ـ « كان هنا الليلة البارحة · »
فقالت المرأة :
ـ « كان كثير من أولاد الرجال هنا ، الليلة البارحة · ولست أدري أيهم كـان ولدك · »
عندئذ قال وانغ لانغ متوسلا :
ـ « فكري وتذكري · انه فتى صغير مهزول ، طويل القامة بالنسبة الى سنه ، ولكنه لما يبلغ بعد مبلغ الرجال ، ولم أكن أتخيل أنه يجرؤ على التماس المتعة عند امرأة · »
وتذكرت هي ، وأجابت :
ـ « لقد كانا اثنين · هل كان أحدهما فتى صغيرا ذا أنف منعطـف الرأس نحو السماء ، فتى تنم عيناه على أنه يعرف كل شيء ، ويعتمر بقبعة ممالة على احدى أذنيه ؟ والاخر ، كما تقول ، فتى ضخم طويل ، ولكنه تواق الى أن يصبح رجلا ؟ »
فقال وانغ لانغ :
ـ « أجل · · · أجل · · · ذلك هو · · · ذلك هو ولدي ! »
فقالت المرأة :
ـ « وماذا تريد مني ان أفعله بولدك هذا ؟ »
عندئذ قال وانغ لانغ في حرارة :
ـ « أريد منك ما يلي : اذا ما اتفق أن جاءك كرة أخرى فاطرديـه · · · قولي له انك لا تقبلين الا الرجال · · · قولي له ما تشائين ولكن اطرديه فـي كل مرة ! ولسوف أضع في راحة يدك ضعف أجرك من الفضة ! »
وهنا ضحكت المرأة في لا مبالاة ، وقالت في بشاشة :
ـ « وهل ثمة من لا يقول نعم حين يطلب اليه أن يأخذ أجرا من غير ان يؤدي عملا ؟ وهكذا سأقول أنا نعم أيضا · لا ريب في أني أفضل الرجـال ، فالفتية لا يوقعون الرضا في نفسي الا قليلا · »
وهزت برأسها لوانغ لانغ فيما كانت تتكلم · ونظرت اليه نظرة ذات مغزى · ولكن أساريرها الداعرة أثارت تقززه فسارع الى القول :
ـ « اذن ، اتفقنا · »
واستدار في عجل ، وانقلب الى بيته · وفيما كان يمضي لسبيله بصق مرة ومرة للتخلص من ذكرى هذه المرأة التي توقع الاشمئزاز في النفس ·

وهكذا قال لكوكو في ذلك اليوم :

ـ « ليكن كما ذكرت · اذهبي الى تاجر القمح وسوي المسألة · واذا كانت الفتاة مناسبة وكان في الامكان اجراء اتفاق فاجعلي المهر حسنا ولكن لا تجعليه ضخما جدا · »

حتى اذا قال ذلك لكوكو ارتد الى الغرفة وجلس الى جانب ابنه المستسلم للرقاد ، واستغرق في التفكير ، ذلك بأنه رأى كم كان الفتى المضطجع أمامه جميلا غض الاهاب ، ورأى الى وجهه الهادىء النضر مطمئنا رائقا من أثر النوم · حتى اذا فكر في المرأة الذابلة المصبغة وفي شفتيها الغليظتين غلب على فؤاده اشمئزاز وغضب ، وقعد هناك مغمغما في ما بينه وبين نفسه ·

وفي غضون ذلك دخلت أو ـ لان ، ووقفت تنظر الى الغلام ، فرأت العرق الغزير يغمر وجهه ، فجاءت بشيء من الخل ممزوج بماء حار ومسحت عرقه في رفق ، كما كان من دأبهم أن يغسلوا وجوه السادة الصغار في البيت الكبير اذا ما أسرفوا في الشراب · وحين بصر وانغ لانغ بالوجه الطفلي الرقيق وقد غلب عليه الرقاد حتى لقد تعذر على الغسل نفسه ان يوقظه ، نهض ومضى في غمرة من غضبه الى حجرة عمه ، ونسي أخا أبيه ولم يتذكر الا أن هذا الرجل كان أبا لذلك الشاب المتبطل الوقح الذي أفسد ولده الوسيم ، ودخل الحجرة وصاح :

ـ « لقد آويت مجموعة من الافاعي العاقة ، ولقد لدغتني في عقر داري · »

كان عمه قاعدا ، متكئا على طاولة ، يتناول طعام الصباح ، ذلك بأنه لم يكن ينهض من فراشه الا مع الظهر بعد ان رأى أن ليس لديه أيما عمل يؤديه · فلم يكد يسمع هذه الكلمات حتى رفع رأسه وقال في تكاسل :

ـ « كيف ذلك ؟ »

عندئذ أنبأه وانغ لانغ ، نصف مختنق ، بما قد حدث ، ولكن عمه لم يزد على ان ضحك وقال :

ـ « حسن ، وهل تقوى على منع غلام ما من أن يصير رجلا ؟ وهل تستطيع أن تبعد كلبا فتيا عن كلبة شاردة ؟ »

وحين سمع وانغ لانغ هذا الضحك تذكر في لحظة واحدة كل ما قدر له ان يحتمله بسبب من عمه : كيف أن عمه جرب في الايام السالفة أن يكرهه على بيع أرضه ، وكيف عاشوا هنا ـ ثلاثتهم ـ وليس لهم من عمل غير الاكل والشرب والتبطل ، وكيف كانت زوجة عمه تأكل من الطعام الغالي الذي تشتريه كوكو للوتس ، وكيف أفسد ابن عمه الان ولده الوسيم ، فعض على

لسانه وقــال :

ـ « والان اخرج من بيتي ، أنت وأهلك ، ولن ينال أي منكم ، منذ هذه الساعة ، قدرا اضافيا من الارز مهما يكن • وخليق بي أن أؤثر احراق البيت على ابقائه ملاذا لكم ، أنتم الذين تنكرون الجميل حتى في بطالتكم • »

ولكن عمه لزم مكانه وواصل تناول الطعام ، من هذه الطاسة حينا ومن تلك حينا ، ووانغ لانغ واقف هناك متميزا من الغيظ • حتى اذا رأى أن عمه لا يلقي اليه بالا ، تقدم الى أمام رافعا ذراعه ، عندئذ استدار عمه وقال :

ـ « اطردني من هنا اذا جرؤت على ذلك ! »

وعندما تمتم وانغ لانغ وانشاء يهــدد ، غير فاهــم ، « حسن ، حسن ، ولكني ••• » فتح عمه سترته وأراه ما كان لدى بطانتها •

وهنا وقف وانغ لانغ جامدا متصلبا ، ذلك بأنه رأى هناك لحية زائفــة ذات شعر أحمر ومزقة من قماش أحمر • وحدق وانغ لانغ الى هذا كله ، ففارقه الغضب وكأنه الماء الجاري ، وارتعدت أوصاله لان قواه كلها كانــت قــد خــارت •

والواقع ان هذين الشيئين ، اللحية الحمراء ومزقة القماش الحمراء ، كانا رمزين لعصابة من اللصوص تحيا على السلب والنهب نحو الشمـــال الغربي ، عصابة اضرمت النار في كثير من البيوت واختطفت كثيرا من النساء ، وشدت وثاق عدد من الفلاحين ، بالحبال ، الى عتبات بيوتهم نفسها ليجدهم الناس هناك ، في اليوم التالي ، وقد فقدوا عقولهم ان ظلوا على قيد الحياة ، واحترقوا وتصلبوا كاللحم المشوي ان قضوا نحبهم • وحدق وانــغ لانــغ ، وجحظت عيناه من محجريهما ، واستدار ومضى لسبيله من غير أن ينطــق بكلمة • وفيما هو ماض لسبيله سمع ضحكة عمه المهموسة وهو ينكب مـــن جديد على طبق أرزه •

✶

وهكذا وجد وانغ لانغ نفسه في ورطة لم يحلم بها قط • وراح عمــه وجاء ، شأنه من قبل ، ضاحكا بعض الشيء تحت الشعرات الخفيفة المتناثرة التي تتألف منها لحيته البيضاء ، وقد التف بملابسه وتمنطق بحزامه على نحو غير محكم ، وفقا لمألوف عادته ، وتصبب العرق باردا من جسم وانغ لانغ عندما رآه ، ولكنه لم يجرؤ على التلفظ بغير بعض الكلمات المجاملة ، خشية أن ينزل به عمه أذى ما • والواقع ان قطاع الطرق لم يغزوا بيته وأراضيــه طوال سنوات اثرائه هذه وبخاصة خلال السنوات التي انعدمت فيها المحاصيل أو شحت الى أبعد الحدود والتي جاع فيها الرجال الاخرون وجاع أولادهم ،

على الرغم من أن الخوف كان قد استبد به في كثير من الاحيان فأحكم ايصاد أبوابه ، ليلا ، بقضبان من حديد · وكان حتى صيف حبه لا يرتدي الا أخشن اللباس ، ويجتنب الظهور بمظهر الثروة ، حتى اذا سمع القرويين يـروون الحكايات عن السلب والنهب انقلب الى بيته ونام نوما متقطعا وراح يصغي الى الاصوات في الليل البهيم ·

ولكن اللصوص لم يقتحموا بيته قط ، فعاودته الشجاعة وغدا لا مباليا واعتقد أن السماء تحميه وأنه كان رجلا ميمون الطالع ، وأهمل كل شيء ، حتى بخور الالهة ، اذ كانت هذه الالهة ترعاه من غير ان يتقرب اليها بشيء من ذلك ، ولم يفكر الا بأرضه وشؤونه الخاصة · وفجأة أدرك سر أمنـــه وطمأنينته وفهم السبب الذي من أجله سيكون في ميسورة أن ينعم بالامـــن والطمأنينة اذا ما واصل اطعام الافواه الثلاثة التي تتألف منها أسرة عمه · وحين فكر في ذلك تصبب العرق من جسده باردا غزيرا ، ولم يجرؤ على اخبار أحد بما كان عمه يخفيه في صدره ·

ولكنه لم يعد يطالب عمه بمغادرة البيت ، وأخذ يقول لامرأة عمه بأكثر ما استطاع من الحاح :

ـ « كلي ما شئت في الاروقة الداخلية ، ودونك هذا القدر اليسير مـن الفضة لكي تنفقيه على الوجه الذي تحبين · »

أما لابن عمه فقد قال ، برغم أنه غص وهو يخاطبه :

ـ « دونك هذا القدر اليسير من الفضة ، فالشبان يحبون أن يلهـــوا ويعبثـــوا · »

ولكن وانغ لانغ حرص على ان يراقب ابنه ، وعلى ان يحول بينه وبين مغادرة البيت بعد غروب الشمس ، فأثار ذلك غضب الغلام فكان ينقض على اخوته الصغار يوسعهم ضربا ، لا لسبب اقترفوه ولكن تنفيسا عن كربـــه · وهكذا وجد وانغ لانغ نفسه مطوقا بالمتاعب والهموم ·

ولم يستطع وانغ لانغ ان يعمل ، بادىء الامر ، لاستغراقه في التفكير في كل ما حل به من بلاء · كان يفكر في هذه المشكلة حينا وفي تلك حينا ، ولقـد قال في ذات نفسه : « كان في امكاني أن أطرد عمي من البيت ، وأن أنتقل الى داخل سور المدينة حيث يوصدون الابواب الضخمة ، كل مساء ، في وجـه اللصوص · » ولكنه تذكر أنه مضطر كل يوم الى المضي للعمل في حقوله ، ومن يدري ما الذي قد يحدث له اذا ما عمل من غير ما حماية حتى على ارضه بالذات ؟ والى هذا فالمرء لا يستطيع أن يحيا حبيسا في مدينة ، وفي منـزل في المدينة ، وخليق به أن يموت اذا ما حيل بينه وبين أرضه · وفوق ذلك فلا بد

أن تصيب الناس سنة عصيبة ، وعندئذ لن تستطيع المدينة نفسهـــا مقاومـة اللصوص كما لم تستطع أن تقاومهم في الايام الماضيات عندما سقط البيـــت الكبيـــر ٠

وكان في استطاعته أن يمضي الى المدينة وان يوجه وجهه نحو المحكمة حيث يقيم القاضي ويقول له :

ــ « ان عمي هو واحد من ذوي اللحى الحمراء ٠ » *

ولكنه اذا فعل لن يصدقه القاضي ، ومن ذا الذي يصدق المرء حين يرمي أخا أبيه نفسه بمثل هذه التهمة ؟ وأغلب الظن أن هذا الموقف سوف يعود عليه هو ، لا على عمه ، بأعظم الاذى ، ولا يستبعد أن يضرب ضربا مبرحا لمسلكه العاق ٠ ولسوف يعرض ذلك حياته ، اخر الامر ، لخطر عظيم ، اذ لو تسامع اللصوص بذلك اذن لقتلوه انتقاما ٠

وزاد الطين بلة أن كوكو عادت من لدن تاجر القمح ، وعلى الرغم من أن مسألة الخطبة كانت قد سارت على ما يرام فان التاجر « ليو » لم يرغب ، في اللحظة الحاضرة ، في الذهاب الى أبعد من تبادل وثائق الخطبة ، ذلك بأن الفتاة كانت أصغر من أن تتزوج ، فهي لما تتجاوز الرابعة عشرة ، ولا بد أن يرجأ الزواج ثلاث سنوات ، وذعر وانغ لانغ اذ فكر في أنه سوف يضطر الى احتمال غضب ابنه وتبطله وعينيه الشاردتين ، ثلاث سنوات أخرى ، ذلك بأن الغلام أمسى الان لا يذهب الى المدرسة الا يومين من عشرة ٠ وصاح وانغ لانغ تلك الليلة في وجه أو ــ لان ، وهو يتناول الطعام :

ــ « يحسن بنا ان نعقد خطبة كل من أولادنا الاخرين بأسرع ما نستطيع، وكلما عجلنا كان ذلك أفضل ٠ ويحسن بنا أيضا أن نزوجهم حالما يبلغون سن المراهقة لانني لا أريد أن أشهد هذه المهزلة ثلاث مرات أخرى ! »

وفي صباح اليوم التالي ، ولم يكن قد نام خلال ساعات الليل الا غرارا ، نزع أرديته الطويلة وخلع حذاءه في عنف ، ووفقا للمألوف عادته كلما تعقـدت شؤونه البيتية أكثر مما ينبغي ، تناول معولا وتوجه الى حقوله ٠ لقد غادر البيت من طريق الرواق الخارجي حيث كانت بنته الكبرى قاعدة تبتسم وتفتـل مزقة قماشها بين أصابعها وتملسها وغمغم :

ــ « حسنا ، ان بلهائي المسكينة هذه توقع في نفسي من الارتياح اكثـر مما يوقعه سائر أفراد أسرتي مجتمعين ٠ »

وأنشأ يمضي الى أرضه يوما بعد يوم ٠ وأقام على ذلك أياما عديدة ٠ عندئذ قامت الارض الطيبة بعملها الشافي ، كرة أخرى ، وأشرقـــت

* أي من اللصوص ٠

الشمس عليه وأبرأته ، ولفته رياح الصيف القائظة بالامن والطمأنينة · وكأن الطبيعة أرادت أن تتم شفاءه وأن تستأصل جذور تفكيره الموصول في متاعبه وهمومه فأقبلت من ناحية الجنوب سحابة صغيرة مهزولة · لقد تعلقت بالافق ، بادىء الامر ، رقيقة ناعمة كأنها الضباب ، الا أنها لم تكن تميل ذات اليمين وذات الشمال شأن السحائب التي تذروها الرياح ، لقد لزمت مكانها الى أن انتشرت بعد ، على شكل مروحة ، في الفضاء ·

وراقبها رجال القرية ، وتحدثوا عنها ، وحاق بهم الذعر ، ذلك بأنهم خافوا ان تكون ارجال الجراد قد أقبلت لتلتهم ما زرع في الحقول · ووقف وانغ لانغ هنالك أيضا ، وراح يراقب · وحدقوا ، وأخيرا حملت الريح اليهم شيئا انطرح على أقدامهم · وسارع أحدهم الى الانحناء ، والتقطه عن الارض ، فاذا هو جرادة ميتة ، وأخف وزنا من الارجال الحية التي خلفها ·

عندئذ نسي وانغ لانغ كل ما كان يقلقه ويشغل باله · نسي النساء ونسي أبناءه ونسي عمه جميعا ، واندفع وسط الفلاحين المروعين وصاح فيهم :

ـ « شمروا عن ساعد الجد ! من أجل أرضنا الطيبة سوف نقاتل هذا العدو الهابط علينا من السماء ! »

ولكن كان بين القوم جماعة هزوا رؤوسهم استخفافا ، بعد أن غلب عليهم اليأس منذ البدء ، وقالوا :

ـ « لا · كل شيء عبث · لقد قررت السماء ان نجوع هذا العام ، فلماذا ننفق قوانا في الكفاح ضد هذه الضربة الالهية ، ما دمنا نعرف اننا لا بد سنجوع في آخر الامر ؟ »

ومضت النسوة ، باكيات ، الى المدينة ليشترين بخورا يحرقنه عند أقدام الهي الارض في الهيكل الصغير ، ومضى بعضهن الى الهيكل الكبير في المدينة ، حيث كانت آلهة السماء ، وهكذا التمسن الرحمة من الارض والسماء جميعا ·

ومع ذلك ، فقد انتشرت أرجال الجراد في الهواء وفوق سطح الارض ·

عندئذ نادى وانغ لانغ عماله ، ووقف تشينغ الى جانبه صامتا وعلى أتم استعداد ، ووقف جماعة من الفلاحين الشبان أيضا ، وأضرموا النار بأيديهم في بعض الحقول ، وأحرقوا القمح الطيب الذي كاد يستحصد ، وحفروا خنادق عريضة ، وأسالوا الماء فيها من الآبار ، وعملوا من غير أن تكتحل أجفانهم بالنوم · وحملت أو-لان الطعام اليهم ، وأكل الرجال واقفين في الحقل ، مزدردين الطعام كالبهائم ، اذ كانوا يعملون ليلا ونهارا على نحو موصول ·

ثم ان السماء اتشحت بالسواد ، وامتلأ الفضاء بهدير ملايين الاجنحة المتصادمة ، وكان هديرا عميقا ساكنا ، وهبطت ارجال الجراد على الارض ، طائرة فوق هذا الحقل مخلفة اياه سليما لم يمس ، منقضة على ذلك الحقل ملتهمة كل ما فيه حتى يمسي عاريا كفصل الشتاء · وتنهد الرجال وقالوا : « تلك مشيئة السماء ! » ولكن وانغ لانغ كان مهتاجا على نحو ضار ، فراح يضرب ارجال الجراد ويدوسها بقدميه ، وانشأ رجاله يضربونها بمدقات القمح ، وتساقط الجراد في النيران التي أضرموها وطفا ميتا على مياه الخنادق التي حفرت · وهلكت ملايين عديدة من الجراد ، ولكن هذا لم يكن بشيء اذا ما قيس بعدد ما بقي منه ·

ومع ذلك فقد كوفىء وانغ لانغ على هذا النضال كله بهذه المكافأة : لقد أنقذت خيرة حقوله من الخطر ، وحين انحسرت السحابة ، وأمسى في ميسور القوم آخر الأمر ان يخلدوا الى الراحة ، كان لا يزال لديه بقية من قمح يستطيع حصادها ، وكانت مساكب أرزه الغض قد نجت ، وكان هو سعيدا · ثم ان كثيرا من الناس أكلوا أجساد الجراد مشوية ، ولكن وانغ لانغ ابى أن يأكلها ، اذ كانت في نظره شيئا قذرا بسبب مما أنزلته بأرضه من أذى · بيد أنه لم يقل شيئا عندما قلتها أو-لان بالزيت وعندما قرقشها العمال بأسنانهم · وأخذ الأولاد ينزعون أوصالها في احتراس ويذوقونها خائفين من عيونها الكبيرة · أما هو فقد استنكف عن الاكل ·

وأيا ما كان فقد أدى الجراد اليه هذه الخدمة : فطوال سبعة أيام لم يفكر في شيء غير أرضه ، ولقد برىء من همومه ومخاوفه · وفي هدوء قال مخاطبا نفسه :

ـ « حسن · ان لكل امرىء متاعبه ، ويتعين علي أن أكيف نفسي للعيش مع متاعبي على خير وجه أستطيعه · وعمي أكبر مني سنا ، ولسوف يقضي نحبه آخر الأمر · وفي ما يتصل بابني فأن السنوات الثلاث لا بد أن تنقضي على نحو من الانحاء ، فلا داعي لأن أقتل نفسي · »

وحصد قمحه ، وهطلت الامطار ، ونقل الارز الاخضر الغض الى الحقول المغمورة بالماء ·

وأطل الصيف كرة أخرى ·

٢٤

وذات يوم بعد أن قال وانغ لانغ لنفسه أن الأمن خيم على بيته جاءه

ابنه البكر ، لدن عودته ظهرا من الحقل ، وقال له :

ــ « أنا أريد ، يا أبت ، أن أصبح عالما · ولكن أنى لي ذلك ولم يبق عند ذلك المدرس العجوز ، في البلدة ، ما يعلمني اياه ؟ »

وكان وانغ لانغ قد رفع من خلقين المطبخ مقدارا من الماء الغالي وسكبه في حوض ، وغمس في هذا الماء منشفة ، ثم عصرها · وقال وهو يضع على وجهه تلك المنشفة المتصاعد منها بخارها :

ــ « حسنا ، ثم ماذا ؟ »

وتردد الغلام لحظة ، ثم أضاف :

ــ « اذا كان لي أن أصبح عالما فمن الافضل أن أذهب الى الجنوب ، الى المدينة ، وأدخل احدى المدارس الكبيرة حيث أستطيع أن أتعلم ما ينبغي تعلمه · »

وفرك وانغ لانغ ما حول عينيه واذنيه بالمنشفة ، وأجاب ابنه ، والبخار يتصاعد من وجهه ، جوابا غليظا ، فقد كان بدنه موجعا من اثر العمل في الحقول :

ــ « ما هذا الهراء ؟ أقول لك انك لا تستطيع أن تذهب ، ولست أريد أن تضجرني بتكرير هذا المطلب ، لأني أقول لك انك لا تستطيع أن تذهب · لقد فزت بما يكفيك من العلم بالنسبة الى منطقتنا هذه · »

وغمس المنشفة في الماء ، كرة أخرى ، ثم عصرها ·

ولكن الفتى ظل واقفا لا يريم ، وحدق الى أبيه في كراهية ، وغمغم بكلام ما · واستبد الغضب بوانغ لانغ ، ذلك بأنه لم يستطع أن يفهم ما كان يقوله ابنه ، فصاح في وجهه :

ــ « اجهر بما تريد أن تقوله ! »

وكان في نبرة الاب هذه ما أثار ثائرة الفتى ، فقال :

ــ « حسن · ومع ذلك ،فسوف أذهب الى الجنوب · سوف أذهب · ولن أمكث في هذا البيت الأبله وأراقب مثل طفل ، وفي هذه البلدة الصغيرة التي لا تزيد قدرا على قرية من القرى ! سوف ارتحل وأتعلم شيئا وأرى بعض الامصار الاخرى · »

ونظر وانغ لانغ الى ابنه ونظر الى نفسه · كان ابنه واقفا هناك متشحا برداء طويل،شاحب من كتان فضي رمادي ، رداء رقيق خصر * يدفع قيظ الصيف ، وعلى شفتيه كانت أولى شعرات رجولته السود ، وكانت بشرته ناعمة ذهبية ، وتحت ردنيه الطويلين كانت يداه طريتين رخصتين مثل أيدي

---

* الخصر (بكسر الصاد) : البارد ·

النساء . ثم نظر الى نفسه فاذا هو غليظ الجسم ، ملوث بالوحل ، غير مرتد شيئا الا سروالا من قماش قطني أزرق ينتهي الى ركبتيه ، مبقيا خصره وجذعه عاريين ، حتى لقد كان خليقا بالمرء ان يحسبه خادم ابنه لا أباه . وهـــذه الفكرة أوقعت في نفسه ازدراء لهذا الفتى الفارع الطول ، الانيق المظهر ، فتميز من الغيظ على نحو ضار وصرخ :

ــ « كفى ! امض الى الحقول وافرك نفسك بشيء من التربة الطيبـــة لكيلا يحسبك الناس امرأة ، واعمل قليلا مقابل ما تأكله من أرز ! »

ونسي وانغ لانغ أنه كان في يوم مضى عظيم الاعتزاز بكتابة ابنه وبراعته في فهم الكتب ، فاندفع الى الخارج ، ضاربا الارض بقدميه الحافيتين ، باصقا عليها في جلافة ، لأن رقة ابنه أثارت غضبه مؤقتا . ووقف الغلام ونظر اليه في بغض ، ولكن وانغ لانغ لم يرجع لكي يرى ما فعله الفتى .

ومع ذلك ، فتلك الليلة حين مضى وانغ لانغ الى الاروقة الداخلية وجلس الى جانب لوتس فيما كانت مضطجعة على الحصير فوق سريرها ، حيـث كانت كوكو تهوي لها بمروحتها ، قالت له لوتس في تكاسل وكأنها تتحدث عن أمر غير ذي خطر أو كأنها تتحدث لمجرد الرغبة في الكلام :

ــ « ان ابنك الكبير ذاك آخذ في الهزال ، وهو يتمنى لو يرحل . »

عندئذ قال وانغ لانغ في حدة ، وقد تذكر غضبه على ابنه :

ــ حسنا ، وأي شأن لك بذلك ؟ أنا لا أريد له أن يدخل جناحك هذا في هذه السن . »

ولكن لوتس سارعت الى الاجابة :

ــ « لا ... لا ... ان كوكو هي التي تقول ذلك . »

وسارعت كوكو الى القول :

ــ « في استطاعة ايما امرىء ان يلحظ ذلك . انه غلام وسيم حقا ، وهو أكبر سنا من أن يظل متبطلا ضجرا . »

وخدع وانغ لانغ عن نفسه بهذه الكلمات ، فلم يفكر الا في غضبه على ولده ، وقـال :

ــ « لا ، انه لن يذهب . أنا لن أنفق أموالي على نحو أحمق . »

وأبى أن يقول أيما كلمة اضافية في هذا الموضوع . ولاحظت لوتس ان غضبا ما قد استبد به فجعله نكدا . وصرفت كوكو ، وأخذت نفسها بالصبـر عليـه وحدهـا .

وانقضت أيام لم يقل خلالها شيء ، وبدا الفتى فجأة وكأنه ارتد راضيا من جديد . ولكنه لم يعاود الذهاب بعد الى المدرسة . فغض وانغ لانغ الطرف

عن ذلك ، فقد كان الفتى قد بلغ الثامنة عشرة ، وكان قد أمسى ضخما غليظ الاعضاء مثل أمه ٠ وكان أبوه اذا ما انقلب الى الدار ألفاه يطالع في غرفته ٠ وداخل الرضا وانغ لانغ ، وقال في ذات نفسه :

ـ « لقد كانت نزوة من نزوات الشباب ، وهو لا يعرف ما الذي يريد ، وما هي الا سنوات ثلاث حتى يتم تزويجه ـ وقد أوفق بشيء اضافي من الفضة الى جعلها سنتين ، وربما سنة واحدة اذا كان مقدار الفضة وافيا ٠ اني سأنظر في هذه المسألة في يوم من الايام بعد أن ينجز الحصاد ويزرع قمح الشتاء وتعزق الارض للوبياء ٠ »

ثم ان وانغ لانغ نسي ولده ، فقد كانت المحاصيل ـ برغم ما انزلـه الجراد بها من أذى ـ كافية الى حد ما ، وكان هو قد عوض الان ما أنفقه على لوتس ٠ لقد استردت الفضة نفاستها في نظره ، وكان يعجب لنفسه ، أحيانا ، كيف أنفق المال بمثل ذلك الاسراف كله على امرأة ٠

ومع ذلك ، فقد كانت هذه المرأة تفتنه على نحو عذب ، وان لم تكن فتنتها له على مثل قوتها السالفة ، وكان يعتز بأنها زوجته ، على الرغم من ادراكه ان ما قالته امرأة عمه كان صحيحا من أنها لم تعد صغيرة رغم قصر قامتها وأنها لم تنجب له ولدا قط ٠ ولكنه لم يبال بذلك البتة ، اذ كان ذا بنين وبنات ، وكان حريصا على الاحتفاظ بها لمجرد المتعة التي كانت تمنحه اياها ٠

أما لوتس ، فكان النضج الجسماني قد زادها جمالا الى جمال ٠ اذ لو قد كان فيها من قبل عيب ما اذن لكان عيبها هو ذلك الهزال الطيري الـذي جعل خطوط وجهها المستدق حادة أكثر مما ينبغي ، والذي جعل صدغيها غائرين أكثر مما ينبغي ٠ ولكنها انتهت الان ـ بفضل الطعام الذي كانت كوكو تطهوه لها ، وبفضل حياة التبطل مع رجل واحد ليس غير ـ الى أن تصبح بضة ملتفة الجسم ، والى أن يصبح وجهها ممتلئا ناعما عند الصدغين ، فاذا بها تبدو ، بعينيها الواسعتين وفمها الصغير شبيهة أكثر من أيما وقت مضى بهرة صغيرة سمينة ٠ ولقد نامت وأكلت واكتسبت هذه البشرة البضة الناعمة ٠ واذا كانت لم تعد برعم لوتس ، فأنها على أية حال ما تزال زهرة كاملة التفتح ، واذا كانت لم تعد صغيرة رطبة العود فانها على أية حال لا تبدو متقدمة في السن ٠ لقد كان الصبا والشيخوخة بعيدين عنها على نحو متكافىء ٠

وكان خليقا بوانغ لانغ ، الان ـ وقد عاود الأمن حياته وداخل الرضا نفس الفتى ـ أن يستشعر الارتياح لولا أن دخلت أو-لان عليه غرفته في رفق ، ذات ليلة ، حيث كان قاعدا وحده في ساعة متأخرة يحسب على أصابعه ما

الذي يستطيع أن يبيعه من قمحه وما الذي يستطيع أن يبيعه من أرزه · وكانت هذه قد أمست مهزولة الجسم شاحبة اللون ، وكانت عظام وجهها الشبيهة بالصخور قد نتأت ، وكانت عيناها قد غارتا · ولو ان أحدا سألها كيف حالها اذن لما زادت على القول :

ـ « ان في أحشائي نارا · »

كان بطنها منتفخا ، هذه السنوات الثلاث ، وكأنها حامل ، بيد أنها لم تضع ولدا · كانت تنهض ، كدأبها ، مع الفجر ، فتؤدي عملها ، وكان وانغ لانغ لا يرى اليها الا كما يرى الى الطاولة أو الى كرسيه او شجرة في الرواق ، بل لم يكن ليرى اليها بمثل الشوق الذي كان يغمره حين ينظر الى ثور ناكس الرأس من ثيرانه ، أو الى خنزير أبى أن يأكل · ولقد أدت عملها من غير أن يعاونها عليه أحد ، وكانت لا توجه الكلام الى امرأة عم وانغ لانغ الا مضطرة ، وما كانت لتتحدث الى كوكو على الاطلاق · ولم تمض أو ـ لان الى الاروقة الداخلية ولو مرة واحدة ، فاذا اتفق أن خرجت لوتس لتتمشى قليلا في مكان غير رواقها الخاص فعندئذ كانت أو ـ لان تنقلب الى حجرتها فلا تغادرها حتى يقول لها أحدهم : « لقد ذهبت · » ومن غير أن تتشكى ، كانت تقوم بمهمة الطبخ ، وتنهض بعبء غسل الملابس في البركة حتى في فصل الشتاء عندما تكون المياه متصلبة بالجليد فهي في حاجة الى من يكسرها · ولكن وانغ لم يخطر باله قط أن يقول لها :

ـ « حسنا ، ولكن لماذا لا تستأجرين خادمة او تشترين جارية بعد أن أمسى لدي من الفضة ما أستطيع الاستغناء عنه ؟ »

انه لم ير أيما ضرورة لمثل هذا الصنيع ، على الرغم من أنه استأجر عمالا زراعيين للاشتغال في حقوله وللعناية بالثيران والحمير والخنازير التي كان يملكها ، وبالرغم من أنه كان ـ في شهور الصيف حين يفيض النهر ـ يستأجر طوال أيام الفيضان رجالا يعنون بجماعة البط والاوز التي كان يربيها في الماء ·

في تلك الليلة ، اذن ، فيما كان جالسا وحده على نور الشموع الحمراء المضاءة في الشمعدان الصفيحي ، تقدمت أو ـ لان نحوه ، وأجالت بصرها في ما حولها ، وأخيرا قالت :

ـ « لدي شيء أحب أن أقوله · »

فحدق اليها في دهش ، وقال :

ـ « حسن · تكلمي ! »

وحدق اليها ، والى خديها الغائرين ، وخطر له كرة اخرى انها خلو من

الجمال بالكلية ، وانه لم يشتهها منذ سنوات متعددات ٠

ثم انها قالت في همس أجش :

ــ « ان ابنك البكر يختلف في كثير من الاحيان الى الأروقة الداخلية ٠ فما ان تغادر أنت البيت حتى يمضي هو الى هناك ٠ »

ولم يفهم وانغ لانغ ، للوهلة الاولى ، هذا الذي همست به أو ــ لان على هذا النحو ، فانحنى الى أمام ، فاغر الفم ، وقال :

ــ « ماذا ؟ امرأة ؟ »

وأشارت ، في بكم ، الى حجرة ابنها ، وزمت شفتيها الغليظتين الجافتين مومئة برأسها الى باب الرواق الداخلي ٠ ولكن وانغ لانغ حدق اليها ، حانقا غير مصدق ، وأخيرا قال :

ــ « أنت تحلميــن ! »

وهنا هزت برأسها أن لا ، ثم أضافت والكلمات العسيرة تتعثر علــى شفتيهـــا :

ــ « سيدي ، ارجع مرة الى البيت في غير موعدك المألوف ٠ » وصمتت لحظة ثم أردفت : « من الافضل أن يرتحل ٠٠٠ ولو الى الجنوب ٠ »

وعندئذ مضت الى الطاولة ، وتناولت كوب شايه وتحسسته ، وأهرقت الشاي البارد على أرض الحجرة الاجري ، ثم ملأت الكوب كرة أخرى مــن الابريق الحار ، وخرجت ــ كما دخلت ــ صامتة ، وغادرته جالسا فاغر الفم ٠

حسنا ، لا ريب في ان الغيرة كانت تتأكل هذه المرأة ــ كذلك قال في ذات نفسه ٠ حسنا ، وانه لن ينكد حياته بهذه المسألة ، ما دام ابنه سعيدا يطالــع كل يوم في حجرته الخاصة ٠ ونهض ، وضحك ، متناسيا الامر كله ، ساخرا من أوهام النساء وأفكارهن الصغيرة ٠

بيد أنه حين أوى تلك الليلة ليضطجع الى جانب لوتس ، وحين استدار على نفسه في الفراش أظهرت ضيقها به ، في شيء من النكد ، وأقصته عنهــا قائلـــة :

ــ « الجو حار ، ورائحتك نتنة ٠ لماذا لا تغتسل قبل أن تجيء للاضطجاع الى جانبــي ؟ »

ثم انها انتصبت قاعدة ، في السرير ، وردت شعرها ، في تبرم ، عـــن وجهها ، وهزت كتفيها عندما حاول أن يجذبها نحوه ، وأبت أن تستسلـــم لملاطفته ٠ عندئذ قبع ساكنا ، وتذكر أنها كانت قد استسلمت له غير مرة ــ منذ ليال عدة ــ على كره منها ، وانه كان حسب ذلك نزوة من نزواتها وأن هواء الصيف المولي الثقيل الحار هو الذي كان يضايقها ٠ أما هذه الليلة فقد ترددت

كلمات أو ـ لان حادة قاسية في مسمعيه ، فنهض في ضراوة وقال :

ـ « حسنا ، نامي وحدك اذن ، واحتزي عنقي اذا باليت بك ! »

واندفع الى خارج الغرفة ، وتقدم في خطى واسعة نحو الحجرة الوسطى من منزله نفسه ووضع كرسيا الى جانب كرسي ، وتمدد عليهما ٠ ولكن الرقاد امتنع عليه ، فنهض ، واجتاز باب بيته وراح يتمشى بين شجرات الخيزران القائمة حيال جدار البيت ، وهنا استشعر أثر ريح الماء الباردة على وجهه الملتهب ، ولقد كانت برودة تلك الريح تؤذن بوشك حلول الخريف ٠

ثم انه تذكر أن لوتس كانت قد عرفت برغبة ابنه في مغادرة البيت ٠ ولكن من أين عرفت ؟ وتذكر ان ابنه لم يعاود ، خلال الفترة الاخيرة ، الكلام على رغبته في الذهاب الى الجنوب ، وأنه كان راضيا سعيدا ٠ فعلام كان رضاه وكانت سعادته ؟ وفي ما بينه وبين نفسه قال وانغ لانغ في ضراوة :

« سوف أحقق في المسألة بنفسي ٠ »

وراقب الفجر يطلع موردا من خلال ضباب مخيم على أرضه ٠

حتى اذا بلغ الفجر أشده ، وخطت الشمس هامشا ذهبيا فوق حافة حقوله انقلب الى بيته فأصاب شيئا من طعام ثم خرج ليراقب عماله جريا على مألوف عادته في مواسم الحصاد والزرع ، وراح يطوف في أرضه متنقلا من مكان الى مكان ، وأخيرا صاح بصوت عال بحيث يكون في ميسور كل امرىء في بيته ان يسمعه :

ـ « أنا ذاهب الان الى قطعة الارض المجاورة لخندق المدينة ، ولن أرجع في ساعة مبكرة ٠ »

ولكنه ما ان اجتاز نصف المسافة وانتهى الى الهيكل الصغير حتى قعد على قارعة الطريق فوق أكمة معشوشبة كانت قبرا عتيقا منسيا ، واقتلع عشبة وانشأ يفتلها بين أصابعه مفكرا ٠ كان الالهان الصغيران قبالته ، ولاحظ بظاهر عقله كيف حدقا اليه وكيف كان في ما مضى يخافهما ٠ أما الان فما كان ليبالي بهما بعد أن أمسى موسرا وفي غنى عن الالهة ، وما كان ليراهما الا في النادر النادر ٠ أما في أعمق أعماقه فكان يسائل نفسه مرة بعد مرة :

ـ « هل أعود ؟ »

وفجأة تذكر الليلة البارحة عندما أقصته لوتس عنها ، واستبد به الغضب بسبب من كل ما كان قد عمله من اجلها ، وقال في ما بينه وبين نفسه :

ـ « حسنا ، أنا أعرف أنه كان خليقا بها أن لا تبقى الا بضع سنوات أخرى في صالة الشاي ، وأنها تنعم في بيتي بأطيب الغذاء وأنفس الكساء ٠ »

ثم انه نهض في عنفوان غضبه ، وأوسع الخطى الى بيته ، سالكا سبيلا

أخرى ، ودخل البيت خلسة ووقف خلف الستارة المسدلة على الباب المؤدي الى الرواق الداخلي · وأصاخ ، فسمع غمغمة رجل ، ولقد كان الصوت صوت ابنه نفسه ·

كان الغضب الذي عصف الان بقلب وانغ لانغ غضبا لم يعرف له ضريبا في حياته كلها قط ، على الرغم من أنه كان قد فقد حياءه الريفي القديم ـ بعد أن وفق الى النجاح والازدهار وأخذ الناس يدعونه غنيا ـ وعلى الرغم من انه كان قد ألف الغضبات الصغيرة المفاجئة واستشعر الفخر والتيه حتى في المدينة · ولكن غضبه الان كان غضب رجل على آخر يسلبه امرأته المحبوبة · وعندما تذكر وانغ لانغ أن الرجل الاخر كان ابنه ألم به الغثيان حتى لكاد يتقيأ ·

عندئذ أحكم اطباق أسنانه ، وخرج واختار من الدغل خيزرانة نحيلة لدنة ونزع عنها أغصانها ، مبقيا في أعلاها عذقا من الاغصان الصغيرة المهزولة القاسية كالحبال ، وجردها من أوراقها · ثم انه دخل البيت على رؤوس أصابعه وأزاح الستارة على نحو مفاجىء فاذا به يجد ابنه هناك واقفا في الرواق خافضا بصره نحو لوتس الجالسة على كرسي خفيض لا ظهر له عند حافة البركة · كانت لوتس مرتدية ثوبها الحريري الدراقي اللون ، وهو ثوب لم يرها قط متشحة بمثله في ضوء النهار ·

كانا يتجاذبان أطراف الحديث ، وكانت المرأة تضحك في رفق وتنظر الى الفتى من زاوية عينيها ، مشيحة بوجهها عنه ، فلم يشعرا بوجود وانغ لانغ · لقد وقف وحدق اليهما ، شاحب الوجه ، مباعدا ما بين شفتيه ، مكشرا عن أسنانه محكما قبضتيه على الخيزرانة · ومع ذلك فلم يشعرا بوجوده وكان خليقا بهما ان لا يشعرا البتة لولا أن خرجت كوكو ، من البيت ، فرأته ، فصاحت ، فوقع نظرهما عليه ·

عندئذ وثب وانغ لانغ الى أمام وانقض على ابنه ، وانشأ يضربه ، صحيح ان الفتى كان أطول من أبيه قامة ، ولكن الاب كان أقوى بسبب من كدحه في الحقول ومن بلوغه أوج نضجه الجسماني ، فأوسع الفتى ضربا حتى لقد رأى الدم متدفقا من جسده الغض · وحين أعولت لوتس وتشبثت بذراعه ردها عنه في عنف · حتى اذا عاودت التشبث بذراعه ، معولة ، انهال عليها هي أيضا بالضرب حتى ولت فرارا ثم ارتد على الفتى فواصل ضربه حتى خر راكعا على الارض وحجب وجهه الممزق بيديه ·

عندئذ كف وانغ لانغ عن الضرب ، وقد اخذت أنفاسه تصفر من خلال شفتيه المنفرجتين وتدفق العرق من جسده حتى بلله تبليلا وخارت قواه وكأن

داء الم به · ثم انه طرح الخيزرانة على الارض وهمس يخاطب الفتى لاهثا :
ـ « انهض واذهب الى غرفتك ، وحذار ان تغادرها حتى اتخلص منك ، والا قتلتك ! »
ونهض الفتى من غير أن ينبس بكلمة ، وخرج ·
وقعد وانغ لانغ على الكرسي الخفيض الذي كانت لوتس جالسة عليه ، ووضع رأسه بين يديه ، وأغمض عينيه ، وانشأ يلهث لهاثا موصولا · ان احدا لم يقترب نحوه ، ولقد ظل جالسا هكذا ، وحده ، حتى هدأت ثائرته وسكت عنه الغضب ·
ثم انه نهض في كلال ودخل الحجرة حيث كانت لوتس منطرحة على سريرها تبكي وتنتحب · وتقدم نحوها · وقلبها بطنا لظهر · فنظرت اليه والدمع في عينيها ، فلمح على وجهها اثر سوطه متورما ارجوانيا · وقال لها في حزن عظيم :
ـ « وهكذا كتب عليك أن تظلي عاهرة أبد الدهر ، وأن تسلكي مسلك العواهر حتى مع أولادي أنفسهم ! »
فازدادت انخراطا في البكاء لدن سماعها هذا الكلام ، واحتجت قائلة :
ـ « لا ، انا لم أسلك هذا المسلك ، لقد كان الفتى مستوحشا فوفد علي ، وفي استطاعتك ان تسأل كوكو هل دنا في أيما لحظة من سريري وكان اقرب اليه مما رأيته اليوم في الرواق ! »
ثم انها رنت اليه مروعة مثيرة للشفقة ، وبسطت ذراعها الى يده وسحبتها عبر الاثر الذي خلفه السوط على وجهها ، وطفقت تنشج :
ـ « انظر ما الذي فعلته للوتسك ·· وأنت عندي الرجل الوحيد في العالم · واذا كان ذلك الفتى ابنك فثق انه لا يعدو ان يكون في نظري ابنك أيضا ، وأي شأن لي به ؟ »
ورنت اليه ، وعيناها النجلاوان سابحتان في دموعها الصافية ، وتنهد لان جمال هذه المرأة كان فوق ما يبتغي ، ولقد أحبها برغمه · وبدا له فجأة انه لا يطيق معرفة ما قد جرى بين لوتس وابنه ، وتمنى أن لا يعرف ذلك البتة ، وكان من الخير له في الواقع أن لا يعرف · وهكذا تنهد كرة اخرى ، وخرج · حتى اذا انتهى الى حجرة ابنه ناداه من غير أن يدخل :
ـ « اسمع ! ضع أمتعتك في الصندوق ، واذهب غدا الى الجنوب وافعل هناك ما تشاء · وحذار أن ترجع الا بعد أن ادعوك · »
وتابع سبيله ، وهناك كانت أو ـ لان ترتق له بعض ملابسه ، حتى اذا

مر بها لم تنطق بكلمة ٠ وجائز أن تكون قد سمعت الضرب والصياح ، ولكنها لم تبد أيما أمارة تؤذن بذلك ٠ وواصل سيره منطلقا الى الحقول تحت أشعة شمس الظهيرة القوية ٠ لقد كان خائر القوى وكأنه قضى النهار كله في كدح موصول ٠

٢٥

عندما ارتحل الابن البكر الى الجنوب استشعر وانغ لانغ ان بيته قد أنجي من اضطراب مرهق ، فكان في ذلك ما جعله يتنفس الصعداء ٠ لقد قال في ذات نفسه ان من صالح الفتى أن يرتحل ، وانه قد أمسى في ميسوره الان أن يعنى بتربية أولاده ويتعرف الى حقيقتهم ، ذلك بأن همومه الخاصة والارض التي كان يتعين عليه أن يزرعها وأن يحصدها في موسم الزرع والحصاد مهما حدث في مكان آخر كانت قد جعلته جاهلا ، أو يكاد ، عدد الاولاد الذين رزقهم بعد ذلك الابن البكر ٠ وفوق هذا ، فقد وطد العزم على اخراج ابنه الثاني من المدرسة في وقت مبكر لتدريبه على صناعة من الصناعات قبل أن تدركه سن المراهقة وتحيله الى بلاء على الاسرة شأن اخيه الاكبر ٠

وكان ابن وانغ لانغ الثاني مختلفا عن ابنه البكر بقدر ما يمكن لابنين من أب واحد أن يختلفا ٠ فعلى حين كان البكر فارع الطول ، غليظ العظام، متورد الوجه مثل رجال الجنوب ومثل أمه كان الولد الثاني قصير القامة ، مهزول الجسم ، أصفر البشرة ، وكان فيه ما ذكر وانغ لانغ بأبيه : سيماء ماكرة حاذقة ظريفة ، ونزعة الى الخبث اذا اقتضى الحال ذلك ٠ ولقد قال وانغ لانغ في ما بينه وبين نفسه :

– « يا الهي ! ان هذا الغلام مؤهل لان يصبح تاجرا ناجحا ، ولسوف أخرجه من المدرسة ، وأحاول أن أدربه على العمل في سوق القمح ٠ ومن الخير لي أن يكون احد أولادي هناك حيث أبيع محاصيلي وبذلك يستطيع أن يراقب الموازين وأن يحابيني في الوزن بعض الشيء ٠ »

وهكذا قال لكوكو ذات يوم :

– « اذهبي وقولي لوالد خطيبة ابني البكر ان لدي شيئا احب ان أقوله له ، وان علينا أن نشرب ، على أية حال ، كأسا من الخمر معا ، نظرا الى أننا سوف نصب في كأس واحدة ، دمه ودمي ٠ »

وهكذا مضت كوكو ثم عادت لتقول :

ـ « سوف يجتمع اليك حين تشاء ، واذا استطعت أن تفد عليه وتحتسي الخمر ظهر هذا اليوم كان ذلك خيرا ، واذا شئت وفد هو عليك · »

ولكن وانغ لانغ لم يشأ أن يفد التاجر المديني على بيته ، خشية ان يضطر الى اعداد هذا وذاك من أسباب الضيافة والتكريم · وهكذا اغتسل وارتدى بذلته الحريرية وانطلق يجتاز الحقول · لقد مضى أولا الى « شارع الجسور » ، كما قالت له كوكو ، وهناك وقف لدى باب يحمل اسم « ليو » · وليس معنى ذلك انه عرف كيف يقرأ الكلمة بنفسه ولكنه حزر الباب حزرا ، بابين الى يمين الجسر ، وسأل أحد السابلة فاذا الاسم اسم « ليو » · لقد كان بابا فخما مصنوعا كله من الخشب وقرعه وانغ لانغ براحة يده ·

وفتح الباب في الحال ، وانتصبت هناك خادم راحت تمسح يديها المبللتين بمئزرها فيما كانت تتكلم لتسأله من هو · حتى آذا ذكر لها اسمه حدقت اليه ، وقادته الى الرواق الاول الخاص بالرجال ، وأدخلته احدى الغرف وسألته أن يجلس ، وحدقت اليه كرة أخرى بعد أن عرفت أنه أبو خطيب عروس البيت · ثم انها مضت لتدعو سيدها ·

وأجال وانغ لانغ بصره في ما حوله بانتباه ، ونهض وتلمس قماش الستائر المسدلة عند المدخل ، وفحص خشب الطاولة ، فوقع السرور في نفسه ، فقد كان ثمة دليل على خفض العيش ولكن ليس على الثراء البالغ : انه لم يكن راغبا في كنة موسرة خشية أن تكون متكبرة متمردة ، وأن تطالب بهذا الضرب أو ذاك من الطعام والكساء ، وان تعطف قلب ابنه عن أبويه · ثم ان وانغ لانغ عاد فجلس من جديد ، وطفق ينتظر ·

وفجأة سمع وقع قدمين ثقيلتين ، ودخل الحجرة رجل بدين متقدم في السن بعض الشيء · ونهض وانغ لانغ ، وانحنى احتراما ، ثم انحنى الرجلان معا ، وراح كل منهما يختلس النظر الى الاخر · وتبادل الرجلان الاعجاب والاحترام ، بعد ان وجد كل منهما في الاخر رجلا فاضلا موسرا · ثم انهما جلسا ، وانشأا يحتسيان الخمر الحارة التي صبتها الخادم لهما ، وتحدثا في أناة عن المحاصيل والاسعار وعما ينتظر أن يكون عليه سعر الارز هذا العام اذا كان الحصاد وافرا · وأخيرا قال وانغ لانغ :

ـ « حسنا ، لقد جئت لاعرض عليك عرضا فاذا لم يرق لك ذلك فلنتحدث عن أشياء أخرى · ولكن اذا كنت في حاجة الى خادم في سوقك الكبيرة قدمت لك ولدي الثاني ، وانه ولد حاد الذكاء ، ولكن اذا لم تكن في حاجة اليه فلنتحدث في أشياء اخرى · »

عندئذ قال التاجر في كثير من اللطف :

– « الواقع اني في حاجة الى فتى حاد الذكاء شرط أن يعرف القـراءة والكتابـة ٠ »

فأجاب وانغ لانغ في اعتزاز :

– « ان ولدي كليهما عالمان ، وفي استطاعة كل منهما ان يكتشف أي خطأ في رسم كلمة من الكلمات ، وما اذا كان ينبغي اصطناع الجذر الخشبـي أو الجذر المائي ٠ »

فقال ليـو :

– « هذا حسن ٠ دعه يأتي ساعة يشاء ، ولسوف يكون أجره بـادئ الامر مقتصرا على طعامه حتى يتعلم الصناعة ، وبعد سنة يستطيع أن ينال – اذا أثبت كفاءته – قطعة فضية واحدة في نهاية كل شهر ، وثلاث قطع فضية بعد انقضاء ثلاث سنوات ٠ عندئذ تنتهي فترة تدربه ويصبح في ميسوره أن يلمع في الصناعة على قدر مؤهلاته ٠ والى جانب هذا الاجر ، يستطيع أن يفوز بأيما عمولة يوفق الى انتزاعها من هذا المشتري أو ذاك البائع – وهـذا شـيء لا أعترض عليه البتة اذا استطاع أن يفوز به ٠ ولمـا كـانت أسرتانا متحدتيـن بالمصاهرة فانني لن أسألك ، لقاء دخوله بيتي التجاري ، اي ضمان ٠ »

عندئذ نهض وانغ لانغ ، مبتهج النفس ، وضحك وقال :

– « أما ونحن الان صديقان أليس لديك ولد لابنتي الثانية ؟ » فأطلـق التاجر ضحكة مدوية ، فقد كان بدينا سليم الجسم ، وقال :

– « لي ولد ثان في العاشرة لم أخطب له أيما بنت حتى الان ٠ ما سن الفتـاة ؟ »

فضحك وانغ لانغ كرة أخرى وأجاب :

– « سوف تبلغ العاشرة في عيد ميلادها التالي ، وانها لزهرة فواحة ٠ »

ثم ان الرجلين ضحكا معا ، وقال التاجر :

– « واذن فسوف نربط نفسينا بحبل مضاعف ؟ »

عندئذ لم يقل وانغ لانغ شيئا ، ذلك بأنها لم تكن مسألة يمكن أن يذهب في مناقشتها – وجها لوجه – الى أبعد من ذلك ٠ ولكنه حين انحنى مودعـا ومضى لسبيله محبورا قال في ذات نفسه : « ان المسألة قد تتم » ٠ ونظر الى بنته الصغيرة عندما انقلب الى البيت فألفاها طفلة وسيمة ، ووجد أن أمهـا كانت قد قيدت قدميها تقييدا حسنا فهي تستطيع أن تمشي بخطوات رشيقـة ٠

ولكن حين نظر اليها وانغ لانغ هكذا عن كثب رأى آثار الدموع علـى وجنتيها ووجد أن وجهها كان شاحبا أكثر مما ينبغي وكئيبا أكثر مما ينبغـي

بالنسبة الى سنها · وجذبها نحوه من يدها الصغيرة وقال :

ــ « لماذا كنت تبكين ؟ »

فخفضت رأسها وراحت تعبث بأحد أزرار سترتها ، وقالت خجلة نصف مغمغمة :

ــ « لان أمي تطوق قدمي بقماشة ، ولانها تزيد هذا التطويق احكاما يوما بعد يوم حتى تعذر علي النوم ليلا · »

فقال مندهشا :

ــ « أنا لم أسمعك تبكين · »

فقالت في سذاجة :

ــ « لا · لقد قالت أمي ان علي أن لا أبكي بصوت عال لان قلبك أرق من أن يحتمل صرخات الالم ، وقد تطلب اليها أن تتركني كما أنا ، وعندئذ يعاملني زوجي كما تعامل أنت أمي ويبخل علي بحبه · »

قالت ذلك بمثل البساطة التي يروي بها طفل حكاية من الحكايات · وأحس وانغ لانغ لدن سماعه هذا الكلام وكأنه طعن في صميمه ، فقد أدرك أن أو ــ لان أخبرت الطفلة بأنه لا يحبها ··· لا يحب المرأة التي هي أم طفلته تلك · وسارع الى القول :

ــ « حسنا ، لقد سمعت اليوم بزوج لك بهي الطلعة ، ولسوف نرى ما اذا كانت كوكو قادرة على تدبير الامر · »

عندئذ ابتسمت الطفلة ، ونكست رأسها ، وقد غدت ، فجأة ، عذراء ، بعد أن كانت طفلة لما تشب عن الطوق · وتلك الليلة نفسها قال وانغ لانغ لكوكو عندما أظله الرواق الداخلي :

ــ « اذهبي وانظري ما اذا كان في الامكان تدبير المسألة · »

ولكنه نام نوما قلقا ، الى جانب لوتس ، تلك الليلة ، وأفاق واستغرق في التفكير في حياته ، وكيف أن أو ــ لان كانت أول امرأة عرفها ، وكيف أنها كانت له خادمة وفية· وفكر في ما قالته الطفلة ، وغلب عليه الحزن ، لان أو ــ لان كانت برغم غبائها كله قد نفذت الى حقيقته ·

وبعد أيام قليلة انقضت على زيارته تاجر القمح ارسل ابنه الثاني الى المدينة ، ووقع أوراق خطبة ابنته الثانية ، وتم الاتفاق على المهر ، وحددت هدايا العرس ، من ملابس وجواهر · عندئذ اطمأنت نفس وانغ لانغ وقال في ما بينه وبين نفسه :

ــ « حسنا ، لقد كفلت مستقبل أولادي كلهم · وفي استطاعة بلهائي الصغيرة أن لا تفعل شيئا غير القعود في الشمس وفتل قطعة قماشها · أما

الصبي الاصغر فسوف أحتفظ به للارض ، ولن أبعث به الى المدرسة ، بعد أن أمسى لدي ولدان قادران على القراءة ، وهذا كاف ٠ »

كان فخورا لانه كان أبا لثلاثة أبناء ، اولهم عالم ، وثانيهم تاجـــر ، وثالثهم فلاح ٠ ولقد كان بذلك سعيدا ، فأقلع عن التفكير في أولاده ٠ ولكنه ، شاء أم أبى ، كان لا يفتأ يفكر في المرأة التي أنجبتهم له ٠

والواقع ان هذه كانت هي المرة الاولى التي شرع فيها يفكر في أو-لان منذ أن جمع الزواج ما بينهما ٠ فحتى في عهدهما الاول بالحياة الزوجيـة لم يفكر فيها لذاتها ولم ير فيها غير مجرد انثى ـ غير أول أنثى قدر لــــه ان يعرفها ٠ ولقد بدا له أنه كان أبدا في شغل شاغل عنها بهذا الامر أو ذاك ، وأن الايام لم تتح له فرصة للتفكير فيها، الا الآن عندما استقرت حال أولاده ونالت حقوله حظها من العناية ، فهي تنتظر حلول الشتاء في سكينة ، وعندما نظمـت حياته مع لوتس وغدت طوع أمره منذ أن انهال عليها ضربا ٠

لقد نظر اليها ، هذه المرة ، لا لانها امرأة ، ولا لانها كانت بشعـــــة ، شاحبة ، صفراء البشرة ٠ ولكنه نظر اليها في شيء من الندم غريب ورأى انها أمست مهزولة ، وأن جلدها جاف أصفر ٠ لقد كانت طوال عمرها داكنــــة البشرة ، وكان جلدها موردا أسمر حين تعمل في الحقول ٠ ولكنها لم تعــاود الذهاب الى الحقول ، منذ عدة سنوات ، الا في موسم الحصاد ، بل انهـــا امتنعت عن الذهاب حتى في ذلك الموسم منذ سنتين أو اكثر ، اذ كان يكره أن تذهب ، خشية أن يقول الناس :

ـ « ألا تزال زوجتك تكدح في الارض وأنت غني ؟ »

ومع ذلك فأنه لم يكن قد ساءل نفسه لماذا وافقت آخر الامر على التزام البيت ، ولماذا كانت تمشي في بطء متعاظم يوما بعد يوم ٠ وتذكر وانغ لانـــغ الان ، وقد قدر له ان يفكر في ذلك ، انه كان يسمعها تئن ، في الصباح أحيانا ، حين تنهض من فراشها وحين تنحني لاضرام النار في المستوقد وأنها لم تكــن تكف عن الانين الا حين يسألها : « ولكن مم تشكين ؟ » وهكذا ما كاد يــرى اليها والى الانتفاخ الغريب الذي اعترى جسدها حتى استبد به الندم ، على الرغم من أنه لم يدر لماذا ، وطفق يحاور نفسه :

ـ « ولكني لست جديرا باللوم اذا لم أحبها كما يحب المرء محظية ، لان الرجال لم يتعودوا ذلك ٠ »

ثم أضاف لكي يسري عن نفسه :

ـ « أنا لم أضربها قط ، ولقد كنت أعطيها شيئا من فضة كلما سألتنــي ذلـــــك ٠ »

ومع هذا فلم يستطع أن ينسى ما قالته الطفلة ، فوخزه كلامها ، على الرغم من أنه لم يعرف لذلك سببا ، نظرا الى أنه كان ينتهي ــ كلما ناقش المسألة ــ الى أنه كان برا بها ، كزوج ، بل كان خيرا من معظم الازواج ٠

واذ لم يكن قادرا على التخلص من ضيقه هذا الناشىء عن التكفير في أمرها فقد أخذ نفسه بمواصلة النظر اليها كلما وفدت عليه بالطعام او كلما طوفت في البيت ٠ وحين انحنت ذات يوم لكنس أرض المنزل الاجرية بعد ان تناولوا الطعام رأى وجهها يشحب تحت وطأة ألم باطني ٠ وانفرجت شفتاها ، وانشأت تلهث في رفق ، ووضعت يدها على بطنها ، وهي بعد منحنية وكأنها ما تزال تعتزم ان تكنس الارض ٠ وسألها في حرارة :

ــ « ما بالك ؟ »

ولكنها أشاحت بوجهها عنه ، وأجابت في وداعة :

ــ « انه الالم القديم أحس به في أحشائي ٠ »

فحدق اليها ، وقال للفتاة الصغرى :

ــ « خذي المكنسة واكنسي ، فأمك مريضة ٠ »

والتفت الى أو ــ لان وقال في جرس حافل باللطف لم يخاطبها بمثله منذ سنوات عديدة :

ــ « امضي واضطجعي في سريرك ، ولسوف أسأل الفتاة الصغيرة أن تحمل اليك ماء حارا ٠ حذار أن تفارقي الفراش ! »

وأطاعته في أناة ومن غير أن تنطق بكلمة ، وأوت الى حجرتها ، وسمعها تطوف فيها متثاقلة ، وأخيرا اضطجعت وأخذت تئن في صوت خفيض ٠ ثم انه قعد يصغي الى أنينها حتى أمسى عاجزا عن احتماله ، فنهض ، ومضى الى المدينة ليسأل أين دكان الطبيب ٠

ودله أحد مستخدمي سوق القمح ، حيث كان ابنه الثاني الان ، على دكان ما ، فدخله ٠ وهناك كان الطبيب جالسا في تبطل أمام ابريق شاي ٠ كان رجلا عجوزا ذا لحية طويلة شائبة ، وكان على أنفه نظارتان نحاسيتان ضخمتان كعيني البوم ، وكان يرتدي ثوبا رماديا قذرا يغطي ردناه الطويلان يديه كلهما ٠ وحين وصف له وانغ لانغ أعراض امرأته زم شفتيه وفتح درجا من أدراج الطاولة التي كان جالسا اليها ، وأخرج رزمة ملفوفة بقطعة قماش سوداء وقال :

ــ « سأذهب في الحال ٠ »

وعندما بلغا سرير أو ــ لان وجداها مستسلمة لنوم خفيف ووجدا العرق كقطرات الندى على شفتها العليا وعلى جبينها ٠ وما ان رأى الطبيب

العجوز ذلك حتى هز رأسه · وبسط يدا جافة مصفرة مثل يد قرد ، وجس نبضها ، وبعد أن أبقاها على هذا الوضع فترة طويلة هز رأسه كرة أخرى في كآبة وقال :

ـ « الطحال متضخم ، والكبد عليل · ان ثمة صخرة في حجم رأس رجل في رحمها · والمعدة قد تفتتت · أما القلب فلا ينبض الا بشق النفس ، ولا ريب أن داخله ديدانا · »

وكف فؤاد وانغ لانغ نفسه عن النبض حين سمع هذا الكلام ، واعتراه خوف ، وصاح مغضبا :

ـ « حسنا ، أعطيها دواء ، أليس في امكانك أن تعطيها ؟ »

وفتحت عينيها بينا كان يتكلم ، ونظرت اليهما ، غير فاهمة شيئا ، وسنى من الالم · عندئذ تكلم الطبيب العجوز من جديد :

ـ « انها حالة صعبة · فاذا كنت غير راغب في الشفاء المضمون طلبت رسما مقداره عشر قطع فضية ، ولسوف اعطيك وصفة مؤلفة من أعشاب مزج بها قلب نمر مجفف وسن تنين ، وعليك أن تغلي هذه كلها معا وتحملها على شرب مرقها · أما اذا رغبت في الشفاء المضمون فعندئذ اسألك ان تدفع الي خمسمئة قطعة من الفضة · »

وما ان سمعت أو ـ لان هذه الكلمات : « خمسمئة قطعة من الفضة » حتى أفاقت فجأة من سباتها ، وقالت في وهن :

ـ « لا · فحياتي لا تساوي هذا المبلغ كله · ان في امكان المرء ان يشتري بمثل هذا المبلغ قطعة كبيرة من الارض · »

حتى اذا سمعها وانغ لانغ تقول ذلك عاوده وخز ندمه القديم ، فأجاب في ضراوة :

ـ « لست أريد أن يلم الموت ببيتي ، وفي ميسوري أن أدفع هذه القطع الفضية · »

فما ان سمعه الطبيب العجوز يقول : « في ميسوري ان أدفع هذه القطع الفضية » حتى التمعت عيناه ببريق الطمع ، ولكنه كان يعرف العقوبة التي ينص عليها القانون اذا لم يف بوعده ولم ينقذ المرأة من الموت · وهكذا قال ، ولكن في حسرة :

ـ « ولكن لا ، اني حين أنظر الى لون بياض عينيها يتبدى لي اني كنت مخطئا · يجب ان تدفع الي خمسة آلاف قطعة فضية اذا كنت راغبا في الحصول على ضمان كامل · »

عندئذ نظر وانغ لانغ الى الطبيب في صمت وفي كآبة · لقد فهم · كان

عاجزا كل العجز عن دفع هذه القطع الفضية جميعها الا اذا باع أرضه ، ولكنه عرف أن بيع الارض نفسه لن يجديه نفعا ، ذلك بأن كلمات الطبيب كانت بمثابة قوله : « ان المرأة ستموت · »

وهكذا غادر الحجرة مع الطبيب ، ودفع اليه عشر قطع من الفضة · حتى اذا مضى لسبيله انقلب وانغ لانغ الى المطبخ المظلم حيث قضت أو ـ لان معظم أيام حياتها ، وحيث لا يستطيع أحد ـ اذ لم تكن هي هناك ـ أن يراه ، وأدار وجهه الى الجدار ، الذي سوده الدخان وانخرط في البكاء ·

٢٦

ولكن شعلة الحياة في جسد أو ـ لان لم تعرف أيما انطفاء مفاجيء البتة · كانت قد تجاوزت ، ولم تكد ، خريف العمر ، فما كان للروح ان تفارق جسدها في سهولة ويسر ، ومن هنا ظلت تصارع الموت في سريرها أشهرا متعددات · لقد قضت شهور الشتاء الطويلة طريحة الفراش ، تحتضر ، وللمرة الاولى ادرك وانغ لانغ وأولاده أي شأن كان لها في البيت ، وكيف حملت الرفه اليهم جميعا من غير أن يدروا ·

لقد بدا الان أن أحدا منهم لا يعرف كيف يضرم النار في العشب وكيف يبقيه مشتعلا في المستوقد ، وأن أحدا منهم لا يعرف كيف يقلب سمكة في الوجاق من غير أن يكسرها أو من غير ان يحرق جانبا من جانبيها قبل أن ينضج الاخر ، وان أحدا منهم لا يعرف ما اذا كان زيت السمسم أو زيت الفاصولياء صالحا لقلي هذا الضرب من الخضر أو ذاك · كانت فضلات الطعام وفتاته تتناثر تحت المائدة وما كان أحد ليكنسها ، حتى يضيق وانغ لانغ برائحتها فيدعو كلبا من الرواق ليلعقها ، أو ينادي الفتاة الصغرى لترفعها عن الارض وتطرحها الى الخارج ·

وكان الغلام الاصغر يقوم بهذا العمل أو ذاك ليحل محل أمه في خدمة الرجل العجوز ، جده ، الذي كان قد أمسى الان عاجزا مثل طفل صغير ، ولم يستطع وانغ لانغ ان يفهم الرجل العجوز ما الذي جعل أو ـ لان تكف عن حمل الشاي والماء الحار اليه ، وعن مساعدته على الاضطجاع والنهوض ، ولقد كان الغضب يعصف بالعجوز كلما دعاها فلم تلب دعوته ، فهو يطرح كوب الشاي على الارض مثل طفل عنيد ، وأخيرا قاده وانغ لانغ الى

حجرة أو ـ لان وأراه السرير الذي تمددت عليه · وحدق الرجل العجوز بعينين نصف مكفوفتين تعلوهما غشاوة ، وبكى ، لانه رأى على نحو ضبابي أنها تشكو علة ما ·

كانت الفتاة البلهاء المسكينة هي وحدها التي لم تعرف شيئا ، فكانت تجتزىء بالابتسام ، وبفتل مزقتها القماشية فيما هي تبتسم · ومع ذلك فقد كان على المرء أن يفكر فيها لكي يدخلها الى حجرة النوم ليلا ، ولكي يطعمها ، ويقعدها في الشمس نهارا ، ويرجع بها الى البيت اذا هطل المطر · لقد كان من الضروري أن يذكر واحد منهم ذلك كله · ولكن حتى وانغ لانغ نفسه نسي · وذات مرة تركوها خارج البيت ليلة بطولها ، حتى اذا أصبح الصباح كانت المسكينة ترتعد وتبكي مع الفجر الباكر ، وغضب وانغ لانغ ولعن ابنه وابنته لتركهما المعتوهة البائسة التي هي اختهما · ثم انه رأى أنهما لم يكونا غير طفلين يحاولان أن يأخذا محل امهما ولكن من غير أن يقدرا على ذلك ، ومن هنا التمس لهما العذر · ومنذ ذلك الحين أخذ يعنى بالمعتوهة البائسة بنفسه كل مساء وصباح · كان اذا هطل المطر أو تساقط الثلج أو هبت ريح باردة أدخلها الى البيت وأجلسها أمام الرماد الحار المتساقط من موقد المطبخ ·

★★★

وطوال أشهر الشتاء القائمة ، فيما كانت أو ـ لان تحتضر ، لم يلق وانغ لانغ بالا الى الارض · لقد عهد الى تشينغ في العناية بالحقول وبالاشراف على عماله الزراعيين · ولقد كدح تشينغ في اخلاص ، فكان يقف كل مساء وكل صباح بباب حجرة أو ـ لان ويسأل مرتين في اليوم ، في همس مصفر ، كيف حالها · وأخيرا لم يعد أكثر من القول : « اليوم تناولت قليلا من حساء الطيور » أو « اليوم اكلت قليلا من حساء الارز الخفيف » ·

وهكذا امر تشينغ بأن لا يوجه اليه ايما سؤال اضافي ، وان يحسن اداء الاعمال الموكولة اليه ، فذلك حسبه ·

وطوال ايام الشتاء القارسة القائمة كان وانغ لانغ يقعد في كثير من الاحيان الى جانب سرير أو ـ لان · وكان اذا ما اشتكت البرد أشعل لها كانونا آجريا من الفحم ، ووضعه حيال سريرها لتدفأ ، فتغمغم في كل مرة في وهن :

ـ « انه شيء غال اكثر مما ينبغي · »

ولم يطق صبرا على سماع ذلك ، ذات يوم ، فانفجر قائلا :

ـ « انا لا أقوى على الاحتمال ! ثقي اني مستعد لان ابيع اراضي كلها اذا استطاعت شفاءك · »

فابتسمت ، وقالت لاهثة هامسة :

ــ « لا ... وانا لا ... اسمح لك بذلك . لانه لا بد من ان أموت .. في يوم من الايام ... على أية حال . ولكــن الارض سوف تبقــى لكم مــن بعدي . »

ولكنه أبى الاستماع الى الكلام عن موتها ، فنهض وغادر الحجرة حين ألمعت الى ذلك .

ومع هذا فقد مضــى ذات يوم الــى دكــان احد صــانعي التوابيت في المدينة ــ اذ كان يعرف انها لا بد ان تقضي نحبها واذ كان يعرف ان ذلــك واجب عليه ــ وألقى نظرة على جميع التوابيت المعروضة هناك للبيع واختار تابوتا أسود صالحا مصنوعــا من خشب ثقيل قــاس . عندئذ التفت اليـــه النجار ، الذي ينتظره حتى يختار ، وقال له في مكر :

ــ « اذا اشتريت اثنيــن حسمت لــك ثلث ثمنهمــا . ولمــاذا لا تشتري واحدا لنفسك وبذلك تكون قد ضمنت نعشك منذ الآن ؟ »

فأجابه وانغ لانغ :

ــ « لا ، ففي استطاعة أبنائي ان يشتروه لي . »

ثم فكر في أبيه ، فتذكر انه لما يعد نعشا للرجل العجوز . واذهله ذلــك فاضاف قائلا :

ــ « ولكن ثمة ابي العجوز ولسوف يموت في يــوم قريب ، فهو ضعيف حتى الشلل ، وهو أصم نصف أعمى . وهكذا سوف اشتري الاثنين » .

ووعده الرجل بأن دهن التابوتين بلون أسود داكن وبأن يبعث بهما الى وانغ لانغ . وهكذا اخبر وانغ لانغ زوجته أو ــ لان بمــا قد فعل ، فســرت بذلك وبأن العدة قد أعدت لموتها على نحو صالح .

واذن فقد كان يجلس الى جانبها ساعات طويلة كل يوم ، ولم يكونـــا يتكلمان كثيرا ، فقد كانت واهنة القوى ، وفوق هذا فانه ما كان من مألوف عادتهما ان يتجاذبا أطراف الاحاديث . وكثيرا ما كــانت أو ــ لان تنسى ــ وهي متمددة على فراشها في سكينة وصمت ــ أين كانت ، وكثيرا ما كــانت تغمغم ببعض ذكريات طفولتهــا ، وللمرة الاولى نفذ وانغ لانغ الــى سريرة نفسها ، على الرغم من ان العبارات التي أطلقتها في هذيانها كــانت موجزة الى حد بعيد . كانت تقول مثلا :

ــ « سوف احمل قصاع الطعام الى الباب فقط ... وانا اعرف انــي بشعة ولا استطيع المثول بين يدي السيد العظيم ... » او تقول لاهثة :

« لا تضربني ... انا لن آكل من هذا الصحن بعد اليوم ... » وتكرر

مرة ومرة : « أبي ··· أمي ··· أبي ··· أمي ··· » وتعيد قائلة :

« حسنا ، انا اعرف اني بشعة ، وان احدا لا يمكن ان يحبني ··· »

وكان وانغ لانغ ، كلما سمعها تقول ذلك ، يعجز عن الاحتمال ، فكان يمسك بيدها ويلاطفها ، وكانت يدا ضخمة قاسية · وكانت متصلبة وكأن الموت قد ألم منذ قريب · وكان وانغ لانغ يدهش وينقم على نفسه لان ما قالته كان صحيحا · وحتى عندما أمسك بيدها ، راغبا بأخلاص في ان تستشعر حنانه نحوها ، خجل لانه لم يستطع ان يستشعر شيئا من الحنان ومن ذلك « الذوبان » الذي كانت لوتس توقعه في فؤاده بمطة بسيطة من شفتيها · انه حين أمسك بتلك اليد المتصلبة المحتضرة لم يحبها ، وحتى شفقته افسدت تحت وطأة اشمئزازه منها ·

ولكن ذلك نفسه لم يزده الا عطفا عليها، فكان يشتري لها اطعمة خاصة وضروبا من الحساء مترفة مصنوعة من سمك ابيض ومن قلوب ملفوف غض · وفوق هذا فانه ما عاد ينعم بما تعود ان ينعم به من متعة العيش مع لوتس ، اذ لم يكن في ميسوره حين يدخل عليها ليتسلى عن اليأس الذي أغرقه فيه هذا الاحتضار الطويل ان ينسى أو ــ لان · وحتى وهو يعانق لوتس كانت يداه تتراخيان عنها بسبب من أو ــ لان ·

★

كانت ثمة فترات افاقت فيها أو ــ لان على نفسها وعلى ما كان حولها· وذات مرة رغبت في رؤية كوكو ، وحين استدعاها وانغ لانغ في دهش رفعت أو ــ لان نفسها ، مرتعدة ، على ذراعها وقالت في وضوح بالغ :

ــ « جائز ان تكوني قد عشت في اروقة سيد القصر العجوز ، وان القوم هناك كانوا يعتبرونك جميلة · ولكني زوجة رجل ، ولقد انجبت له اولادا ، في حين انك انت لا تزالين جارية رقيقة · »

وتحفزت كوكو للرد عليها في غضب ، ولكن وانغ لانغ تضرع اليها وقادها الى الخارج قائلا :

ــ « هذه المرأة لم تعد تعرف اي شيء تعنيه الكلمات » ·

وحين انقلب الى الحجرة كانت أو ــ لان لا تزال مسندة رأسها الى ذراعها · وقالت له :

ــ « بعد أن اموت لا أريد ان تدخل هذه المرأة او سيدتها الى غرفتي او ان تمسا اشيائي، واذا ما فعلتا ارجعت روحي الى هذا العالم لتلعنها· »

ثم استسلمت لنومها المحموم ، وسقط رأسها على الوسادة ·

ولكن حالها تحسنت فجأة قبل يوم واحد من عيد رأس السنة ، كما

ترتجف الشمعة في اشراقة قوية قبل ان تلفظ نفسها الاخير ٠ وعادت سيرتها الاولى ، فأنشأت تقعد في سريرها وتضفر شعرها بنفسها وتسأل ان يعدوا لها كوبا من الشاي ٠ وحين دخل وانغ لانغ عليها قالت له :

ــ « لقد أطلت علينا السنة الجديدة وليس لدينا حلوى ولا لحوم ، ولقد فكرت في شيء ٠ انا لا اريد ان ارى تلك الجارية في مطبخي ، ولكني اود ان تستدعي كنتي ، التي هي مخطوبة لولدي البكر ٠ انا لما أرها حتى الآن ، ولكن ما ان تجيء حتى أقول لها ما الذي يجب ان تعمله ٠ »

وسر وانغ لانغ بقوتها ، على الرغم من انه لم يبال بمظاهر الابتهاج هذه السنة ، وبعث بكوكو لتتضرع الى « ليو » ، تاجر القمح ، بعد ان رأى كم كان الموقف محزنا ٠ وبعد برهة ابدى « ليو » استعداده للنزول عند رغبة وانغ لانغ عندما سمع ان أو ــ لان قد تلفظ انفاسها الاخيرة قبل انقضاء الشتاء ، وعلى أية حال فقد كانت الفتاة في السادسة عشرة وكانت أعلى سنا من بعض الفتيات اللواتي ينتقلن الى بيوت ازواجهن ٠

ولكنهم ، بسبب من أو ــ لان ، لم يبتهجوا بالعيد ٠ لقد أقبلت العروس بهدوء محمولة في محفة ، وأقبلت معها امها وخادمة عجوز ٠ اما الام فرجعت بعيد تسليمها العروس الى أو ــ لان ، وأما الخادمة فبقيت في خدمة العروس ٠

ونقل الاولاد من الحجرة التي تعودوا النوم فيها ، وخصصت تلك الحجرة للكنة الجديدة ، ورتب كل شيء كما ينبغي ان يرتب ٠ ولم يتحدث وانغ لانغ الى العروس ، اذ لم يكن ذلك لائقا ، ولكنه أمال رأسه في وقار عندما انحنت له بالتحية ٠ ووقعت العروس من نفسه موقعا حسنا ، فقد عرفت واجبها وراحت تطوف بالحجرات في هدوء وقد غضت من طرفها ٠ وفوق هذا ، فقد كانت فتاة حسنة المظهر ذات جمال غير يسير ، ولكنها ليست جميلة اكثر مما ينبغي بحيث يركبها الغرور ٠ كانت كثيرة الاحتراس قويمة في مسالكها كلها ، ولقد كانت تمضي الى غرفة أو ــ لان وتسهر على راحتها ، وكان في ذلك ما خفف من أسى وانغ لانغ على زوجته المتألمة ، فقد أصبح لديها الان امرأة قادرة على البقاء الى جانب سريرها ٠ وسرت أو ــ لان بذلك سرورا عظيما ٠

واتصل سرور أو ــ لان ثلاثة أيام أو أكثر ، ثم فكرت في شيء آخر وقالت لوانغ لانغ عندما وفد عليها صباحا ليسألها كيف كانت ليلتها :

ــ « هناك شيء أرغب فيه قبل أن أموت ٠ »

فأجابها مغضبا :

ــ « اذا أردت ارضائي فلا تتحدثي عن الموت ٠ »

عندئذ ابتسمت في أناة ، تلك الابتسامة البطيئة نفسها التي كانت تنتهي قبل أن تبلغ عينيها ، وأجابت :

ـ «ليس من موتي بد ، فأنا أحسه في احشائي ينتظر ، ولكني لا أريد أن أموت قبل أن يؤوب ولدي البكر وقبل أن تزف اليه هذه العروس الطيبة التي هي كنتي ، والتي تخدمني خدمة صالحة فهي تحمل حوض الماء الحار في رباطة جأش ، وهي تعرف اللحظة التي يجب ان يغسل فيها وجهي عندما يتصبب عرق الالم مني · اني أريد الان أن يؤوب ولدي الى البيت ، لانني مائتة لا محالة ، وأنا أريد أن أزف اليه هذه الفتاة أولا ، لكي أموت مطمئنة النفس ، عالمة أن حفيدك سوف يرى النور عما قريب ، وأن الرجل العجوز سوف يكحل العين برؤية حفيد ابنه · »

وكانت هذه الكلمات كثيرة عليها في أيما وقت ، حتى في عهد صحتها ، ولقد قالتها في ثبات لم يغلب مثله على أي شيء مما قالته منذ أشهر عديدة · وابتهج وانغ لانغ بالقوة التي سربلت صوتها ، وبالعزم الذي أفرغت فيه رغبتها تلك · ولم يشأ أن يخالفها ، على الرغم من أنه كان يؤثر ان يمنح مهلة أكبر للاحتفال بزواج ابنه البكر احتفالا عظيما · وهكذا اكتفى بأن قال لها في حبور :

ـ « حسن ، ولسوف نفعل هذا أيضا · اني سأبعث اليوم برجل الى الجنوب ، وهذا الرجل سوف يبحث عن ولدي ويرجع به الى البيت ليزوج · وبعدئذ يتعين عليك أن تعديني بأن تحشدي قوتك كلها من جديد وتقلعي عن الموت وتسيري في درب العافية ، لان البيت بدونك أشبه شيء بكهف من كهوف البهائم · »

قال ذلك ليرضيها · ولقد أرضاها فعلا ، على الرغم من أنها لم تنطق بعد ذلك ببنت شفة ، بل استلقت على ظهرها ، وأغمضت عينيها مفترة الشفتين عن ابتسامة صغيرة ·

وهكذا بعث وانغ لانغ بالرجل ، وقال له :

ـ « قل للسيد الصغير ان أمه تحتضر ، وان روحها لن تطمئن الا اذا رآته ورأت الى عروسه تزف اليه · واذا كان يحبني ، ويحب أمه وبيته فيتعين عليه أن يرجع قبل أن يرسل نفسا جديدا ، ذلك لانني سأقيم المأدب بعد ثلاثة أيام ، وسأدعو الضيوف ، وستزف عروسه اليه · »

وقرن وانغ لانغ القول بالعمل · لقد أمر كوكو بأن تعد مأدبة غنية الى أقصى حد مستطاع ، وعهد اليها في أن تستدعي الطهاة من صالة الشاي في المدينة لكي يساعدوها ، وأفرغ في يديها قدرا من الفضة غير يسير ، وقال :

ـ « افعلي كما كان القوم يفعلون في البيت الكبير في ساعة كهذه ، واذا لم يكفك هذا القدر من الفضة فلدي مزيد • »

ثم انه مضى الى القرية ودعا الضيوف ، نساء ورجالا ، دعا كل امرىء كان يعرفه ، ومضى الى المدينة ودعا من كان يعرفهم في صالات الشاي وفي أسواق القمح وكل امرىء من معارفه • وقال لعمه :

ـ « ادع من تشاء الى عرس ابني ، ادع أيا من اصدقائك أو من اصدقاء ابنك • »

قال ذلك لأنه تذكر دائما من كان عمه ، ولقد كان وانغ لانغ لطيفا مع عمه وكان يعامله معاملة ضيف مكرم ، وتلك خطة انتهجها منذ عرف من كان عمه•

وعشية الزفاف وفد ابن وانغ لانغ البكر على البيت ، ودخل الحجرة موسعا الخطى • ونسي وانغ لانغ جميع المتاعب التي أورثه اياها ذلك الشاب يوم كان مقيما في المنزل • ذلك بأن عامين أو أكثر كانا قد انقضيا لم ير خلالها ابنه ذاك ، وها هو ذا الان أمامه • انه لم يعد غلاما ، لقد أمسى رجلا فارع الطول ، بهي الطلعة ، ذا جسم مربع ضخم ، ووجنتين عاليتين موردتين ، وشعر أسود قصير لماع مضمخ بالزيت • وكان يلبس رداء طويلا أحمر داكنا مخيطا من الاطلس كتلك الاردية التي يراها المرء في دكاكين الجنوب ، وسترة مخملية سوداء قصيرة غير ذات ردنين • وكاد فؤاد وانغ لانغ يتفطر اعتزازا بابنه ، ونسي كل شيء ما خلا ابنه ذا الطلعة البهية ، وقاده الى أمه •

ثم ان الشاب قعد الى جانب سرير أمه ، وترقرقت العبرات في عينيه اذ رآها على حالها تلك ، ولكنه لم يشأ أن يقول غير أشياء بهيجة من مثل : « انت تبدين أحسن مما قالوا بمرتين ، وان بينك وبين الموت بونا شاسعا • »

ولكن أو ـ لان قالت ببساطة :

ـ « سوف أكحل العين برؤيتك عريسا وبعد ذلك يتعين علي أن أموت »•

وكان العرف يقضي بأن تحجب العروس عن عيني الشاب ، ولقد قادتها لوتس الى الرواق الداخلي لكي تعدها للزواج ، ولم يكن في ميسور أحد أن يفعل ذلك خيرا مما تفعله لوتس وكوكو وامرأة عم وانغ لانغ • والواقع ان هاته النسوة الثلاث تسلمن العروس وفي صباح يوم الزفاف غسلن جسدها من أعلى الرأس الى أخمص القدم وأعدن شد قدميها بأقمشة بيضاء جديدة تحت جوربيها الجديدين ، وضمخت لوتس جلدها بشيء من زيت اللوز الارج الذي كانت تدهن به • ثم أنهن ألبسنها أردية كانت هي قد حملتها من بيتها : قميص حريري أبيض مزهر * يلي جسدها الغض البكر ثم سترة رقيقة من أجود

* مرسوم عليه بعض الازهار •

أصواف الخراف وأكثرها التفافا ، وبعد ذلك أثواب العرس الحمراء المخيطة من الاطلس • ومسحن جبينها بالكلس ، وبواسطة خيط معقود في براعة رددن الى الوراء شعرات بتوليتها ، وهي الخصلة التي تنوس على جبهتها ، وجعلن جبينها عاليا ناعما طلقا يتلاءم مع وضعها الجديد • ثم انهن طلينها بالذرور وبصبغ أحمر ، وبواسطة مرود أطلن حاجبيها بخطين مديدين مستدقين ، ووضعن على رأسها تاج العروس والحجاب المرصع بالخرز ، وأدخلن قدميها الصغيرتين في حذاء موشى ، ثم صبغن أناملها وعطرن راحتي يديهـا ، وهكذا هيأنهـا للزواج • وانقادت العروس لذلك كله ، ولكن في امتناع وخجل ، كما يجـدر بمثلها أن يفعل •

ثم ان وانغ لانغ وعمه وأباه والضيوف انتظروا في الحجرة الوسطى ، وأقبلت العروس مستندة الى ذراع جاريتها هي من ناحية وذراع امـرأة عم وانغ لانغ من ناحية ثانية • وتقدمت ناكسة الرأس في اتضاع وفقا للتقاليد، وكأنها غير راغبة في الزواج ، أو كأنما كانت في حاجة الى من يعينها عليه • ولقد أظهر هذا اتضاعها العظيم ، وسر وانغ لانغ وقال في ذات نفسه انهـا فتاة رائعة صالحة •

وبعد هذا أقبل ابن وانغ لانغ البكر ، مرتديا ، شأنه من قبل ، رداءه الاحمر وسترته السوداء ، وكان شعره صقيلا ووجهه حليقا منذ فترة قصيرة• وخلفه أقبل أخواه ، وحين وقعت عليهم عينا وانغ لانغ كاد ينفجر اعتزازا وتيها بموكب أولاده ذوي الطلعات البهية الذين سوف يخلدون من بعده حياة جسده • وعندئذ انتهى الرجل العجوز ــ الذي لم يفهم ما كان يحدث البتة ولم يستطع أن يسمع غير شذرات مما كان يهتف به في أذنيه ــ انتهى الى أن يفهم فجأة ، ونقنق بضحكة مصدوعة وقال مرة ومرة بصوته الهرم المرتعش :

ــ « هذا عرس ، والعرس يعني أولادا جددا وحفدة أيضا ! »

وأرسل ضحكة صادرة من صميم الفؤاد حتى لقد ضحك الضيوف كلهم لما رأوه من طربه ، وقال وانغ لانغ في ذات نفسه : « لو ان أو ــ لان استطاعت أن تنهض من فراشها اذن لكان يوما بهيجا • »

وطوال هذه الفترة كان وانغ لانغ يختلس النظر ، في امعان ، الى ابنـه ليرى هل كان يرنو الى العروس أم لا • والحق أن الشاب كان يختلس النظر اليها ، ومن زاوية عينيه ، ولكن ذلك كان حسبه ، ذلك بأن السرور ما لبث أن داخله وغلب الابتهاج على حركاته وسكناته • وقال وانغ لانغ لنفسه فـي افتخـار :

ــ « حسنا ، ولقد اخترت له فتاة يحبها • »

ثم ان الشاب والفتاة انحنيا كلاهما للرجل العجوز ولوانغ لانغ ، ثم مضيا الى حجرة أو ـ لان ، وكانت قد سألتهم أن يلبسوها سترتها الجميلة السوداء ، وقعدت في سريرها عندما دخلا عليها ، وقد اضطرمت على وجهها رقعتان ناريتا الاحمرار توهمهما وانغ لانغ أمارة عافية ، حتى لقد قال في صوت عال :

ـ « انها سوف تشفى عما قريب ! »

وتقدم الشاب والشابة نحوها ، وانحنيا لها ، فربتت على السرير قائلة :

ـ « اقعدا هنا ، واحتسيا خمر عرسكما وكلا أرزه ، ذلك بأني أريد أن أرى هذا كله ، ولسوف يكون هذا السرير سرير زواجكما لاني سوف أصبح في غنى عنه عما قريب وأحمل الى مكان بعيد » ·

ولم يجبها احد حين تكلمت على هذا النحو ، ولكن العروسين قعدا جنبا الىجنب صامتين مستحيا أحدهما من الاخر، ودخلت امرأة عم وانغ لانغ بدينة منتفخة بالشعور بالعظمة ، حاملة كأسين من خمر ساخنة ، وشرب كل منهما على حدة ، ثم مزجا خمر الكأسين وشربا من جديد رامزين بذلك الى ان الاثنين اصبحا الان واحدا ، وأكلا شيئا من الارز ثم مزجا الارز ، وهذا يعني ان حياتهما أصبحت الان واحدة ، وهكذا جمع ما بينهما بالزواج · ثم انهما انحنيا لاو-لان كرة اخرى ولوانغ لانغ ، ثم غادرا الحجرة وانحنيا معا تحية للضيوف المجتمعين ·

وحان وقت الطعام ، فملئت الغرف والاروقة بالموائد وبرائحة الطهو وبرنين الضحك ، ذلك بأن الضيوف أقبلوا من كل ناحية ، اولئك الذين كان وانغ لانغ قد دعاهم وكثير لم تقع عين وانغ لانغ عليهم قط من قبل ، اذ كان الناس يعرفون انه رجل غني ، وان الطعام لن يعوز بيته في مناسبة وانه سوف يوزع على الوافدين من غير حساب · وكانت كوكو قد استدعت بعض الطهاة من المدينة لاعداد المأدبة اذ كان مقررا ان تشتمل على كثير من المآكل المترفة التي لا سبيل الى اعدادها في مطبخ من الفلاحين · وأقبل الطهاة المدينيون حاملين سلالا ضخمة من الطعام المطهو الذي لا يحتاج الى شيء غير التسخين· واضفوا على أنفسهم أهمية بالغة ، وراحوا يطوفون بالمكان في همة ونشاط ، رافعين مآزرهم الوسخة · وأكل كل امرىء فأسرف في الاكل ، وشربوا حتى الاشباع ، وكانوا كلهم مبتهجين ابتهاجا عظيما ·

وطلبت أو-لان ان تفتح الابواب كلها ، وان تزاح الستائر لكي يكون في ميسورها أن تسمع اللغط والضحك وتستروح الطعام ، ومرة بعد مرة قالت

لوانغ لانغ الذي كان يختلف الى غرفتها ليسألها عن حالها :

ـ « هل قدمتم الخمر الى كل فرد ؟ وهل حلوى الارز التي تقدم بعيد الطعام بقليل حارة جدا ؟ وهل أدخلوا فيها المقادير الكاملة من شحم الخنزير والسكر وصنوف الفاكهة الثمانية ؟ »

وحين أكد لها ان كل شيء كان وفق ما اشتهت اطمأنت نفسها وأنشأت تصغي من جديد ·

وأخيرا انفض الطاعمون ، ومضوا لسبيلهم ، وهبط الليل · وحين خيم الصمت على المنزل وانحسرت موجة الحبور استشعرت أو ـ لان الكلال والوهن ونادت العروسين وقالت :

ـ « أنا الان سعيدة ، وفي استطاعة الموت الكامن في اهابي ان يفعل بي ما يشاء · يا بني ، اسهر على راحة أبيك وجدك · ويا بنيتي ، اسهري على راحة زوجك ووالد زوجك وجده وعلى المعتوهة المسكينة التي في الرواق · ولن يكون عليكما أيما واجب نحو أحد اخر » ·

وانما عنت بهذه الجملة الاخيرة لوتس التي ما كانت أو ـ لان تكلمها أبدا · ثم بدا وكأنها استسلمت لنوم محموم ، على الرغم من انهما توقعا أن تستأنف الكلام بعد قليل ، وكرة أخرى رفعت نفسها لكي تتكلم · ومع ذلك فلو رأيتها وهي تتكلم اذن لخيل اليك انها كانت تجهل أنهم هناك وتجهل أين كانت حقا ، بدليل انها قالت مغمغمة مديرة وجهها ههنا وههناك مغمضة العينين :

ـ « أجل ، أنا أعلم اني بشعة ، ومع ذلك فقد أنجبت ولدا · وعلى الرغم من اني لست اكثر من جارية رقيقة فان في بيتي ولدا » ·

ثم أضافت فجأة :

ـ « كيف تستطيع تلك المرأة أن تطعمه وتعنى به كما أفعل أنا ؟ ان الجمال لا ينجب لرجل أولادا » ·

ونسيتهم جميعا وواصلت غمغمتها · عندئذ أومأ اليهما وانغ لانغ بالانصراف ، وقعد الى جانبها بينا كانت تنام وتفيق ، وطفق ينظر اليها · وأبغض نفسه لانه رأى ، حتى وهي على فراش الاحتضار ، مبلغ شحوب شفتيها البنفسجيتين وارتدادهما عن أسنانها · وفيما كان ينظر اليها فتحت عينيها وبدأ وكأن غشاوة كانت ترين عليهما ، ذلك بأنها حدقت اليه في امعان ثم حدقت كرة اخرى متعجبة مثبتة عينيها عليه وكأنها تتساءل من هو · وفجأة سقط رأسها منحرفا عن الوسادة المدورة التي استراح عليها ، وسرت في جسدها رعدة ، وماتت ·

وما ان لفظت أنفاسها حتى بدا لوانغ لانغ انـــه أعجز من أن يحتمل البقاء في جوارها ، فنادى امرأة عمه لتغسل الجثمان قبل أن يدفن · حتى اذا تم ذلك أبى الدخول كرة اخرى الى الغرفة ، ولكنه أجاز لامرأة عمه وابنـه البكر وكنته برفع الجسد عن السرير ووضعه في التابوت الضخم الذي كـان قد اشتراه لهذا الغرض · ولكي يتسلى عن مصابه شغل نفسه بالذهاب الـى المدينة وبدعوة الرجال لختم التابوت وفقا للعرف ، ومضى ووجد ضارب رمل فسأله عن يوم سعيد يختاره للدفن · ولقد عثر ضارب الرمل على يوم سعيد يقع بعد ثلاثة أشهر، وكان هذا أول يوم سعيد يعثر عليه، وهكذا دفع وانغ لانغ اليه أجرة ومضى الى هيكل المدينـة وانشأ يسـاوم الكـاهن المسؤول عـن الهيكل ، واستأجر مساحة تخصص لوضع تابوت هناك طوال ثلاثة اشهر ، وهكذا جيء بنعش او ـلان ليستريح ثمة حتى يوم الدفن ، اذ بدا لوانغ لانغ أنه لن يحتمل ابقاءه تحت ناظريه في بيته ·

وحرص وانغ لانغ اشد الحرص على اداء كل ما ينبغي اداؤه مـــن تكريم للفقيدة ، وهكذا أصدر أمره بأن تعـــد ملابس الحداد الكامل لـــه ولاولاده · لقد انتعلوا أحذية من قماش خشن ابيض ، وهو لون الحـداد ، وطوقوا كواحلهم بعصائب قماشية بيضاء ، وعقدت النسوة في البيت شعرهن بخيط أبيض ·

وبعد ذلك لم يعد وانغ لانغ يطيق النوم في الحجرة التي توفيت فيهـــا أو ـلان ، فجمع أشياءه وانتقل بها الى الرواق الداخلي المخصص للوتس ، وقال لولده البكر :

ـ « اذهب أنت وزوجتك الى تلك الغرفة التي عاشت فيها أمك وماتت ، أمك التي حملتك في بطنها وأنجب هناك أولادك » ·

وهكذا انتقلا كلاهما اليها ، وكانا بذلك سعيدين ·

وذات ليلة ، وكأن الموت لم يستطع أن يغادر ـ في سهولة ـ البيت الذي وفد اليه مرة ، استلقى الرجل العجوز ، والد وانغ لانغ ، الذي أمسى شارد الذهن منذ رآهم يضعون جثة أو ـلان المتصلبة في النعش ، أقول استلقى على سريره لينام ، وحين دخلت بنت وانغ لانغ الثانية عليه في الصباح حاملة اليه الشاي الفته ميتا على فراشه ولحيته الهرمة المتناثرة مقحمة في الهواء ، ورأسه مرتد الى الوراء ·

وصرخت لدن وقع بصرها على هذا المشهد وهرعت تنادي أباها · وأقبل وانغ لانغ فوجد الرجل العجوز على تلك الحال · كان جسده المتصلب الهرم جافا باردا مهزولا مثل شجرة صنوبر ذات عقد ، وكان قد توفي قبل عـدة

ساعات ، ربما بعيد استلقائه على الفراش · ثم ان وانغ لانغ غسل بنفسه جثة الرجل العجوز ووضعه بتلطف في التابوت الذي كان قد اشتراه لـه ، وجاء بمن يختمه ثم قال :

ـ « سوف ندفن فقيدي بيتنا هذين في يوم واحد ، ولسوف أقتطع جزءا غير يسير من أرضي القائمة عند الهضبة ، وأدفنهما هناك معا · حتى اذا مت أنا دفنت في ذلك الوطن أيضا » ·

وقرن وانغ لانغ القول بالعمل · وحين أنجز ختم التابوت وضعه على مقعدين خشبيين في الحجرة الوسطى حيث ظل الى اليوم المحدد· وبدا لوانغ لانغ أن من العزاء لنفس الرجل العجوز ان يوضع هناك ، ولو ميتا ، واستشعر انه قريب من أبيه في التابوت ، ذلك بأن وانغ لانغ استبد به الحزن على أبيه ، ولكن لا الى حد الموت ، لان أباه كان هرما جدا مثقلا بالسنين ، ولانه كان نصف حي منذ سنوات عديدة ·

وفي اليوم الذي حدده ضارب الرمل في ريعان الربيع دعا وانغ لانغ بعض الكهنة من الهيكل الطاوي Taoist فاقبلوا في أرديتهم الصفراء وقد عقد كل منهم شعره الطويل فوق قمة رأسه ، ودعا كهنة اخرين من الهياكل البوذية فأقبلوا في أرديتهم الطويلة الرمادية ، وقد حلقوا رؤوسهم وزينوها بالندوب التسعة المقدسة ، وراح هؤلاء الكهنة يقرعون الطبول وينشدون طوال الليل بكامله من اجل الفقيدين· وكلما كفوا عن الانشاد أفرغ وانغ لانغ الفضة في أيديهم ، فيستأنفون تراتيلهم بعد ان يرتاحوا قليلا ، وعلى هذا النحو واصلوا الانشاد حتى مطلع الفجر ·

وكان وانغ لانغ قد اختار في غضون ذلك من حقوله موقعا صالحا لدفن الجثتين تحت نخلة قائمة على هضبة · وكان قد حفر الجدثين وأقام حولهما جدارا من طين ، فاذا في البقعة المطوقة بالجدار رقعة تتسع لجسد وانغ لانغ ولجسد كل من أولاده ونساء أولاده ، بل تتسع لاولاد أولاده أيضا · ولم يأسف وانغ لانغ لضياع هذه الارض على الرغم من انها كانت مرتفعة وصالحة لزراعة القمح ، لانها كانت امارة على رسوخ اسرته في أرضها الخاصة · ان أفراد هذه الاسرة سوف يستقرون في أرضهم هم ، في حالي الموت والحياة ·

وفي اليوم المحدد ، بعد أن أتم الكهنة ترتيلهم الليلي ، ارتدى وانغ لانغ ثوبا من الخيش وأعطى كلا من عمه وابن عمه وأولاده هو ثوبا مشابها ، كما أعطى كنته وبنتيه مثل ذلك · وكان قد استدعى عددا من حملة المحفات العاملين في المدينة لنقلهم اذ لم يكن ليليق بهم أن يسيروا الى المدفن على أقدامهم وكأنه رجل فقير ومن العوام · وهكذا اعتلى للمرة الاولى في حياته منكبي رجل ،

خلف النعش الذي اشتمل على جثمان أو-لان · أما خلف نعش أبيه فقد ركب عمه أولا · وحتى لوتس التي كانت لا تستطيع ، في حياة أو-لان ، أن تبرز أمامها ، أقبلت الان ، وقد توفيت أو-لان ، محمولة على محفة لكي تبدو في أعين الاخرين حفية بامرأة زوجها الاولى قائمة بواجبها نحوها · وكذلك استأجر وانغ لانغ لامرأة عمه ولابن عمه محفتين ايضا وأعد لهم جميعا أردية من خيش ، وحتى المعتوهة المسكينة اعد لها رداء واستأجر محفة ووضعها فيها · ولكنها كانت منذهلة الى حد رهيب ، ولقد ضحكت ضحكا مدويا في موقف لم يكن يجوز فيه غير البكاء ·

وهكذا مضوا نادبين منتحبين الى القبرين يتبعهم تشينغ والعمال سائرين على أقدامهم منتعلين أحذية بيضاء · ووقف وانغ لانغ حيال القبرين · كان قد أوعز بنقل تابوت أو-لان من الهيكل ، فوضع على الارض ريثما يدفن الرجل العجوز أولا · ووقف وانغ لانغ ، وراقب ، وكان أساه قاسيا جافا ، فما كان لينتحب أو يعول كما قد فعل سائر أفراد الاسرة ، إذ لم يكن في عينيه دمع ، لانه كان قد بدا له أن ما وقع قد وقع ، وانه ليس في ميسور المرء أن يصنع غير الذي صنع ·

ولكن حين هيل عليهما التراب وسوي القبران استدار في صمت وصرف حامل المحفة ، وانقلب الى بيته ماشيا متوحدا · ومن خلال كآبته انتصبت على نحو غريب فكرة واحدة ليس غير ، فكرة أورثته ألما بالغا : لقد تمنى لو لم يأخذ اللؤلؤتين من أو-لان يوم كانت تغسل ثيابه عند البركة ، ولم يعد ليطيق رؤيتهما متدليتين من أذني لوتس ·

على هذا النحو مضى متوحدا ، مفكرا في كآبة ، وقال مخاطبا نفسه :

- « هناك في أرضي تلك دفن النصف الاول الطيب من حياتي وأكثر · لكأنما قد دفن نصفي هناك ، ولسوف تكون الحياة منذ اليوم مختلفة في بيتي عما كانت عليه من قبل » ·

وفجأة ترقرقت العبرات في عينيه ، فكفكفها بظاهر كفه ، كما يفعل طفل من الاطفال ·

٢٧

خلال هذه الفترة كلها لم يفكر وانغ لانغ ، الا لماما ، في ثمرات الحصاد ، فقد كان في شغل عن ذلك شاغل في تزويج ابنه ودفن امرأته · ولكن تشينغ وقد

عليه ذات يوم وقال :

ـ « أما وقد انقضى الفرح والترح فأني أرى من واجبي ان احدثك حديث الارض » ٠

فأجابه وانغ لانغ :

ـ « تكلم ، اذن ٠ اني نادرا ما فكرت في أرضي في هذه الايام الا بقدر ما يتعلق الامر برغبتي في دفن من فقدت في ثراها » ٠

واعتصم تشينغ بالصمت بضع دقائق احتراما لوانغ لانغ حين تحدث على هذا النحو ، ثم قال في جرس رقيق :

ـ « أرجو أن تجنبنا السماء هذا البلاء ، ولكن يبدو وكأننا سنشهد هذا العام فيضانا لم نشهد مثله من قبل ، فالمياه قد غمرت الارض على الرغم من ان الصيف لم يطل بعد ، وليس هذا أوان الفيضان بحال » ٠

ولكن وانغ لانغ قال في قوة :

ـ « أنا لم أفز حتى الان بأيما شيء حسن من ذلك العجوز الذي في السماء ٠ وسواء أقدمنا له البخور ام لم نقدم له البخور فانه نزاع الى الشر أبدا ٠ فلنذهب لنرى الارض » ٠

قال ذلك ونهض ٠

كان تشينغ رجلا جبانا مخلوع الفؤاد ٠ ومهما تبلغ الحال من السوء فانه لم يكن يجرؤ مثل وانغ لانغ على التجديف على السماء ٠ لقد اكتفى بالقول : « هذه هي مشيئة السماء ! » وارتضى الفيضان وانحباس المطر في وداعة ٠ أما وانغ لانغ فلم يكن كذلك ٠ لقد هرع الى أراضيه ، وأنشأ يتنقل من هذه القطعة الى تلك ، فألفاها كما قال تشينغ ٠ كانت جميع تلك القطع المتاخمة للخندق ، على طول القنوات ، والتي كان قد اشتراها من السيد العجوز عميد أسرة هوانغ ، ندية موحلة بسبب من المياه الغزيرة المنبجسة من الاعماق حتى لقد استحال القمح الطيب في هذه الارض عليلا شاحبا ٠

وكان الخندق نفسه أشبه ببحيرة ، وكانت القنوات أنهارا رشيقة تعج بالدرادير والدوامات الصغيرة ٠ وحتى المعتوه كان في ميسوره ان يدرك ، ما دامت أمطار السماء لما تهطل بعد ، أن تلك السنة سوف تشهد فيضانا جبارا ، وان الرجال والنساء والاطفال سوف يجوعون من جديد ٠ ثم ان وانغ لانغ راح يعدو ههنا وهناك ، فوق أرضه ، وفي سرعة بالغة ، وانطلق تشينغ صامتا ، وكأنه الظل ، خلفه ، وقدرا معا أي الاراضي يمكن أن تزرع أرزا ، وأيها سوف يغمرها الماء قبل ان ينقل اليها الارز الغض ٠ واذ نظر وانغ لانغ الى القنوات وقد فاضت حتى ضفافها جدف وقال :

ـ « في استطاعة الرجل العجوز الذي في السماء ، أن يبتهج الان ، ذلك بأنه سوف ينظر من عل فيرى الناس غرقى جائعين ، فهذا ما يحبه هـــذا اللعين ! »

قال ذلك في صوت عال وفي غضب حتى لقد ارتعد تشينغ وقال :

ـ « ومع ذلك فهو اكبر من أي واحد منا ، وليس ينبغي لك أن تتحدث هكذا ، يا سيدي » ٠

ولكن وانغ لانغ كان غنيا ومن ذلك لم يكن ليبالي ، فأطلق لغضبه العنان وأنشأ يغمغم فيما كان راجعا الى البيت كلما خطر له أن المياه تغمر أرضه ومحاصيله الخصبة ٠

ثم ان كل شيء حدث وفق ما توقع وانغ لانغ ٠ لقد حطم النهر الشمالي سدوده ، سدوده القصوى أولا ، وحين رأى الرجال ما حدث هرعوا من مكان الى اخر ليجمعوا المال لاصلاحها ٠ وجاد كل امرىء بما استطاع أن يجود به ، اذ كان من صالح كل أن يبقى النهر ضمن حدوده ٠ ثم انهم اودعوا محافظ المنطقة ذلك المال ، وكان رجلا جديدا وفد الى تلك الديار منذ عهد قريب ، وكان فقيرا لم تقع عينه على مثل هذا القدر من المال طوال حياته قط ، اذ لم يرق الى هذا المنصب الا منذ فترة يسيرة بفضل جود أبيه الذي كان قد دفع كل مـــا يملك من مال ، ولعله اقترض فوقه أيضا ، ليشتري هذا المنصب لابنه ، رجاة ان توفق الاسرة من طريقه الى اكتساب شيء من الثروة ٠ وحين انفجر النهر من جديد انطلق الناس زاعقين صاخبين الى منزل هذا المحافظ ، لانه لم يف بما وعد به من اصلاح السدود ، فأطلق ساقيه للريح وتوارى عن الانظـــار لانه كان قد أنفق التبرعات في بيته هو ، وقد نيف عددها على ثلاثة الاف قطعة فضة ٠ أجل ، اندفع العوام الى بيته كالسيل العرم زاعقين مطالبين برأسه جزاء ما قد فعل ، وحين أدرك أن القوم قد يقتلونه ولى فرارا ووثب الـــى الماء وأغرق نفسه ٠ وهكذا هدأت ثائرة الناس ٠

ولكن المال ذهب أدراج الرياح ، وحطم النهر سدا ثانيا ثم سدا ثالثـــا قبل ان يقنع بالحيز الذي احتله ٠ وبعد ذلك اتلف هذه الجدران الطينية حتى لقد أمسى من المتعذر على المرء ان يحزر أين كانت السدود تقوم في تلك الديار كلها ، وتضخم النهر وتدحرجت أمواجه كالبحر فوق جميع الاراضي المنزرعة الطيبة ، فاذا بالقمح والارز الغض يصبحان في أعماق البحر ٠

وحولت القرى ، واحدة اثر واحدة ، الى جزر ، وراقب الرجال الميـــاه وهي ترتفع ، حتى اذا أمست على مدى قدمين من أبوابهم شدوا طاولاتهم الى سررهم ، ووضعوا عليها ابواب بيوتهم متخذين منها اطوافا ، وركموا مـــا

استطاعوا من فرشهم وملابسهم ونسائهم وأولادهم علـــى تلك الاطواف ٠ وارتفعت المياه الى البيوت الطينية ، وطرت الجدران وفتتها تفتيتا وأذابتهـا في المد الزاخر وكأنها لم تكن ٠ وفوق هذا كلـه فقد هطل المطر حتى ليتراءى للمرء ان ماء الارض يجذب ماء السماء ـ وكأن التربة كانت تشكو الجفاف ٠

وقعد وانغ لانغ بباب داره ، وأجال طرفه في المياه التي كانت ما تزال بعيدة بعدا كافيا عن بيته المشيد فوق هضبة عريضة عالية ٠ ولكنه رأى المياه تغمر أرضه ، وراقبها خشية أن تغرق القبرين الجديدين ، ولكنها لم تفعـل ، على الرغم من ان امواج الفيضان الصفراء المثقلة بالطين كانت تلتف حـول الفقيدين في جوع ٠

ولم تطلع الارض أيما محصول مهما كان ضربه تلك السنة ، وفي كـل مكان جاع الناس واستبد بهم الغضب لهذا البلاء الجديد الذي نزل بهم ٠ وهاجر بعضهم الى الجنوب ، علـى حين ان بعضهم الاخر ، وكـان هؤلاء جسورين حاقدين لا يبالون ما يفعلون ، انضموا الى عصابات اللصوص التي راجت سوقها في كل بقعة من بقاع المنطقة ٠ بل لقد حاول هؤلاء أن يحاصروا المدينة حتى لقد أوصد أهلها أبواب السور على نحو موصول ما خلا بابـا صغيرا يدعى باب الماء الغربي ، وكان هذا الباب موضوعا تحت رقابة الجند وكان يوصد ليلا أيضا ٠ والـــى جانب أولئك الذين انضموا الـى عصابات اللصوص وأولئك الذين هاجروا الـــى الجنوب ليعملوا وليستندوا أكـــف المحسنين ـ كما قد هاجر وانغ لانغ ذات مرة مع أبيه العجوز وزوجتـــه وأولاده ـ كان ثمة عجائز ومتعبون وجبناء ، وأقوام لا أولاد لهم ، مثل تشينغ، وهؤلاء ظلوا حيث هم وجاعوا وأكلوا العشب وما استطاعوا ان يعثروا عليه من ورق الشجر في المواطن المرتفعة ، وكثير منهم مات على سطح الارض وعلى سطح المـاء ٠

وعندئذ رأى وانغ لانغ ان مجاعة لم يشهد لها ضريبا قد ألمت بالبلاد ، لان المياه لم تنحسر في الوقت المناسب ليتمكن الفلاحون من زراعة القمـــح قبل الشتاء فلم يكن ثمة أمل في الفوز بأيما محصول في السنة التالية ٠ وأنشأ يراقب شؤون بيته عن كثب ونفقات الطعام وغيره ، وتشاجر في عنف مـــع كوكو ، لانها كانت لا تفتأ ، منذ عهد طويل ، تشتري اللحم كل يوم من المدينة، ولقد سر آخر الامر، لان الفيضان كان أمرا لا مفر منه، حين فصلت المياه ما بين بيته وبين المدينة بحيث تعذر عليها الذهاب الى المدينة ساعة تشاء ، اذ لم يكن وانغ لانغ ليجيز اصطناع السفن الا بأمر منه ، وكان تشينغ يطيعه هو ولا يطيع كوكو برغم مرارة لسانها البالغة ٠

ولم يسمح وانغ لانغ بشراء شيء او بيعه بعد حلول فصل الشتاء الا باذنه ، ولقد دبر حياته المنزلية تدبيرا حسنا · كان كل يوم يعطي كنته ما تحتاجه الاسرة من طعام ، ذلك اليوم ، ويعطي تشينغ ما يحتاجه العمال منه ، على الرغم من انه كان يحز في نفسه ان يطعم قوما متبطلين · ولقد حز ذلك في نفسه الى حد حمله اخر الامر ، عندما اقبل برد الشتاء وصار الماء جليدا ، على أن يصدر أمره الى الرجال بأن يرحلوا الى الجنوب ليشحذوا ويشتغلوا حتى يرد الربيع ، وعندئذ يصبح في ميسورهم أن يعودوا اليه · ولكنه قدم الى لوتس وحدها ، وعلى نحو سري ، شيئا من السكر والزيت ، لانها لم تكن متعودة خشونة العيش · وحتى في عيد رأس السنة لم يأكلوا غير سمكة اصطادوها بأنفسهم من البحيرة ، وخنزير ذبحوه من خنازير المزرعة ·

وعلى أية حال ، فان وانغ لانغ لم يكن فقيرا بقدر ما أراد أن يبدو ، اذ كان لديه قدر صالح من الفضة مخبوء في جدران الحجرة التي ينام فيها ابنه مع زوجته ، على الرغم من أن ابنه وكنته لم يعرفا ذلك ، وكان لديه قدر صالح ايضا مخبوء في جرة دفينة في قاع البحيرة تحت حقله الاقرب ، وقدر اخر مخبوء بين جذور شجرات الخيزران ، وكان لديه قمح من السنة المنصرمة ادخره ولم يبعه في السوق ، وما كان ثمة خطة مجاعة ما في بيته ·

ولكن الجماعات الجائعة كانت تملأ الارجاء من حوله ، ولقد تذكر صرخات الجياع عند باب القصر الكبير عندما مر به ذات يوم ، وأدرك أن كثيرا من الناس يكرهونه كرها عظيما لانه لا يزال قادرا على أن يأكل ويطعم أولاده · وهكذا أحكم اغلاق أبوابه بالحديد ، ولم يدخل الى بيته أحدا لا يعرفه · ومع ذلك فقد علم علم اليقين ان هذه التدابير نفسها ما كان لها ان تنقذه في تلك الايام التي شاعت فيها اللصوصية والخروج على القانون ، لولا عمه · لقد علم علم اليقين انه لولا السلطان الذي تمتع به عمه هذا اذن لاقتحم اللصوص بيته للاستيلاء على طعامه وأمواله ونسائه · وهكذا اصطنع المجاملة واللطف مع عمه ومع ابن عمه ومع امرأة عمه ، ولقد كان هؤلاء الثلاثة اشبه شيء بضيوف في بيته ، لقد احتسوا الشاي قبل الاخرين ، وغمسوا عيدان طعامهم في طاسات الارز قبل الاخرين أيضا كلما مدت المائدة ·

والحق أن هؤلاء الثلاثة ادركوا جيدا ان وانغ لانغ كان يخشاهم ، فركبهم الغرور ، وراحوا يطلبون هذا وذاك وينتقدون ما يقدم اليهم من طعام وشراب · وكانت المرأة اكثرهم شكوى ، ذلك بأنها افتقدت الاطايب التي كانت تأكلها في الاروقة الداخلية ، فكانت تشكو ذلك الى زوجها ، وكان الثلاثة يشكون أمرهم الى وانغ لانغ ·

ورأى وانغ لانغ أنه على الرغم من ان عمه نفسه أمسى عجوزا كسولا لامباليا وانه كان خليقا به ان لا يتشكى لو كان وحده ، فان الشاب ــ ابنه ــ وزوجته حرضاه · وذات يوم ، عندما وقف وانغ لانغ بالباب ، سمع هذين يحرضان الرجل العجوز :

ــ « اجل ، وان لديه مالا وطعاما · فلنسأله شيئا من الفضة » ·

فقالت المرأة :

ــ « اننا لن نحظى بمثل هذه السلطة كرة اخرى في المستقبل ، ذلك بأنه يعرف انك لو لم تكن عمه وأخا ابيه اذن لسلب ونهب وغودر بيته فارغا خربا ، باعتبارك الرجل الثاني بين ذوي اللحى الحمراء » ·

وما ان سمع وانغ لانغ هذا الكلام ــ وكان واقفا حيث لا يرونه ــ حتى عصف به غضب كاد يخرجه من جلده ، ولكنه اعتصم بالصمت في كثير من الجهد ، وحاول أن يفكر في الذي يستطيع ان يفعله بهؤلاء الثلاثة ، ولكنه لم يهتد الى رأي ما · من أجل ذلك لم يستطع ان يقول شيئا عندما وفد عليه في اليوم التالي قائلا : « يا ابن اخي الطيب ، اعطني حفنة من فضة لاشتري غليونا وشيئا أدخنه · ثم ان زوجتي ترتدي الاسمال البالية وهي في حاجة الى سترة جديدة » · ولكنه وضع في يد الرجل العجوز خمس قطع فضية أخرجها من زناره ، برغم انه صر باسنانه خفية ، وبدا له ان المال لم يفارق يده قط بمثل هذا القدر من الكره والنفور حتى في الايام السالفة عندما كانت الفضة نادرة عنده ·

ولم يكد ينقضي يومان حتى جاءه عمه من جديد طالبا مبلغا اخر من الفضة ، فصرخ وانغ لانغ اخر الامر :

ــ « حسنا ، وهل تريدنا أن نجوع كلنا عما قريب ؟ »

فضحك عمه وقال في غير مبالاة :

ــ « أنت رجل مسعود النجم · ان ثمة رجالا أقل ثراء منك شنقوا بروافد بيوتهم التي أضرمت فيها النار » ·

وعندما سمع وانغ لانغ هذا الكلام تصبب العرق البارد من جسده ، وأعطى الفضة من غير أن ينبس ببنت شفة · وهكذا ، فعلى الرغم من أنهم لم يطعموا اللحم في البيت كان لا بد من تقديم اللحم الى هؤلاء الثلاثة ، وعلى الرغم من ان وانغ لانغ نفسه نادرا ما دخن التبغ كان عمه ينفث الدخان من غليونه على نحو موصول ·

وكان ابن وانغ لانغ البكر مستغرقا في حياته الزوجية ، ونادرا ما رأى الاحداث الجارية من حوله · كان حريصا كل الحرص على ان يقي زوجته

من نظرات ابن عمه حتى لقد انقلبت صداقة هذين الشابين الى عداوة ٠ وكان نادرا ما يجيز لامرأته ان تتحرك من حجرتها الا اذا جن الليل وخرج الشاب الاخر مع ابيه ، اما في ساعات النهار فقد أجبرها على البقاء في الغرفة موصدا الباب دونها ٠ ولكنه ما أن رأى أولئك الثلاثة يتحكمون بأبيه حتى تميز من الغيظ ، فقد كان سريع الغضب وقال له :

ـ « غريب ان تعنى بهؤلاء النمور الثلاثة اكثر مما تعنى بابنك وبزوجته، التي هي أم أحفادك ٠ واذا استمر ذلك فعندئذ يكون من الخير لنا ان ننتقل الى مكان اخر » ٠

فقص عليه وانغ لانغ ، في صراحة ووضوح ، ما لم يقصه قط على أحد وقال :

ـ « أنا أكره هؤلاء الثلاثة اكثر من الموت ، واذا اهتديت الى طريقة للتخلص منهم فلن أتردد في اصطناعها ٠ ولكن عمك رئيس لعصابة من اللصوص الوحشيين ، فاذا ما اطعمتهم ودللتهم نعمنا بالامان ٠ ان أحدا لا يستطيع ان يبدي الغضب عليهم » ٠

وحين سمع ابنه البكر ذلك حدق حتى جحظت عيناه من محجريهما ٠ ولم يزده التفكير في أمرهم الا غيظا على غيظ ، وقال :

ـ « أنت تبحث عن طريقة ؟ ما رايك في أن نغرقهم كلهم في الماء ذات ليلة ؟ تشينغ يدفع المرأة لانها بدينة رقيقة لا تستطيع دفاعا عن نفسها ، وأنا ادفع الشاب ، ابن عمي ، الذي أكرهه كرها شديدا لانه يختلس النظر دائما الى زوجتي ، وفي استطاعتك أنت ان تدفع الرجل العجوز » ٠

ولكن وانغ لانغ كان عاجزا عن القتل ٠ وعلى الرغم من أنه كان يؤثر ذبح عمه على ذبح الثور، فانه لم يكن قادرا على القتل حتى تحت وطأة الكرة وقال :

ـ « لا ٠ وحتى لو استطعت القيام بهذا ، ان ادفع أخا أبي الى اللجة ، لما فعلت ، اذ ما الذي سيحل بنا اذا سمع اللصوص الاخرون بذلك ؟ اننا آمنون ما بقي حيا ، فاذا ما قضى نحبه أمسينا مثل الاخرين من الناس الذين يملكون شيئا قليلا والذين يتعرضون بسبب من ذلك لضروب من الخطر في أيام كهذه ٠»

ثم انهما اعتصما بالصمت ، وراح كل منهما يفكر ـ في كآبة ـ في ما يتعين عليه أن يفعله ٠ ورأى الشاب أن أباه كان على حق ، وان الموت وسيلة رديئة لمعالجة هذا البلاء ، وان عليه أن يلتمس طريقة اخرى ٠ وأخيرا قال وانغ لانغ في صوت عال وهو لا يزال مستغرقا في التفكير :

ـ « ليتنا نهتدي الى وسيلة نستطيع معها ان نبقيهم هنا ونضع حدا في الوقت نفسه لاذاهم ومطالبهم ! ولكن السحر نفسه لا يستطيع تحقيق هذه

المعجزة ! »
ثم ان الشاب ضرب يدا بيد ، وهتف :
ـ « حسن ، لقد اوحيت الي بالفكرة ! دعنا نشتري لهم أفيونا يدخنونه ، وكلما استهلكوا أفيونهم ذاك قدمنا اليهم مزيدا منه • دعهم يصيبون منه ما يشاءون شأن الاغنياء من الناس • سوف اتظاهر بأني جددت صداقتي لابن عمي ، ولسوف أغريه بالذهاب الى صالة الشاي في المدينة حيث يستطيع المرء ان يدخن الافيون ، وفي استطاعتنا ان نشتريه لعمي ولزوجته » •

ولكن وانغ لانغ ظل مترددا ، لانه لم يكن هو السابق الى الفكرة ، وقال في اناة :
ـ « سوف يكلفنا ذلك مالا كثيرا ، لان الافيون غال مثل حجر اليشب » •
فناقشه الشاب قائلا :
ـ « ولكن الابقاء عليهم هكذا هو أغلى من اليشب • أضف الى ذلك أننا مضطرون الى احتمال عجرفتهم ونظرات الشاب المختلسة الى زوجتي » •

ولكن وانغ لانغ لم يشأ ان يوافق في الحال ، فلم يكن ذلك امرا سهل التنفيذ ، ولقد كان خليقا به أن يكلفه كيسا كاملا من الفضة •

ولعل الفكرة ما كانت لتنفذ أبد الدهر ولعله كان خليقا بهم أن يصبروا النفس على ذلك البلاء حتى تنحسر المياه لولا ان حدث حادث غير الموقف كله•

ذلك ا ن ابن عم وانغ لانغ وضع عينه على بنت وانغ لانغ الثانية ، التي كانت بنت ابن عمه ، والتي كانت من حيث الدم مثل اخته • والواقع ان بنت وانغ لانغ الثانية كانت فتاة بارعة الجمال ، وكانت تشبه ابن وانغ لانغ الثاني الذي كان تاجرا ، ولكنها برغم ضآلة جسمها ورقتها البالغة لم يكن لها مثل بشرته الصفراء • كانت بشرتها بيضاء شاحبة مثل زهرات اللوز ، وكان لها أنف صغير منخفض وشفتان رقيقتان حمراوان ، وكانت قدماها صغيرتين •

وأمسك بها ابن عمها ذات ليلة فيما كانت تجتاز الرواق ، وحدها ، قادمة من المطبخ • لقد أمسك بها في جلافة ، وأقحم يده في صدرها ، فصرخت، فهرع وانغ لانغ اليها وضرب الشاب على رأسه ، ولكنه كان اشبه بكلب سرق قطعة من لحم فهو يأبى التخلي عنها ، فاضطر وانغ لانغ ان ينتزع ابنته من يديه عنوة • ثم ان الشاب اطلق ضحكة صاخبة وقال :
ـ « أنا أمزح ليس غير • أليست هي أختي ؟ وهل يستطيع امرء ان يفعل بأخته شرا ؟ »

ولكن عينيه كانتا تبرقان بالشهوة فيما كان يتكلم • فغمغم وانغ لانغ

بكلام غير مبين وجذب الفتاة جانبا وارسلها الى غرفتها ·

وتلك الليلة حدث وانغ لانغ ابنه بما جرى ، فاغتم الشاب وقال :

ـ « يجب ان نرسل الفتاة الى المدينة ، الى بيت خطيبها · وحتى لو قال التاجر « ليو » انها سنة رديئة الى حد لا يسمح باتمام الزواج فيتعين علينا أن نرسلها ، خشية أن لا نقدر على الاحتفاظ بها عذراء ما دام هذا النمر الملتهب في البيت » ·

وعمل وانغ لانغ بهذا الرأي · لقد شخص في اليوم التالي الى المدينة ومن ثم الى بيت التاجر ، وقال :

ـ « لقد بلغت بنتي الثالثة عشرة ، وهي لم تعد طفلة · لقد أصبحت اهلا للزواج » ·

ولكن « ليو » تردد ، وقال :

ـ « أنا لم أكسب هذه السنة من الربح ما يمكنني من انشاء اسرة جديدة في بيتي » ·

واستحيا وانغ لانغ من ان يقول : « ان ابن عمي في البيت وهو نمر كاسر » · فاكتفى بالقول :

ـ « أنا لا أحب أن أظل مسؤولا عن تربية هذه الفتاة لان أمها ماتت ، ولانها بهية الطلعة وقد بلغت سن الحمل ، وبيتي كبير وهو مليء بالنزلاء ، وليس في امكاني أن أراقبها كل ساعة · ولما كانت ستؤلف في المستقبل جزءا من أسرتك فمن الخير أن تصان بكوريتها هنا ، وفي امكانك ان تزفها الى خطيبها عاجلا او آجلا ، لا فرق » ·

عندئذ أجابه التاجر ، وكان رجلا متساهلا رؤوفا :

ـ « حسنا ، اذا كان ذلك كذلك فابعث بالفتاة الي ، ولسوف اتحدث في الامر الى ام ولدي · اجل ، في استطاعتها ان تجيء وان تكون هنا في أمان في أروقة حماتها ، وبعد الحصاد التالي أو نحو ذلك نزفها الى خطيبها » ·

وهكذا سويت المسألة ، وانقلب وانغ لانغ الى بيته محبورا ·

ولكن قبل ان يصل الى باب السور ، حيث انتظره تشينغ في قارب ، مر وانغ لانغ بدكان يباع فيه التبغ والافيون ، فدخله ليشتري لنفسه بعض التبغ المفروم يعمر به نارجيلته في الامسيات · وفيما كان المستخدم يضع التبغ في كفة الميزان قال له وانغ لانغ نصف كاره :

ـ « وبكم تبيعني الافيون اذا كان عندك شيء منه ؟ »

فقال المستخدم :

ـ « ليس من المباح ، قانونا ، في هذه الايام ان يباع الافيون جهارا ،

ونحن لا نبيعه على هذا النحو · ولكن اذا أردت أن تشتري شيئا منه وكنت تملك الفضة ففي استطاعتنا أن نزنه لك في الدكان الخلفي ، كل أونصة بقطعة فضية » ·

ولم يشأ وانغ لانغ ان يفكر في المسألة اكثر مما فعل ، فسارع الى القول : « سوف آخذ ست أونصات منه » ·

٢٨

وبعد أن رحلت البنت الثانية وتحرر وانغ لانغ من قلقه عليها ، قال لعمه ذات يوم :

ـ « لما كنت أخا أبي فقد جئتك بقليل من التبغ الممتاز » ·

وفتح حق الافيون فاذا بالمخدر لزج زكي الرائحة · وأخرجه عم وانغ لانغ من الحق ، وشمه ، وضحك ، ثم انه قال في حبور :

ـ « حسنا ، لقد دخنته قليلا ، ولكن ليس في كثير من الاحيان قبل اليوم، لانه غال جدا ، ولكني احبه حبا عظيما » ·

فأجابه وانغ لانغ متظاهرا باللامبالاة :

ـ « انها كمية يسيرة ليس غير ، اشتريتها مرة لوالدي عندما شاخ وامتنع عليه النوم في الليل ، ولقد وجدتها اليوم سليمة لم تمس فقلت في ذات نفسي : « ان ثمة أخا والدي ، فلماذا لا أقدمها اليه بدلا من ان احتفظ بها لنفسي ؟ اني أصغر منه سنا ، ولست في حاجة الى ذلك ، حتى الان » · خذها ، اذن ، ودخنها متى شئت ، او حين يصيبك شيء من ألم » ·

وأخذ عم وانغ لانغ المخدر في شره ، فقد كان شيئا يستطاب شمه ، شيئا لا يصطنعه غير الاغنياء · لقد أخذه ، واشترى غليونا ، ودخن الافيون ، مضطجعا طوال اليوم في سريره · وحرص وانغ لانغ على أن تشترى الغلايين وتترك ههنا وههناك ، وتظاهر هو نفسه بالتدخين ، ولكنه اكتفى بأن حمل الى حجرته غليونا حيث تركه باردا · ولم يجز لولديه الاثنين اللذين كانا في البيت وللوتس أن يمسوا الافيون متذرعا بأنه غال اكثر مما ينبغي ؛ ولكنه كان يغرّي به عمه وامرأة عمه وابنهما ، فاذا بالاروقة عابقة برائحة الدخان العذبة · ولم يأسف وانغ لانغ على ما أنفق في سبيل ذلك من فضة ، لان هذا الذي أنفقه كفل له الامن والسلام ·

✶

حتى اذا اخذ فصل الشتاء في الانقضاء ، وشرعت المياه تنحسر بحيث اصبح في ميسور وانغ لانغ ان يتمشى في أراضيه ، لحق به ابنه البكر ذات يوم وقال له في اعتزاز :

ــ « سوف يكون لدينا ، عما قريب ، فم اخر في البيت ، ولسوف يكون ذلك الفم فم حفيدك » ٠

وما ان سمع وانغ لانغ ذلك حتى استدار وفرك يديه وأجاب ضاحكا :

ــ « هو ذا يوم سعيد حقا ! »

وضحك كرة أخرى ، ومضى ليبحث عن تشينغ وليكلفه الذهاب الى المدينة ليشتري سمكا وطعاما طيبا ثم بعث بذلك كله الى زوجة ابنه وقال لها :

ــ « كلي ، قوي جسم حفيدي ! »

وطوال أيام الربيع كان التطلع الى هذه الولادة يحمل الى فؤاد وانغ لانغ عزاء وسلوانا ٠ كان كلما شغل بأشياء اخرى فكر في هذا الحدث المنتظر ، وكان كلما استبد به القلق فكر فيه فاطمأن وسري عنه ٠

وحين تصرم الربيع واطل الصيف رجع الذين اكرههم الفيضان على الرحيل ٠ رجعوا وحدانا وزرافات بعد أن أنهك الشتاء قواهم ، سعداء بالعودة على الرغم من انه لم يبق ، حيث كانت بيوتهم ، غير طين الارض النقيعة الاصفر ٠ ولكن من هذا الطين كان في ميسورهم أن يعيدوا تشييد البيوت ، وكان في امكانهم ان يشتروا الحصر لتسقيفها ٠ووفد كثير منهم على وانغ لانغ يستقرضون منه المال ، فأقرضهم بفائدة مرتفعة ، بعد ان رأى مسيس حاجتهم اليه ، وما كان ليرضى غير الارض ضمانا لديذ ءابدا ٠ وبالاموال التي اقترضوها غرسوا الحب في الارض المخصبة بالطمي ٠ وحين احتاجوا الى الثيران والحب والمحاريث ولم يتمكنوا من اقتراض مزيد من المال باع بعضهم أرضه وجزءا من حقوله رجاة ان يوفق الى زراعة ما بقي له منها ٠ ومن هؤلاء اشترى وانغ لانغ الاراضي تلو الاراضي ، واشتراها بثمن بخس اذ كان الرجال في حاجة الى المال ماسة ٠

ولكن كان ثمة قوم لم يشاءوا أن يبيعوا أرضهم ، حتى اذا لم يجدوا ما يشترون به الحب والمحراث والثيران باعوا بناتهم ٠ وقد وفد بعض هؤلاء على وانغ لانغ وعرضوا عليه شراءهن ، اذ كان الناس كلهم يعرفون انه غني وقوي ورجل ذو قلب كريم ٠

واذ كان يفكر على نحو موصول بالطفل المرتقب ، وبأطفال اخرين مرتقبين من أولاده عندما يزوجون جميعا ، فقد اشترى خمس جوار ، اثنتان منهن في الثانية عشرة من العمر نواتا أقدام كبيرة وجسدين قويين ، واثنتان

أصغر منهما للسهر على راحتهم جميعا ولأداء مختلف الاعمال الصغيرة ، وخامسة لخدمة لوتس دون غيرها ، لان كوكو كانت قد شاخت ، ومنذ ان غادرت الفتاة الثانية البيت لم يكن ثمة من ينهض بعبء الاعمال المنزلية ٠ وانما اشترى الجواري الخمس في يوم واحد ، اذ كان من الغنى بحيث يسارع الى تنفيذ ما يعقد العزم عليه ٠

وبعد ذلك ببضعة أيام وفد عليه رجل يحمل فتاة صغيرة رقيقة في السابعة أو نحوها يريد بيعها ٠ وقال وانغ لانغ بادىء الامر انه لا يرغب فيها اذا كانت صغيرة جدا ، ضعيفة جدا ٠ ولكن لوتس بصرت بها ، فوقعت في نفسها موقعا حسنا ، وقالت في نكد :

ـ « أوه ، أنا أريد ان تكون هذه لي لانها وسيمة ، في حين ان الاخرى غليظة تفوح منها رائحة كرائحة لحم الماعز ٠ اني لا أحبها » ٠

فنظر وانغ لانغ الى الفتاة فرأى عينيها الجميلتين المروعتين وهزالها الذي يثير الشفقة وقال ليرضي لوتس من ناحية ، وليكون في ميسوره ان يرى الى الفتاة وقد غذيت وسمنت ، من ناحية ثانية :

ـ « ليكن ذلك اذا كنت راغبة فيه » ٠

وهكذا اشترى الطفلة بعشرين قطعة من الفضة ، فعاشت في الاروقة الداخلية ، ونامت عند قدم سرير لوتس ٠

٭

وبدا لوانغ لانغ أن الامن سوف يخيم على منزله هذه المرة ٠ فحين انحسرت المياه ، وأقبل الصيف ، وآن للارض ان تنعم بالبذر الطيب ، انشأ يطوف ههنا وههناك ويدرس وضع كل قطعة من اراضيه ويبحث مع تشينغ طبيعة التربة في كل منها ، وأي تعديل يجب أن يجري في توزيع المحاصيل على الاراضي ضمانا لخصبها ٠ وكان حيثما ذهب يصطحب ابنه الاصغر ، الذي كان يعده للعمل على الارض من بعده ، رجاة ان يتعلم ٠ ولم يحاول وانغ لانغ قط ان يلتفت ليرى كيف كان الغلام يصغي ، أو أن يرى ما اذا كان يصغي أم لا ، ذلك بأن الغلام كان يمشي ناكس الرأس ، ترين على وجهه سيماء كئيبة ، ولم يدر أحد أي شيء كان يجول في خاطره ٠

ولكن وانغ لانغ لم ير ما الذي فعله الغلام ، كل ما عرفه هو انه كان يمشي خلفه في صمت ٠ وحين رسمت الخطط كلها ، انقلب وانغ لانغ الى بيته محبورا سعيدا ، وقال مخاطبا نفسه :

ـ « انا لم اعد شابا ، ولست مضطرا بعد الى أن اشتغل بيدي ، ما دام لدي عمألي المستأجرون ، وأولادي ، والامن المخيم على بيتي » ٠

ومع ذلك فانه لم يكد يدخل بيته حتى افتقد الامن ٠ فعلى الرغم من انه أعطى ابنه البكر زوجة وعلى الرغم من انه اشترى عددا من الجواري كافيا لخدمتهم جميعا ، وعلى الرغم من ان عمه وامرأة عمه كانا يعطيان مقدارا من الافيون يكفي لامتاعهما طوال اليوم ، فان بيته ظل مفتقرا الى السلام والامن٠ وانما كان ذلك ، هذه المرة أيضا ، يسبب من ابن عمه ومن ابنه البكر ٠

لقد بدا وكأن ابن وانغ لانغ البكر لم يستطع ان يتخلى قط عن كرهـه لابن عمه او عن ارتيابه في نياته ٠ كان قد رأى بأم عينيه ، زمن الصبا ، ان ابن عمه ذاك مفعم بضروب الشر كلها ، وكانت الامور قد انتهت الى حد جعل ابن وانغ لانغ لا يقدم حتى على مغادرة البيت للذهاب الى صالة الشاي الا اذا غادره ابن عمه ايضا ، وكان يراقب ابن عمه هذا ولا يخرج الا اذا خرج ٠ ولقد اتهم الشاب بالاتصال بالجواري على نحو غير شرعي ، بل بالاتصال بلوتس نفسها ، على الرغم من ان هذه التهمة الاخيرة كانت باطلة ٠ ذلك ان لوتس كانت قد أمست بدينة عالية السن ، وكانت قد انتهت منذ عهد الـى ان لا تبالي بشيء غير طعامها وخمرها فهي خليقة بأن لا تجشم نفسها عنـاء النظر الى ذلك الشاب الفاسق اذا ما دنا منها ٠ ليس هذا فحسب ، بل كانت قد انتهت الى ان تستشعر الرضا والارتيا حـحين قل اتصال وانغ لانغ بهـا أكثر فأكثر بسبب من الشيخوخة ٠

وحين دخل وانغ لانغ بيته ، عائدا مع ابنه من الحقول ، انتحى بـه ابنه البكر جانبا وقال له :

ـ « أنا لن أطيق بعد اليوم وجود ابن عمي هذا في البيت بنظراته المختلسة وبتسكعه في الاروقة محدقا الى الجواري ، غير مزرر الاردية » ٠

ولم يجرؤ على التصريح له بما كان يجول في خاطره اكثر من ذلك ، وعلى القول : « بل انه يتجرأ على اختلاس النظر الى الاروقة الداخلية ، الى امرأتك نفسها » ، لانه تذكر في ضيق باطني شديد انه هو نفسه حوم في يوم من الايام حول امرأة أبيه تلك ، واذ قد رآها الان بدينة مسنة فقد عجز عن أن يتصور انه اقدم في وقت مضى على شيء كهذا ، واستبد به الخجل على نحو مرير ، فهو حريص على أن لا يذكر أباه بذلك بأي ثمن ٠ وهكذا سكت عن هذا ، ولم يشر الا الى الجواري ٠

وكان وانغ لانغ قد رجع من الحقول نشيطا مبتهج النفس ، لان الميـاه كانت قد انحسرت عن الارض فاذا الجو جاف دافىء ، ولانه كان سعيدا بأن يكون ابنه الاصغر قد رافقه الى الحقول ٠ فأخذه الحنق لان يلفي في بيته هذه المشكلة الجديدة ، وأجاب قائلا :

ـ « حسنا ، ولكن تفكيرك في هذا على نحو موصول هو الحماقة عينها . لقد اصبحت مولعا ، مولعا اكثر مما ينبغي ، بزوجتك ، وهذا غير لائق ، لانه ليس يحسن بالرجل ان يفكر بزوجته التي اعطاه أبواه اياها اكثر من اي شيء اخر في العالم . انه مما لا يليق بالمرء ان يحب زوجته حبا جنونيا صلفا، وكأنها مومس :

هذا التقريع آلم الشاب ايلاما شديدا ، فقد كان اخوف ما يخافه ان يتهم بسوء التصرف وان ينظر اليه وكأنه ساذج جاهل . من أجل ذلك سارع الى القول :

ـ « ان زوجتي لا علاقة لها بالامر . ولست أقول ما أقوله من أجلها ؛ ولكن لان من غير اللائق ان يحدث هذا في بيت أبي » .

ولكن وانغ لانغ لم يسمعه . كان الغضب قد استحوذ عليه ، فأضاف قائلا :

ـ « هل قدر علي بيتي ان لا يخلو من هذه المشاكل بين الذكر والانثى ؟ اني اتخذ سبيلي نحو الشيخوخة ، وان دمي ليبرد ، ولقد تحررت اخر الامر من الشهوات ، واني لاطمع في قليل من الامن ، فهل كتب علي ان احتمل شهوات أولادي وغيرتهم ؟ »

وبعد صمت يسير صاح من جديد :

ـ « حسنا ، وما الذي تريد مني ان افعله ؟ »

ـ « أتمنى لو نستطيع ان نغادر هذا البيت ، ونقصد الى المدينة ونعيش هناك . ان من غير اللائق ان نظل عائشين في الريف مثل الفلاحين . وان في استطاعتنا ان نذهب ، وان نبقي عمي وزوجته وابن عمي هنا ، وفي استطاعتنا أن نحيا آمنين ، في المدينة ، خلف أبواب الاسوار » .

واطلق وانغ لانغ ضحكة صغيرة مفعمة بالازدراء عندما قال ابنه هذا الكلام ، واطرح رغبة الشاب بوصفها شيئا تافها غير جدير بالنظر .

وجلس الى الطاولة ، جاذبا غليونه نحوه ، وقال في قوة :

ـ « هذا البيت بيتي ، وأنت حر أن تعيش فيه أو أن لا تعيش .

انه بيتي ، وانها أرضي ، ولولا الارض لتعين علينا كلنا أن نجوع كما جاع الاخرون ، ولما كان في استطاعتك أن ترفل بارديتك الانيقة متبطلا مثل عالم من العلماء . ان هذه الارض الطيبة هي التي جعلتك شيئا أفضل من ابن فلاح ساذج » .

ونهض وانغ لانغ ، وانشأ يذرع الغرفة الوسطى ، مثقلا الوطء ، جيئة وذهوبا ، وقد غلبت الشكاسة على مسلكه ، وبصق على أرضية الحجرة ،

وتصرف كمثل تصرف فلاح ، اذ على الرغم من ان جانبا من فؤاده كان يعتز ببراعة ابنه فان الجانب الاخر كان يزدريه في قوة وعنف ، وذلك برغم معرفته انه كان يفتخر ، سرا ، بابنه ، ويفتخر بأن كل من يرى الى ذلك الابن لا يتصور انه لا يفصله عن الارض نفسها غير جيل واحد ·

ولكن الابن البكر لم يكن مستعدا للاستسلام ، فتبع أباه قائلا :

ـ « حسنا ، وهناك قصر ال هوانغ العتيق · ان الجزء الامامي منه يغص بصنوف من عوام الناس ، ولكن الاروقة الداخلية موصدة يخيم عليها الصمت وفي استطاعتنا ان نستأجرها ونحيا هناك في سلام ، وفي استطاعتك أنت وأخي الاصغر ان تذهبا الى الارض وترجعا منها ، وعندئذ لن يستثير غضبي هذا الكلب الذي يدعونه ابن عمي » ·

ولكي يكمل اقناع ابيه اجاز لعينيه ان تغرورقا بالدموع ، وأكره هذه الدموع على التحدر على خديه ، من أن يكفكفها ، وأضاف قائلا :

ـ « حسنا ، واني لاحاول ان أكون ولدا صالحا ، فلا أقامر ولا أدخن الافيون ، واني لراض بالمرأة التي اعطيتني اياها ، ولست اسالك غير شيء ضئيل · ذلك كل ما هنالك » ·

ولم يدر وانغ لانغ هل كانت العبرات وحدها هي التي عطفت فؤاده لا ، ولكن فؤاده رق عندما نطق ابنه بهذه الكلمات : « قصر آل هوانغ العتيق »

ذلك بأن وانغ لانغ لم ينس قط انه دخل ذلك القصر في يوم من الايام شبه زاحف على بطنه ، ومثل خجلا بين أيدي أولئك الذين كانوا ينزلون ذلك القصر حتى لقد استشعر الخوف من البواب نفسه ، ولقد ظلت هذه الذكرى تورثه الخزي والعار طوال حياته ، فهي بغيضة الى نفسه · وطوال حياته كان يستشعر أن الناس يعتبرونه من طينة أدنى من طينة أهل المدن ، حتى اذا مثل بين يدي سيدة القصر العجوز انقلب هذا الشعور الى ازمة · وهكذا ما ان قال ابنه : « في استطاعتنا أن نحيا في ذلك القصر » حتى وثب الى ذهنه هذا الخاطر وكأنه يراه رأي العين : « في استطاعتي ان أجلس على ذلك المقعد الذي جلست عليه سيدة القصر العجوز والذي أمرتني منه بأن أقف كالعبد القن · أجل ، سوف أجلس أنا هناك ، وأدعو غيري الى المثول بين يدي » · واستغرق في التأمل ، ثم خاطب نفسه من جديد : « في ميسوري أن أفعل ذلك اذا شئت » ·

وراح يعبث بتلك الفكرة ، وجلس معتصما بالصمت ولم يجب ابنه بشيء ، ولكنه حشا غليونه بالتبغ واشعله بلفافة من ورق كانت جاهزة هناك ، وأنشأ يدخنه ، ويحلم بالذي يستطيع ان يفعله اذا شاء · وهكذا ، لا بسبب من

ابنه ولا بسبب من ابن عمه ، حلم بأن في استطاعته ان يحيا في بيت هوانغ ، الذي كان في نظره دائما « البيت الكبير » ٠

ومن هنا فعلى الرغم من انه كان غير راغب ، بادىء الامر ، في القول انه سيذهب أو أنه سوف يغير ايما شيء فقد أمسى منذ ذلك الحين أشد ضيقا منه في أي وقت مضى بتبطل ابن عمه ، ولقد راقب الرجل مراقبة شديدة ، فوجد أنه كانّ في الواقع يرشق الجواري بنظراته ٠

وغمغم وانغ لانغ وقال :

ـ « لا ، الحياة مستحيلة مع هذا الكلب الشبق في بيتي ٠ »

ونظر الى عمه ، فرأى أنه قد أمسى مهزولا من جراء تدخين الافيون ، وان هذا الافيون قد جعل بشرته صفراء وأنه محدودب الظهر طاعن في السن ، وانه ينفث ـ عندما يسعل ـ دما ٠ ونظر الى امرأة عمه ، فرأى انها قد أمست بدينة كالملفوفة ، وانها تعودت تدخين الافيون من غليونها في متعة وسنى ٠ لقد تخلص الان من المتاعب التي كان هذان المخلوقان يورثانه اياها ، ولقد فعل الافيون ما كان وانغ لانغ يريده أن يفعله ٠

بقي ابن عمه ، ذلك الشاب العزب ، ذو الشهوات البهيمية الجامحة ٠ لقد أبى الاستسلام للافيون في سهولة ويسر شأن المخلوقين الهرمين ، وأبى أن لا يشبع شهواته الا في الاحلام ٠ وما كان وانغ لانغ ليجيز له ، راضيا ، أن يتزوج في البيت ، بسبب من الذرية النجسة التي سينسلها ، وان واحدا من مثله كاف ٠ ثم ان الشاب الخليع ما كان ينهض بأي عمل ، اذ لم تكن ثمة حاجة تدعوه الى ذلك او شخص يحمله عليه ، الا اذا كان في الامكان ان نعتبر الساعات التي قضاها خارج البيت ، بعد أن يهبط الليل ، عملا ٠ ولكن حتى مغادرته البيت ليلا أمست نادرة ، اذ ما أن رجع الرجال الى الارض حتى استتب النظام في القرى والمدن ، كرة اخرى ، وانسحب اللصوص الى الهضاب في الشمال الغربي ، فأبى الشب الخليع المضي معهم ، مؤثرا العيش على نفقة وانغ لانغ ٠ وهكذا كان شوكة في البيت ، فلا يفتأ يتنقل فيه من مكان الى مكان ، متحدثا متبطلا متثائبا ، نصف كاس * حتى عند الظهيرة ٠

وذات يوم ، عندما توجه وانغ لانغ الى المدينة ليرى ابنه الثاني في سوق الحبوب ، سأله بسبب من ذلك :

ـ « حسنا ، يا بني الثاني ، ما رأيك في ما يرغب فيه اخوك الاكبر ، أعني انتقالنا الى المدينة والسكنى في البيت الكبير اذا استطعنا ان نستأجر جزءا منه ؟ »

---

* الكاسي : نقيض العاري ٠

وكان الابن الثاني قد أمسى الان شابا ، وكان قد أمسى رقيق الحاشية أنيقا ومثل سائر المستخدمين في الدكان ، على الرغم من انه كان لا يزال قصير القامة أصفر البشرة ذا عينين راشحتين بالمكر ، فأجاب في رقة :

ـ « انها فكرة ممتازة ، وهي تناسبني كثيرا ، اذ تمكنني من أن أتزوج ومن أن أنزل امرأتي هناك أيضا ، وبذلك نحيا كلنا تحت سقف واحد شأن الاسر الكبيرة » ·

لم يكن وانغ لانغ قد قام بأيما خطوة في سبيل تزويج ولده هذا ، فقد كان فتى رزينا بارد المزاج ، ولم يتكشف في أيما يوم عن امارة من امارات الشهوة والشبق ، وكانت لدى وانغ لانغ شواغل اخرى كثيرة · من اجل ذلك قال الان في شيء من الخجل ، شاعرا بأنه قصر في حق ابنه الثاني :

ـ « لقد قلت لنفسي طوال هذه الفترة التي انقضت ان علي ان ازوجك ، ولكن ضروبا من الشواغل الآخذ بعضها برقاب بعض لم تدع لي متسعا ، هذا اذا لم اذكر المجاعة الاخيرة واضطرارنا الى اجتناب اقامة المآدب ··· اما الآن ، وقد امسى في ميسورنا ان ندعو الناس الى الطعام ، كرة اخرى ، فسوف انجز المسألة · »

وتساءل في ما بينه وبين نفسه عن الفتاة التي يحسن به ان يخطبها له · عندئذ قال الابن الثاني :

ـ « حسنا ، انا لا اعارض في ذلك ، فالزواج شيء حسن ، وهو خير من انفاق المال على بنات الهوى عندما تمس الحاجة ، وجميل فالرجل ان يكون ذا اولاد · ولكن لا تختر لي زوجة مدينية ، مثل زوجة اخي ، لانها سوف تتحدث ابد الدهر عما اشتمل عليه بيت ابيها ، وتحملني على الاسراف في انفاق المال ، ومثل ذلك يثير غضبي · »

سمع وانغ لانغ في دهش ، ذلك بانه لم يكن يعرف ان كنته هي كذلك ، وانه كان لا يرى فيها غير امرأة حريصة على السلوك القويم بهية الطلعة الى حد غير يسير · ولكنه بدا له كلاما حكيما ، وابهجه ان يكون ابنه حصيفا حريصا على ماله · والواقع انه لم يعرف هذا الولد الا قليلا ، ذلك بأنه بدا له ضعيفا أمام ابنه البكر القوي · ولولا حكايته الهادئة لما كان طفلا او شابا يلفت النظر ، حتى انه عندما ارسل الى دكان التاجر في المدينة اخذ وانغ لانغ ينساه يوما بعد يوم ولم يتذكره الا حين كان يسأله بعضهم كم ولدا له فيجيب : « ثلاثة اولاد » ·

ونظر الى الشاب ، ابنه الثاني ، فرأى الى شعره القصير ، الصقيل ، المضمخ بالزيت ، والى ردائه الحريري الرمادي النظيف ذي النقوش الصغيرة،

ورأى حركاته الدقيقة وعينيه الكتومين الرزينتين ، وقال مخاطبا نفسه في دهش :

ـ « وهذا ايضا ابني ! »

ثم اضاف بصوت عال :

ـ « ما نوع الفتاة التي تريدها ، اذن ؟ »

عندئذ اجابه الفتى في هدوء بالغ ومن غير ما تردد ، وكأنه درس القضية منقبل وانتهى فيها الى قرار :

ـ « اريد فتاة من القرية ، تنتمي الى اسرة تملك اطيانا واسعة ، وليس لها انسباء فقراء · فتاة ذات بائنة ضخمة ، ليست بالبشعة ولا بالوسيمة ، تجيد الطهو بحيث يكون في ميسورها ـ حتى ولو كان في المطبخ خدم ـ ان تراقبهن · ويجب ان تكون مقتصدة جدا ، اذا ما اشترت شيئا من ارز اشترت قدر الحاجة فحسب ، وليس اكثر من الحاجة بحفنة واحدة ، واذا ما اشترت قماشا كان الرداء محكم التفصيل بحيث لا تملأ قصاصات القماش الباقية راحة يدها · مثل هذه المرأة اريد · »

وازداد وانغ لانغ دهشا عندما سمع هذا الكلام ، اذ كان ههنا فتى لم يشهد هو حياته ، على الرغم من انه كان ولده وفلذة كبده · لقد كان الدم الجاري في عروق هذا الفتى مختلفا جدا عن ذلك الدم الشهوي الذي جرى في عروقه هو يوم كان غض الاهاب ، وفي عروق ابنه البكر ايضا · ومع ذلك فقد اعجب بحكمة الفتى ، وقال ضاحكا :

ـ « حسنا سوف ابحث لك عن مثل هذه الفتاة ، ولسوف يقوم تشينغ بالتفتيش عنها في القرى · »

ومضى لسبيله ، وهو لا يزال يضحك ، وهبط الشارع المؤدي الى البيت الكبير · حتى اذا بلغ الاسود الحجرية تردد بعض الشيء ، ثم دخل ـ اذ لم يكن ثمة من يوقفه ـ فالفى الاروقة الامامية كما تذكرها عندما وفد ليجتمع الى المومس التي خاف على ابنه منها · كانت ملابس على وشك الجفاف تتدلى من الاشجار ، وكانت بعض النسوة جالسات ههنا وههناك يهذرن ويثرثرن فيما كن يغرزن ابرهن الطويلة في نعال الاحذية التي كن يصنعنها ويخرجنها منها ، وكان الاطفال يسرحون عراة مغبرين فوق آخر الاروقة ، وكان المكان عابقا برائحة العوام الذين يندفعون زرافات الى اروقة الكبار عندما يمضي الكبار لسبيلهم · والتفت نحو باب الحجرة التي كانت المومس قد احتلتها ، ولكن الباب كان مفتوحا على نحو نصفي ، وكان شخص آخر يحتلها الآن ـ رجل طاعن في السن · وسر وانغ لانغ بذلك وتابع طريقه ·

وكان خليقا بوانغ لانغ ان يستشعر في الايام الخالية ، حين كانت الاسرة الكبيرة هناك ، انه واحد من هؤلاء العوام يشاركهم نقمتهم على اولئك الاغنياء الذين كان يكرههم نصف كره ، ويخافهم نصف خوف ٠ اما الآن ، بعد ان امسى صاحب اطيان ، وبعد ان جمع ثروة مخبوءة في حرز حريز ، فقد ازدرى هؤلاء الناس الذين يحتشدون في كل مكان ، وقال في ذات نفسه انهم قذرون ، وشق طريقه خلالهم شامخا بانفه حابسا انفاسه بسبب من ريح اجسادهم النتنة ٠ لقد ازدراهم ، ونقم عليهم وكانه هو نفسه كان ينتمي الى اسرة هوانغ الكبيرة ٠

وواصل تقدمه عبر الاروقة ، بسائق الفضول ليس غير لا بسبب من انه كان قد عقد العزم على امر ، حتى اذا انتهى الى الجزء الخلفي الفى بابا موصدا ينفتح على احد الاروقة ٠ كانت امراة عجوز قد اغفت لدى الباب ٠ ونظر اليها فرأى انها كانت زوجة البواب القديم المجدورة ٠ وادهشه ذلك ، وأمعن النظر اليها ٠ كانت المرأة النصف * الممتلئة صحة التي عرفها من قبل قد اصبحت ألآن مهزولة متغضنة شائبة ، وكانت اسنانها اشبه بارومات صفراء قلقة في فكيها ٠ وفيما هو يحدق اليها على هذا النحو تجلى له في لحظة واحدة ان السنين كانت قد كرت عديدة سريعة منذ كان فتى غض الاهاب ، ومنذ وفد الى ذلك القصر حاملا بكره الوليد بين ذراعيه ، وللمرة الاولى في حياته استشعر وانغ لانغ ان الشيخوخة تزحف نحوه ٠

ثم انه قال للمرأة العجوز في شيء من الكآبة :

ـ « افيقي ، وافتحي الباب لي ٠ »

فاجفلت المرأة العجوز طارفة بعينيها لاعقة شفتيها الجافتين ، وقالت :

ـ « ليس لي الحق ان افتح الا لمن يرغب في استئجار الاروقة الداخلية بكاملها ٠ »

فسارع وانغ لانغ الى القول :

ـ « حسنا ، اني لارغب في ذلك ، اذا اعجبني البيت ٠ »

ولكنه لم يعرفها هويته ٠ كل ما فعله انه اجتاز الباب خلفها ، وتذكر الطريق جيدا ، وراح يتبع المرأة العجوز ٠ هذه هي الاروقة منتصبة في صمت ، وهذه هي الحجرة الصغيرة التي ترك فيها سلته ، وهذه هي الشرفات الطويلة الناهضة على دعائم دقيقة مصبغة باللون الاحمر ٠ وتبعها الى القاعة الكبرى نفسها ، وحملته مخيلته في الحال الى الاعوام السالفة عندما وقف هناك

---

* النصف من كان متوسط العمر ، او ما يعبر عنه بالانكليزية middle-aged

منتظرا ان يزوج جارية من جواري القصر . هناك تجاهه كانت المنصة الكبيرة التي جلست عليها ، في ذلك الماضي البعيد ، سيدة القصر العجوز وقد لف جسدها الهش المترف بثوب من الاطلس الفضي .

ودفعه حافز غريب ما ، فمضى وجلس حيث كانت تجلس ، ووضع يده على المائدة . ومن مجلسه الشامخ فوق المنصة خفض بصره نحو العجوز الشمطاء ذات الوجه الاغبش ، التي راحت تغمزه بعينها منتظرة بصمت ما سيفعله . ثم ان ارتياحا كان قد تاق اليه طوال عمره من غير ان يعرفه طما في فؤاده ، فضرب المائدة بجمع كفه وقال فجأة :

ـ « هذا البيت سوف استأجره ! »

٢٩

في تلك الايام ، كان وانغ لانغ اذا ما اعتزم امرا لم يستطع انجازه في سرعة كافية . فمنذ ان تقدمت به السن امسى ضيقا بالاشياء التي يريد نفض اليد منها ليجلس في اواخر النهار في امن واسترخاء ، وليشهد غروب الشمس ، ويأخذ سنة من النوم بعد ان يكون قد قام بجولة صغيرة في ارضه . وهكذا حدث ابنه البكر بما وطن النية عليه ، وامر الشاب بتسوية المسألة ، واستدعى ولده الثاني ليساعده في امر الانتقال الى البيت الكبير . حتى اذا انجزوا ، ذات يوم ، كل شيء ، ارتحلوا : لوتس وكوكو وجواريهما وامتعتهما اولا ، ثم ابن وانغ لانغ البكر وزوجته وخدمهما وجواريهما .

ولكن وانغ لانغ نفسه ابى ان يذهب في الحال ، ولقد ابقى معه ابنه الاصغر . فعندما حانت اللحظة التي تعين عليه فيها ان يفارق الارض التي ولد عليها لم يستطع ذلك بمثل اليسر والسرعة اللذين كان قد تخيلهما ، وقال لاولاده حين الحوا عليه في ذلك :

ـ « حسنا اذن ، اعدوا لي رواقا خصوصيا ، ومتى شئت وفدت عليكم ، ولسوف يكون ذلك قبل يوم من مولد حفيدي ، ومتى شئت استطعت ان ارجع الى ارضي . »

حتى اذا عاودوا الالحاح عليه ، قال :

ـ « ولكن ثمة معتوهتي المسكينة ، وانا لا ادري اينبغي لي ان آخذها معي ام لا ، ولكن من واجبي ان آخذها ، اذ ليس هناك من يعنى باطعامها اذا

لم افعل انا ذلك ٠ »

قال وانغ لانغ هكذا في شيءمن التقريع المقنع لامرأة ابنه البكر ، اذ لم تكن تحتمل وجود الطفلة البائسة على مقربة منها ، كانت تتأفف منها وتتقزز ، وكانت تقول : « مثل هذه المخلوقة يجب ان لا تكون على قيد الحياة البتة ، وبحسبي ان انظر اليهـا لكي يشوه الجنين الذي في بطني » ٠ وتذكـر ابن وانغ لانغ البكر تقزز زوجته هذا ، ومن اجل ذلك اعتصم بالصمت ولم يقل شيئا٠ عندئذ ندم وانغ لانغ على ما صدر منه من تقريع ، وقال في تلطف :

ـ « سوف اجيء عندما يعثر على الفتاة التي ستزف الى الابن الثاني ، اذ من الايسر البقاء هنا حيث تشينغ الى ان تنجز المسألة ٠ »

وهكذا كف الابن الثاني عن الحاحه ٠

واذن فلم يبـق في البيت غيـــر العم وزوجته وابنه وتشينغ والعمال الزراعيين ، بالاضافة الى وانغ لانغ وابنه الاصغر والمعتوهة ٠ وانتقل العم وزوجته وابنه الى الاروقة الداخلية حيث كانت لوتس من قبل واتخذوها مثوى لهم ، ولكن هذا لم يثر نقمة وانغ لانغ اكثر مما ينبغي ، اذ رأى في وضوح ان ايام عمه في هذه الدنيا امست معدودة ، وما ان يقضي الرجل العجوز المتبطل نحبه حتى ينتهي واجب وانغ لانغ نحو ذريته ، واذا لم يفعل الشاب مـــا يطلب اليه ، فان احدا لن يلوم وانغ لانغ اذا ما طرده من البيت ٠ ثـم ان تشينغ انتقل الى الحجرات الخارجية وانتقل معه العمال الزراعيون ، وعـاش وانغ وابنه والمعتوهة في الحجرات الوسطى ، واستأجر وانغ لانغ امرأة قوية البنية لتقوم بعبء خدمتهم ٠

ونام وانغ لانغ ، واخلد الى الراحة ، ولم يبال بايما شيء فقد استشعر الكلال البالغ على نحو مفاجيء ٠ وكان الامن يخيم على البيت ، لم يكن ثمة من يزعجه ،فقد كان ابنه الاصغر غلاما صموتا يجتنب الظهور امـام ابيه ، ونادرا ما كان وانغ لانغ يفهم حقيقته ٠ الى هذا الحد كان الغلام متعلقـــا بأهداب الصمت ٠

ولكن وانغ لانغ تحرك آخر الامر وامر تشينغ بان يبحث عن عـروس لولده الثاني ٠

وكان تشينغ قد شاخ وامسى ذابلا مهزولا مثل قصبة ، ولكن كان لا يزال في برديه قوة كلب عجوز امين ٠ ان وانغ لانغ لم يعد يجيز له ان يرفع معولا او يتبع الثور خلف المحراث ، ومع ذلك فقد ظل ذا غناء ، اذ كـــان يراقب عمل الآخرين ويشرف على وزن الحبوب وكيلها ٠ وهكذا لم يكد يسمع ما طلبه وانغ لانغ اليه حتى اغتسل وارتدى ثوبه القطني الازرق الجيد ومضى

الى هذه القرية وتلك ورأى كثيرا من الفتيات · واخيرا رجع وقال :

ـ « كان اسهل علي ان ابحث عن زوجة لنفسي من ان ابحث عن زوجة لابنك · ولكن لو كنت انا المرشح للزواج وكنت غض الاهاب اذن لاخترت فتاة تسكن على مبعدة ثلاث قرى من هنا ، فتاة طيبة فطنة ممتلئة عافية لا عيب فيها غير ابتسامتها الحاضرة ابدا ، ثم ان والدها ليرغب في الارتباط باسرتك من طريق المصاهرة ويسعده ذلك · والبائنة غير يسيرة بالنسبة الى هـــذه الايام ، وهو يملك بعض الاراضي · ولكني قلت اني لا استطيع ان اعد بشيء من غير ان اشاورك · »

وبدا لوانغ لانغ عندئذ ان ذلك حسن ، وكان تواقا الى اتمام هذا الامر ونفض اليد منه ، وهكذا اعطى وعده · وحين جيء باوراق العقد ذيلها بتوقيعه· وتنفس الصعداء وقال :

ـ « لم يبق لدي الآن غير ولد واحد ، ولقد انتهيت من مهـام الخطبة والتزويج هذه كلها ، وانا سعيد بان انعم بالسلام عما قريب · »

وحين انجزت تلك المسألة وحدد موعد الزواج استراح وقعد تحت اشعة الشمس ونام مثل ما كان ابوه يفعل من قبله ·

***

ثم بدا لوانغ لانغ ان من الخير له ان يؤجر بعض حقوله القصوى لنفر من مزارعي القرية بعد ان اوهنت الشيخوخة تشينغ ، وبعد ان ثقلت عليه وطأة السنين وامسى النوم يغلبه عقب تناول الطعام ، في حين ان ابنه الثالث لا يزال اصغر من ان يتحمل التبعة · وقد نفذ وانغ لانغ هذه الفكرة حقا · ووفد عليه كثير من ابناء القرى المجاورة ليستأجروا ارضه ويصبحوا مكترين عنده· واتفقوا على ان ينال وانغ لانغ نصف الغلال لانه يملك الارض ، وان ينال المستأجر نصفها الآخر جزاء الجهد الذي بذله ، وكانت ثمة اشياء اخرى يتعين على كل من الفريقين ان يقدمها : فاما وانغ لانغ فكان عليه ان يقدم مقادير بعينها من السماد والكسب * وثفل السمسم الذي يرسب بعد عصره في معاصره ، واما المكتري فكان عليه ان يفرد جزءا من الغلال لاستهلاك بيت وانغ لانغ الخاص ·

واذ لم تعد ثمة حاجة لبقاء وانغ لانغ على مقربة من الارض ولاشرافه على الاعمال فيها فقد كان يقصد في بعض الاحيان الى المدينة وينام في الرواق الذي كان قد طلب اعداده له · ولكن ما ان يرتفع الضحى حتى كان ينقلب الى ارضه مجتازا باب السور المحيط بالمدينة حالما يفتح مع الفجر · وعندئذ

* الكسب : ما يبقى من عصارة البذور التي يستخرج منها الزيت ·

كان يستروح عبير الحقول الغض ، حتى اذا انتهى الى ارضه هو امتلأ فؤاده حبورا ٠

وكأن الالهة شاءت للمرة الاولى ان تجامله وان تحمل اليه الامن في شيخوخته ، فاذا بابن عمه ، الذي ضاق ذرعا بالبيت بعد ان خيم الهدوء عليه وبعد ان خلا من النسوة باستثناء الخادمة القوية التي كانت زوجة احد العمال الزراعيين ، اذا بابن عمه هذا يسمع بحرب دائرة الرحى في الشمال ، فيقول لوانغ لانغ :

ـ « يقولون ان ثمة حربا دائرة شمالي منطقتنا ، ولسوف انطلق واشترك فيها ابتغاء القيام بعمل ما وللتعرف الى اقاليم جديدة ٠ ذلك ما اعتزم القيام به اذا اعطيتني شيئا من الفضة اشتري به ملابس اضافية وفراشا وبندقية اجنبية اتنكبها ٠ »

عندئذ وثب فؤاد وانغ لانغ حبورا ، ولكنه اخفى حبوره في براعة ، وتظاهر بالتردد وقال :

ـ « ولكنك ابن عمي الوحيد ، وليس ثمة بعدك من يحمل نعشه ، ومن يدري ما الذي قد يحدث اذا ذهبت الى الحرب ؟ »

ولكن الشاب اجابه ضاحكا :

ـ « لست بالمعتوه ، ولن اقف في ايما مكان يعرض حياتي للخطر ٠ واذا ما نشبت معركة نأيت بنفسي عنها حتى تنقضي ٠ كل ما اطمع فيه هو شيء من التغيير ، وقليل من الرحلة ومشاهدة بعض الاقاليم الاجنبية قبل ان تتقدم بي السن ويتعذر علي القيام بذلك ٠ »

وهكذا اعطاه وانغ لانغ الفضة عن طيب خاطر ، وهذه المرة ايضا لم يكن العطاء مؤلما ٠ لقد صب المال في يد الشاب صبا ، وقال في ما بينه وبين نفسه :

ـ « اذا كان الذهاب الى الحرب يروق له فلا ريب في ان ذلك سوف يضع حدا لهذه اللعنة في بيتي ، لان ثمة دائما حربا دائرة الرحى في مكان ما من البلاد ٠ » ثم اضاف مخاطبا نفسه ايضا : « وقد يقتل ايضا ، اذا ما ظل حسن الطالع حليفي ، لان بعض الناس يموتون احيانا في الحروب ٠ »

كان يستشعر ابتهاجا غامرا ، ولكنه اخفاه ٠ وقد سرى عن امرأة عمه عندما بكت بعض الشيء لدن سماعها نبأ ارتحال ابنها ، واعطاها مزيدا من الافيون ، واشعل لها غليونها وقال :

ـ « لا ريب في انه سوف يرقى الى رتبة ضابط ، وفي اننا كلنا سنصيب من طريقه شرفا عظيما ٠ »

واخيرا نعم بالامن ، اذ لم يبق ثمة في البيت الريفي غير العجوزين النائمين ، بالاضافة اليه والى ذويه ، واذ كانت ساعة ميلاد حفيده في البيت المديني قد دنت ·

وبسبب من دنو تلك الساعة اخذ وانغ لانغ يقيم في البيت المديني اكثر فاكثر ، وراح يتمشى في الاروقة ، وهو لا يني يفكر في هذا الذي جرى له ، ولا يقضي العجب من هذه الواقعة : انه هنا ، في هذه الاروقة التي عاشت فيها خلال عهد مضى اسرة هوانغ الكبيرة ، يعيش هو الآن مع زوجته واولاده وكنتيه ، وقد اوشك ان يرى النور طفل من ابناء الجيل الثالث ·

وافعم قلبه سعادة حتى انه لم يجد ايما شيء غاليا ، فاشترى اطوالا من الاطلس والحرير لهم جميعا ، اذ بدا له من القبيح ان يرى اردية من القطن العادي تجلل الكراسي المنقوشة وحول الموائد المنقوشة المصنوعة من ابنوس الجنوب ، واشترى اطوالا من القطن الازرق والاسود الجيد للجواري بحيث لا تضطر اي منهن الى ارتداء الاسمال البالية · فعل ذلك كله ، ولقد سر عنما اقبل الاصدقاء الذين كان ابنه البكر قد وجدهم في المدينة الى اروقة بيته الكبير ، واخذه الفخر بان يروا مظاهر الفخامة فيه ·

وعني وانغ لانغ بان يطعم المآكل المترفة · ذلك انه وهو الذي كان في الايام الخالية يقنع بخبز القمح ملفوفا على عرق ثوم امسى الآن – بعد ان تعود النوم في اخريات النهار واقلع عن العمل على الارض بيديه الاثنتين – لا يعجبه هذا الطعام او ذاك الا في صعوبة عسر ، وامسى يتذوق خيزران الشتاء، وبطارخ الجمبري او القريدس ، والسمك الجنوبي ، والسمك الصدفي المصيد من البحار الشمالية ، وبيض الحمام وجميع تلك الاشياء التي يصطنعها الموسرون لاستثارة شهوتهم الكسول الى الطعام · واكل اولاده واكلت لوتس ايضا ، وقالت كوكو ضاحكة بعد ان رأت هذا التحول كله :

– « يذكرني هذا بالايام الخالية عندما كنت احيا في هذه الاروقة · مع فارق وحيد هو ان جسدي قد ذبل الآن وجف وامسى غير مناسب حتى لسيد عجوز · »

قالت ذلك ورنت في خبث الى وانغ لانغ وضحكت من جديد · وتظاهر بانه لم يسمع فسوقها ، ولكنه سر مع ذلك بان تكون قد شبهته بسيد القصر العجوز ·

وهكذا وفي غمرة من هذه الحياة المتبطلة المترفة التي ينهض فيها المرء ساعة يشاء وينام ساعة يشاء انتظر وانغ لانغ ميلاد حفيده · ثم انه ذات صباح سمع انات امرأة ، فمضى الى اروقة ابنه البكر · ولقيه ابنه وقال :

ـ « لقد جاء المخاض ، ولكن كوكو تقول انه سوف يستغـــرق فترة طويلة ، لان تكوينها ضيق ٠ ان ولادتها عسيرة ٠ »

وهكذا انقلب وانغ لانغ الى رواقه الخاص ، وقعد وانشأ يصغي الـى الصرخات ، وللمرة الاولى منذ سنوات عديدة استبد به الـــروع واستشعر الحاجة الى عون روحي ٠ فنهض ، ومضى الى دكان البخور ، الاهة الرحمة في مقامها المذهب ، واومأ الى كاهن متبطل ، واعطاه شيئا من مال وساله ان يضع البخور عند قدمي الالاهة قائلا :

ـ « ليس مما يليق بي ، انا الرجل ، ان افعل ذلك ، ولكن حفيدي الاول على وشك ان يرى النور ، وانه لمخاض عسير تقاسيه الام وهي بنت من بنات المدن ، بسبب من تكوينها الضيق اكثر مما ينبغي ٠ وقد توفيت ام ولدي ، وليس ثمة امرأة لتضع البخور عند قدمي الالاهة ٠ »

وفيما كان يراقب الكاهن وهو يقحم البخور في رماد الآنية امام الالاهة فكر في ذعر مفاجيء :

ـ « وماذا ان لم يكن حفيدا بل حفيدة ؟ »

وسارع الى القول في صوت مرتفع :

ـ « اذا كان حفيدا فسوف ادفع ثمن ثوب احمر جديد للالاهة ، ولكني لن ادفع شيئا اذا كانت حفيدة ! »

وخرج في اهتياج لان هذا الخاطر لم يخطر بباله : ان الوليد المنتظـــر قد يكون حفيدة لا حفيدا ، ومضى واشترى مزيدا من البخور ، على الرغـــم من ان النهار كان قائظا ومن ان كثافة الغبار في الشوارع بلغت شبرا ٠ وقصد برغم هذا الى الهيكل الريفي الصغير حيث ثوى الالهان اللذان يحرســـان الحقول والارض ، وقدم البخور اليهما ، واشعلـــه ، وغمغم مخاطبـــا الالهين :

ـ « لقد عنينا بامركما ، ابي وانا وولدي ٠ وها هي ذي ثمرة جســـد ولدي توشك ان تبصر النور ٠ واذا لم تكن تلك الثمرة غلاما ذكرا فانـــي لن اقدم الى اي منكما شيئا اضافيا ٠ »

اما وقد بذل قصارى جهده فقد انقلب الى البيت الكبير ، خائر القوى ، وجلس الى مائدته ، وتمنى لو تجيئه احدى الجواري بالشاي ، ولو تجيئـــه جارية اخرى بمنشفة عصرت بعد ان غمست بالماء الغالي ليمسح وجهـــه ، ولكن احدا لم يات على الرغم من انه صفق بيديه كثيرا ٠ ان احدا لم يبال به ، وكان كل من في البيت يعدو جيئة وذهوبا ، ولكنه لم يجرؤ على ايقـــاف اي منهم ليسأله ما جنس الطفل الذي ولد ، بل ليسأله هل ولد طفل ما ٠ لقد

جلس هناك مغبر الوجه ، خائر القوى ، ولم يوجه اليه احد كلمة ٠

واخيرا ، وحين بدا له ان الليل لا بد ان يهبط عما قريب ـ فقد تطاول انتظاره الى هذا الحد ـ اقبلت لوتس متهادية على قدميها الصغيرتين متوكئة على كوكو بسبب من بدانتها البالغة ، وضحكت وقالت في نبرة عالية :

ـ « حسنا ! ان ثمة ولدا في بيت ولدك ! وكلا الام والولد على قيد الحياة ٠ لقد رأيت الوليد وانه لوسيم صحيح البنية ٠ »

عندئذ ضحك وانغ لانغ ايضا ، ونهض ، وضرب يدا بيد وضحك كرة اخرى وقال :

ـ « كنت جالسا هنا مثل رجل ينتظر مولد ابنه البكر ، غير عارف ما ينبغي ان يفعل ، خائفا من كل شيء ٠ »

حتى اذا رجعت لوتس الى حجرتها ، وعاود الجلوس استغرق في التأمل والتفكير ٠ ولقد قال مخاطبا نفسه :

ـ « حسنا ، انا لم اخف على هذا النحو عندما وضعت المرأة الاخرى * وليدها الاول ، الذي هو ابني البكر ٠ »

واستأنف التأمل في صمت وتذكر ذلك اليوم ، وكيف مضت وحدها الى الغرفة الصغيرة المظلمة ، وكيف انجبت له ، من غير ان يساعدها احد ، عددا من البنين والبنات ، انجبتهم في صمت ، وكيف مضت بعيد الوضع الى الحقول واستأنفت عملها الى جانبه ٠ فما اعظم الفرق بينها وبين هذه المرأة ، امرأة ابنه ، التي صرخت كالطفل عندما جاءها المخاض ، والتي حملت كل هاته الجواري على العدو في البيت ، والتي كان زوجها ماثلا لدى باب حجرتها ٠

وتذكر كما يتذكر المرء حلما بعد عهده به كيف كانت او ـ لان تقطع عملها فترة قصيرة لترضع الطفل ، وكيف كان اللبن الابيض الثر يتدفق من ثديها ويراق على الارض ٠ وبدا له ذلك عتيقا جدا الى درجة تجعله شبه خيالي ٠

ثم ان ابنه اقبل مبتسما مفعما من الاهمية والخطر وقال في صوت جهير :

ـ « لقد ولد الطفل الذكر ، يا ابت ، ويتعين علينا الآن ان نبحث عن امرأة ترضعه ثدييها ، ذلك لاني لا اريد ان اتلف جمال زوجتي وانهك قوتها بالارضاع ٠ ان ايا من نساء الاشراف في المدينة لا تفعل ذلك » ٠

فقال وانغ في كآبة ، على الرغم من انه لم يعرف لكآبته هذه سببا :

* يقصد « أو ـ لان » زوجته المتوفاة ٠

ـ« حسنا ، اذا لم يكن من ذلك بد فليكن ما تريد ، ما دامت لا تستطيع ارضاع وليدها ٠ »

وحين امسى عمر الوليد شهرا اقام ابن وانغ لانغ ، ابو الغلام ، مأدبة ولادة ، ودعا اليها ضيوفا من المدينة وابا زوجته وامها وجميع اعيان المدينة ٠ وقد صبغ مئات من بيض الدجاج باللون القرمزي ، وزعها على الضيوف جميعا ، وعلى أبناء الضيوف جميعا ، ومدت الموائد وشاع الابتهاج في ارجاء البيت كله ، فقد كان الوليد طفلا وسيما بدينا ، وكان قد تخطى يومه العاشر وعاش ، وذلك خطر تمكن الطفل من التغلب عليه ، ولقد اخذوا كلهم باسباب المرح والحبور ٠

وحين انفرط عقد الضيوف وفد ابن وانغ لانغ على ابيه وقال :

ـ « الآن وقد اجتمعت تحت سقف هذا البيت ثلاثة اجيال يتعين علينا نعد الواحا منقوشا عليها اسماء اسلافنا كما تفعل الاسر الكبيرة ، وان نرفع هذه الالواح لتقدم اليها فروض التقديس ايام الاعياد ، فقد اصبحنا الان اسرة عريقة راسخة القدم » ٠

وسر وانغ لانغ بذلك كثيرا ، وهكذا اوصى باعدادها فاعدت ، وهناك في القاعة الكبرى علقت الالواح ، وقد نقش اسم جده على لوح ، ونقش اسم ابيه على اخر ، وترك فراغ لكي ينقش عليه اسم وانغ لانغ واسم ابنه حين يجيئهما الاجل ٠ واشترى ابن وانغ لانغ مرمدة بخور ووضعها امام الالواح ٠

حتى اذا تم ذلك ، تذكر وانغ لانغ الرداء الاحمر الذي كان قد وعد الاهة الرحمة به ، وهكذا مضى الى الهيكل ليقدم الى الكاهن مقدارا من المال كافيا لشراء ذلك الرداء ٠

ولكن الذي يبدو ان الآلهة لا تجود بالنعمة خالصة من غير ان تخفي في موضع منها شوكة ما ٠ فبينا كان وانغ لانغ عائدا الى البيت بصر بامرىء يعدو نحوه من حقول الحصاد لينبئه ان تشينغ حضره الموت فجأة وانه ابدى رغبته في ان يرى وانغ لانغ في لحظاته الاخيرة ٠ واذ سمع وانغ لانغ الراكض اللاهث صاح مغضبا :

ـ « يخيل الي ان ذينك الالهين في الهيكل قد غارا لاني قدمت رداء احمر لالاهة مدينية ، واحسب انهما لا يعرفان ان سلطتهما وقف على الارض وانها لا تشمل المخاض والولادة ٠ »

وعلى الرغم من ان غداءه كان ينتظره على المائدة فقد ابى ان يمس عيدان الطعام ٠ وعلى الرغم من ان لوتس نادته بصوت عال ان يتمهل حتى مغيب الشمس فقد رفض ان يصغي لكلامها ، ومضى لسبيله ٠ حتى اذا

رأت لوتس انه لم يبال بها اتبعته باحدى الجواري حاملة مظلة من ورق مزيت، ولكن وانغ لانغ كان ينطلق في سرعة بالغة حتى وجدت الجارية القوية عسرا في رفع المظلة فوق رأسه ٠

ودخل وانغ لانغ ، مباشرة ، الغرفة التي كان تشينغ يحتضر فيها وصاح مخاطبا كل من كان هناك :

ـ « ولكن كيف حدث هذا كله ؟ »

كانت الحجر ملأى بالعمال الزراعيين وقد احتشدوا حول تشينغ ، فاجابوا في ارتباك متكلمين كلهم دفعة واحدة :

ـ « لقد اراد ان يقوم بدرس القمح وحده ٠٠٠٠ » ، « قلنا له ان سنه العالية لا تساعده على ذلك٠٠٠ »،« كان ثمة عامل استؤجر من جديد٠٠٠ »، « انه لم يحسن دق الحنطة فاحب ان يريه كيف يدقها ٠٠٠ » ، « لقد كان ذلك عملا شاقا بالنسبة الى رجل عجوز ٠٠٠ »

عندئذ صاح وانغ لانغ في صوت رهيب :

ـ « ايتوني بذلك العامل ! »

فدفعوا الرجل الى امام حتى امسى حيال وانغ لانغ ، ووقف هناك مرتعدا تصطك ركبتاه العاريتان معا ٠ كان فتى قرويا ضخم الجسم ، احمر الوجه ، فظا غليظا ، ذا اسنان ناتئة وكأنها رف فوق شفته السفلى ، وعينين مدورتين بليدتين كعيني ثور ٠ وصفع الفتى على خديه كليهما ، وانتزع المظلة من يد الجارية ، وانهال بها ضربا على رأس الفتى ، ولم يجرؤ احد على وقفه خشية ان ينفذ غضبه الى جسمه فيسممه في تلك السن ٠ واحتمل الفلاح ذلك الضرب كله في ضعة باكيا بعض الشيء ، شارقا عبراته ٠

ثم ان تشينغ انشأ يئن على فراش الاحتضار ، فطرح وانغ لانغ المظلة وصاح :

ـ « سوف يموت الرجل وانا مشغول بضرب هذا الابله ! »

وقعد الى جانب تشينغ ، وامسك بيده غير مفلت اياها ٠ كانت خفيفة جافة صغيرة مثل ورقة سنديان ذابلة ، ولم يكن في ميسور المرء ان يصدق ان شيئا من الدم يجري فيها ـ الى هذا الحد كانت جافة خفيفة وملتهبة ٠ ولكن وجه تشينغ الشاحب الاصفر عادة ، كان الآن داكنا مرقشا بدمه النزر ، وكانت عيناه نصف المغمضتين يعلوهما غشاوة فهما لا تريان شيئا ، وكانت انفاسه غير منتظمة ٠ وانحنى وانغ لانغ فوقه وهتف في اذنه :

ـ ها انا ذا ، ولسوف اشتري لك تابوتا لا يبزه غير تابوت ابي فحسب ! »

ولكن اذني تشينغ كانتا مفعمتين بدمه · وجائز ان يكون قد سمع ما قاله وانغ لانغ ، ولكن ايما امارة لم تبد على وجهه مؤذنة بذلك · لقد واصل لهاثه ، وحشرج ، ومات ·

وحين قضى تشينغ نحبه انحنى وانغ لانغ فوقه وبكى كما لم يبك عندما توفي ابوه نفسه ، وامر بان يشترى له تابوت من احسن ضرب ، واستأجر كهانا للجنازة ، وشيعه الى مقره الاخير مرتديا ثوب حداد ابيض · وحمل ابنه البكر نفسه على تطويق كاحليه بعصابتين بيضاوين وكأن نسيبا من انسبائه قد توفي ، على الرغم من أن ابنه هذا تذمر وقال :

ـ « انه لم يكن غير رئيس خدم ، وليس من اللائق ان نرتدي شارات الحداد على هذا النحو من اجل خادم · »

ولكن وانغ لانغ اجبره على ذلك طوال ثلاثة ايام · ولو كان لوانغ لانغ ان يتصرف على هواه اذن لدفن تشينغ داخل الجدار الطيني حيث دفن ابوه ـ وأو ـ لان · ولكن اولاده لم يجيزوا له ذلك ، فاحتجوا وقالوا :

ـ « اتريد ان ترقد امنا وجدنا مع خادم ؟ وهل تريدنا نحن ايضا ان نرقد مع خادم عندما يجيء اجلنا ؟ »

واذ كان وانغ لانغ عاجزا عن الاختصام معهم ، واذ كان يطمع ـ بعد ان بلغ تلك السن العالية ـ في ان يسود السلام بيته فقد دفن تشينغ عند مدخل المدفن ، وسرت نفسه بما قد فعل ، وقال :

ـ « هذا مناسب ، في الواقع ، اذ كان دائما يحرسني من الشر · »

واوصى اولاده بان يدفنوه ، عندما تحين منيته ، اقرب ما يكون الى تشينغ ·

ومنذ ذلك الحين اخذ وانغ لانغ يتخلف عن الذهاب الى أراضيه بأكثر مما تخلف في اي عهد مضى · ذلك بانه كان يحز في نفسه بعد وفاة تشينغ ان يذهب اليها وحده ، وكان قد مل العمل وامست عظامه تؤلمه كلما مشى وحده في الحقول الخشنة · وهكذا اجر اكبر قدر من ارضه استطاع ان يؤجره ، فاقبل الناس على استئجارها في حماسة ، اذ كانت معروفة بالخصب وحسن العطاء · ولكن وانغ لانغ كان يأبى ان يتحدث عن بيع شبر واحد من ايما قطعة منها ، مكتفيا بتأجيرها لقاء سعر بعينه طوال عام ليس غير · لقد كان ذلك يشعره بانها كلها ملكه وانها لا تزال طوع يده ·

وطلب الى احد عماله الزراعيين والى زوجته واولاده ان يسكنوا في المنزل الريفي ويعنوا بمدخني الافيون العجوزين · حتى اذا رأى الى سيماء الكآبة ترين على وجه ابنه الاصغر قال :

ـ « حسنا ، في استطاعتك ان تذهب معي الى المدينة ، ولسوف آخذ معتوهتي معي ايضا ، وفي امكانها ان تسكن في رواقي الخاص • انك سوف تستشعر الوحشة اكثر مما ينبغي بعد ان غاب تشينغ ، وبغياب تشينغ لم اعد واثقا من انهم سوف يحسنون معاملة المعتوهة المسكينة نظرا الى انه لن يكون ثمة من يخبرني اذا ما ضربت او اسيئت تغذيتها ، ولم يعد ثمة ، الان ، من يعلمك اسرار الارض ، بعد ان قضى تشينغ نحبه •• »

وهكذا اصطحب وانغ لانغ ابنه الاصغر ومعتوهته المسكينة ، ومن ذلك الحين لم يرجع الى بيته الريفي الا نادرا ، وبعد غيبة طويلة •

٣٠

لقد بدا لوانغ لانغ الآن انه نال من الحياة كل ما يتمناه المرء • امسى في ميسوره الآن ان يجلس على كرسيه في اشعة الشمس الى جانب معتوهته ، وان يدخن غليونه المائي ، ويستشعر الامن والسلام بعد ان حظيت ارضه بالعناية ، وبعد ان اصبح المال يتدفق منها الى يده من غير ان يبذل هو ايما جهد في هذه السبيل •

وكان خليقا بهذا الوضع ان يدوم لولا ان ابنه البكر كان ابعد ما يكون عن الرضا بهذه الحال الجارية على ما يرام ، فهو يطمع دائما في مزيد • وهكذا اقبل ذات يوم على ابيه وقال :

ـ « نحن نحتاج في هذا البيت الى كيت وكيت ، ويتعين علينا ان لا نحسب ان في استطاعتنا ان نصبح اسرة نبيلة ماجدة بمجرد احتلالنا هذه الاروقة الداخلية • ان اخي الاصغر سوف يتزوج بعد ستة اشهر على الاكثر وليس لدينا كراسي كافية يجلس عليها الضيوف ، وليس لدينا لا طاسات كافية ، ولا موائد كافية ، ولا اي شيء كاف في هذه الغرف • وفوق هذا فأن من العار ان ندخل الضيوف من خلال الباب الكبير ونجبرهم على ان يمروا بكل هؤلاء الرعاع الفائحة من ابدانهم ريح النتن ، المدوية اصواتهم على نحو موصول • ولما كان زواج اخي على وشك ان يتم ، ولما كان من المنتظر ان يرزق هو وان ارزق انا جمهرة من الاولاد فسوف نكون في حاجة ماسة الى تلك الاروقة ايضا • »

عندئذ نظر وانغ لانغ الى ابنه واقفا هناك في ثوبه الانيق ، واغمض عينيه، واخذ نفسا طويلا من غليونه المائي وزمجر :

ــ « حسنا ، وماذا تريد ايضا ؟ »

ورأى الشاب ان اباه كان ضيق الصدر به ، ولكنه قال في عناد ، رافعا صوته الى طبقة اعلى :

ــ « اقول ان علينا ان نمتلك الاروقة الخارجية ايضا ، وان يكون لنا ما يليق باسرة تملك من المال الكثير مثل الذي نملك ، وتملك من الارض الطيبة مثل الذي نملك ٠ »

عندئذ غمغم وانغ لانغ وأنبوب غليونه المائي في فمه :

ــ « الارض ارضي ، ولست اذكر انك شمرت عن ساعدك للعمل عليها في يوم من الايام ٠ »

وحين سمع الشاب هذا الذي قاله والده صاح :

ــ « اجل ، يا ابت ، ولكنك انت الذي اردت ان تجعل مني عالما ، وحين احاول ان اظهر بمظهر يليق بابن رجل صاحب اطيان تنظر الي نظرة ازدراء وتحاول ان تجعل مني ومن زوجتي فلاحا وفلاحة ٠ »

وهنا استدار الشاب على عقبيه في غضب عاصف ، وتظاهر بانه يعتزم ان يحطم رأسه على شجرة صنوبر معوجة كانت تنتصب هناك في الرواق ٠

عندئذ استبد الذعر بوانغ لانغ ، وخاف على الشاب عاقبة ذلك الصنيع ، اذ كان نزقا حاد الطبع دائما ، ومن أجل ذلك صاح :

ــ « افعل ما تشاء ٠٠٠ افعل ما تشاء ٠٠٠ شرط ان لا تزعجني بذلك ! »

حتى اذا سمع ابنه هذا الكلام انسحب على عجل خشية ان يغير أبوه رأيه ، ومضى لسبيله محبورا مطمئن النفس ٠ ومن ثم اشترى ، بأقصى ما استطاع من سرعة ، اشترى من « سوتشاو » عددا من الموائد والكراسي المنقوشة المزخرفة ، واشترى ستائر من حرير أحمر ليسدلها على الابواب ، واشترى زهريات كبيرة وصغيرة ، واشترى لوحات فنية ليعلقها على الجدار ، لوحات تمثل أكبر مجموعة ممكنة من الحسان ، واشترى صخورا غريبة لينثرها في الاروقة على النحو الذي كان قد شاهده في الامصار الجنوبية ، وهكذا شغل نفسه أياما عديدة ٠

هذا الرواح والمجيء كله اضطره الى أن يمر عدة مرات ، حتى في اليوم الواحد ، بالاروقة الخارجية ٠ وكان كلما مر ثمة بالرعاع المحتلين تلك الأروقة يشمخ بأنفه ازدراء ، حتى لقد كان القوم يسخرون منه بعد أن يجتاز

بهم ويقولون :

- « لقد نسي رائحة الزبل في فناء مزرعة أبيه ! »

ومع ذلك فأن أحدا لم يجرؤ على النطق بهذا الكلام على مسمع منه ، اذ كان ابن رجل ثري · حتى اذا حان موعد تجديد الاجارة ، وجد اولئك القوم البسطاء أن أجور الغرف والاروقة التي كانوا يعيشون فيها قد رفعت بنسبة عالية ، لان أحد المستأجرين كان قد أبدى استعداده لدفع هذه المبالغ الكبيرة ، وهكذا تحتم عليهم ان يرحلوا · ثم انهم عرفوا ان ابن وانغ لانغ البكر هـو الذي فعل ذلك ، على الرغم من أنه كان قد استعان على صنيعه هذا بالكتمان وعلى الرغم من أنه لم يقل شيئا ، مكتفيا بالكتابة في هذا المعنى الى ابن سيد القصر العجوز المقيم في بعض الامصار النائية ، ولم يكن ابن سيد القصـر العجوز هذا ليبالي بشيء غير البحث عن الطريقة التي تمكنه من ان يأخذ في بيته القديم أكبر قدر ممكن من المال ·

لقد تعين على اولئك العوام ان يرتحلوا ، اذن ، ولقد ارتحلوا متذمرين لاعنين لان رجلا غنيا استطاع أن يفعل ما يشاء ، وحزموا أمتعتهم الباليـــة ومضوا لسبيلهم والحقد يملأ أفئدتهم ، وعلى ألسنتهم غمغمات تقول بأنهم لا بد ان يرجعوا يوما ، حتى كما يرجع الفقراء عندما يكون الاغنياء اغنياء اكثـر مما ينبغـي ·

ولكن هذا كله لم يسمعه وانغ لانغ ، لقد كان في الاروقة الداخلية ، وكان نادرا ما يغادرها الى الخارج ، اذ لم يكن يهمه وقد ثقلت عليه وطأة الشيخوخة غير النوم والاكل والاسترخاء ، تاركا الامر كله في يدي ابنه البكر · ودعـا ابنه النجارين وبعض البنائين البارعين فرمموا الغرف ، والابواب المقنطرة * بين الاروقة ، تلك الابواب التي كان العوام قد اتلفوها بأساليب عيشهم الفظة الغليظة، وأعاد بناء البرك ، واشترى سمكا مرقطا وسمكا ذهبيا أوضعهمـا فيــه · وبعد ان انجــز ذلــك كله وجعــل اجمل ما يكون - بقــدر مــا فهـم هو الجمال - غرس زهرات اللوتس والزنبق في البرك كمــا غــرس خيــزران الهند ذا الثمر القرمزي وكل شيء استطاع ان يتذكره مما كان قد رآه فـــي الاقاليم الجنوبية · واقبلت امرأته لترى ما فعل ، وراحا كلاهمــا يتمشيان في كل رواق وحجرة ، فرأت ان هذا الشيء أو ذاك كان يعوز المكان ، وأصغــى هو في كثير من الاهتمام الى كل ما قالته ، لكي يسعى الى تنفيذه ·

ثم ان الناس في شوارع المدينة سمعوا بكل ما فعله ابن وانغ لانغ البكر ، وتحدثوا بما كان يجري في البيت الكبير بعد ان احتله ، من جديد ، رجل ثري ·

* الشبيهة بالقناطر ·

وأخذ الناس الذين كانوا يقولون « وانغ الفلاح » لا يقولون منذ اليوم الا « وانغ الرجل الكبير » أو « وانغ الرجل الغني » ٠

وكان المال الضروري لاجراء ذلك كله قد خرج من يد وانغ لانغ شيئا بعد شيء ، حتى لقد كاد لا يحس بذلك الا قليلا ، ذلك بأن ابنه البكر كان يفد عليه ويقول :

ـ « أنا في حاجة الى مئة قطعة فضية من أجل كذا » أو يقول : « هناك باب جيد لا يحتاج الا الى قليل من الفضة لاصلاحه حتى يصبح وكأنه جديد ٠ » أو يقول : « هناك مكان يجب أن نضع فيه مائدة طويلة ٠ »

وأعطاه وانغ لانغ الفضة شيئا بعد شيء ، وهو قاعد يدخن ، أو وهو مسترخ في رواقه ، ذلك بأن الفضة كانت تتدفق عليه عند كل موسم حصاد وكلما احتاج اليها ، ومن أجل هذا كان يقدمها الى ابنه عن طيب خاطر ٠ ولقد كان خليقا به ان لا يعرف كم قد دفع لولا ان وفد ابنه الثاني على رواقه ذات صباح ، والشمس لم تكد تتخطى السور ، وقال :

ـ « أبي ، اليس ثمة نهاية لهذا الاتفاق الجنوني كله ؟ وهل من الضروري أن نعيش في قصر ؟ ان هذا المال كله لو أقرض بفائدة قدرها عشرون بالمئة اذن لبلغ مردوده أرطالا من الفضة ٠ وأي فائدة ترتجى من هذه البرك كلها وهذه الاشجار المزهرة التي لا تحمل أيما ثمر ، وهذه الزنابق المنورة العقيمة كلها ؟ »

وأدرك وانغ لانغ ان هذين الاخوين سوف يختصمان حول هذه المسألة ، فسارع الى القول خشية أن يفقد الامن والسلام :

ـ « أجل ، ولكنه كله ابتهاجا بعرسك ٠ »

عندئذ قال الفتى متكلفا الابتسام ، ومن غير أيما شعور بالجذل :

ـ « انها لاحدى الغرائب ان يكلف العرس عشرة أضعاف ما كلفته العروس ٠ ان ميراثنا ، الذي يجب أن يوزع في ما بيننا عند موتك ، يبذر اليوم على لا شيء ما خلا غرور أخي الاكبر ٠ »

وكان وانغ لانغ يعرف عناد ابنه الثاني هذا ويعرف أنه لن يستطيع التخلص منه اذا ما استهل الحديث ، ومن أجل ذلك قال متعجلا :

ـ « حسنا ، حسنا ، سوف أضع حدا لذلك ٠٠٠ سوف أحدث أخاك في الامر وسأغلق يدي ٠ كفى ، كفى ! أنت على صواب ! »

وكان الفتى قد أبرز ورقة دون عليها قائمة بجميع الاموال التي أنفقها أخوه ، ورأى وانغ لانغ طول القائمة فأسرع الى القول :

ـ « أنا لما آكل بعد ، وفي مثل سني يغمى على المرء في الصباح اذا لم

ليصب شيئا من طعام · في استطاعتنا ان نبحث هذه القضية في وقت اخر · »

واستدار ومضى الى حجرته الخاصة ، وبذلك صرف ابنه :

ولكنه تحدث في مساء ذلك اليوم الى ابنه البكر قائلا :

ـ « ضع حدا لكل هذا الدهن والصقل · حسبك ما قمت به حتى الان · اننا قوم ريفيون ، على أية حال · »

ولكن الشاب أجابه في تيه :

ـ « ، اننا لم نعد قوما ريفيين · ان الناس في المدينة بدأوا يسموننـــا « أسرة وانغ العظيمة » · ومن الخير لنا ان نحيا حياة تتناسب مع هـــذه المكانة · واذا كان أخي لا يستطيع ان يرى الى أبعد من معنى الفضة لذاتهـا فأني وزوجتي عازمان على اعلاء اسم الاسرة · »

ولم يكن وانغ لانغ قد عرف أن الناس كانوا يطلقون على أسرته هـذا الاسم ، ذلك بأنه أمسى ، بعد أن طعن في السن ، نادرا ما يذهب حتى الـى صالات الشاي ، وبأنه لم يعد يذهب البتة الى أسواق القمح اذ كان ابنه الثاني يقوم مقامه هناك · ولكنه ابتهج بذلك في سريرة نفسه ، وهكذا قال :

ـ « حسنا ، حتى الاسر الكبيرة هي من الارض ، وهي راسخة الجذور في الارض · »

ولكن الشاب قال في فطنة :

ـ « أجل ، ولكنهم لا يبقون هناك · انهم يتفرغون ويحملـــون أزهارا وأثمـــارا · »

وما كان وانغ لانغ ليحب أن يجيبه ابنه مثل هذه الاجابة اليسيرة أكثـر مما ينبغي ، السريعة أكثر مما ينبغي ، ومن أجل ذلك قال :

ـ « لقد قلت ما قلته · انتهينا من تبذير المال · واذا كان للجذور ان تحمل أثمارا فيتعين علينا ان نبقيها راسخة في تربة الارض · »

واذ هبط الليل فقد تمنى لو يغادر ابنه هذا الرواق ويمضي الى رواقه الخاص · لقد ود لو ينصرف الشاب ويتركه وحده آمنا في الغسق · ولكـن ابنه هذا ما كان ليتركه في أمن · وأيا ما كان ، فقد كان هذا الابن مستعـدا الان للنزول عند رغبة أبيه ، اذ كان قانعا بالغرف والاروقة مؤقتا على الاقل ، وكان قد فعل ما شاء أن يفعله ، ولكنه أضاف قائلا :

ـ « حسنا ، سوف أضع حدا لذلك · ولكن ثمة شيئا آخر · »

ثم ان وانغ لانغ طرح أنبوب غليونه المائي على الارض ، وصاح :

ـ « هل قدر علي أن لا أنعم بالامن أبدا ؟ »

فتابع الشاب كلامه في عناد :

ـ « لست أطلب شيئا لي او لولدي ٠ ولكنه أمر يتصل بأخي الاصغر الذي هو ولدك أنت ٠ فليس من اللائق ان يشب هذا الفتى جاهلا ٠ ان علينا أن نعلمـه شيئا ٠ »

واستغرق وانغ لانغ في تأمل أبله ، ذلك بأن ابنه واجهه بأمر جديـد ٠ وكان قد وضع القواعد ، منذ عهد طويل ، لحياة ابنه الاصغر ورسم خطوطها الكبرى ٠ من أجل هذا أجاب قائلا :

ـ « لا حاجة بنا الى علماء جدد في هذا البيت ٠ يكفينا عالمان اثنان ٠ انه سوف يعمل على الارض عندما يجيء أجلي ٠ »

فأجابه الابن البكر :

ـ « أجل ، وهذا هو السبب الذي يجعله يبكي ليلا ، والذي يجعله غلاما شاحبا الى هذا الحد ، مهزولا الى هذا الحد ٠ »

والواقع ان وانغ لانغ لم يخطر له قط ان يسأل ولده الاصغر أي ميدان من ميادين العمل يؤثر ،بسبب من أنه كان قد قرر أن الضرورة تقضي بـأن يقف أحد أولاده حياته على العناية بالارض ٠ وهذا الذي قاله ابنه البكر الان قد وقع عليه وقوع الصاعقة ، في أناة ، وراح يفكر في ابنه الثالث ٠ لقد كـان غلاما مختلفا عن أي من أخويه ، غلاما نزاعا الى الصمت مثل أمه ٠ ولانـه كان نزاعا الى الصمت لم يلق أحد بالا اليه ٠

وسأل وانغ لانغ ابنه البكر في تردد :

ـ « هل سمعته يقول ذلك ؟ »

فأجابه الشاب :

ـ « اسأله بنفسك يا أبت ٠ »

فقال وانغ لانغ مجادلا وكان صوته مرتفعا جدا :

ـ « حسنا ، ولكـن لا بـد من ان ينصرف واحد منكـم الى العنايـة بـالارض ٠ »

فرد الشاب في الحاف :

ـ « ولكن لماذا ، يا أبت ؟ ان رجلا في مثل وضعك ليس مضطرا الـى جعل أولاده أقنانا ٠ هذا غير ملائم ٠ ان الناس سوف يقولون انك ذو قلـب حقير ، هو ذا رجل يأبى الا ان يجعل من ابنه فلاحا فيما هو يحيا حياة أمير ٠ » ذلك ما سوف يقوله الناس ٠ »

وكانت هذه ضربة بارعة من الشاب ، اذ كان يعرف ان أباه يحسب لرأي الناس فيه ألف حساب ٠ وواصل كلامه فقال :

ـ « سوف ندعو احد المدرسين لتعليمه ، وفي ميسورنا ان نبعث به الى

احدى مدارس الجنوب حيث يستطيع أن يتعلم · وما دمت أنا في بيتك لكي أساعدك وما دام أخي الثاني منصرفا الى تجارته الحسنة فليس ثمة ما يحول بينك وبين ان تترك الغلام يختار ما يحلو له » ·

وأخيرا قال وانغ لانغ :

ـ « ابعث به الي · »

*

وبعد فترة يسيرة أقبل الابن الثالث ومثل بين يدي أبيه · ونظر اليه وانغ لانغ ليرى أي شيء كان ذلك الابن · فاذا به يرى غلاما فارع الطول مهزولا ليس فيه شيء لا من أبيه ولا من أمه ، باستثناء أن له كآبة أمه وصمتها · ولكنه كان يملك من الجمال أكثر مما ملكت أمه ، وكان من هذه الناحية أجمل أولاد وانغ لانغ كلهم ، ما خلا البنت الثانية التي مضت الى أسرة زوجها ولم تعد تعتبر من أسرة وانغ · ولكن شيئا كان يشين هذا الجمال أو كاد ، أعني حاجبيه البالغي السواد والكثافة بالنسبة الى وجهه الغض الشاحب · فكان اذا زوى ما بين عينيه ـ وكان كثيرا ما يفعل ذلك ـ التقى هذان الحاجبان الاسودان ، كثيفين مستقيمين ، عبر جبينه ·

وحدق وانغ لانغ الى ابنه ، حتى اذا ملأ منه عينه قال :

ـ« يقول أخوك الاكبر انك تريد أن تتعلم القراءة · »

فأجاب الغلام ، وهو لا يكاد يحرك شفتيه :

ـ « نعم · »

ونفض وانغ لانغ الرماد عن غليونه واقحم فيه شيئا من التبغ الجديد بابهامه ، في أناة وروية :

ـ « حسنا · وأحسب أن هذا يعني انك لا تريد أن تفرغ للعمل الزراعي وأنه لن يكون لدي ولو ولد واحد يعنى بأرضي ، أنا الذي رزقت من الاولاد اكثر مما ينبغي · »

قال ذلك في مرارة ، ولكن الشاب اعتصم بالصمت · لقد وقف هناك مستقيما هادئا في ردائه الصيفي الطويل المخيط من قماش قطني أبيض · وأخيرا استبد الغضب بوانغ لانغ بسبب من صمته ، وصاح في وجهه :

ـ « لم لا تتكلم ؟ هل صحيح أنك لا تريد أن تعمل في الحقول ؟ »

ومرة أخرى لم يجب الغلام بغير كلمة واحدة :

ـ « نعم · »

وفيما كان وانغ لانغ ينظر اليه قال في ذات نفسه آخر الامر ان أولاده هؤلاء كانوا شيئا فوق طاقته في شيخوخته ، وانهم كانوا هما له وعبئا عليه ،

وانه لا يعرف ما الذي يتعين عليه أن يفعله بهم • وصرخ كرة أخرى وقد استشعر ان أولاده هؤلاء لا يكفون عن استغلاله والاساءة اليه :

ــ « أنا لا أبالي أي شيء تصنعه • أغرب عن وجهي ! »

ثم ان الغلام انصرف بأسرع ما استطاع الانصراف ، وقعد وانغ لانغ وحيدا ، وقال في ذات نفسه ان بنتيه الاثنتين كانتا على أية حال خيرا من أولاده ، وأولاهما ــ وهي المعتوهة المسكينة ــ لم تكن لتطمع بأكثر من قليل من طعام وبمزقة من قماش تعبث بها ، وأخراهما قد تزوجت وغادرت بيته • وهبط الغسق على الرواق ، فسجنه ثمة في وحدته •

ومع ذلك ، فقد ترك وانغ لانغ لاولاده حرية العمل وفق ما يشتهون ، كشأنه كلما سكت عنه الغضب • فنادى ابنه البكر وقال :

ــ « كلف أحد المدرسين بتعليم أخيك الثالث اذا رغب في ذلك • ودعه يفعل ما يشاء ، شرط أن لا أزعج أنا بهذه المسألة • »

ونادى ابنه الثاني وقال :

ــ « لما كان أي من أولادي لن يعمل في الحقول فمن واجبك ان تعنى بأمر الاجارات والفضة التي تغلها الارض عند كل حصاد • انك سوف تزن وتقيس ، وسوف تكون قهرماني • »

وسر الابن الثاني بذلك سرورا غير يسير ، اذ عنى أن المال سوف يمر عبر يديه على الاقل ، وسوف يعلم مقدار الدخل ، ومن ثم يشكو أمره الى أبيه اذا ما اصطنع اخوه الاسراف والتبذير في البيت •

والواقع ان هذا الابن الثاني بدا أكثر غرابة في عيني وانغ لانغ من أي من أولاده ، اذ أنه حتى في يوم عرسه ، الذي حان آخر الامر ، اقتصد في الانفاق على المآكل والخمور ، وقسم الموائد في عناية بالغة ، محتفظا بأفضل المآكل لاصدقائه المدينيين الذين يعرفون تكاليف كل طبق من أطباق الطعام ، في حين جعل موائد المكترين والقرويين الذين كان لا بد من دعوتهم في أروقة البيت • ولم يقدم اليهم الا مآكل الدرجة الثانية ليس غير ، اذ كانوا يألفون الاطعمة الخشنة ، وكان اتحافهم بما هو أفضل من ذلك بقليل شيئا فوق ما يستحقون •

وراقب الابن الثاني الاموال والهدايا التي وردت ، ومنح الجواري والخدم أقل ما يمكن أن يمنحوه ، حتى لقد سخرت منه كوكو عندما وضع في يدها قطعتين فضيتين حقيرتين ، فقالت على مسمع من كثيرين :

ــ « ان الاسر العريقة حقا لا تحرص هذا الحرص كله على فضتها ، وفي استطاعة المرء أن يرى ان مكان هذه الاسرة الطبيعي ليس في هذه الاروقة • »

وسمع الابن البكر هذا الكلام ، واستبد به الخجل ، وخشي لسانهـــا السليط ، ومنحها مزيدا من الفضة من غير أن يشعر بذلك أحدا ، وأخـــذه الغضب على أخيه الثاني • وهكذا دب الخلاف بينهما حتى في يوم العــرس نفسه عندما جلس المدعوون الى الموائد ، وعندما أدخلت محفة العروس الى الاروقـــة •

ومن أصدقائه الشخصيين لم يدع الابن البكر الى العرس غير عدد قليل كانوا من أقلهم شأنا ووجاهة ، اذ كان خجلا من شح أخيه ، ولان العروس لم تكن غير فتاة قروية • لقد انتحى جانبا وقال في ازدراء :

ـ « ان أخي قد اختار قدرا فخارية ، على حين أنه كان في استطاعتـه ، بالنسبة الى مركز أبي ، أن يختار كأسا من يشب • »

وغلبت عليه السخرية وحيا في هزة رأس جافة عندما أقبل الزوجـــان وانحنيا له ولزوجته بالتحية ، بوصفه أخاهما الاكبر وبوصفها اختهمــا الكبرى • وكانت زوج الاخ الاكبر مترصنة متشامخة ، ولم تنحن الا أقل قدر من الانحناء اعتبرته مناسبا لمركزها •

*

لقد بدا وكأن أحدا من بين نزلاء هذه الاروقة كلهم لم يتمتع بالامن والرفه الكاملين غير حفيد وانغ لانغ الصغير • وحتى وانغ لانغ نفسه ، اذ كان يفيق تحت ظلال السرير الضخم المزخرف خشبه بالنقوش حيث تعود ان يرقد فــي حجرته الخاصة المحاذية للرواق الذي احتلته لوتس ، حتى وانغ لانغ كــان يذكر اذ يفيق ، أحيانا ، أنه رأى في ما يراه النائم أنه رجع الى البيت البسيط المظلم ذي الجدران الطينية حيث يستطيع المرء أن يسفح الشاي البارد حيـث يشاء من غير أن يلوث قطعة من أثاث ذات خشب محفور ، وحيث تنقله خطوة واحدة الى حقولـه •

أما أبناء وانغ لانغ فقد عانوا قلقا موصولا • كان الابن البكر يخشــى دائما أن لا يوفق الى الانفاق عن سعة ، وأن يستصغر الناس شأنهم ، وأن يجتاز الباب الكبير جماعة من القرويين ساعة يفد على القصر زائر من أبناء المدينة • وكان الابن الثاني يخشى أن يبذر المال تبذيرا • في حين كان الابن الاصغر يسعى ، جاهدا ، للتعويض عن السنوات التي خسرها بوصفه ابــن فـــلاح •

ولكن كان ثمة شخص واحد يجري مترنحا ههنا وههناك سعيدا بحياته ، وكان هذا هو ابن الابن البكر • ان هذا المخلوق الصغير لم يفكر قط بأيمــا مكان غير هذا البيت الكبير ، وبالنسبة اليه لم يكن ذلك البيت لا كبيرا ولا

صغيرا ولكن كان بيته وحسب ، ههنا كانت أمه وكان أبوه وجده وجميع أولئك الذين عاشوا لمجرد العمل على خدمته · ومن هذا المخلوق الصغير استمد وانغ لانغ الامن والسلام ، فما كـان ليمل مراقبته والضحك لما يصدر عنه من أعمال ورفعه كلما وقع · وتذكر ما كان أبوه هو قد فعل ، وابتهج بأن يطوق الطفل بحزام ويمشي وراءه وبذلك يكفيه مؤونة السقوط · لقد انطلقا من رواق الى رواق ، وكان الطفل يشير الى السمك المندفع كالسهم في البرك ، ويغمغم بكلام ما ، ويقصف رأس احدى الزهرات ، غير مصطنع في ذلك كله أيما حذر أو احتراس · وعلى هذا النحو ليس غير كان وانغ لانغ يستشعر الامن والسلام ·

ولم يكن هذا الطفل هو وحده المخلوق الصغير في البيت · فقد كانت زوجة الابن البكر مخلصة وفية ، ولقد حملت ووضعت ثم حملت ووضعت على نحو نظامي لا يعتوره اختلال ، وكان يخصص لكل من هؤلاء الاطفال ، حالما يبصر النور ، جارية جديدة · وهكذا كان وانغ لانغ يجد كل عام مزيدا من الاطفال في الاروقة ومزيدا من الجواري ، حتى أنه عندما قال له بعضهم : « سوف يضاف فم جديد في رواق الابن البكر » اجتزأ بالضحك وقال :

ـ « اه ، اه ··· حسنا ، ولكن عندنا من الارز ، بفضل الارض الطيبة ، ما يكفيهم جميعا · »

وسر عندما حملت زوجة الابن الثاني في ابانها ، ووضعت أنثى بادىء الامر ، وفقا لما يقتضيه واجب الاحترام نحو زوجة الاخ الاكبر · وهكذا رزق وانغ لانغ ، في مدى خمس سنوات ، أربعة حفدة وثلاث حفيدات ، فامتلأت الاروقة بضحكهم وبكائهم ·

✱

ان خمس سنوات ليست شيئا مذكورا في حياة الانسان الا حين يكون في ريعان الشباب أو في أرذل العمر · واذا كانت تلك السنوات قد أعطت وانغ لانغ هذه الذرية الجديدة فقد ذهبت من ناحية ثانية بذلك الحالم العجوز ، عمه ، الذي كان خليقا بوانغ لانغ أن ينساه أو يكاد ، لولا اضطراره بين الفترة والفترة الى تزويده وتزويد زوجته العجوز بالغذاء والكساء وبما يرغبان فيه من أفيون ·

وكان شتاء السنة الخامسة قارسا جدا ، لم يعرفوا له ضريبا منذ ثلاثين عاما ، حتى لقد تجمدت المياه ، لاول مرة على ما يذكر وانغ لانغ ، في الخندق المجاور لسور المدينة ، فأمسى في ميسور الناس أن يسيروا عليه جيئة وذهوبا · وهبت على نحو موصول ، أيضا ، ريح مثلوجة من ناحية الشمال

الشرقي ، ولم يعد في وسع أيما شيء ، حتى الملابس المصنوعة من جلد الماعز وحتى الفراء ، أن توقع الدفء في جسم المرء • لقد اشعلوا في كل حجرة من حجرات البيت الكبير مجامر فحم ، ومع ذلك فقد كان البرد قاسيا الى درجة يرى معها نفس المرء حين يرسله •

وكان الافيون قد جرد عم وانغ لانغ وزوجته ، منذ عهد بعيد ، من كل ما كان يكسو عظامهما من لحم ، وكانا يستلقيان ليل نهار في سريريهما مثل عصوين * عتيقين يابستين ، ولم يكن جسماهما يعرفان الدفء • وعرف وانغ لانغ ان عمه أمسى عاجزا حتى عن رفع رأسه عن الوسادة والجلوس في السرير ، وانه كان ينفث دما كلما أتى بحركة ما ، ومضى اليه ليراه ، فرأى أنه لم يبق من حياة الرجل العجوز غير ساعات معدودات •

عندئذ اشترى وانغ لانغ تابوتين مصنوعين من خشب جيد ولكنه ليس جيدا اكثر مما ينبغي ، وأمر بادخال التابوتين الى الحجرة التي كان عمه يحتضر فيها لكي يراهما الرجل العجوز ويموت مطمئن النفس ، واثقا من أن ثمة مثوى تستريح فيه عظامه • وقال عمه في صوت لا يعدو ان يكون همسا مرتعشا :

ــ « آه ، انت ولدي • انت ولدي اكثر من ابني التائه ذاك الذي من صلبي • »

وقالت المرأة العجوز ، ولكنها كانت لا تزال أشد قوة من الرجل :

ــ « اذا مت قبل عودة ذلك الولد الى البيت فعدني بأن تزوجه فتاة صالحة لكي ينجب أولادا يخلدون ذكرنا • »

ووعدها وانغ لانغ بذلك •

ولم يدر وانغ لانغ في أي ساعة توفي عمه • كل ما عرفه هو أنه وجد ميتا عندما دخلت عليه الخادم حاملة اليه طاسة من حساء ، فدفنه وانغ لانغ في يوم قارس كانت الريح فيه تذرو الثلج سحائب سحائب فوق سطح الحقول ، ووضع التابوت في مدفن الاسرة الى جانب أبيه ، في مكان أدنى بعض الشيء من جدث أبيه ، ولكنه أعلى من المكان الذي احتفظ به لنفسه •

ثم ان وانغ لانغ فرض الحداد على أفراد الاسرة كلها ، فحملوا شارة الحداد طوال عام ، لا لانهم حزنوا لموت هذا الرجل العجوز الذي لم يكن في أيما يوم من الأيام غير عبء عليهم ثقيل ، ولكن لان ذلك الصنيع كان وحده اللائق بأفراد الاسر الكبيرة حين يقضي احد الانسباء نحبه •

ثم ان وانغ لانغ نقل زوجة عمه الى المدينة حيث لن تكون وحدها ، وأفرد

---

* مثنى عصا •

لها حجرة في نهاية أحد الاروقة القصوى وسأل كوكو ان تضع جاريـــة في خدمتها ، وراحت المرأة العجوز تدخن أفيونها ، مستلقية في سريرها في سعادة بالغة ، مستغرقة في الرقاد يوما بعد يوم ، وقد وضع تابوتها الى جانبها بحيث كان في ميسورها أن تراه فيوقع في نفسها الطمأنينة والراحة ٠

وعجب وانغ لانغ اذ خطر له انه خشيها في عهد ما ، يوم كانت امــرأة ريفية ضخمة بدينة حمراء الوجه ، كسولا صخابة ٠٠٠ خشيها هي المنطرحة الان في سريرها مرتعشة صفراء صامتة ـ مرتعشة صفراء شأن السيـــدة العجوز في بيت هوانغ الافل ، سواء بسواء ٠

٣١

كان وانغ لانغ قد سمع الناس طوال حياته يتحدثون عن نشوب الحرب هنا ونشوبها هناك ، ولكنه لم يرها عن كثب الا مرة واحدة ، عندما قضــى الشتاء ، وهو بعد شاب ، في احدى المدن الجنوبية ٠ انها لم تقترب منه اكثر من ذلك قط ، على الرغم من أنه سمع الناس يقولون ، منذ كان طفلا لم يشب عن الطوق : « تدور في الغرب حرب هذه السنة » أو يقولون : « الحرب دائرة في الشرق أو في الشمال الشرقي ٠ »

وكانت الحرب ، عنده ، شيئا كالارض او السمــاء او الماء ٠ ٠ أما لماذا كانت الحرب فذلك ما لم يعرفه أحد ، كل ما عرفوه أنها كائنة ، ليس غيــر ٠ وبين الفينة والفينة كان يسمع الناس يقولون : « سوف نذهب الى الحــرب ٠ » وانما كانوا يقولون ذلك حين يمسون على حافة الجوع وحين يؤثرون أن يكونوا جنودا على أن يكونوا شحاذين ٠ وفي بعض الاحيان كان الناس يقولون ذلك حين تنبو بهم بيوتهم ، كما وقع لابن عمه هو ذات يوم ، ولكن أيا ما كان الامر فان الحرب كانت دائما بعيدة عنده وكانت تدور في مقاطعة أخرى ٠ وفجأة ، مثل ريح لا سبب لها هابطة من السماء ، نا ذلك الشيء الرهيب واقترب ٠

وسمع وانغ لانغ بذلك ، أول ما سمع ، من ابنهالثاني الذي أوى الـــى البيت ، ذات يوم عائدا من السوق ليتناول أرز الظهيــرة ، وقـــال لابيـــه :

ـ « لقد ارتفع سعر القمح فجأة ، ذلك لان الحرب أمست تـدور الـــى الجنوب منا الآن ، وهي تزداد قربا يوما بعد يوم ، ويتعين علينا أن نحتفـــظ بمخزوننا من القمح فترة من زمان لأن السعر سوف يمعن في الارتفاع اكثـــر

فاكثر كلما اقتربت الجيوش منا ، وعندئذ نستطيع أن نبيعه بسعر جيد ٠ »
وأصغى وانغ لانغ لهذاالكلام بينا كان يتناول طعامه ، وقال :

ــ « حسنا ، هذا شيء عجيب ، ولسوف أكون سعيدا بأن اشهد حربا من الحروب لكي أعرف كيف تكون ، ذلك بأني سمعت عنها طوال عمري ولكني لم أرها قط » ٠

وتذكر عندئذ ان الرعب استبد به ذات يوم لان قوما حاولوا الامساك به وجره بالرغم منه ، ولكنه أمسى الان رجلا عجوزا لا يصلح للخدمة ، والى هذا فقد كان ثريا ، والاثرياء في غير ما حاجة الى الخوف من شيء ٠ وهكذا لم يول هذه المسألة مزيدا من الاهتمام ، لقد عجزت عن أن تثير فيه شيئا اكثر من الفضول ، وقال لابنه الثاني :

ــ « افعل بالقمح ما تراه صالحا ٠ انه بين يديك » ٠

وفي الايام التالية انفق الساعات في ملاعبة حفدته كلما وجد نفسه في مزاج مساعد ، ونام وأكل ودخن ٠ وفي بعض الاحيان كان يمضي ليرى معتوهته المسكينة التي الفت القعود في زاوية نائية من رواقه ٠

ومثل أرجال الجراد زحفت من الشمال الغربي ، ذات يوم في مطلع الصيف جمهرة من الناس غفيرة ٠ ووقف حفيد وانغ لانغ الصغير بباب القصر ، والى جانبه احد الخدم، ليشهد جموع العابرين في ذلك النهار المشمس الجميل ، حتى اذا وقع بصره على صفوف طويلة من الرجال المرتدين بذلات رمادية هرع الى جده وقال :

ــ « انظر من القادم ، أيها الرجل العجوز ! »

عندئذ مضى وانغ لانغ الى الباب مع حفيده ، لكي يوقع السرور في نفس الطفل ، وهناك كان الرجال يملأون الشارع ، يملأون المدينة ، وشعر وانغ لانغ وكأن الفضاء والشمس حجبا ، فجأة ، بهذه الحشود الضخمة من ذوي الثياب الرمادية الذين اتخذوا سبيلهم في شوارع المدينة في خطى ثقيلة متناغمة ٠ ثم ان وانغ لانغ انعم النظر فيهم ، فرأى ان كل رجل منهم كان يحمل أداة من ضرب ما ، برزت من طرفها شفرة حادة ، وكان وجه كل من الرجال ضاريا قاسيا ٠ ومع ان بعضهم لم يكونوا غير غلمان صغار فقد كانت وجوههم على تلك الشاكلة ٠ وضم وانغ لانغ الطفل اليه في غير ابطاء عندما رأى وجوههم ، وغمغم :

ــ « فلندخل ونوصد الباب ٠ هؤلاء رجال لا تروق رؤيتهم للعين ، يا صغيري الحبيب » ٠

ولكن فجأة ، وقبل أن يوفق الى الاستدارة ، رآه احد الجند من وسط

الصفوف وناداه قائلا :

ــ « هاي ، هناك ! يا ابن اخي أبي العجوز ! »

ورفع وانغ لانغ عينيه لدن سماعه هذا النداء ، فرأى ابن عمه · كان يرتدي ، مثل سائر القوم ، ثياب الجندية ، وكان اشعث أغبر ، ولكن وجهه كان اشد ضراوة وشراسة من وجوههم جميعا · وضحك على نحو صاخب ، وخاطب رفاقه بقوله :

ــ « هنا نستطيع ان نتوقف ، ايها الرفاق ، لان هذا رجل غني ونسيب من أنسبائي ! »

وقبل ان يجد وانغ لانغ ، في غمرة من ذعره ، متسعا للاتيان بحركة ما ، اندفع الحشد عبر أبواب بيته ، جارفا الرجل العجوز مجردا اياه من كل حول · وتدفقوا الى أروقة البيت كالمياه القذرة الشريرة ، مالئين كل زاوية وصدع ، وانطرحوا على أرض الحجرات ، وغمسوا أيديهم في البرك وراحوا يشربون ، وطرحوا مداهم على الموائد المزخرفة المنقوشة محدثين بذلك صوتا عاليا ، وبصقوا حيث شاءوا ، وصاح بعضهم مناديا بعضهم الاخر ·

ثم ان وانغ لانغ ارتد يعدو مع الغلام ، مروع الفؤاد ، باحثا عن ابنه البكر ·لقد مضى الى أروقة ولده ، وهناك كان ابنه جالسا يقرأ كتابا ، فنهض لدن رأى اباه يدخل عليه ،و حين سمع كلمات وانغ لانغ المتقطعة أنشأ يعول ، وخرج ·

ولكنه ما ان رأى ابن عمه حتى وقف جامدا لا يدري ما يفعل : أيلعنه أم يرحب به · ولكنه القى نظرة على أبيه ، الذي كان قد تبعه ، وانتحب قائلا :

ــ « كل امرىء منهم يحمل مدية ! »

وهكذا اصطنع موقف المرحب وقال :

ــ « اهلا بك يا ابن العم ! أهلا بك تعود الى بيتك من جديد ! »

فقهقه ابن العم وقال :

ــ « ولقد جئتك ببضعة ضيوف » ·

فأجابه ابن وانغ لانغ البكر :

ــ « أهلا بهم ، ما داموا معك ! ولسوف نعد لهم طعاما لكي يكون في ميسورهم ان يأكلو قبل ان يمضوا لسبيلهم » ·

ثم ان ابن العم قال ، وهو لا يزال يضحك :

ــ « افعل ما أنت فاعل ، ولكن لا تصطنع العجلة بعد ذلك ، لاننا سوف

نبقى بضعة أيام ، وقد نبقى شهرا او سنة او سنتين ،ذلك بأننا سوف نعسكر في المدينة حتى يدعونا نداء الحرب » ٠

وحين سمع وانغ لانغ وابنه هذا الكلام لم يوفقا الى اخفاء ذعرهما الا قليلا ، ومع ذلك فلم يكن من اخفائه بد لان المدى كانت تلتمع في كل مكـــان خلال الاروقة ، وهكذا اكرها نفسيهما على الابتسام جهد طاقتهما ، وقالا :

ـ « نحن سعيدان ٠٠٠ نحن سعيدان ٠٠٠ »

وتظاهر الابن البكر بأن عليه أن يذهب ليعد الطعام ، فأمسك بيد أبيـه واندفعا كلاهما الى الرواق الداخلي ، وأحكـم الابن البكر ايصاد البـــاب بالحديد ، ومن ثم حذق كل منهما ـ الاب والابن ـ الى الاخر في ذعر ، ولـم يدر أي منهما ما ينبغي أن يفعل ٠

ثم ان الابن الثاني أقبل يعدو ، وقرع الباب ، حتى اذا فتحا له اندفـع الى الداخل في عجلة بالغة كاد معها ان يخر على وجهه ، وقال لاهثا :

ـ « الجنود يملأون البيوت كلها ٠٠٠ حتى بيوت الفقراء ٠٠٠ ولقـد جئت راكضا لكي أقول ان عليكما أن لا تحتجا ، لان أحد المستخدمين معي في الدكان ـ أنا أعرفه جيدا، فهو يقف الى جانبي كل يوم عند منضدة البيع ـ سمع اليوم بالنبأ ، فرجع الى بيته ، وهناك وجد الجنود حتى في حجزة امرأته، وكانت تلزم فراش المرض ، فاحتج ، فطعنوه بمدية ماضية ، وكأنه مصنوع من شحم الخنزير ـ الى هذا الحد كانت المدية ماضية ـ فنفذت الى جانبـه الاخر ! ان علينا أن نقدم اليهم أي شيء يرغبون فيه ، ولكن فلنسأل السماء ـ فذلك حسبنا ـ أن تنتقل الحرب الى المناطق الاخرى في وقت قريب ! »

ثم ان ثلاثتهم تبادلوا النظرات في كآبة ، وفكروا في نسائهم ، وفي هؤلاء الرجال الجائعين الشبقين وفكر الابن البكر في زوجته الطيبة الامينة ، وقال :

ـ « يجب أن ننزل النسوة معا في الرواق الداخلي الاقصى ، ويجب ان نراقب ذلك الرواق ليل نهار ، وأن نبقي الابواب موصدة بالحديد وباب الامان الخلفي غير محكم الايصاد لكي يكون في امكان المرء أن يفر منه عند الحاجة »

وكذلك فعلوا ٠ لقد أخذوا النسوة والاطفال ووضعوهم كلهم في الرواق الداخلي حيث كانت لوتس قد عاشت وحدها مع كوكو وخدمهـــا ، وهناك عاشوا في ضنك وازدحام ٠ وراقب الابن البكر ووانغ لانغ باب القصر ليـل نهار ، وكانَّ الابن الثاني يفد كلما استطاع ، وكانت رقابتهم دقيقة جدا في الليل والنهار على حد سواء ٠

ولكن كان ثمة ذلك الشرير ، ابن عم وانغ لانغ ٠ واذ كانت تشده الى القوم صلة القربى فان احدا لم يستطع ، من وجهة النظر الشرعية ، أن يصده

عن سبيله ، فكان يقرع الباب ، ويدخل الحجرات ، ويطوف فيها حيث يشاء ، وشفرة مديته تلتمع في يده وتتوهج . وكان الابن البكر يتتبع خطواته ، ووجهه مفعم بالغيظ ولكنه مع ذلك لم يجرؤ على قول شيء ما ، فقد كانت المدية هناك ، مشرعة ملتمعة ، وكان ابن العم ينظر الى هذه وتلك ، ويطري كلا من النساء .

لقد نظر الى زوجة الابن البكر ، واطلق ضحكته الجافية الخشنة ، وقال :

ـ « آه ، انها لقطعة رائعة جدا ، هذه الزوجة التي لك يا ابن العم ! سيدة مدينية ذات قدمين صغيرتين مثل براعم زهرة اللوتس ! »

وعن زوجة الابن الثاني قال :

ـ « حسنا ، وهذه فجلة طيبة حمراء قوية من الريف : ـ قطعة متينة من لحم أحمر ! »

قال ذلك بسبب من ان المرأة كانت بدينة ، متوردة الوجه ، عريضة العظام ، ولكنها برغم ذلك مقبولة سائغة . وبينما كانت زوجة الابن البكر تنكمش كلما نظر اليها وتخفي وجهها خلف ردنها ، كانت هذه الاخيرة تضحك في تلك الحال ـ بوصفها امرأة مرحة نشيطة ـ وتجيب في وقاحة :

ـ « اجل ، وبعض الرجال يحبون مذاق الفجل الحار ، أو عضة من اللحم الاحمر ! »

فيرد ابن العم بدوره :

ـ « واني لمن هؤلاء ! »

ويحاول أن يمسك بيدها .

وطوال هذا الوقت كانت موجة من الخجل تغمر الابن البكر بسبب من هذا الحديث الطائش يتبادله رجل وامرأة ليس ينبغي لهما ان يتجاذبا حتى أطرا فالحديث الجدي ، ونظر الى زوجته لانه كان خجلا من ابن عمه ومن امرأة اخيه أمامها * ، هي التي نشأت في بيئة أرقى من بيئته . واذ رأى ابن عمه خجلا هذا ، قال في خبث :

ـ « حسنا ، واني لافضل دائما أن آكل اللحم الاحمر الغض على أكل قطعة من السمك البارد التافه مثل تلك المرأة الاخرى » .

وهنا نهضت زوجة الابن البكر في رصانة وانسحبت الى احدى الغرف الداخلية . عندئذ ضحك ابن العم في خشونة ، وقال للوتس التي كانت قاعدة هناك تدخن غليونها المائي :

ـ « ان نساء المدينة هؤلاء متحرجات اكثر مما ينبغي ، أليس كذلك أيتها

* أي أمام زوجته .

السيدة الكبيرة ؟ »

• ثم امعن النظر الى لوتس وأضاف :

ـ « سيدة كبيرة حقا ! ولو لم أكن أعرف أن ابن عمي وانغ لانغ واسع الغنى اذن لكان علي أن أدرك ذلك من النظر اليك ، بعد أن أصبحت جبلا من لحم وشحم بفضل المآكل المترفة التي نعمت بها ! ان زوجات الاثرياء وحدهن قادرات على أن يكون لهن مثل مظهرك » ·

وسرت لوتس أعظم السرور حين دعاها « السيدة الكبيرة » ، لانـــه لقب لا يطلق الا على سيدات الاسر العريقة ليس غير · وضحكت ضحكة عميقة مقرقرة أرسلتها من حنجرتها البدينة ، ونفضت الرماد من غليونها المائي ودفعت به الى احدى الجواري لتملأه من جديد ، وقالت موجهة الخطاب الى كوكو :

ـ « حسنا ، ان عند هذا الفتى الجافي نزعة الى المزاح ! »

قالت ذلك ونظرت الى ابن العم في غنج ، على الرغم من أن مثل هــذه النظرات أمست الان أقل اغراء من ذي قبل ، بعد أن غارت عيناها فيوجنتيها البدينتين فهما لا تبدوان واسعتين شبيهتين بالشمس كما كانتا في عهــد الشباب · وحين رأى ابن العم تلك النظرة ، أطلق ضحكة هادرة وصاح :

ـ « حسنا ، ولكنها لا تزال تلك العاهرة القديمة نفسها ! »

وضحكت من جديد على نحو مدو ·

وطوال هذا الوقت كان الابن البكر واقفا هناك صامتا يتميز من الغيظ · حتــى اذا رأى ابن العم كل شيء مضــى لزيــارة أمه ، ومضــى وانغ لانــغ معه ليدله على مقرها · كانت ثمة مستلقية في فراشها ، مستغرقة في الرقاد حتى لقد وجد ابنها عسرا في ايقاظها ، ولكنه وفق الى ذلك اخر الامر بـــأن ضرب أرضية الغرفة الاجرية ، عند مقدم سريرها ، بعقب بندقيته الغليظة· عندئذ استفاقت وحدقت اليه وكانها خارجة اليه من حلم · وقال في فروغ صبر :

ـ « ولكن ابنك هنا ، ومع ذلك تواصلين استغراقك في النوم ! »

عندئذ رفعت نفسها في سريرها ، وحدقت اليه كرة أخرى ، وقالـــت في دهش :

ـ « ابني ··· انه ابني ··· »

ونظرت اليه فترة طويلة · وأخيرا ، وكأنها لم تجد ما تفعله غير ذلك ، قدمت اليه غليونها الافيوني ـ حتى لقد يخيل الى المرء أنها لم تستطع ان تفكر بما هو خير من ذلك ـ وقالت للجارية التي تسهر على خدمتها :

ـ « أعدي له قليلا في هذا الغليون · »

فحدق بدوره اليها ، وقال :

ـ « لا · لست أريد شيئا من ذلك · »

ووقف وانغ لانغ هناك الى جانب السرير ، واستبد به الذعر فجأة خشية أن يرتد هذا الرجل عليه ويقول :

ـ « ماذا فعلت بأمي حتى أصبحت ذابلة صفراء على هذا الشكل ، وحتى ذاب عنها كل لحمها المكتنز ؟ »

وهكذا سارع وانغ لانغ الى القول :

ـ « كنت أتمنى لو قنعت بمقدار أقل ، ذلك بأنها تستهلك من الافيون كل يوم ما قيمته حفنة من الفضة ، ولكننا لا نستطيع أن نعارضها بعد أن بلغت هذه السن العالية ، وهي تريد هذا المقدار كله » ·

وتنهد وهو يتكلم ، واختلس النظر الى ابن عمه · ولكن الرجل لم يقل شيئا ، مكتفيا بالتحديق ليرى الى اي حال انتهت أمه · حتى اذا انطرحت على ظهرها واستغرقت في النوم من جديد نهض ومضى لسبيله ضاربا الارض بعقب بندقيته وكأنها عصا من العصي ·

★

والواقع ان وانغ لانغ وأسرته لم يكرهوا احدا أو يخافوا أحدا من حشود الرجال المتبطلين المنتشرين في الاروقة الخارجية بقدر ما كرهوا وخافوا ابن عمهم هذا ، على الرغم من أن أولئك الرجال كانوا يقتلعون الاشجار وشجيرات الخوخ واللوز المنورة ويكسرونها كيف شاءوا ، وعلى الرغم من أنهم سحقوا نقوش الكراسي الدقيقة بأحذيتهم الجلدية الغليظة ، وعلى الرغم من أنهم لوثوا بغائطهم نفسه تلك البرك التي سبحت فيها الاسماك الذهبية والمنقطة ، حتى لقد ماتت الاسماك وطفت على سطح الماء ، وأنتنت هناك ، وقد انقلبت على ظهورها وتجلت بطونها البيضاء للعيان ·

ذلك بأن ابن العم كان يدخل الحجرات والاروقة ويغادرها ساعة يشاء ، وكان يرنو بعينيه الى الجواري ، فيتبادل وانغ لانغ وأولاده نظرات شاردة غائرة لانهم لم يجرؤوا على الاستسلام للرقاد ثم آن كوكو لاحظت ذلك فقالت لهم :

ـ « ليس ثمة غير سبيل واحدة · ان علينا ان نعطيه جارية يستمتع بها ما بقي مقيما عندنا ، والا امتدت يده الى حيث لا يجوز لها أن تمتد » ·

وأعجب وانغ لانغ بما قالته ، اذ بدا له انه لن يحتمل الحياة منذ اليوم بعد أن رزح بيته تحت هذا البلاء كله ، وهكذا قال :

ـ « انها فكرة جيدة · »

وأمر كوكو بأن تذهب وتسأل ابن عمه أي جارية يفضل ما دام قد رآهن جميعا ٠

وصدعت كوكو بما أمرت ، ثم رجعت وقالت :

ــ « يقول انه يريد الصغيرة الشاحبة التي تنام على سرير السيدة ٠ »

وكانت تلك الجارية الشاحبة تدعى « زهرة الاجاص » ، وكان وانغ لانغ قد اشتراها في سنة من سنوات المجاعة عندما كانت صغيرة نصف جائعة مثيرة للشفقة ٠ واذ كانت أبدا نحيلة الجسم فقد دللوها وكلفوها بأن تساعد كوكو ليس غير وأن تقدم الى لوتس بعض الخدمات الصغيرة ، فتملأ غليونها بالتبغ ، وتصب لها الشاي ، وعلى هذا النحو بصر ابن العم بها ٠

وكانت « زهرة الاجاص » تصب الشاي للوتس عندما قالت كوكو ذلك كله على مسمع منها في الرواق الداخلي حيث جلسن ، فأطلقت المسكينة صيحة عالية ، وسقط ابريق الشاي من يدها فتحطم على آجر الرواق اربا اربا ، وسال الشاي كله على الارض ، ولكن الفتاة لم تر ما قد صنعت ٠ لقد انطرحت أمام لوتس ، وراحت تقرع أرضية الرواق الآجرية براسها وتنتحب قائلة :

ــ « اوه ، يا سيدتي ٠٠٠ أعطوه جارية غيري ٠٠ أعطوه جارية غيري ٠٠٠ أنا خائفة منه حتى الموت ٠ »

وأثار ذلك غضب لوتس عليها فأجابتها في حنق :

ــ « انه ليس الا رجلا من الرجال ، والرجل حين يكون مع المرأة هو الرجل ٠ وانهم كلهم في ذلك سواء ٠ فعلام هذه الضجة كلها ؟ »

والتفتت الى كوكو وقالت :

ــ « خذي هذ الجارية وقدميها اليه ٠ »

ثم ان الجارية شبكت يديها على نحو يثير الشفقة وصرخت وكأنها على وشك ان تموت من البكاء والخوف ٠ وكان جسدها كله يرتعد ذعرا ، وأنشأت تنقل طرفها من هذا الوجه الى ذاك ، متضرعة وهي تسفح العبرات ٠

ولم يكن في ميسور ولدي وانغ لانغ ان يخالفا عن أمر أمرأة أبيهما ، ولم يكن في ميسور زوجتيهما ان تتكلما اذا أحجما هما عن الكلام ٠ وكذلك لم يكن الابن الاصغر ليقدم على شيء من ذلك ، لقد وقف هناك محدقا اليها ، وقد تشنجت يداه على صدره ، وحاجباه المستقيمان الاسودان مسدلان فوق عينيه٠ ولكنه لم ينبس بكلمة ٠ ونظر الاولاد والجواري الى هذا المشهد صامتين ، ولم يكن ثمة غير صوت الفتاة الصغيرة الباكية على نحو رهيب مذعور ٠

ولكن المشهد المؤلم أثار استياء وانغ لانغ ، فنظر الى الفتاة الصغيرة

في تردد ، غير مبال بأن يثير غضب لوتس ، متأثرا مع ذلك بما رأى وسمع ، اذ كان دائما ذا قلب رقيق · ثم ان الفتاة الصغيرة رأت قلبه في وجهه ، فهرعت اليه ، وطرقت قدميه بيديها ونكست رأسها وانخرطت في نحيب مرير · وخفض وانغ لانغ بصره نحوهـــا ، حتــى اذا رأى الى كتفيها الصغيرتين الضيقتين تذكر جسد ابن عمه الضخم الخشن الضاري ، ابن عمه الذي تخطى الان طور الشباب ، فغلب عليه اشمئزاز جارف ، وقال لكوكو فـــي صوت رقيق :

ـ « ليس من الخير أن نجبر الفتاة الصغيرة على هذا النحو · »

والحق أنه قال هذه الكلمات في رقة بالغة ، ولكن لوتس صرخت فـــي حـــدة :

ـ « يجب أن تصدع بما تؤمر · وأنا أقول ان من الحماقة ان تبكي هذا البكاء كله من أجل شيء لا بد أن يحدث عاجلا أو آجلا لجميع النساء · »

ولكن وانغ لانغ أخذ يلاطف لوتس ويقول لها :

ـ « لنذر أولا أي شيء غير ذلك نستطيع أن نفعله · سوف أشتري لـــك جارية أخرى اذا شئت ، أو أي شيء آخر تفضلينه ، ولكن دعيني أرى ما الذي نستطيع أن نفعله·»

ثم ان لوتس ، التي كانت تتوق منذ عهد طويل الى ساعة من صنـــع أجنبي والى خاتم جديد مرصع بالجواهر ، اعتصمت بالصمت فجأة ، فقـال وانغ لانغ لكوكو :

ـ « اذهبي وقولي لابن عمي ان الفتاة مصابة بداء خسيس لا برء منه، فاذا أصر على اختيارها برغم هذا العيب الذي فيها كان له ما أراد وذهبت هي اليه · أما اذا خافها ، كما نخافها نحن جميعا ، فقولي له ان عندنا جارية أخرى ، جارية سليمة الجسم · »

والقى نظرة على الجواري الواقفات من حوله ، فأشحن وجوههن عنه مستضحكات وتظاهرن بالخجل ما خلا خادمة شديدة البأس كانت في العشرين من العمر أو نحو ذلك ، خادمة شاع الدم في وجهها وقالت وهي تضحك :

ـ « حسنا ، لقد سمعت ما فيه الكفاية عن هذا الامر ، واني لتواقـــة الى تجريبه ، اذا شاء ابن عمك أن يختارني ، وهو على أية حال لا يوقـــع الرعب في النفس أكثر مما يوقعه بعض الناس » ·

عندئذ قال وانغ لانغ وقد استشعر شيئا من ارتياح :

ـ « حسنا · اذهبي اذن ! »

وقالت كوكو :

ـ « سيري على أثري تماما · ذلك بأنه ـ وأنا واثقة من هذا ـ سوف يقطف، الثمرة التي تكون أقرب اليه من غيرها· »

وخرجتا ·

ولكن الجارية الصغيرة ظلت متشبثة بقدمي وانغ لانغ ، بيد أنها كفت الان عن البكاء وانشأت تصغي لما قد حدث · وكانت لوتس لا تزال غاضبة عليها ، ولقد نهضت ومضت الى حجرتها من غير ان تقول كلمة ما · ثم ان وانغ لانغ رفع الجارية في رفق ، فنهضت قبالته ، شاحبة خائرة القوى ، فرأى ان لها وجها بيضاويا صغيرا ناعما ممعنا في الرقة والشحوب ، وثغرا احمر شاحبا · وقال في حنان :

ـ « ابتعدي عن سيدتك يوما أو يومين ، يا صغيرتي ، حتى يسكت عنها الغضب ، وحين يفد ذلك الشاب الطائش الى هنا اختبئي ، خشية ان يشتهيك من جديد · »

فرفعت عينيها ، ونظرت اليه نظرة مشبعة ترشح بالمودة والشغف ، ثم ابتعدت عنه ، صامتة مثل خيال ، ومضت لسبيلها ·

* * *

ولبث ابن العم هناك شهرا ونصف شهر ، كان خلالها يفيء الى الخادمة كلما شاء · وحملت منه ، وراحت تعلن ذلك في الاروقة في اعتزاز · ثم ان الحرب أطلقت نداءها ، فجأة ، فغادر الجند المدينة على جناح السرعة مثـل هشيم تذروه الرياح ، ولم يبق من آثارهم غير القذر والخراب · وأقحم ابن عم وانغ لانغ مديته تحت حزامه ووقف امامهم متنكبا بندقيته وقال متهكما :

ـ « حسنا ، اذا لم أرجع اليكم فقد تركت فيكم نفسي الثانية وحفيدا لامي · وليس كل رجل بقادر على ان يترك ولدا حيث يلقي الرحال طوال شهر أو شهرين ، وانها لواحدة من فوائد حياة الجندي ـ ان بذرته تطلع رأسها بعد ذهابه وإنه ليترك للاخرين مهمة العناية بها ! »

قال ذلك ، ساخرا منهم جميعا ، واتخذ سبيله مع سائر الجنود ·

٣٢

بعد أن مضى الجنود لسبيلهم اتفقت ، للمرة الاولى ، آراء وانغ لانغ وولديه الاكبرين : لقد قرروا محو كل أثر من آثار الحدث الاخير ، فاستدعوا

النجارين والبنائين من جديد ، ونظف الخدم الاروقة ، وأصلح النجارون ـ في كثير من البراعة ـ النقوش المحطمة والموائد ، وأفرغت البرك من أقذار الجند وملئت بماء صاف نمير · وكرة أخرى اشترى الابن الاكبر سمكا منقطا وذهبيا ، وزرع أشجارا مزهرة ، وشذب ما تحطم من اغصان الاشجار الباقية · وما هو الا عام حتى أزهر المكان من جديد واكتسى حلة قشيبة ، واسترد كل ولد من أولاد وانغ لانغ رواقه الخاص ، واستتب النظام في كل مكان ·

وأصدر وانغ لانغ أمره الى الجارية التي حملت من ابن عمه بأن تسهر على خدمة زوجة عمه ما بقيت على قيد الحياة ـ ولم تكن قد بقيت من حياتها الآن غير بقية ضئيلة ـ وأن تضعها في التابوت عند موتها·وكان مما أوقع السرور في نفس وانغ لانغ ان هذه الجارية وضعت أنثى ، ذلك بأنها لو وضعت ذكرا اذن لركبها الغرور ولطالبت بمكان لها في الاسرة · أما وقد وضعت أنثى فأن مركزها لم يتغير : انها مجرد جارية ولدت جارية ·

ومع ذلك فقد أنصفها وانغ لانغ ، كدأبه مع الناس جميعا ، وقال لها ان في ميسورها أن تستقل ، اذا شاءت ، بحجرة المرأة العجوز حين يجيء أجلها ، وأن تفوز بسرير أيضا ، وليس ذلك بكثير على قصر ينتظم ستين غرفة · ومنح الجارية شيئا من فضة · وسرت المرأة ولقد كان خليقا بسرورها أن يكون غامرا لولا امر لم تكتمه عن وانغ لانغ عندما أعطاها الفضة · لقد قالت :

ـ « احتفظ بالفضة كبائنة لي ، يا سيدي ، واذا لم يزعجك ذلك فزوجني من فلاح أو رجل فقير · ان هذا الصنيع سوف يكسبك فضلا ، ومن ناحيتي فاني ، بعد أن قدر لي أن أحيا مع رجل ، أصبح من العسير علي أن آوي منفردة الى سريري · »

ووعدها وانغ لانغ بذلك عن طيب نفس · حتى اذا وعدها بدهته فكرة ، وكانت الفكرة هي التالية : لقد وعد امرأة بتزويجها من رجل فقير ، ولقد أتى عليه حين من الدهر كان هو فيه رجلا فقيرا يفد الى هذه الاروقة نفسها التماسا لامرأة يبني بها · وراح ـ وهو الذي قضى نصف عمره من غير ان يفكر في أولان ـ راح يفكر فيها الآن في حزن لم يكن أسى ولكن كآبة ذكرى واشياء ماضية ، بعد أن أمست بعيدة عنه الان بعدا شاسعا · وقال في اكتئاب :

ـ « عندما تموت مدخنة الافيون سأبحث لك عن رجل · ولن يتأخر ذلك كثيرا · »

ووفى وانغ لانغ بما وعد · فقد وفدت المرأة عليه ذات صباح وقالت :
- « أرجو أن تنجز وعدك ، يا سيدي ، لان المرأة العجوز ماتت في الصباح الباكر من غير ان تستيقظ على الاطلاق ، ولقد وضعتها في تابوتها » ·

وأنشأ وانغ لانغ يستعرض في ذهنه العمال الزراعيين الذين كانوا يشتغلون في أرضه ، فتذكر ذلك الفتى البكاء الذي تسبب بموت تشينغ ،والذي كانت أسنانه ناتئة وكأنها رف فوق شفته السفلى · وقال :
- « حسنا ، انه لم يكن يقصد ما فعل ، وهو شاب كغيره من الشبان ، وعلى أية حال فأنه الشخص الوحيد الذي أستطيع أن أفكر فيه الآن · »

وهكذا استدعى الفتى ، فاقبل ، فاذا به قد أمسى شابا مكتمل الرجولة، ولكنه كان لا يزال جلفا ، وكانت أسنانه لا تزال في موضعها · وجلس وانغ لانغ على المنصة العالية في القاعة الكبرى ، ودعا الفتى والفتاة للمثول في حضرته ، وقال في أناة لكي يكون في ميسوره ان يتذوق نكهة تلك اللحظة الغريبة الكاملة :
- « هي ذي ، أيها الفتى ، هذه المرأة ، ولسوف تكون زوجتك اذا رغبت فيها ، وان أحدا من الناس لم يعرفها غير ابن عمي »

وأخذها الرجل شاكرا ، فقد كانت فتاة حسنة البنية دمثة الاخلاق ، وكان هو أفقر من أن يتزوج الا من امرأة مثلها ·

ثم ان وانغ لانغ غادر المنصة ، وبدا له أن دورة حياته قد اكتملت الان، وانه قد وفق الى أن يحقق كل ما رغب في تحقيقه في حياته وأكثر مما حلم في أيما يوم من الايام بأن في امكانه ان يحقق ، وكان هو نفسه يجهل كيف تم له ذلك كله · لقد بدا له ، الان فحسب ، انه سوف يتمتع بالامن حقا ، وانه أمسى قادرا على النوم تحت أشعة الشمس · ولقد آن اوان ذلك على أية حال ، فقد أشرف على الخامسة والستين من العمر وكان حفدته مثل شجيرات الخيزران الغضة حوله ، ثلاثة صبية أنجبهم ابنه البكر ، وكان أكبر هؤلاء في نحو العاشرة من العمر ، وصبيان اثنان أنجبهما ابنه الثاني · حسنا ، وكان عليه ان يزوج ابنه الثالث عما قليل ، حتى اذا أتم ذلك لم يبق ما يكدر عليه صفو حياته ، وأمسى في طوقه أن يحظى بالامن ·

ولكنه لم يحظ بالامن · لقد بدا وكأن مجيء الجنود كان أشبه شيء بهجوم من النحل الضاري الذي يخلف وراءه ، حيث وفق الى ذلك ، ضروبا من اللسع · وتفصيل الامر ان زوجة ابنه البكر وزوجة ابنه الثاني - اللتين ظلت علاقاتهما قائمة على أساس من الود والمجاملة حتى اليوم الذي عاشتا فيه معا في رواق واحد - تعلمتا الان كيف تبغض احداهما الاخرى بغضا

عظيما • وانما نشأ هذا البغض عن مئات من المشاجرات الصغيرة ،مشاجرات النساء اللاتي يتعين على أولادهن ان يحيوا معا ويلعبوا معا وان يتقاتلوا كالقطط والكلاب • وكانت كل أم تهرع لنجدة طفلها والدفاع عنه ، وكان الحق دائما في جانب ابنها في كل نزاع ، وهكذا أصبحت المرأتان عدوتين •

والى هذا ، فأن ما حدث ذلك اليوم ، عندما أطرى ابن عم وانغ لانغ المرأة الريفية وسخر من المرأة المدينية ، كان امرا لا يغتفر • كانت امـــرأة الابن البكر تشمخ برأسها كلما مرت بسلفتها • ولقد قالت لزوجها بصوت جهير ، ذات يوم ، فيما كانت تمر بها :

ــ « من المحزن ان تكون في الاسرة امرأة خليعة العذار رديئة النشأة ، حتى ليتجرأ رجل على مداعبتها بقوله انها لحم أحمر ، فتضحك هي فـــي وجهه • »

ولم تصمت امرأة الابن الثاني بل أجابت في صوت عال :

ــ « لقد غارت سلفتي لان رجلا قال انها قطعة سمك بـــارد ولم يزد على ذلك • »

وهكذا شرعت المرأتان تتبادلان نظرات الغضب والكراهية ، على الرغم من أن كبراهما ، بحكم اعتزازها بتربيتها الرفيعة ، كانت تجتزىء بالازدراء الصامت ، وتحرص على تجاهل وجود الاخرى نفسه • ولكنها كانت اذا مـــا غادر أولادها رواقهم الخاص نبهتهم قائلة :

ــ « أريد منكم ان لا تقربوا الاولاد الذين لم ينشأوا تنشئة صالحة • »

وكانت تجهر بذلك في حضرة سلفتها الواقفة على مرأى منها في الرواق المجاور ، فلا يكون من هذه الا أن توصي أولادها بقولها :

ــ « حذار أن تلعبوا مع الافاعي والا لدغتكم ! »

وكذلك ابغضت احداهما الاخرى أكثر فأكثر ، وكان يزيد الموقف مرارة ان كلا من الاخوين لم يكن يحب الآخر ، اذ كان أكبرهما يخشى ان يبدو محتده وأسرته وضيعين في عيني زوجته التي نشأت في المدينة وكانت اكرم منه محتدا ، واذ كان أصغرهما يخشى ان تؤدي رغبة أخيه في الفخفخة والجاه الى اضاعة ميراثهما قبل تقسيمه • والى هذا ، فقد كان الاخ الاكبر يستشعر الخزي والعار كلما خطر له أن أخاه الثاني يعرف كل ما يملكه أبوهما من الفضة ، ومقدار ما ينفقون كل يوم ، لان المال كان يمر بين يديه • صحيح أن وانغ لانغ كان يتلقى وينفق بيديه الاثنتين موارد اراضيه كلها ، ولكن الاخ الثاني كان يعرف على أية حال حقيقة هذه الموارد في حين كـــان الاخ الاكبر يجهلها فهو مضطر الى أن يسأل أباه عن هذه المسألة او تلك وكأنه طفل صغير •

وهكذا ما ان تباغضت الزوجتان حتى امتد بغضهما الى الرجلين أيضا ، وخيم الغضب على رواقي الفريقين ،وتنهد وانغ لانغ لان بيته حرم الامــن والسلام ٠

*

وكان لوانغ لانغ أيضا متاعبه السرية مع لوتس منذ اليوم الذي حمى فيه جاريتها من ابن عمه ٠ لقد أمست الخادم الصغيرة، منذ ذلك الحين ، بغيضة الى نفس لوتس ٠ وعلى الرغم من أن الفتاة سهرت على خدمتها في صمت وعبودية ، ووقفت الى جانبها طوال النهار تملأ غليونها بالتبغ وتبحث لها عن كيت وكيت ، وتنهض في موهن من الليل كلما تشكت لوتس الارق وتفرك لها رجليها وجسدها ابتغاء تهدئتها ـ على الرغم من ذلك كله فأن لوتس لم ترض ٠

لقد استشعرت الغيرة من الخادمة ، فكانت تبعدها عن الحجرة كلما وفد عليها وانغ لانغ ، وتتهم وانغ لانغ بأنه يكثر النظر الى الخادمة ٠ والواقع ان وانغ لانغ لم ير في الفتاة غير طفلة صغيرة بائسة عصف الرعب بقلبها ، فكان يحنو عليها كما يحنو على معتوهته المسكينة ليس غير ٠ ولكن ما ان رمته لوتس بتلك التهمة حتى بدا له أن ينظر ، فرأى ان الفتاة كانت في الحق جميلة جدا وشاحبة مثل زهرة اجاص ، واذ رأى ذلك اضطرب شيء في دمه العجوز الذي كان هادئا خلال السنوات العشر الاخيرة أو يزيد ٠

وهكذا فيما كان يسخر من لوتس قائلا : « ماذا ؟ أتظنين ان الشبق ما يزال غالبا علي في حين أني لا أفد على حجرتك الا ثلاث مرات في العام ؟ » راح يختلس النظر الى الفتاة ، وقد أثارته محاسنها ٠

وكانت لوتس ، على جهالتها في كل شيء ما خلا شيئا واحدا ، بصيرة بعلاقات الرجال بالنساء ، وكانت تعلم ان الرجال حين يبلغون سن الشيخوخة يفيقون من جديد على شباب مقتضب ٠ ومن أجل هذا غضبت على الفتــاة وتحدثت في موضوع بيعها لصالة الشاي ٠ ومع ذلك فقد كانت لوتس تؤثر الرفه والعافية ، وكانت كوكو قد أمست عجوزا كسولا ، على حين أن الخادمة الصغيرة نشيطة متعودة خدمة سيدتها ، وكانت تدرك حاجات هذه السيــدة قبل أن تدركها هي نفسها ، وهكذا كانت لوتس تكره الاستغناء عنها ومع ذلك فلم يكن لها من الاستغناء عنها بد ٠ والواقع ان هذا الصراع النفسي غيــر المالوف زاد لوتس غضبا على غضب فاذا بالحياة معها تصبح أشد عسرا من ذي قبل ٠ وأقام وانغ لانغ بعيدا عن رواقها أياما عديدة موصولة ، ينفــره منها مزاج نكد غلب عليها في تلك الفترة ٠ وقال في ذات نفسه انــه سوف

ينتظر ، معتقدا أنها غمامة لا بد أن تنقشع ، ولكنه فكر في غضون ذلك في الفتاة الوسيمة الشاحبة أكثر مما ود هو أن يصدق أنه فعل ·

وكأن متاعب النساء في بيته لم تكن كافية كلها ، فانضاف اليها بلاء ابنه الاصغر · ولقد كان هذا الابن غلاما بالغ الهدوء شديد العكوف على كتبه ، التي فاز بها في وقت متأخر ، الى درجة جعلت القوم كلهم لا يرون فيه غير فتى هزيل الجسم متأبط كتبا على نحو موصول ، وقد سار في اثره معلم عجوز يتبعه ، كالكلب ، حيثما ذهب ·

ولكن الغلام كان قد عاش بين الجنود حين كانوا هناك ، وكان قد أصغى الى حكاياتهم عن الحرب والنهب والمعارك ـ أصغى الى ذلك كله ذاهلا ومن غير ان ينبس بكلمة · ثم انه رجا معلمه أن يقدم اليه قصصا يدور موضوعها على حروب الممالك الثلاث وعلى عصابات قطاع الطرق التي عاشت في العصور القديمة في عرين جبلي ·وامتلأ رأسه بالاحلام ·

وهكذا مضى الى أبيه وقال :

ـ « أنا أعرف ما أريد أن افعله · سوف أصبح جنديا ، وسوف إذهب الى الحرب · »

وحين سمع وانغ لانغ ذلك بدا له ، في ذعر بالغ ، أنه أسوأ شيء يمكن ن يحدث له في شيخوخته فصاح في وجه الغلام بصوت مغضب :

ـ « أي جنون هذا ؟ هل قدر علي أن أحرم الامن بسبب من أولادي ؟ »

وناقش الغلام ، وحاول أن يكون رفيقا لطيفا حين رأى حاجبي الغلام الاسودين يلتقيان فيؤلفان خطا متصلا ، وقال :

ـ « يا بني ، لقد قيل منذ أقدم العهود ان الناس لا يأخذون الحديد الطيب لصنع مسمار من المسامير ولا يأخذون الرجل الطيب ليجعلوا منه جنديا · وأنت ولدي الصغير ، أصغر أولادي وأفضلهم ، وأنى لي أن أنام في ساعات الليل وأنا أعلم انك تضرب في الارض ههنا وههناك تحت راية الحرب ؟ »

ولكن الغلام كان قد عقد العزم على ذلك ، فنظر الى أبيه وخفض حاجبيه الاسودين واكتفى بالقول :

ـ « سوف اذهب · »

ثم ان وانغ لانغ تملقه وقال :

ـ « أنا مستعد لان ارسلك الى أي مدرسة تشاء ، ولسوف ارسلك الى مدارس الجنوب الكبرى ، بل الى مدرسة أجنبية لتتعلم اشياء غريبة، وستذهب الى أيما مكان تشاء للتحصيل والدرس اذا اطرحت فكرة الجندية · انه لعار

على رجل مثلي ، رجل صاحب فضة واطيان ، ان يكون احد أولاده جنديا » ٠

حتى اذا اعتصم الغلام بالصمت أمعن في تملقه وقال :

ـ « قل لابيك العجوز لماذا تريد أن تكون جنديا ؟ »

فقال الغلام ، فجأة ، وقد التمعت عيناه تحت حاجبيه :

ـ « سوف تقع حرب لم نسمع بمثلها من قبل ٠ سوف تصبح أرضنا حرة ! »

وأصغى وانغ لانغ الى ذلك في أقصى دهش قدر لاي من اولاده أن يوقعه في نفسه ٠ وقال متعجبا:

ـ « ما هذا الهراء كله ؟ ان أرضنا هي الان حرة ـ كل أرضنا الطيبة حرة ٠ أنا أكريها لمن أشاء وهي تعود علي بالفضة وتقدم الي الحبوب الجيدة وأنتم تأكلون من خيرها ، وتلبسون وتغتذون بفضلها ، ولست أدري أية حرية تريد أكثر من هذه التي تتمتع بها ٠ »

ولكن الغلام غمغم في مرارة :

ـ « أنت لا تفهم ٠٠٠ أنت عجوز أكثر مما ينبغي ٠٠٠ لست تفهم شيئا ٠٠ »

واستغرق وانغ لانغ في التفكير ، ونظر الى ابنه ذاك ، فرأى أمارات التوجع على وجهه الغض ، وقال في ذات نفسه :

ـ « هو ذا فتى منحته كل شيء ٠٠ حتى حياته ٠ انه مدين لي بكل شيء ٠ ولقد اجزت له ان يفارق الارض ، حتى هذا اجزته له ، وهكذا لن يكون ثمة ولد يعنى بالارض من بعدي ، ولقد اجزت له ان يقرأ ويكتب على الرغم من أنه ليس لهذا أي ضرورة في أسرتي ، أسرتي التي زهت قبله بعالمين اثنين ٠ »

وفكر وقدر ،وأضاف قائلا في ذات نفسه محدقا ـ ما يزال ـ الى الغلام :

ـ « كل ما عند هذا الغلام هو مني أنا ٠ »

ثم أنعم النظر الى ابنه، فرأى أنه قد غدا ـ حتى في سنه هذه ـ طويلا كالرجال ، على الرغم من انه كان لا يزال مهزولا بالمراهقة ٠ وقال مترددا ـ في غمغمة وهمس ـ ذلك بأنه لم يلمح عند الغلام أيما أمارة من امارات الشهوة :

ـ « ومن يدري ، فقد يكون محتاجا الى شيء اضافي ٠ »

ثم قال في صوت مرتفع وفي أناة :

ـ « سوف نزوجك عما قريب ، يا بني » ٠

ولكن الابن رشق اباه ، من تحت حاجبيه الكثيفين المقطبين ، بنظرة

صاعقة ، وقال في ازدراء :

ـ « عندئذ أولي فرارا من غير ريب ، لان المرأة ليست عندي الجواب على كل شيء كما هي عند أخي الاكبر ! »

وأدرك وانغ لانغ ، في الحال ، انه كان مخطئا ، وهكذا سارع الى القول لازالة سوء الاثر الذي أحدثته ملاحظته السابقة :

ـ « لا ... لا ... نحن لن نزوجك . ولكني أعني ، اذا كانت ثمة جارية ترغب فيها ... »

فأجاب الغلام بنظرات متشامخة متكبرة ، طاويا ذراعيه على صدره :

ـ « أنا لست بالفتى العادي ، ان لي أحلامي . أنا أطمح الى المجد . ان ثمة نساء في كل مكان . »

ثم انه طامن من عنجهيته فجأة ، وكأنه تذكر شيئا كان قد نسيه ، وأرخى ذراعيه وقال في صوته العادي :

ـ « والى هذا ، فانه لم توجد في أيما وقت من الاوقات مجموعة من الجواري أكثر بشاعة من المجموعة التي عندنا . واذا كنت أبالي بهذه الامور ـ ولكني لا أبالي ـ حسنا ... لعله ليس في أروقتنا أية جارية جميلة غير الخادمة الصغيرة التي تسهر على راحة السيدة المقيمة في الاروقة الداخلية . »

وأدرك وانغ لانغ أنه يتحدث عن « زهرة الاجاص » ، فنهشته غيرة غريبة . وفجأة استشعر أنه اشد هرما مما هو في الواقع ـ رجل عجوز ذو بطن ضخم وشعر وخطه الشيب ... ورأى الى ابنه فاذا هو فتى رشيق القوام غض الاهاب ، واذا هما في تلك اللحظة لا والد وولده ، ولكن رجلان اثنان ، احدهما طاعن في السن والاخر نضر العود ... وقال وانغ لانغ مغضبا :

ـ « دع الجواري وشأنهن ... أنا لن أرضى أن يصبح بيتي مسرحا للاعمال الداعرة التي كان سادة القصر الصغار يقومون بها . نحن قوم ريفيون صالحون مؤثرون للجد ، وأناس ذوو حشمة وأدب ، لا ، لست اريد شيئا من ذلك في بيتي ! »

عندئذ فتح الغلام عينيه أقصى ما استطاع ان يفتحهما ، ورفع حاجبيه الاسودين ، وهز كتفيه ، وقال لابيه :

ـ « انك أنت الذي تحدثت عنها أولا . »

واستدار وخرج :

ومكث وانغ لانغ في حجرته ، وحيدا ، جالسا الى طاولته ، واستشعر الوحشة والكآبة ، وغمغم في ما بينه وبين نفسه :

ـ « يبدو اني لن انعم بالامن في أيما مكان من بيتي · »

لقد أغضبته وشوشت تفكيره مشاكل متعددة ، ولكن غضبا واحد تميز، من غير ان يدرك لذلك سببا ، من بين هذه « الغضوب » كلها وانتصب على نحو صارخ : لقد نظر ابنه الى جارية صغيرة شاحبة من جواري البيت فوجدها بهية الطلعة !

٣٣

ولم يوفق وانغ لانغ الى الاقلاع عن التفكير في ما كان ابنه الاصغر قد قاله عن « زهرة الاجاص » ، فراح يراقب الجارية على نحو موصول ، كلما اقبلت وكلما مضت لسبيلها · ومن غير أن يدري ، ملكت عليه تفكيره وشغفته حبا · ولكنه لم يقل لاحد شيئاً ·

وذات ليلة ، في أوائل الصيف من ذلك العام ، حين يكون هواء الليل مثقلا برطوبة الجو القائظ عابقا بالارج ، جلس وانغ لانغ مسترخيا وحده في رواقه الخاص تحت شجرة « قاسيا » منورة ، فملأت ريا زهرات «القاسيا» العذبة القوية منخريه ، فلبث هناك ، وجرى الدم في عروقه نشيطا حارا مثل دم فتى في ريق الشباب · وكان خلال النهار قد أحس بدمه على هذه الشاكلة من النشاط والحرارة ، وكانت نفسه قد حدثته بأن يمضي الى أرضه ، ويستشعر الارض الطيبة تحت قدميه ، وبأن يخلع نعليه وجوربيه لكي يستشعرها تحت جلده مباشرة ·

وكان خليقا به أن يقدم على ذلك لولا خشيته ان تقع أعين الناس عليه ، هو الذي لم يعد في نظر المدينيين فلاحا ولكن صاحب أطيان وثريا من الاثرياء· وهكذا راح يطوف في الاروقة قلقا مضطرب البال ، مبتعدا دائما عن رواق لوتس ، حيث جلست في الظل ودخنت غليونها المائي ، لانها كانت ذات عينين ثاقبتين تكتشفان العلة في الحال · وهكذا بقي وحده ، ولم يكن به توق الى ان يرى كنتيه المتخاصمتين ، بل لم يكن به توق الى ان يرى حفدته أنفسهم ، اولئك الصغار الذين كان من دأبهم ان يدخلوا البهجة على قلبه ·

وهكذا كان النهار قد تقضى طويلا جدا موحشا جدا ، وكان دمه عارما متدفقا تحت جلده · انه لم يستطيع ان ينسى ابنه الاصغر ، وكيف بدا ، هو واقف ، فارع الطول منتصب القامة مقطبا ما بين حاجبيه في رصانة فتوته ،

ولم يستطع أن ينسى الجارية · وفي ما بينه وبين نفسه قال :

ـ « أحسب أنهما تربان * ـ أما الغلام فلا ريب في أنه أوغل في الثامنة عشرة ، وأما هي فلا تعدو سنها الثامنة عشرة · »

ثم تذكر انه هو نفسه سوف يبلغ ، بعد بضع سنوات ، السبعين من عمره ، فخجل من دمه المتدفق ، وفكر :

ـ « انه لمن حسن الرأي ان نزف الجارية الى الغلام · »

قال ذلك لنفسه مرة ومرة ، وكلما قاله كانت الفكرة تطعنه وكأنها خنجر يغيب في صدر مقروح ، ولم يتمالك نفسه عن الطعن ، ومع ذلك فلم يكن له معدى عن الاحساس بالالم ·

وهكذا تراخى نهاره طويلا موحشا ·

حتى اذا هبط الليل كان لا يزال متوحدا ، جالسا في رواقه منفردا ، ولم يكن في بيته كله امرؤ واحد يستطيع ان يشكو اليه بثه كما يفضي الصديق بهمه الى الصديق · وكان هواء الليل رطبا حارا مثقلا بأريج أزهار شجرة « القاسيا » ·

وفيما هو قاعد ، ثمة في الظلام ، تحت الشجرة مر شخص بتلك الشجرة المجاورة لباب رواقه · وسارع وانغ لانغ الى النظر ، فعرف في ذلك الشخص « زهرة الاجاص » ·

وناداها في صوت انطلق على صورة الهمس :

ـ « زهرة الاجاص ! ! »

فوقفت فجأة ، وقد أمالت رأسها بالاصغاء :

ثم انه ناداها من جديد ، وصوته لا يكاد ينبعث من حنجرته :

ـ « تعالي الى هنا ! »

حتى اذا سمعته انسلت خفرة من خلال الباب ، ومثلت بين يديه · ولم يتبينها واقفة هناك في الظلمة الا بشق النفس ، ولكنه استطاع ان يستشعر انها هناك ، فبسط يده نحوها ، وأمسك بسترتها الصغيرة وقال نصف مختنق:

ـ « أيتها الطفلة ···! »

ولم يذهب الى أبعد من النطق بهذه الكلمة · لقد قال لنفسه انه رجل طاعن في السن ، وان هذا عمل معيب لا يليق برجل ذي حفدة وحفيدات اقرب الى سن تلك الطفلة مما كان هو · وأمر أصابعه على سترتها الصغيرة ·

وأعدتها حرارة دمه ، وكانت ما تزال تنتظر ، فانحنت الى أمام ، وسقطت

---

* مثنى الترب وهو الذي ولد معك او تربى معك · يقصد ان سنيهما متقاربان·
(المعرب)

على الارض ، كما تنهار زهرة على غصنها ، وطوقت قدميه بذراعيها ، وظلت راكعة هناك ٠ فقال في اناة :

ـ « أيتها الطفلة ٠٠٠ أنا شيخ كبير ٠٠٠ شيخ كبير جدا ٠٠٠ »

فقالت ، وقد انبعث صوتها من الظلام مثل انفاس شجرة « القاسيا » نفسهـا :

ـ « أنا احب الشيوخ ٠٠٠ أنا احب الشيوخ ٠٠٠ انهم شديدو الرفق»٠

فاستطرد في حنان ، منحنيا نحوها بعض الشيء :

ـ « ان فتاة صغيرة مثلك يجب ان تزف الى شاب منتصب القامة فارع الطول ٠٠٠ ان فتاة صغيرة مثلك ٠٠٠ »

وفي ما بينه وبين نفسه أضاف :

ـ « مثل ولدي » ٠

ولكنه لم يستطع ان ينطق بذلك بصوت جهير ، خشية أن يدخل هـــذه الفكرة الى ذهنها ، وما كان هو ليحتمل ذلك ٠

بيد أنها قالت :

ـ « الشبان يعوزهم الرفق ٠٠٠ انهم قساة ليس غير » ٠

واذ سمع صوتها الطفلي الواهن يرتعش من حول قدميه استشعر أن قلبه يفيض بالحب لهذه الفتاة ، وأخذ بيدها ورفعها في رفق ، ثم قادها الــى أروقته الخاصة ٠

حتى اذا تم له ذلك أدهشه غرام شيخوخته هذا أكثر من أي من مغامراته السالفة ، ذلك بأنه رغم كل حبه لـ « زهرة الاجاص » لم ينل منها وطرا كما قد نال من النسوة الاخريات اللواتي عرفهن ٠

لا، لقد ضمها اليه في رفق ، واكتفى بأن يستشعر شبابها الرقيق يمس بشرته الغليظة العجوز ، وقنع بتكحيل العين برؤيتها نهارا ، وبلمس سترتها المتموجة وبالشعور بأن جسدها يستريح الى جانبه ليـــلا ٠ وعجب لغرام الشيخوخة الذي يتيم المرء ثم يطفأ أواره بمثل هذا اليسر كله ٠

أما هي فكانت فتاة لا يعرف الهوى سبيلا الى نفسها ، وكانت تتعلق به وكأنه أبوها ٠ وكانت هي في نظره ، حقا ، ابنة اكثر منها زوجة ٠

والواقع ان ما أقدم عليه وانغ لانغ لم يرشح نبأه في سرعة ، ذلك بأنه لم يخبر به احدا ، وما الذي يحمله على هذا ، وهو سيد بيته الاعلى ؟

ولكن عين كوكو كانت أول من لمح ذلك٠ لقد رأت الجارية الصغيرة تنسل مع الفجر من رواقه ، فأمسكت بها وضحكت ، والتمعت عيناها الشبيهتــان بعيني صقر عجوز ٠

وقالت :

ـ « جميل ! هي ذي قصة سيد القصر العجوز تتكرر ! »

وطرق كلامها سمع وانغ لانغ في حجرته فسارع الى القاء ردائه حول جسده ، وخرج ، وابتسم على نحو أخرق نصف معتز بنفسه ، وقال مغمغما :

ـ « ماذا تريدين ؟ لقد قلت لها إن من الخير ان تزف الى شاب غض الاهاب ولكنها اثرت الرجل العجوز ! »

فقالت كوكو وقد أومضت عيناها بالخبث :

« انها لحكاية جميلة يحسن بي ان ارويها على مسمع السيدة ! »

فأجاب وانغ لانغ في أناة :

ـ « اني انا نفسي لا أدري كيف حدث ذلك · أنا لم أكن أنوي أن أضيف الى رواقي امرأة اخرى » ·

وعندما قالت كوكو : « حسنا ، ويجب علي أن أعلم السيدة » خشي وانغ لانغ غضب لوتس أكثر من أي شيء اخر ، وتوسل الى كوكو وقال :

ـ « اخبريها بذلك ، اذا شئت · وان استطعت أن تتأتي للمسألة بحيث تنقضي من غير أن تقذفني لوتس بشواظ من غضبها اعطيتك حفنة من المال اعترافا بجميلك » ·

وهكذا وعدته كوكو ، وهي لا تزال تضحك وتهز برأسها ، بتحقيق مطلبه · ورجع وانغ لانغ الى رواقه ولم يفارقه الا بعد أن عادت كوكو وقالت :

ـ « لقد أعلمتها بالنبأ ، ولقد أثار ذلك غضبها الى حد بعيد ، ولم تهدأ ثائرتها الا عندما ذكرتها بأنها انتظرت منذ عهد بعيد وما تزال تنتظر تلك الساعة الاجنبية الصنع التي وعدتها بها ، وهي تريد الى ذلك خاتما مجوهرا ليدها ، وآخر لكي يكون لكل يد خاتم ، وتريد أشياء اخرى تنبئك بها في ما بعد ، وجارية جديدة لتحل محل « زهرة الاجاص » ، وهي تشترط أن لا تفد على أروقتها بعد اليوم ، وأن لا تفد أنت أيضا الا بعد انقضاء فترة على هذا الحدث لان رؤيتك تثير تقززها » ·

ووعدها وانغ لانغ بذلك كله عن طِيب نفس وقال :

ـ « ايتيها بكل ما ترغب فيه · أنا لن أضن عليها بشيء » ·

وسر لعدم اضطراره الى الاجتماع بلوتس في وقت قريب وقبل ان يكون غضبها قد خمد من طريق تحقيق أمنياتها كلها ·

بقي هناك أولاده الثلاثة : ولقد كان يستشعر أمامهم خجلا غريبا مما فعل · وقال في ما بينه وبين نفسه مرة ومرة :

ـ « ولكن ألست سيدا في بيتي ؟ أليس من حقي أن آخذ جاريتي التي اشتريتها بحر مالي ؟ »

ولكنه كان خجلا ، وكان مع ذلك نصف معتز أيضا ، كما يستشعر من لا يزال شبقا زاخرا بالرجولة في حين يحسبه الناس مجرد جد عجوز · ولبث في حجرته منتظرا زيارة أولاده له ·

وأقبلوا واحدا اثر واحد ، على انفراد ، وكان الابن الثاني أول الوافدين · واستهل هذا الابن حديثه بالكلام على الارض وعلى الحصاد وعلى جفاف الصيف الذي سيهبط بالمحاصيل الى ثلث ما كانت عليه في العام السالف · ولكن وانغ لانغ لم يكن ليبالي ، في تلك الايام ، بالمطر او الجفاف · وأي بأس في ان يعود عليه حصاد العام بغلة هزيلة ؟ لقد بقي لديه شيء من فضة من العام المنصرم ، وكانت أروقته محشوة بالقطع الفضية ، وكانت له ديون كثيرة في أسواق القمح ، وأموال ضخمة أقرضها بفائدة مرتفعة ـ أموال كان ابنه الثاني يجبيها له · وكان هو قد كف عن التطلع الى السماء ليرى كيف بدت فوق أرضه ·

ولكن ابنه الثاني واصل حديثه على هذا النحو ، وفيما كان يتحدث راح يختلس النظر الى الغرف ناظرا ذات اليمين وذات اليسار حينا ، وأدرك وانغ لانغ أنه كان يبحث عن الفتاة ليرى أكان ما سمعه حقيقة أم لا ؟ وهكذا نادى « زهرة الاجاص » التي كانت مختبئة في حجرة النوم قائلا :

ـ « ايتيني بالشاي ، يا طفلتي ، واحملي الشاي الى ولدي أيضا ! »

فبرزت من مخبأها ، وكان وجهها الشاحب الرقيق ورديا كالدراقة ، وخفضت رأسها ، وانسلت على قدميها الصغيرتين الصامتتين ، فحدق الابن الثاني اليها وكأنه لم يستطع ان يصدق حتى الآن ما كان قد سمعه من أنباء·

بيد أنه لم يقل شيئا البتة ، ما خلا ان الارض كانت كيت وكيت ، وان هذا المكتري أو ذاك يجب ان يغير في نهاية العام ، كما يجب تغيير مكتر اخر لانه يدخن الافيون ولا يجني من الارض ما هي قادرة على اعطائه · وسأل وانغ لانغ ابنه كيف حال أولاده ، فأجابه قائلا انهم مصابون بالسعال الديكي (الشهاق) ، ولكن مرضهم ذاك لم يعد ذا بال بعد أن أمسى الجو دافئا ·

وتجاذبا أطراف الحديث ، محتسيين الشاي ، وملأ الابن الثاني عينيه مما رأى ثم مضى لسبيله · وأزاح وانغ لانغ عن عاتقه عبء اخبار ابنه الثاني ·

ثم ان الابن البكر اقبل قبل ان ينتصف النهار ، ولقد اقبل فارغ الطول وسيم الوجه فخورا بأنه قد بلغ سن النضج ، ولقد خشي وانغ لانغ اعتزاز ابنه ذاك

فلم يناد « زهرة الاجاص » بادىء الامر ، بـــل انتظر وانشأ يدخن غليونه ٠ عندئذ جلس الابن البكر هناك متصلب الاوصال بالكبر والزهو ، وسأل أباه ــ تأدبا ــ عن صحته وهناءته ٠ فأجابة وانغ لانغ في سرعة وهدوء انه في حـــال جيدة ٠ وفيما كان ينظر الى ابنه فارقه خوفه ٠

ذلك بأنه رأى ابنه البكر على حقيقته : رجلا ضخم الهامة ، ولكنه جزع من زوجته المدينية ، وجزع اكثر من أي شيء اخر ان لا يبدو نبيل المحتد في نظرها ٠ عندئذ فاضت عافيـــة الارض الزاخرة في نفس وانغ لانغ حتى في الحالات التي كان لا يستشعرها فيها ــ فاضت هذه العافية فغمرت فؤاده ، فاذا هو يستعيد لامبالاته القديمة بابنه البكر ، ولا مبالاته بنظراته المترصنة ، وسرعان ما نادى « زهرة الاجاص » قائلا :

ــ « تعالي ، يا طفلتي ، وصبي الشاي من جديد لولد اخر من أولادي !»

وهذه المرة أقبلت هادئة جدا ، باردة جدا ، وكـــان وجهها البيضاوي الصغير أبيض كالزهرة التي تحمل اسمها ٠ وغضت طرفهـــا عندما دخلت عليهما ، وتحركت من غير ان تحدث صوتا ٠ ولم تفعل أيما شيء غير الذي طلب اليها أن تفعله ، ثم سارعت الى مغادرة الحجرة ٠

وكان الرجلان قد اعتصما بالصمت ريثما صبت لهما الشاي ، حتـــى اذا انصرفت ورفعا كأسيهما أنعم وانغ لانغ النظر الى عيني ابنه ، فلمـــح فيهما التماعة اعجاب صريحة ، التماعة عين الرجل الذي يحسد رجلا اخـــر في السر ٠ ثم انهما احتسيا شايهما ، وقال الابن اخر الامر في صوت أجش مرتعد :

ــ « أنا لا أصدق أن هذا صحيح » ٠

فأجابه وانغ لانغ في رباطة جأش :

ــ « ولم لا ؟ انه بيتي أنا » ٠

وتنهد الابن البكر ، ثم قال بعد برهة :

ــ « انت غني وفي ميسورك ان تفعل ما تشاء » ٠

ثم تنهد من جديد ، وأضاف :

ــ « حسنا ، أنا احسب ان امرأة واحدة لا تكفي الرجل دائما ، ولا بد أن يأتي يوم ٠٠٠ »

ولم يتم ، ولكن كانت تبدو على محياه سيما الرجل الذي يحسد رجـــلا اخر بالرغم منه ٠ ونظر وانغ لانغ وضحك في ما بينه وبين نفسه ، ذلك بأنـــه كان يعرف طبيعة ابنه البكر الشبقة أحسن المعرفة ، وان الزوجة المدينية لـــن تستطيع ان تكبح جماحَهُ الى الابد ، وان الغريزة لا بد أن تطلع رأسها ثانيـــة

في يوم من الايــام ٠

ولم ينطق الابن البكر بأيما كلمة اخرى ، ومضى لسبيله مثل رجـــل دخلت في رأسه فكرة جديدة ٠ وجلس وانغ لانغ ، ودخن غليونـــه ، وداخله الزهو لانه وفق ــ وهو الرجل الطاعن في السن ــ الى ان يفعل ما شاء ٠

أما الابن الاصغر فلم يفد على أبيه الا بعد هبوط الليـــل ، ولقد وفـد منفردا أيضا ٠ وفي تلك اللحظة كان وانغ لانغ جالسا يدخن في الحجرة الوسطى، والشموع الحمر مضاءة علـــى المائدة ، وكانت « زهرة الاجاص » جالسة تجاهه ، في صمت ، الى الجانب الاخر من المائدة ٠ وكانت يداها متشابكتين ساكنتين في حجرها ٠ وبين الفينة والفينة كانت تنظر الى وانغ لانغ في غيـر مواربة ولا غنج شأن الاطفال الصغار ٠ وراقبها وانغ لانغ ، وامتلأت نفسه اعتزازا بما قد فعل ٠

وفجأة لمح ابنه ماثلا بين يديه ، منبثقا من ظلمة الرواق ، من غير ان يراه احد يدخل ٠ ولكنه كان ماثلا بين يديه وقد تكوم على نفسه فـــي وضع غريب ٠ وعلى نحو غير ارادي أومضت في ذاكرة وانغ لانغ صورة نمر فتـــي كان قد رأى رجال القرية يسوقونه ، ذات يوم ، من الهضاب التي اصطادوه فيها ، وكان النمر موثقا ، ولكنه تكوم على نفسه متحفزا للوثوب ، والتمعت عيناه مثل عيني هذا الغلام المصوبتين الى وجه أبيه ٠ وقطب الابن الاصغر حاجبيه الفاحمين الشديدي الكثافة، بالنسبة الى حداثة سنه ، قطبهما ضاربين قاتمين فوق عينيه ٠ وظل واقفا ، على هذا النحو ، لحظات ، واخيرا قال في صوت خفيض مشحون بالانفعال :

ــ « الان سوف أمضي الى الحرب ٠٠٠ سوف أمضي الى الحرب ٠٠ »

ولكنه لم ينظر الى الفتاة ، لقد اكتفى بالنظر الى أبيه ليس غير ٠ فاذا وانغ لانغ الذي لم يخف البتة من ابنه البكر وابنه الثاني يستشعر الخوف ، فجأة ، من هذا الابن الذي لم يبال وانغ لانغ به ، منذ ان ابصر النور ، الا نـــادرا ٠

وتمتم وانغ لانغ وغمغم ٠ ولكي يقوى على الكلام نزع الغليون مـــن فمه ، ولكن أيما كلمة لم تخرج من فمه ٠ وحدق الى ابنه ٠ وكرر ابنه مـرة ومـــرة :

ــ « الان سوف أمضي ٠٠٠ الان سوف أمضي ٠٠٠ »

وفجأة استدار والقى على الفتاة نظرة واحدة فنظرت هي اليه منكمشة وأخذت يديها الاثنتين ووضعتهما على وجهها لكي لا يتمكن من رؤيتها ٠ عندئذ نزع الفتى عينيه عنها وغادر الغرفة بوثبة ٠ ونظر وانغ لانغ الى الظلمـــة

المستطيلة عند الباب ، المفتوح على الليل الصيفي الاسود ، ولكن الفتى كان قد ولى ، وكان الصمت مخيما ، في كل مكان ٠

واخيرا التفت الى الفتاة وقال في ضعة ولطف وفي حزن عارم ذهبت معه كبرياؤه كلها :

ـ « انا كبير عليك أكثر مما ينبغي ، يا فؤادي ، واني لاعرف ذلك جيدا ٠ أنا رجل عجوز ، عجوز ! »

ولكن الفتاة انزلت يديها عن وجهها وصاحت بنبرة منفعلة لم يسمعها تصيح بمثلها من قبل :

ـ « الشبان قساه جدا ٠٠٠ أنا أحب الشيوخ اكثر » !

وحين أشرق صباح اليوم التالي كان ابن وانغ لانغ الاصغر قد ذهب ٠ أما الى أين ذهب فذلك ما لم يعرفه أحد ٠

٣٤

وكما يتنفس الخريف بحرارة الصيف الكاذبة قبل أن يموت ليخلي مكانه للشتاء ، كذلك كان حال الحب الخاطف الذي استشعره وانغ لانغ نحو « زهرة الاجاص » ٠ لقد خمدت حرارته الموجزة ٠ كان مولعا بالفتاة ، ولكن في غير اتقاد ٠

وما ان انطفأت تلك الشعلة في ذات نفسه حتى استشعر ، فجأة ، انه مثلوج بالشيخوخة وانه شيخ كبير ٠ ومع ذلك ، فقد كان مولعا بها ، وكان وجودها في رواقه يوقع الحبور في نفسه ، ولقد خدمته هي باخلاص وفي جلد أكبر من سنها ٠ وكان وانغ يحاسنها * أقصى ما تكون المحاسنة ، ويوما بعد يوم تحول حبه لها ، اكثر فأكثر ، الى حب أب لابنته ٠

ومن أجله هو كانت تلاطف معتوهته البائسة وتحاسنها ، وكان في ذلك ما أدخل العزاء على قلبه ، حتى لقد أفضى اليها ذات يوم بالذي دار في خاطره منذ زمن بعيد ٠ ذلك بأن وانغ لانغ كان قد تساءل مرات عديدة ما الذي سيحل بمعتوهته المسكينة عند موته ، ولم يكن ثمة من يبالي ، بعده ، سواء أعاشت أم ماتت جوعا ٠ وهكذا كان قد اشترى من الصيدلية رزمة صغيرة تحتوي على مادة بيضاء سامة ، وكان قد قال لنفسه انه سوف يدسها

* حاسنه : لاطفه وعامله بالحسنى ٠

في طعام معتوهته الصغيرة حين يشعر بدنو أجله · ولكنه مع ذلك كان يخشى تلك اللحظة أكثر مما يخشى موته هو ، ولقد سري عن نفسه الان عندما رأى الى اخلاص « زهرة الاجاص » ووفائها ·

وهكذا دعاها ذات يوم وقال :

ــ « ليس ثمة غيرك من أستطيع أن أترك له معتوهتي المسكينة هــذه عندما تحين منيتي ، ولسوف تحيا من بعدي زمنا طويلا ، نظرا الى خلو ذهنها من الهموم القاتلة ، والمتاعب المهلكة · وأنا اعلم احسن العلم ان احدا لـن يبالي ، بعد موتي ، باطعامها او بادخالها الى البيت حين ينهمر المطر ويشتد برد الشتاء او ان يجلسها تحت شمس الصيف · ومن يدري ، فقد يطردونها من البيت لتهيم على وجهها في الشوارع ــ يطردون هذه المخلوقة البائسة التي نعمت طوال عمرها بعناية بالغة من أمها ومني · والان ، هو ذا باب نجاة لها في هذه الرزمة ، وحين أموت ، أعنــي بعد أن أموت ، عليك ان تدسي محتوياتها في أرز الطفلة المسكينة وتطعميها ذلك لكي تلحق بي الى حيث أكون· وهكذا انعم بالراحة والطمأنينة » ·

ولكن « زهرة الاجاص » أجفلت من الشيء الذي كان يحمله فـي يده وقالت على طريقتها الرقيقة :

ــ « أكاد لا أجرؤ على قتل حشرة ، فكيف تريدني ان أقضي على حياة كهذه الحياة ؟ لا ، يا سيدي ، ولكني سوف أعنى بأمرها كما تعنى الام بولدها لانك كنت بي حفيا ، حفيا أكثر من أيما أمرىء اخر في حياتي ــ بل لانك كنت وحدك الحفي بي المحسن الي من الناس جميعا » ·

واغرورقت عينا وانغ لانغ بالدمع لدن سماعه ما قالته ، لان أحدا لـم يكافئه على هذا النحو قط · وتعلق بها قلبه ، وقال :

ــ « ومع ذلك ، خذي هذه الرزمة ، يا طفلتي ، فليس ههنا من أثق بــه كما أثق بك · ولكن حتى أنت لا بد ان تموتي في يوم من الايام ــ على الرغـم من اني لا أستطيع أن أنطق بهذه الكلمة ــ ولن يكون هناك بعدك من يعنى بأمرها ــ لا ، لن يكون هناك أحد ــ وأنا أعلم علم اليقين ان زوجات ابنائــي في شغل شاغل بأولادهن ومنازعاتهن ، وان أبنائي رجال ولا يستطيعون التفكير في أمور كهذه » ·

حتى اذا أدركت « زهرة الاجاص » ما رمى اليه اخذت الرزمة منــه ولم تقل أيما كلمة اضافية · ووثق وانغ لانغ بها ، واطمأن الى مصير معتوهته المسكينـة ·

ثم ان وانغ لانغ انكمش على شيخوخته اكثر فاكثر ، وعاش وحده في

أروقته فهو لا يرى أحدا غير هاتين المخلوقتين : معتوهته البائسة و « زهرة الاجاص » · وفي بعض الاحيان كان يستيقظ قليلا ، وينظر الـــى « زهـــرة الاجاص » فيداخله الاضطراب ويقول :

ــ « انها حياة هادئة أكثر مما ينبغي بالنسبة اليك ، يا طفلتي » ·

ولكنها كانت تجيبه ، دائما ، في لطف وفي كثير من عرفان الجميل :

ــ « انها هادئة وآمنة » ·

وفي بعض الاحيان كان يعيد القول :

ــ « أنا اكبر سنا من أن أصلح لك · ولم يبق من ناري غير الرماد » ·

ولكنها كانت دائما تجيب في اقرار بالفضل كبير :

ــ « أنت تعاملني بالحسنى ، ولست أطمع من أيما انسان اخر في مزيد من ذلـــك » ·

وذات مرة أثار قولها ذاك فضول وانغ لانغ ، فسألها :

ــ « أي شيء في صباك الغض جعلك تخافين الرجال الى هذا الحد ؟ »

ونظر اليها مرتقبا جوابها ، فلمح في عينيها ذعرا عظيما · وحجبتهما بيديها وهمست :

ــ « أنا أكره جميع الرجال ، ما عداك أنت ــ لقد كرهت جميع الرجال، حتى ابي الذي باعني · ان اذني لم تسمع منهم غير الشر ، وانـــا اكرههـــم جميعـــا » ·

فقال مندهشا :

ــ « ولكنني كنت اعتقد انك كنت تعيشين في هدوء وطمأنينة في أروقتي ··»

فقالت مشيحة بوجهها :

ــ « أنا مفعمة بالكره ··· أنا مفعمة بالكره ، واني لابغضهم جميعا · أنا أبغض الشبان جميعا » ·

ورفضت ان تضيف الى ذلك شيئا · وانشأ وانغ لانغ يفكر في هـــذا الذي سمعه ، وتساءل ، أتكون لوتس قد اشبعت ذهنها بقصص حياتها هي ، وهددتها باكراهها على أن تحيا حياة مماثلة ؟ أتكون كوكو قد روعتها بفسوقها وفجورها ؟ هل ألمت بها ، في وقت ما ، مصيبة مجهولة تأبى أن تحدثه عنها ؟ أم مـــاذا ؟

ولكنه تنهد اخر الامر ، واقلع عن التساؤل · ذلك بأن الامن كان قصارى ما يطمع فيه الان ، ولم يكن ليطمع في اكثر من الجلوس في رواقة على مقربـــة من هاتين الاثنتين : معتوهته البائسة و « زهرة الاجاص » ·

*

على هذا النحو جلس وانغ لانغ ، وعلى هذا النحو أناخت عليه الشيخوخة يوما بعد يوم وسنة بعد سنة ٠ وأخذ ينام تحت أشعة الشمس نوما متقطعا كما قد فعل أبوه من قبل ، وقال في ما بينه وبين نفسه أن حياته قد انتهت ، وانه كان راضيا بها ٠

وفي بعض الاحيان ، ولكن نادرا ، كان يمضي الى الاروقة الاخيرة ، وفي بعض الاحيان أيضا ، ولكن على نحو أكثر ندرة ، كان يرى لوتس ، فلم تكن لتشير الى الجارية التي تزوجها منذ قريب ، ولكنها كانت ترحب به ترحيبا كبيرا ، وكانت هي الاخرى قد غدت عجوزا أيضا ،وكانت راضية قانعة بالطعام وبالخمر اللذين كانت تحبهما حبا جما ، وبالفضة التي كانت تفوز بها عند أول طلب٠ كانت هي وكوكو تجلسان الانمعا بعد هذه السنوات كلها جلسة الصديقة مع الصديقة لا جلسة السيدة والخادمة، وكانتا تتجاذبان اطراف حديثمتشعب، وتعرجان اكثر ما تعرجان على ايامهما الخالية التي قضتاها مع الرجال ٠ وكانتا تتهامسان بأشياء تتورعان عن الجهر بها ، وكانتا تأكلان وتشربان وتنامان، ثم تستيقظان من جديد على القيل والقال ، حتى قبل ان تمسا طعاما او شرابا ٠

وعندما كان وانغ لانغ يقصد ــ في حالات نادرة جدا ــ الى أروقة أولاده، كانوا يستقبلونه في كياسة ، ويهرعون الى تقديم الشاي اليه ٠ وكان هو يطلب ان يرى اخر طفل رأى النور تحت سقف ذلك البيت ، وكان يسأل غير مرة ، اذ كان ينسى في يسر وسهولة :

ــ « كم حفيدا أصبح لي الان ؟ »

ولقد أجابه أحدهم على التو :

ــ « أحد عشر ولدا وثماني بنات » ٠

فقال ضاحكا :

ــ « ليس علي الا أن أضيف اثنين كل عام لكي أعرف العدد ، أليس كذلك ؟ »

ثم انه كان يقعد فترة قصيرة ، ويرى الى الاولاد يتحلقون حوله لكي يحدقوا اليه ٠ كان حفدته قد أمسوا غلمانا فارعي الطول ، وكان ينظر اليهم ، محدقا ، ليتبين صورتهم ، ويتمتم في ما بينه وبين نفسه :

ــ « ان هذا ليشبه جده ، وهوذا « ليو » التاجر في طفولته وها انا ذا يوم كنت غلاما صغيرا » ٠

ــ « هل تذهبون الى المدرسة ؟ »

فيجيبون في صوت واحد :

ـ « نعم ، يا جدي » ٠
فيسألهم من جديد :
ـ « وهل تدرسون الكتب الاربعة ؟ »
عندئذ كانوا يطلقون ضحكة طفلية ساخرين على نحو مكشوف من هذا الرجل الطاعن في السن الى هذا الحد ، ويقولون :
ـ « لا ، أيها الجد ، وان احدا لم يعد يدرس « الكتب الاربعة » منذ الثورة » ، فيجيبهم ، مستغرقا في التفكير :
ـ « آه ، لقد سمعت بثورة ، ولكني كنت دائما مشغولا عنها باعمالي المتلاحقة ٠ كانت الارض لا تترك لي متسعا من الوقت للاهتمام بأي شيء » ٠
ولكن الغلمان كانوا يكتمون ضحكتهم لدن سماعهم هذا الكلام ٠ وكان وانغ لانغ ينهض ، اخر الامر ، مستشعرا على أية حال انه ليس الا ضيفا في أروقة أولاده ٠
وما هي الا فترة حتى كف عن الذهاب لرؤية اولاده ، ولكنه كان يسأل كوكو في بعض الاحيان :
ـ « وهل تهادنت كنتاي الاثنتان ، بعد هذه السنين كلها » ؟
وبصقت كوكو على الارض ، وقالت :
ـ « كنتاك الاثنتان ؟ انهما متهادنتان مثل هرتين ترمق احداهما الاخرى ٠ ولكن الابن البكر أمسى يضيق ذرعا بشكاوى زوجته من هذه المسألة او تلك ، وهي تتحدث دائما عما كانوا يفعلونه في بيت أبيها ، وهو شيء يضجر الرجل ٠ وهناك اشاعة تقول بانه سوف يتزوج امرأة اخرى ٠ انه يقصد في كثير من الاحيان الى صالات الشاي » ٠
فقال وانغ لانغ :
ـ « آه ؟ »
ولكنه ما ان فكر في ذلك حتى خمد اهتمامه بالمسألة ٠ ومن غير أن يدري شرع يفكر في شايه ، وفي أن نسيم الربيع الغض يهب باردا على كتفيه ٠
وفي مناسبة أخرى قال لكوكو :
ـ « هل كتب ابني الاصغر ذاك الى أحد يعلمه أين كان خلال هذه المدة كلها ؟ »
فأجابته كوكو ، ذلك بأنه لم يكن ليخفى عليها شيء في هذه الاروقة :
ـ « انه لا يكتب رسائل البتة ٠ ولكن بعضهم يرجع من الجنوب ، بين الفينة والفينة ، ويقال انه ضابط عسكري وذو مكانة مرموقة في شيء يدعونه هناك ثورة ، ولكني لا ادري ما هو على وجه الضبط ـ ولعله تجارة من

ضرب مـا » ٠

فقال وانغ لانغ من جديد :

ــ « آه ؟ »

وحاول ان يفكر في ذلك ، ولكن الليل كان قد هبط ، ولقد أورثه الهواء الذي أمسى رطبا باردا بعد غياب الشمس آلاما في عظامه ٠ وتاه ذهنه الان كيف شاء ، ولم يعد في استطاعته ان يركزه على شيء واحد ٠ وأمست حاجة جسده الهرم الى الطعام والى الشاي الساخن أشد منها الى أيما شيء اخر ٠ أما في الليل ، حين يلم به البرد ، فكانت « زهرة الاجاص » تستلقي دافئــة فتية الى جانبه ، فيتعزى في شيخوخته بدفئها ذاك في فراشه ٠

وهكذا تصرم الربيع مرة ومرة ، وبكرور الاعوام امسى يستشعر اطلانه على نحو كان يزداد كل عام غموضا ٠ ومع ذلك فقد بقي له شيء واحد ،وذلك هو حبه لارضه ٠ كان قد نأى عنها ، كان قد اتخذ بيتا جديدا في احدى المدن، وكان ثريا ٠ ولكن جذوره كانت في ارضه ، وعلى الرغم من انه كان ينساها طوال اشهر متوالية فقد كان يستشعر كلما اقبل الربيع حاجة ملحة الــى الذهاب الى ارضه ٠ ومع انه لم يعد الآن قادرا على تسيير المحراث او القيام باي عمل آخر يشق الارض بالمحراث فقد كان يستشعر الحاجة الى الذهــاب، ولقد كان يدهب فعلا ٠ وفي بعض الاحيان كان يصطحب خادما وفراشــا وينام من جديد في البيت الطيني القديم وفي السرير القديم الذي انجب فيه اولاده ، والذي ماتت عليه او ــ لان ٠ حتى اذا استيقظ مع الضحى مضى الى الارض وبسط يديه الراعشتين فاقتلع غصنا مبرعما من الصفصاف وفرعا مزهــرا من الدراق وحملهما بيده طوال النهار ٠

وذات يوم من اواخر الربيع ، وكان الصيف على وشك ان يفد ، مضى على هذا النحو الى حقوله واجتاز منها مسافة ما لينتهي آخر الامر الــى قطعة الارض المسيجة القائمة على هضبة منخفضة حيث كان قد دفن امواته ٠ وهناك وقف مرتعد الاوصال متكئا على عصاه ، ونظر الى القبور وتذكرهم جميعا ٠ كانوا الآن اوضح في ذهنه من الاولاد الذين كانوا يحيون في بيتــه نفسه ، اوضح في ذهنه من الناس جميعا ما خلا معتوهته المسكينة وما خــلا « زهرة الاجاص » ٠ وارتد فكره بضع سنوات الى الوراء ، ورأى كل شيء في وضوح ، حتىّ ابنته الثانية الصغيرة التي لم يسمع عنها شيئا منذ عهد ممعن في البعد ، رآها فتاة وسيمة كما قد كانت في بيته ، رقيقة الشفتين حمراءهما مثل قصاصة من حرير ــ وكانت عنده أشبه ما تكون بهؤلاء الذين يرقدون ههنا في جوف الارض ٠ ثم انه استغرق في التفكير وقال لنفسه فجأة :

ـ « حسنا ، ولسوف يجيء دوري عما قريب · »

عندئذ دخل قطعة الارض المسيجة ، واجال الطرف فيها في انعام ، ورأى الموضع الذي سيرقد فيه : تحت ابيه وعمه ، وفوق تشينغ ، وغير بعيد عن او ـلان · وحدق الى رقعة الارض التي سيستريح فيها ، ورأى نفسه في باطنها وقد عاد الى أرضه الى الابد · وتمتم :

ـ « يجب أن أشتري التابوت · »

وأبقى هذه الفكرة في ذهنه ، بكثير من الجهد الموجع وانقلب الى المدينة ، واستدعى ابنه البكر وقال :

ـ « لدي شيء يتعين علي أن أقوله · »

فأجابه أبنه :

ـ « تكلم اذن · أنا هنا · »

ولكن ما ان حاول وانغ لانغ ان يتكلم حتى عجز فجأة عن تذكر ما كان يريد أن يقوله ، واغرورقت عيناه بالدمع لانه كان قد سعى الى الاحتفاظ بالفكرة في ذهنه سعيا موجعا ومع ذلك فقد افلتت منه الان · وهكذا دعا « زهرة الاجاص » وقال لها :

ـ « ما الذي كنت أريد أن أقوله ، يا طفلتي ؟ »

فأجابته « زهرة الاجاص » في لطف :

ـ « أين كنت اليوم ؟ »

فأجابها وانغ لانغ ، منتظرا ، وعيناه مثبتتان على وجهها :

ـ « كنت في أرضي · »

فسألته كرة أخرى في لطف :

ـ « في اية قطعة من أرضك ؟ »

عندئذ أومضت الفكرة في رأسه كرة اخرى ، على نحو مفاجيء ، وهتف ضاحكا من خلال عينيه النديتين :

ـ « آه ، لقد تذكرت · يا بني ، لقد اخترت موضعي من الارض ، وانه ليقع تحت أبي وأخيه وفوق أمك والى جانب تشينغ ، وأنا أحب أن أرى تابوتي قبل أن أموت · »

عندئذ صاح ابن وانغ لانغ البكر ، وفقا لما يقضي به العرف والتقليد :

ـ « لا تنطق بهذه الكلمة ، يا أبت ، ولكني سوف أحقق لك رغبتك · »

ثم ان ابنه اشترى تابوتا منقوشا صنع من جذع ضخم من الخشب الارج الذي تصنع منه النعوش ليس غير لانه خشب يتميز بديمومة كديمومة الحديد ، ولان ديمومته اعظم من ديمومة العظام البشرية · وهكذا اطمأنت

نفس وانغ لانغ ٠
وأمر فأدخل التابوت الى حجرته ، فكان ينظر اليه كل يوم :
ثم انه بدا له ، فجأة ، شيء ما ، فقال :
ـ « اسمعوا ! أريد أن تنقلوه الى البيت الطيني ، ولسوف أقضي هناك أيامي القليلة الباقية ، وهناك سوف أموت ٠ »
وحين لمسوا صدق عزيمته على ذلك نزلوا عند رغبته ، فانقلب الى البيت القائم على أرضه ، مصطحبا « زهرة الاجاص » ، والمعتوهة ، وكل من احتاجوا اليهم من الخدم ٠ وأقام وانغ لانغ ، كرة اخرى ، في أرضه هو، وترك بيته المديني للاسرة التي كان قد انشأها ٠
وانقضى الربيع ، وانقضى الصيف ، وحان موسم الحصاد ٠ وتحت شمس الخريف الحارة ، قبل أن يفد الشتاء ، جلس وانغ لانغ حيث جلس أبوه مستندا الى الجدار ٠ ولم يعد يفكر في أيما شيء غير طعامه وشرابه وأرضه٠ ولكنه ، اذ كان يفكر في أرضه ، أمسى لا يفكر بالغلة التي ستطلعها أو بالبذار التي ينبغي نثرها أو بأي شيء اخر ٠ أمسى لا يفكر الا بالارض نفسها ، وكان ينحني في بعض الاحيان لكي يأخذ بيده حفنة من تراب ، وكان يجلس على هذا النحو يتأمل حباتها ، ولقد بدت نابضة بالحياة بين أصابعه ٠ وغمرته السعادة وهو ممسك بها على تلك الشاكلة ، وفكر فيها وفي تابوته الجميل الماثل هناك تفكيرا متقطعا ٠ وفي غير ما تعجل ، انتظرت الارض الكريمة عودته الى ثراها ٠
وكان أولاده بررة به ، فكانوا يفدون لزيارته كل يوم ، أو مرة كل يومين على الاكثر ، وكانوا يبعثون اليه بأطعمة رقيقة تلائم سنه العالية ، ولكن احب ما كان يحبه الدقيق المذاب في ماء حار ، ولقد كان يحتسي هذا الشراب فعل أبيه من قبل ٠
وأحيانا كان يتشكى بعض الشيء ، اذا لم يزره أولاده كل يوم ، ولقد قال لـ « زهرة الاجاص » التي كانت أبدا على مقربة منه :
ـ « ولكن ، ما الذي يشغلهم الى هذا الحد ؟ »
فاذا أجابته « زهرة الاجاص » قائلة : « انهم في ربيع العمر ، وان قضايا كثيرة لتشغلهم في الوقت الحاضر ٠ لقد اسندت الى ابنك البكر ، في المدينة ، وظيفة مرموقة بين الاغنياء من الرجال ولقد ضم الى أروقته زوجة جديدة ٠ وابنك الثاني على وشك ان ينشىء لنفسه سوقا كبيرة من أسواق الحبوب ٠ » اذا اجابته بمثل هذا الجواب أصغى اليها ولكنه كان اعجز من أن يفهم هذا كله ، وكان ينساه حالما يسرح طرفه في أرضه ٠

ولكنه رأى ذات يوم على نحو واضح ، فترة قصيرة من الزمان وكان ذلك في يوم وفد فيه ابناه الاثنان لزيارته ، حتى اذا سلما عليه في كياسة غادرا المنزل وراحا يتمشيان في اتجاه الحقول · وتبعهما وانغ لانغ في صمت ، ووقفا ، فتقدم هو نحوهما في أناة ، ولم يسمعا لا وقع قدميه ولا وقع عصاه على الارض اللينة ، وسمع وانغ لانغ ابنه الثاني يقول في صوته المتأنق :

ـ « هذا الحقل سوف نبيعه ، وذاك أيضا ، ولسوف نقسم المال بيننا بالتساوي · وحصتك سوف أقترضها بفائدة حسنة ، ذلك بأنه بعد أن مدت السكة الحديدية الى البحر مباشرة أصبح في امكاني أن أصدر الارز على متون السفن وأن ··· »

ولكن الرجل العجوز لم يسمع الا هذه الكلمات ، « سوف نبيع الارض »، فصاح في صوت متصدع مرتعش بالغضب برغم ما بذله من جهد لارساله قويا ثبتا :

ـ « ماذا تقولان ، أيها الولدان الشريران المتعطلان ؟ ··· تبيعان الارض ؟ »

وغص ، وكاد يسقط على الارض ، فأمسكا به وثبتا قدميه ، وانشأ يبكي وينشج ·

عندئذ حاولا تهدئته ، قائلين :

ـ « لا ··· لا ··· لن نبيع الارض ابد الدهر ! »

فقال بقلب كسير :

ـ « حين يأخذ الاولاد في بيع الارض فعندئذ تكون نهاية الاسرة · نحن من الارض جئنا واليها يجب أن نعود ··· انكم اذا ما تشبثتم بأرضكم ضمنتم حياتكم ··· ان احدا لا يستطيع أن يسلبكم الارض ··· »

وترك الرجل العجوز دموعه المتناثرة تجف على خديه ، فأحدثت هناك رقعا مالحة · وانحنى ، وتناول حفنة من تراب ضغط عليها أصابعه وتمتم :

ـ « اذا بعتما الارض كان ذلك نهاية كل شيء · »

وأسنده ولداه ، كل من ناحية ، وأمسكا بذراعيه ، وأحكم هو اطباق اصابعه على حفنة التراب الدافئة السريعة التفتت · وهدآه وسريا عنه قائلين مرة ومرة ، الابن البكر والابن الثاني ·

ـ « اطمئن ، يا أبانا ، اطمئن ! ان الارض لن تباع · »

ولكنهما تبادلا النظرات ، من فوق رأس الرجل العجوز ، وابتسما ·

فلذة من الفن الكوني ..

- تعتبر « الارض الطيبة » أثراً « كلاسيكياً حديثاً » . لقد فازت بجائزة نوبل ، ونقلت الى جميع لغات الأرض ، وبيع منها ملايين النسخ ، وهذه أول ترجمة عربية كاملة لها .

- عاشت مؤلفة القصة — وهي أميركية — في الصين فترة طويلة من حياتها ، حتى صارت تتكلم وتكتب بل وتحلم باللغة الصينية وتعتبر الصين وطناً لها . وهذا ما أتاح لها ان تكتب هذه الرواية الخالدة بروح من المحبة والفهم للشعب الصيني .

- لقد وصف بعض النقاد « الارض الطيبة » بقولهم انها ملحمة ... وقد يكون هذا صحيحاً وقد لا يكون ، ولكن الأمر الراهن أنها قصة حياة أسرة عجيبة مردفة باهتمام مُحبّ لتفاصيل تجربتها اليومية وعناية عرَضية بالعادات والأعراف التي تُسِم مجتمعاً كاملاً . ليس هذا فحسب ، بل ان ههنا ، في هذه الرواية ، شيئاً عن كل أسرة في كل مجتمع . انها قصة كونية مَرْوية بموسيقى اسلوب آسر ، وذلك ما يجعل منها فلذة من الفن الكوني أيضاً ...

الثمن ٥٠٠ ق. ل. أو ما يعادلها